قام الطالب / عبدالله بن حسين الشنبري الشريف باجراء التصحيحات المطلوبة

د. عبدالله سعيد الغامدي
١٤١٠/٩/٥ هـ

أ.د. أحمد السيد دراج
المشرف
١٤١٠/٩/٥

١٤١٠/٩/٥ هـ

توقيع الطالب
١٤١٠/٩/١٤ هـ

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية

الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك

(١٠١-١٠٥هـ)

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير
في التاريخ الإسلامي

إعداد الطالب
عبدالله بن حسين الشنبري الشريف

إشراف
الأستاذ الدكتور / أحمد السيد دراج

الجزء الأول

١٤١٠ هـ



بسم الله الرحمن الرحيم
عليه نتوكل وبه نستعين
بيهقي ١٤١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الرسالة

الدولة الاموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك

تبرز أهمية الموضوع - على الرغم من قصر خلافة يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ) - في أنه لم يسبق دراسته من قبل ، وفي مجيء عهده بعد عهد عمر بن عبد العزيز الذي يعتبر عهده درة في جبين الدولة الاموية ، ولاعتبار بعض الباحثين أن عهد يزيد يمثل فترة حاسمة في تاريخ الدولة الاموية ، وانه كان بداية النهاية لها .

وقد اقتضت طبيعة البحث تقسيمه الى ستة فصول ومقدمة وتمهيد .

في المقدمة بينت أهمية الموضوع وخطته ، وفي التمهيد عرضت في ايجاز لأحوال الدولة الاموية مطلع القرن الثاني الهجري ، اما الفصل الاول فقد خصص لدراسة سيرة الخليفة يزيد ، والفصل الثاني لدراسة الحركات الداخلية في عهده ، وفي الفصل الثالث درست مرسومه المتعلق بأهل الذمة والقاضي بتكسير الأصنام والتماثيل والصلبان وازالة الصور وهدم الكنائس المستحدثة ، وعولج في الفصل الرابع الفتوحات في عهده ، وكان موضوع الفصل الخامس سياسته الادارية والمالية في ضوء السياسة الادارية والمالية لسلفه عمر بن عبد العزيز ، ودرست في الفصل السادس مسيرة الحياة العلمية في عهده .

وفي الخاتمة ابرزت أهم النتائج وتتلخص فيما يلي :

(١) أن سيرة الخليفة يزيد بن عبد الملك لم تكن على تلك الهيئة السيئة التي صورت بها في كثير من المصادر ، وأن سيرته الذاتية لم يكن لها أثر سلبي ملموس في تصريفه لشئون الحكم .

(٢) نجاحه في القضاء على الحركات الداخلية التي شهد عهده الكثير منها .

(٣) استمرار الفتوحات في عهده ، حيث واصل الجهاد في أرض الروم وبلاد الغال ، كما افلح في التصدي للأعداء وحماية حدوده في بلاد ماوراء النهر وارمينية .

(٤) تجاوز اهمية مرسومه الخاص بأهل الذمة حدود دولته ، عندما تأثر به الامبراطور البيزنطي ليو الايسوري ، فانتهج نفس السياسة في الدولة البيزنطية ، والتي أدت الى قيام الحركة اللاأيقونية (حركة تحريم عبادة الصور) .

(٥) اتضاح أن يزيد لم ينكث كل اصلاحات عمر بن عبد العزيز ، وانما خالفه في بعض الاجراءات المالية والادارية ، وأن عهده شهد الكثير من المنجزات والاصلاحات والتنظيمات .

(٦) تطور وتنامي الحياة العلمية في عهده ، وبخاصة العلوم الدينية ، وكذلك الأدب ، والكتابة التاريخية ، فكان عهده استمرارا لعصر القوة من عصر الدولة الاموية .

الطالب	المشرف	عميد كلية الشريعة
عبدالله بن حسين الشنبري الشريف	د. احمد السيد دراج	د. سليمان بن وائل التويجري

شکر و عرفان

شكـــر وعرفـان

حمدا لك اللهم على نعمائك وشكرا ، نحمدك ان جعلتنا لآدم فكرمتنا وفضلتنا وهديتنا للاسلام ، وجعلتنا من امة محمد عليه الصلاة والسلام ، خير امة اخرجت للناس .

ولك الثناء ان جعلتني من طلاب العلم ، فوفقت واعنت ويسرت ، فلك الحمد كما اثنيت على نفسك .

واتباعا لسنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى قال : "لم يشكر الله من لم يشكر الناس"(١) ، فاني اشكر كل صانع معروف ، واعترف بجميل اولى الفضل ، وادعوك ربى ان تثيب كل من كان سببا فيما اسبغته علينا من النعم .

واخص بالشكر والعرفان استاذى الدكتور احمد السيد دراج ، الذى كان له بعد الله ، الفضل فى اخراج هذا البحث بالصورة التى ظهر بها ، والذى مافتىء يعلمنى مناهج البحث العلمى الجاد ، مانحا اياى علمه وتوجيهه وجهده ، محيطنى برعايته واهتمامه .

فما انفكيت آخذ عنه ، واستنير بآرائه ، فوجدت عطاء ثرا ، ومعينا لاينضب ، جزاه الله عنا خير الجزاء .

واخيرا دعوة صادقة لوالدى – رحمه الله – الذى اخذ بيدى فى بداية حياتى الدراسية ، وحثنى على طلب العلم ، وسلوك طريقه ، اسكنه الله فسيح جناته ، وجعل ذلك فى موازين اعماله . والحمد لله رب العالمين .

---

(١) روى الحديث ابو هريرة رضى الله عنه ، انظر/مسند الامام احمد ، ٢٤٦/٣ – سنن ابى داود مع شرح عون المعبود ، ١٦٥/١٣ – جامع الترمذى بشرح تحفة الاحوذى ، ٨٧/٦ .

المقدّمة

المقدمة

الحمدُ للّه الذى علّم بالقلمِ ، علّم الإنسانَ مالم يعلمْ ، والصلاةُ والسلامُ على مَنْ بُعِثَ فينا ليُعلّمَنا الكتابَ والحكمةَ ، نبينا محمدٍ ، وعلى آله وصحبِه اجمعين ، ومَنْ سار على نهجِهم واتّبع هداهم إلى يومِ الدين .

أما بعدُ ، فهذا موضوعُ رسالةِ ماجستير فى التاريخِ الإسلاميّ ، بعنوان (الدولةُ الاموية فى عهدِ الخليفةِ يزيدَ بنِ عبدِ الملك "١٠١ - ١٠٥هـ") .

ومن المعلومِ انّ اختيارَ الموضوعاتِ العلميةِ الجامعيةِ يقومُ على اسسٍ ياتى فى مقدمتِها ، اهميةُ الموضوعِ وجدتُه .

والحقُ انّ عهدَ الخليفةِ يزيدَ بنِ عبدِ الملكِ ، له اهميتُه البالغةُ ، فهو جزءٌ مِنَ العصرِ الاموىّ ، الذى هو فى امسِّ الحاجةِ إلى دراساتٍ علميةٍ جديدةٍ ، تقومُ على اسسِ البحثِ العلمىّ وتطبقُ مناهجَه ، لالإعطاءِ صورةٍ ناصعةٍ ، لايشوبُها الكدرُ لتاريخِ ذلك العصرِ ، وإنما لتقديمِ صورةٍ واضحةٍ ، هى اقربُ ماتكون إلى الصحةِ والحقيقةِ ، وإنْ شابها شئٌ من الكدرِ ، فالتاريخُ البشريُّ ، هو تاريخٌ لحياةِ اممٍ وافرادٍ ، فيهم الخيرُ والشرُ ، والصوابُ والخطأُ ، وهو رصدٌ لحضاراتٍ تزدهرُ وتضمحلُ ، ولها جوانبُ مشرقةٌ كما لها جوانبُ اخرى مظلمةٌ .

وإنّ مما يؤكدُ اهميةَ دراسةِ تاريخِ العصرِ الاموىّ ، هو معرفتَنا بانّ ماوصلَ إلينا من تاريخِه ، لم يُكتَبْ إلا فى العصرِ العباسىّ ، وهذا ماادى إلى تشويهِ بعضِ الحقائقِ ، من إخفاءٍ لبعضِ محامدِه ، وتقليلٍ من شانِ منجزاتِه ، وإبرازٍ وتفخيمٍ

لسلبياته ، وهذا لايعنى عدمَ وجودِ مؤرخينَ ، كانوا بمنأىً عن الهوى فى كتاباتهم عن تاريخ بنى أمية ، فهناك من التزمَ الحقَ فيما دَوَّنَ ، ومنهم مَنْ جمعَ وقَيَّدَ مابلغَ عِلمَه عن تاريخِ ذلك العصرِ ، حسنِه وسيئه ، غثِّه وسمينِه . وهذا مستَندُ قولنا فى حاجةِ تأريخِ ذلك العصرِ ، بل والعصورِ الإسلاميةِ الأولى جميعِها ، إلى دراساتٍ علميةٍ جديدةٍ ، ولعلَّ الدراساتِ الجامعيةَ تقومُ بهذا الدورِ ، وهى بلاشك أقدرُ الدراساتِ على ذلك ، إذا ماتوختِ الحقَّ ، وتجنَّبتِ الهوى ، ووَعَتْ المسئوليةَ وأدركتِ الهدفَ . بل إنها ستكونُ خطوةً فى طريقِ إعادةِ كتابةِ التاريخِ الإسلاميِّ ، الذى لايعنى بحالٍ من الأحوالِ ، نكثَ التاريخِ القديمِ ، واختلاقِ تاريخٍ جديدٍ ، أو تصفيته من كلِّ شائبةٍ ، بل تصحيحَ ذلك التاريخِ بدراساتٍ جديدةٍ ، تقومُ على أسسٍ ومناهجَ علميةٍ ، غايتُها الحقيقةُ ، ولاغيرَ الحقيقةِ . فيكفى أمةَ الإسلامِ أنْ تجلوَ حقائقَ تاريخِها المجيدِ ، ففى حقائقِه من السموِّ والمجدِ والرفعةِ ، مافيه فخرُها وعزُّها ، كيف لا ، وهو تاريخُ أمةٍ تشريعُها وجوهرُ حضارتِها ، دينُ الإسلامِ ورائدُ تاريخِها رسولُ السلامِ ، صلى الله عليه وسلم .

أما الأهميةُ الثانيةُ لعهدِ الخليفةِ يزيدَ بنِ عبدِ الملكِ فتأتى مِنْ كونِه جاءَ بعدَ عهدِ الخليفةِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ (٩٩ – ١٠١هـ) ، الذى قامَ بدورٍ مميَّزٍ فى إصلاحِ أحوالِ الدولةِ الأمويةِ من جميعِ الجوانبِ ، والعودةِ بالخلافةِ إلى سيرةِ الخلفاءِ الراشدينَ – وسنبيِّنُ أهمَ إصلاحاتِه ومعالمَ سياستِه فى التمهيدِ – وتكمنُ هذه الأهميةُ فى قولِ عددٍ مِنَ المؤرخينَ ، بأنَّ يزيدَ بنَ عبدِ الملكِ ، نكثَ إصلاحاتِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ، وعَمَدَ

إلى كلِّ ما صنعَه عمرُ مما لم يوافقْ هواه فردَّه .

وتتضحُ أهميةُ هذا الجانبِ أيضًا ، فيما قيلَ عن شخصيةِ الخليفةِ يزيدَ ، وطعْنِ بعضِ المؤرخينَ عليهِ في دينِه ، واتهامِه بالفسقِ والفجورِ ، والقولِ بحبِه اللهوَ والملذاتِ ، من شربٍ ، ونساءٍ ، وغناءٍ ، وانصرافِه عن القيامِ بمسئولياتِ الحكمِ إلى ذلك ، مما أدى إلى ضياعِ أثرِ جهودِ الخليفةِ عمرَ ، وفسادِ أحوالِ الدولةِ .

كما أنَّ مجيئَه بعدَ عمرَ ، مع ما بين شخصيتَيّ الرجلينِ من تفاوتٍ واختلافْ ، واستحواذِ عمرَ وعصرِه على اهتمامِ المؤرخينَ ، لما تَمَّ فيه من خيرٍ وإصلاحٍ ، وعودةٍ إلى سيرةِ الراشدينَ ، وتطبيقِ شرعِ ربِّ العالمينَ ، الذي إليه تطمئنُ النفوسُ ، لقيامِ الحقِّ والعدلِ به وعليه ، جعلَ عهدَ يزيدَ يتوارى في ظلالِ عمرَ وعهدِه .

وتلك المقولاتُ على ما فيها من باطلٍ ومبالغةٍ ، فإنَّ فيها بعضَ الحقِّ وليس الحقُّ كلُّه - وهذا سيتضحُ من خلالِ دراستِنا لسيرةِ يزيدَ ، ومناقشتِنا الجديةِ لسياساتِه ومنجزاتِ وأحداثِ عهدِه من جميعِ الجوانبِ - ومعَ ذلك فقد اتَّخذَها بعضُ المؤرخينَ مرتكزًا للقولِ بأنَّ عهدَ يزيدَ ، يعتبرُ من أدقِّ مراحلِ العصرِ الأمويِّ ، لأنه يمثلُ بدايةَ النهايةِ للدولةِ الأمويةِ ، ولأن عواملَ الضعفِ والانهيارِ أخذتْ تنسجُ خيوطَها حولَ جسمِ الدولةِ ، على يدِ هذا الخليفةِ .

ومن هنا جاءَ دورُنا في تحقيقِ مدى صحةِ هذه الأقوالِ ، وتسليطِ الأضواءِ على تلك الفترةِ من عصرِ بني أميةَ وذلك من خلالِ دراسةِ عهدِ يزيدَ وسيرتِه ، عرضًا وتحليلاً ، مناقشةً

ومقارنةً ، استنباطًا واستنتاجًا ، وهو عملٌ همُّنا الاولُ فيه معرفةُ احوالِ الدولةِ الاموية في عهدِ هذا الخليفةِ . اما سيرتُه ، وإنْ عرضْنا لها في شيءٍ من الإيجازِ فإنَّ الذى يهمُّنا من دراستِها في المقامِ الاولِ ، هو مدى اثرِها على الدولةِ ، وسياساتِ حاكميها ، وجلاءِ بعضِ الحقائقِ حولَها .

ولن نستعجلَ القولَ بما توصلْنا إليه من هذه الدراسةِ ، فبيانُه في ثناياها ، ومجملُه في نتائجِها ، لكن من المستحب انْ نشيرَ إلى انَّ يزيدَ لم يكنْ بتلك الصورةِ السيئةِ التي رسمَها له بعضُ المؤرخينَ ، من القدماءِ والمحدثينَ ، وانَّ في عهدِه من المنجزاتِ والاحداثِ ، ماهو جديرٌ بالدراسةِ ، وحقيقٌ بالبحثِ . وانَّ الدراسةَ الجديةَ لعهدِه وسيرتِه ، وإنْ كشفَتْ عن حقيقةِ جانبٍ مما ذُكرَ حولَه ، فإنَّ ذلك لم يؤثرْ بشكلٍ ملموسٍ على الدولةِ في عهدِه ، بل إنَّ الدولةَ في عهدِه استمرَّتْ في مسيرتِها وحققتْ عددا كبيرا من الإنجازاتِ ، وعاشتْ في وحدةٍ ونموٍ ، ونجحَ الخليفةُ يزيدُ إبّانَ عهدِه في درءِ الاخطارِ الداخليةِ والخارجيةِ ، وحفظَ حدودَها ، وصانَ بيضتَها ، وحمى دينَها واهلَها .

إنَّ دورَ الباحثِ ومبعثِ فخرِه كما يقولُ استاذى الجليلُ الدكتورُ احمدُ السيد دراج ، ليس في التعرفِ لعصورِ الازدهارِ ، وشخصياتِ المشاهيرِ من رجالِ التاريخِ ، بل يكونُ في بحثِ مايكونُ احوجَ إلى الدراسةِ من الموضوعاتِ البكرِ ، والفتراتِ المهملةِ ، والشخصياتِ المغمورةِ ، إذا ماكانت تمثلُ مراحلَ دقيقةً ، وتجلو حقائقَ مبهمةً ، وتصحح بعضَ المفاهيمِ التاريخيةِ .

والحقُ أنَّ العناءَ والجهدَ فى مثلِ هذه الموضوعاتِ اشدُ واعظمُ ، والمصاعبُ اكثرُ واكبرُ ، لما يواجه الباحثَ من ندرةِ المعلوماتِ ، واضطرابِ الاقوالِ ، وغموضِ الحقائقِ ، وقلةِ الدراساتِ المساعدةِ والموجهةِ .

إنَّ عهدَ الخليفةَ يزيدَ بنِ عبدِ الملكِ ، يمثلُ هذه النوعيةَ مِنَ الدراساتِ ، وتنطبقُ عليه دواعى البحثِ التى اشرنا إليها آنفا ، كما انَّ هناك سببًا اخيرًا اسهمَ فى اختيارِ هذا الموضوعِ ، وهو انَّ هذا العهدِ لم يُدرَسْ من قبلُ فى دراسةٍ علميةٍ جامعيةٍ ، ولاكتابٍ علميٍّ مستقلٍ ، حَسَبَ ماوصَلَ إلى علمِنا فقد تَقَصيتُ مااستطعتُ الرسائلَ الجامعيةَ التى تناولتِ العصرَ الامويَّ ، فوجدتُ انَّها قد تعرضَتْ لجلِّ الخلفاءِ الامويينَ وعهودِهم بل إنَّ بعضَهم كُتبَ فيه اكثرُ من رسالةٍ وكتابٍ علميٍّ ، كمعاويةَ رضى الله عنه ، وعبدِ الملكِ بنِ مروانَ ، وعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ وغيرِهم . وتَبيَّنَ لى من خلالِ هذا الاستقصاءِ ، عدمُ وجودِ ايِّ دراسةٍ جامعيةٍ عن عهدِ يزيدَ او شخصِه . كما حاولتُ معرفةَ إذا ماكان قد أُلِّفَ حولَه كتابٌ علميٌّ غيرُ جامعيٍّ ، يخدمُ الموضوعَ ويغنى البحثَ ، فتعقبتُ قوائمَ المراجعِ الملحقةِ بكتبِ التاريخِ الإسلاميِّ ، وبالاخصِ مايتصلُ بالعصرِ الامويِّ ، وبحثتُ فى فهارسَ مكتباتِ جامعةِ امِّ القرى ، وجامعةِ الملكِ عبدِ العزيزِ ، ومعظمَ الجامعاتِ العربيةِ ، وسالتُ اهلَ العلمِ وطلابِه المتخصصينَ فى التاريخِ الاسلاميِّ ، فاتَّضحَ لى انَّه لم يُؤلفْ ايُّ رسالةٍ جامعيةٍ او كتابٌ علميٌّ ، عن يزيدَ بنِ عبدِ الملكِ ، او عهدِه .

وعلى اساسِ اهميةِ هذا العهدِ ، ودواعى البحثِ فى هذه الفترةِ ، جاءَ اختيارُنا دراسةِ الدولةِ الامويةِ فى عهدِ يزيدَ

ابنِ عبدِ الملكِ ، موضوعا لهذه الرسالةِ .

وقد قامَ بناؤها ، واستقرت خطتُها ، بعدَ الدراسةِ وجمعِ المعلوماتِ ، والتصورِ الأصوبِ والأصلحِ ، وَفْقَ التبويبِ التالي :
هذه المقدمةُ ، وعرضٌ لأهمِ المصادرِ والمراجعِ ، وتمهيدٌ ،وستةُ فصولٍ ، وخاتمةٌ .

وقد حَوَتِ المقدمةُ تبيانَ أهميةِ موضوعِ الرسالةِ ، ودواعيَ اختيارِه ، ثم دراسةً نقديةً لأهمِ المصادرِ والمراجعِ .

أما التمهيدُ فهو تحت عنوان: عرضٌ موجزٌ لحالةِ الدولةِ الأمويةِ مطلعَ القرنِ الثاني الهجريِّ ، بيّنّا فيه ماوصلتْ إليه هذه الدولةُ من تطورٍ ونماءٍ ، وماحققتْه من منجزاتٍ قبلَ عهدِ الخليفةِ يزيد ، في عرضٍ عامٍ وموجزٍ ، وبشكلٍ يوضحُ كيفَ أضحتْ صورةُ الدولةِ في نهايةِ القرنِ الأولِ ، ثم عَرَضْنا بعدَ ذلك لأهمِ معالمَ عهدِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ، وأهمَ سياساتِه ، لكونِ عهدِه (٩٩ - ١٠١هـ) جاء في نهايةِ القرنِ الأولِ من الهجرةِ ، وبدايةِ الثاني . فكان حَلَقةُ الوصلِ بين إنجازِ الماضينَ من خلفاءِ بني أميةَ ، ويزيدَ بنِ عبدِ الملكِ ، ومَنْ تبِعَه من الخلفاءِ الامويينَ .

وتكمنُ أهميةُ عرضِ سياساتِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ، أيضا ، لأنّه قام بإصلاحِ كثيرٍ من أحوالِ الدولةِ الأمويةِ ، وتصحيحِ بعضِ أوضاعِها ، وسياساتِ بعضِ خلفائِها وفقا للنهجِ الإسلاميِّ .

وتزدادُ أهميةُ هذا العرضِ الموجزِ لمعالمِ سياستِه ، لأنّنَا سنكونُ أمامَ مواقفَ مختلفةٍ للخليفةِ يزيد ، من سياساتِ عمرَ وإصلاحاتِه - كما أشرْنا إلى هذا في المقدمةِ سالفا ،وهو ماسناقشُه في كلِّ موطنٍ يردُ ذكرُ ذلك فيه ، خلالَ هذه

الدراسة - ومن الجدير ذكره ، أنّ ماسنعرضه من معالم سياسات عمرَ خلالَ التمهيدِ ، لايغنينا عن ذكرِ تفاصيل بعضِ تلك السياساتِ والإصلاحاتِ والمنجزاتِ ، ومناقشتها ، فى ثنايا هذه الرسالة ، مقارنةً وتحقيقًا ، او توضيحًا وتصحيحًا ،وذلك عند ذكرِ مواقفَ الخليفةِ يزيدَ بنِ عبدِ الملكِ منها ، سواءٌ كان موافقا او مخالفا لها .

اما الفصلُ الاولُ من الرسالةِ،فقد خصَّصْناه لدراسةِ سيرةِ الخليفةِ يزيدَ بنِ عبدِ الملكِ ، وقد تناولنا فيها بشكلٍ موجزٍ نسبَه ، وحياتَه قبلَ الخلافةِ وبعدَها ، عارضين للعهدِ له بالخلافةِ وتوليها ، وماحولَ ذلك من الاخبارِ . وقد ركزنا اهتمامَنا على شخصيةِ يزيدَ والعواملِ المؤثرةِ فيها ، وماقيلَ عنها ، مالها وماعليها ، واخيرا الخروج بصورةٍ اقربُ ماتكون إلى الوضوح ، تمكنُّنا من معرفةِ مدى اثرِ تلك الشخصيةِ على الدولةِ الاموية .

والفصلُ الثاني من الرسالةِ تناولَ الاحداثَ الداخليةَ للدولةِ الامويةِ فى عهدِ يزيدَ ، وينقسمُ إلى خمسةِ مباحثَ :

المبحثُ الاولُ : تحدثنا فيه عن حركةِ يزيدَ بنِ المهلبِ ، وقد قدمناها ، لاهميتِها حدثا ، واسبقيتِها زمنا ، وهو مبحثٌ كبيرٌ فاقَ بقيةَ مباحثِ الفصلِ الاخرى حجما ، وذلك راجعٌ لاهميةِ هذه الحركةِ التى كادت انْ تطيحَ بالحكمِ الامويِّ ، ولوفرةِ المعلوماتِ عنها ، فقد اهتمَ المؤرخونَ بها ، حتى إنَّ مادتَها فى بعضِ المصادرِ ، قد طغتْ على ماذُكرَ عن بقيةِ احداثِ عهدِ يزيدَ مجتمعةً . وهذا ما ادى إلى طغيانِ هذا المبحثِ على المباحثِ التى تناولتْ الحركاتِ الاخرى ، مع انَّ من تلك

الحركات ما يقل أهميةً وخطراً عن حركة ابن المهلب ، وذلك راجعٌ إلى شح كثيرٍ من المصادر بالمعلومات عن تلك الحركات ، بل إنَّ بعضَ المصادرِ اغفلَ ذكرَ بعضِها او كلِّها تماما .

أما المبحثُ الثاني : فعرضنا فيه لحركات الخوارج زمنَ يزيدَ ، وكانت اربع هي : حركةُ شوذبَ ، وحركةُ مسعودِ العبديّ ، وحركةُ مصعبَ الوالبيّ ، وحركةُ عقفانَ . واخطرُها الحركةُ الاولى وقد اوردنا احداثَها ، وناقشنا بعضَ الحقائقِ المختلفةِ عليها عارضين لممارسةِ الخليفةِ الاسلوبَ السلميَّ بجانبِ العسكريّ ، في القضاءِ عليها .

والمبحثُ الثالثُ : تحدثنا فيه عن حركةِ شيريمَ اليهوديّ في بلادِ الشامِ ، وهدفِها واحداثِها واثرِ الفكرِ اليهوديّ في قيامها مع ما نعم به اهلُ الذمةِ من رعايةٍ وامنٍ في حمى الدولةِ الاسلاميةِ .

ومثلُها حركةُ بلاي ، التي مثلتْ محتوى المبحث الرابع ، وصاحبُها من نصارى الاندلس ، كوّنَ اولَ قوةٍ من المتمردينَ النصارى ضدَ الحكمِ الاسلاميّ . وتمثلتْ خطورتُها واهميتها ، في كونِها نواةَ المقاومةِ النصرانيةِ للوجودِ الاسلاميّ في الاندلسِ واساسَ الممالكِ النصرانيةِ التي قامتْ هناك ، وتمكنتْ من إخراجِ المسلمينَ من تلك البلادِ على مدى ثمانيةِ قرون . وهذا ما دعانا لاستعراضِ الحركةِ من اولِها حتى موتِ صاحبِها وآثارِها مركزين على دورِ عمالِ يزيدَ على الاندلسِ في مقاومتِها ومحاولةِ القضاءِ عليها . وإنَّ اصعبَ ما واجهَنا في دراستِها ، اختلافُ المصادرِ والمراجعِ على التاريخِ لقيامِها ، وتطورِها ، فعملنا على دراسةِ النصوصِ ومقارنتِها ، وترجيحِ ما رايناه اقربَ إلى الصحةِ .

اما المبحثُ الخامسُ والأخيرُ من هذا الفصلِ ، فقد احتوى على الحديثِ عن حركةٍ نصرانيةٍ اخرى ، قامت في الاندلس ايضا ، وكانت بقيادةِ اخيلا بنِ غيطشةَ ، وكان هدفُها استعادةَ مملكةِ القوطِ التى كان يحكمُها ابوه قبلَ لذريق .

وفصل ثالث : اختصَّ بالحديثِ عن مرسومِ الخليفةِ يزيدَ القاضى بتحطيمِ الاصنامِ ، وكسرِ الصلبانِ ، ومحوِ الصورِ ، وإزالةِ التماثيلِ ، وهدمِ الكنائسِ المستحدثةِ . وهو مرسومٌ بالغُ الاهميةِ ، اغفلَ جلُّ المؤرخينَ ذكرَه ، وجهلَ الكثيرُ إمرَه وتكمُنُ اهميتُه ليس فى آثارِه ونتائجِه الداخليةِ ، ولكنْ فى صداه خارجيا ، وبالاخصِ فى الدولةِ البيزنطيةِ وخلالَ مناقشةِ هذا المرسومِ ، عرضنا لبعضِ حقوقِ اهلِ الذمةِ ، وماصولحوا عليه ، وحكمِ التصويرِ فى الإسلامِ ، واسبابِ هذا المرسومِ ونتائجِه ، وآثارِه داخليا وخارجيا .

ورابعُ الفصولِ ، كان تحتَ عنوان: الفتوحاتُ الإسلاميةُ فى عهدِ الخليفةِ يزيدِ ، بيَّنا فيه نشاطَ الفتوحاتِ فى عهدِه ، ورفعِ رايةِ الجهادِ الإسلاميِّ فى كلِّ الجبهاتِ ، ويتكونُ من اربعةِ مباحثَ .

الاولُ منها عن الفتوحاتِ فيما وراءَ النهرِ ، وقد عرضنا فيه إلى جهودِ عمالِ يزيدَ على خراسانَ فى إخمادِ تمردِ الصغدِ فى ذلك الإقليمِ ، وإعادةِ السيطرةِ الإسلاميةِ على تلك البقاعِ . وقد برزَ سعيدُ الحرشيُّ كقائدٍ فذٍ ، اعادَ السيادةَ الإسلاميةَ على كلِّ البلادِ التى فتحَها قتيبةُ بنُ مسلمَ فى ماوراءَ النهرِ .

والمبحثُ الثانى ، تناولَ الفتوحاتِ فى ارمينيةَ ، وقد تعرضنا فيه إلى تحركِ الخزرِ على تلك الجبهةِ ، وغزوِ الممالكِ

الإسلامية هناك ، وتصدّي المسلمينَ لذلك ، وبرزَ الجراحُ الحكميُّ عاملُ يزيدَ على ذلك الإقليمِ ، كقائدٍ مقتدرٍ ، تصدى للأعداءِ ، واعادَ هيبةَ المسلمينَ فى قلوبهم .

اما المبحثُ الثالثُ ، فكان عن الفتوحِ فى ارضِ الروم ، برا او بحرا . عارضين فيه للصوائفِ والشواتى وتغيرِ نظامها فى عهده ، والحملاتِ البحريةِ وخاصة فى الحوضِ الاوسطِ والغربيِّ للبحرِ المتوسطِ عن طريقِ اسطولِ افريقيةَ ، وبقاءِ زمام المبادرةِ بايدى المسلمينَ فى حربهم معَ الروم .

اما المبحثُ الرابعُ ، فكان عن الفتوحاتِ فى بلادِ الغالِ وقد شهدَ عهدُ يزيد حملةً من اشهرِ الحملاتِ الإسلاميةِ فى تلك البقاعِ ، وهى حملةُ السمحِ بنِ مالكٍ الخولانيِّ ، والإعدادِ لحملةٍ تاليةٍ قادَها عنبسةُ بنُ سحيمٍ الكلبيُّ فى اولِ خلافةِ هشام ، مواصلا الفتوحَ فى تلك البلادِ . وقد حرصنا على تحقيقِ تاريخهما ، لمعرفةِ فى ايِّ عهدٍ تمَ قيامُ واحداثُ كلٍّ منهما ، ثم عرضتُ لاحداثِ الاولى بالتفصيلِ ، وعالجتُ اخبارَها وابرزتُ نتائجَها ، وكذلك عرضتُ للاخرى بإيجازٍ ، مبينا سببَ فشل الحملاتِ الإسلاميةِ فى تلك البلادِ من احداث فتحٍ شامل ودائم .

ومن اهمِ فصولِ هذه الدراسةِ ، الفصلُ الخامسُ ، الذى اشتملَ على سياسةِ الخليفةِ يزيدَ الإداريةِ والماليةِ ، وفيه تعرفنا على كثيرٍ من سماتِ التنظيم الماليِّ والإداريِّ فى ذلك العصرِ ، وماوصلَ إليه من تطورٍ وضبطٍ ودقةٍ .

وينقسمُ هذا الفصلُ إلى مبحثين :

المبحثُ الاولُ عن السياسةِ الإداريةِ ، ويتفرعُ إلى عددٍ من النقاط ، الاولى : عما قيلَ عن سياسةِ يزيدَ الإداريةِ ، وموقفه

من سياسةِ عمرَ فى هذا المجالِ ، وحقيقةِ ذلك ومناقشته فى ضوءِ حقائقِ عصره ونماذجِ سياسته ، والخلوص اخيرا إلى معالمِ وسماتِ سياسته الإداريةِ . والنقطةُ الثانيةُ : عن رجالِ الإدارةِ فى عاصمةِ الدولةِ دمشقَ . اما النقاطُ من الثالثةِ وحتى العاشرةِ ، فقد عرضتُ فيها لذكرِ عماله على اقاليمِ الدولةِ الإسلاميةِ كلّها . وقد تناولتُ بالدراسةِ ولايةَ كلٍّ منهم والتاريخَ لها وإيرادَهم وَفْقَ الترتيبِ الزمنيِّ ، والتحقيقَ فى اضطرابِ الرواياتِ حولَ اسمائِهم وتاريخِ ولاياتِهم وترتيبِهم . إلى جانبِ ماتوفرَ لدينا من معلوماتٍ حولَ سياساتِهم فى إدارة تلك الاقاليمِ ومنجزاتِهم الإداريةِ ، من اعمالٍ استحدثوها ، او انظمةٍ طوروها ، او فسادٍ إداريٍّ اصلحوه . كوضعِ الديوانِ الرابعِ لاهلِ مصرَ ، وتنظيمِ الحكومةِ الإسلاميةِ فى سبتمانيا بجنوبِ بلادِ الغالِ وغيرِ ذلك ، وتطويرِ بعضِ الانظمةِ الإداريةِ والماليةِ ، وضبطِها ، والتعرفِ على شكلِ الهيكلِ الإداريِّ من تلك المعلوماتِ مجتمعةً ، وما استحدثَ من وظائفَ ألزمَ التطورُ واتساعُ الدولةِ إنشاءَها ، وإلقاءِ الاضواءِ على وظائفَ كانت شبهَ مجهولةٍ من قبلُ . كالاهتمامِ بوظيفةِ المرزبانِ فى خراسانَ ، والتعريفِ بوظيفةِ التابوتِ فى مصرَ . كما اشرنا إلى جهودِهم فى نشرِ الدينِ والعلمِ والامنِ ، وتعميرِ البلادِ .

اما <u>المبحثُ الثاني</u> من الفصلِ الخامسِ ، ففى سياسته الماليةِ ، ويتكونُ من عددٍ من النقاطِ ، اولُها : عما قيلَ عن سياسته الماليةِ ، ومدى صحةِ ذلك وسمتِها الحقيقيةِ ، وبعضِ مظاهرِها . عارضين لبعضِ اوامره فى هذا الشانِ ، وبعضِ مظاهرِ التنظيمِ الماليِّ والضبطِ ، كتجويدِ العملةِ ، وضبطِ المكاييلِ

والموازين ، وتطور استخدام السفاتج . اما النقطة الثانية فعن الجزية ، ومناقشة القول بإعادة فرضها من قبله على من اسلم ، عارضين لمدى صحة القول بفرضها على من اسلم من قبل ورفعها عنهم من قبل عمر بن عبد العزيز ، كما تعرضنا لفرضها على رجال الكنيسة ، وخاصة في مصر ، وناقشنا ذلك . وكذلك ماكان مفروضا على نصارى النجرانية ، وقبرص ، وغير ذلك في هذا الصدد . اما النقطة الثالثة ، فعن الخراج ، وموقف يزيد من سياسات عمر الخراجية ، والعمل على ضبطه وتنظيمه وزيادته ، كمسح السواد ، عارضين لاسباب ذلك وآثاره وفرض ضريبة الخراج على املاك الكنائس والاساقفة ، وغيره مما ذكر في هذا الجانب .

ونقطة رابعة : كان مدار الحديث فيها عن الضرائب ، وما اعاد يزيد فرضه منها بعد ان رفعه عمر . وقد عرضت خلال ذلك لمناقشة بعض الاقوال ، مستقصيا الحقيقة ، متطرقا لكل انواع الضرائب التي اخبر عن فرضها وفي اي الاقاليم والاسباب الداعية لذلك .

اما العطاء ، فكان موضوع النقطة الخامسة ، وذكرت فيه تسخيره من قبل يزيد لخدمة الدولة ، واثر شخصيته فيه .

وخامسة ، عن الإقطاع ، وسياسة يزيد في هذا الصدد ، وتوجيهه لخدمة اغراض الحكومة ومكافاة رجالها المخلصين .

اما الفصل السادس والاخير من هذه الرسالة ، فقد درسنا فيه اهم مظاهر الحياة العلمية في الدولة الاموية في عهد يزيد بن عبد الملك . وينقسم إلى اربعة مباحث .

المبحثُ الأولُ عن العلومِ الدينيةِ ، ويتفرعُ إلى أربعِ نقاطٍ ، الأولى : عن القراءاتِ ، والثانيةُ عن التفسيرِ ، وثالثةٌ عن الحديثِ ، ورابعةٌ عن الفقهِ .

أما المبحثُ الثاني ، فعن الأدبِ ، مقدمين باهتمامٍ يزيدَ بالأدبِ ورعايةِ أهلِه ، عارضين لأهمِ فنونِ الأدبِ آنذاك ، وهي الشعرُ والخطابةُ ، والكتابةُ ، ذاكرا القَصَصَ والوعظَ .

أما المبحثُ الثالثُ : فتناولَ بالدراسةِ الكتابةَ التاريخيةَ ، من حيثُ ماوصلتْ إليه آنذاك من تطورٍ ، وأشهرِ رجالِها ، ونتاجِهم ، وأثرِ ذلك في مستقبلِ الكتابةِ التاريخيةِ .

وأخيرا المبحثُ الرابعُ ، عن بعضِ مظاهرِ النشاطِ العلميِّ في ذلك العهدِ .

ولقد اعتمدتُ بشكلٍ كبيرٍ في هذا العملِ على تراجمِ رجالِ كلِّ علمٍ وفنٍ ، لما وجدتُه في ثناياها من قَيِّمِ المعلوماتِ التي أعانتنا على رصدِ ماوصلتْ إليه تلك الفنونُ من تطورٍ ونماءٍ في ذلك العهدِ ، وإبرازِ دورِ رجالِها ، جهودِهم ، ونتاجِهم ، وآثارِهم ، بشكلٍ يمكنُ من تصورٍ واضحٍ لتلك الجوانبِ .

وأخيرا اتممتُ هذه الرسالةَ بخاتمةٍ عن أهمِ نتائجِ هذه الدراسةِ وماتوصلنا إليه من حقائقَ ومفاهيمَ .

دراسة نقدية
لأهم المصادر والمراجع

طبيعة الموضوع تحدد اساليب معالجته ، ونوعيات مصادره ونحن بصدد دراسة عامة عن الدولة الأموية في هذا العهد ، تناولنا من خلالها سيرة الخليفة وسياسته ، والحركات الداخلية والفتوحات الخارجية ، والسياسة الادارية والمالية ونظمها ، كما خصصنا مظاهر الحياة العلمية بجانب من هذه الأطروحة .

وهذا مادعانا الى العودة الى عدد وافر من المصادر والمراجع ، ونوعيات مختلفة منها ، فاخذنا عن مصادر التاريخ العامة ، وكتب العمال ، ولجانا لكتب الفتوح والأموال ، والمعاجم ، وتراجم الرجال ، وغير ذلك ، والغاية تغطية مجالات البحث واثرائها .

ومن اهم تلك المصادر التي اعتمدنا عليها في هذا البحث : كتاب الخراج لأبي يوسف (١١٣ - ١٨٢هـ) ، وهو يعقوب ابن ابراهيم بن حبيب الانصاري ، ولد ونشا بالكوفة ، وتعلم بها ، وكان من ابرز تلاميذ ابي حنيفة ، وقد عرف بالفقه مع علمه بالتفسير والمغازي وايام العرب والحديث . قال عنه احمد بن حنبل : صدوق . وقد تقلد القضاء لثلاثة من خلفاء بني العباس ، وهو اول من دعي بقاضي القضاة .

اما مصنفاته فعدة ، منها هذا الكتاب ، وهو اشهر واقدم ماوصل الينا من المصنفات المالية . وقد الفه بناء على رغبة هارون الرشيد في ان يضع له كتابا عن جباية

الأمــوال . فدونــه فــى مقدمــة وستة وثلاثين فصلا ، مقسمة على أساس الموضوعــات ، وبصيغــة الســؤال والجواب ، تناول فيها مــوارد بيت المال ، وطرق جبايتها ، واحكامها ، وماعومل به اهــل البــلاد المفتوحــة ، وحــقوقهم ، مالهم وماعليهم ، وقد نــاقش آراء الفقهاء حول ذلك ، ومايـنبغى للسلطان فعله ، فى أسلوب علمــى رصيــن ، ملتزم بالاسناد آخذ بتعدد الروايات ، جامع بين الدراسة الفقهية والاحداث التاريخية ، فقد كان فى استطراده كثير من الأخبار والحقائق التاريخية القيمة .

وقــد افدنا منه فى الفصل الرابع عند دراستنا للسياسة الماليــة ، وبخاصــة الخراج والجزية ، والضرائب والقطائع ، وغيرهــا ، كمــا افدنــا منــه فى حقوق اهل الذمة واحكامهم ، وبعــض مــاصولحوا عليــه ، عنــد مناقشتنا لــذلك خلال مرسوم الخليفــة يزيــد فى الفصل الثالث ، وقد وجدنا لديه معلومات وحقــائق متميزة ، وآراء فقهية حول بعض القضايا التى عرضنا لها .

والطبقــات الكــبرى لمحــمد بــن ســعد الهاشمى ، وقيل : الزهرى بالولاء (١٦٨ - ٢٣٠هـ) المعروف بكاتب الواقدى ، ولد بــالبصرة ومــات ببغداد ، وارتحل الى مكة والمدينة ، وتلقى العلــم عــلى مايقــارب الخمســين شيخا من علماء هذه المدن ، واخــيرا لازم الواقــدى ببغــداد ، ممــا كــان سببا فى لقبه ، وقرينــة لابــن النــديم فــى قولــه : ان ابن سعد الف كتبه من تصنيفات الواقدى .

وقــد شــملت دراســاته القــرآن والحديث والفقه والانساب والتــاريخ وعلم الرجال واللغة والنحو ، ثم تصدر للتدريس ،

وعنى بالتاليف ، فكان كتابه هذا اهم مؤلفاته واشهرها . وقد صدره بسيرة النبى صلى الله عليه وسلم فى مجلدين ، ثم عرض لتراجم الصحابة والتابعين ، ثم لتراجم النساء ، على اساس الطبقات . وقد نشر هذا الكتاب فى تسعة مجلدات ، التاسع منها للفهارس ، بعناية وتحقيق المستشرق سخاو وعاونه فيه آخرون ، وطبع فى ليدن فيما بين سنة ١٩٠٤م وسنة ١٩١٧م . كما طبع عدة طبعات اخرى . وقد سقطت بعض طبقاته ، فحققها اخيرا بعض الباحثين : الباحث زياد محمد منصور (١) ، والباحث محمد بن صامل السلمى (٢) ، والباحث عبد العزيز بن عبد الله السلومى (٣) .

وقد تميز اسلوبه بسوق الخبر عن مجموعة من المرويات ، مع ذكر الاسانيد مجموعة ، وان قل استعماله للاسانيد فى الاجزاء الاخيرة ، وبخاصة للتراجم القصيرة . كما تميز برواية السيرة فى قصة مترابطة ، ونقد الروايات احيانا ، والاشارة الى وظائف صاحب الترجمة ، وورود بعض الحقائق التاريخية وبخاصة العسكرية ، والعلمية والاجتماعية ، فى ثنايا تفصيلات الترجمة .

وتتمثل افادتنا منه فى كثير من المعلومات والتراجم المتناثرة فى معظم الفصول ، ولاتعود اهميته بالنسبة لنا فى

---

(١) حقق طبقة تابعي المدينة ومن بعدهم (من ربع الطبقة الثالثة الى منتصف الطبقة السادسة) وكان عمله موضوع رسالة دكتوراه بعنوان : الطبقات الكبرى القسم المتمم دراسة وتاريخ ، (مطبوع) ، طبعة الجامعة الاسلامية ، بالمدينة ، الطبعة الاولى ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

(٢) حقق طبقة صغار الصحابة ، وعمله موضوع رسالة دكتوراه قدم لجامعة ام القرى ونوقش عام ١٤١٠هـ .

(٣) حقق طبقة من أسلم عام الفتح ومن بعدهم ، وعمله موضوع رسالة دكتوراه ، قدم لجامعة ام القرى ، ولم يناقش حتى الآن .

غزارة المادة العلمية التى استقيناها منه ، فانها قليلة ، ولكنها قيمة بحكم انه اول كتاب وصل الينا من كتب الطبقات والتراجم ، وتركزت افادتنا من طبقة التابعين ، حيث ترجمنا لبعض الاعلام عنها ، واكتسبنا مما حوته من معلومات وحقائق .

وتاريخ خليفة بن خياط ، لخليفة بن خياط العصفرى (١٦٠ – ٢٤٠هـ) بصرى من بيت علم ودين ، الف عدة كتب . وصل الينا منها ، كتاب الطبقات ، والكتاب الذى نحن بصدد الحديث عنه . وقد تميز اسلوبه ومنهجه فى هذا الكتاب ، باتباع طريقة الحوليات ، وذكر سند الروايات ، وتعدد المرويات حول الحدث الواحد ، مع عدم الاكثار من ذلك ، والابتعاد كثيرا عن الجمع بين المتناقض منها ، وايراد ذلك فى ايجاز كبير .

ويعد تاريخ ابن خياط من اهم الكتب التاريخية التى اعتمدنا عليها وافدنا منها ، فهو من اقدم المصادر التى بين ايدينا ، ومصدرا لكثير ممن جاء بعده ، فقد كان ثقة المحدثين ، لذا قدمنا قوله على كثير غيره . وبرزت افادتنا منه فى الفصل الثانى والرابع والخامس . اذ تحدث عن حركة ابن المهلب ، ولعل ذلك لاهميتها ، لكنه اغفل معظم حركات الخوارج . كما تحدث عن الفتوح وتميز عن غيره من المصادر المشرقية ، بالحديث عنها فى معظم الجبهات ، وبالاخص فى البحر المتوسط عن طريق اسطول افريقية ، لكنه اغفل الفتوح فى بلاد الغال ، كما وجدنا عظيم الفائدة من القوائم التى ذيل بها عصر كل خليفة ، والتى حوت ذكر عماله على الاقاليم وموظفيه على الدواوين ومرافق الدولة المختلفة . حيث

اعتمدنـــا عليها فى الفصل الخاص بالسياسة المالية والادارية خصوصا انه اوردهم مرتبين حسب توليهم تلك الاعمال .

وكتـــاب فتوح البلدان ، لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذرى (ت ٢٧٩هـــ) قيـل : انــه فارســى الاصـل ، كان من رجال البلاط العباسى ، نشا ببغداد ، اخذ العلم على عدد من الشيوخ ، وجمع الكثير عن طريق الرحلة فى طلب العلم ، الى كثير من البلدان الاسلامية . وكان احد النقلة عن الفارسية ، وله عدد من المؤلفات اشهرها ، هذا الكتاب وانساب الاشراف .

وقـد تميز اسلوب البلاذرى ومنهجه فى فتوح البلدان ، بتقسيم الكتـاب علـى اسـاس الموضوعـات ، مع المحافظة على الـترتيب الـزمنى فى عرض الفتوح ، وتتبع جهود المسلمين فى فتـح الاقليـم الـذى يتحـدث عنه حتى زمنه ، مع ذكر كثير من الاخبـار المتعلقـة بذلك الاقليم ، كالتعريف به اسما وموقعا وتاريخـا ومكانـا ومدنـا وانهـارا ، وغـير ذلـك . كما ضمن الكتـاب كثـير مـن الموضوعـات المالية والادارية والثقافية والعمرانية ، كالتعرض لعهود الصلح والجزية والخراج وتمصير الامصار ، والدواوين وتعريبها وضرب العملة والكتابة ، وغير ذلـك . كمـا اشـتمل علـى بعـض الآراء الفقهية ، والمعلومات القيمة فى ثنايا استطراده . وقد اتبع طريقة الاسناد فى بعض اخبـاره ، لكنه يروى عن مجاهيل احيانا ، كما لجا الى تعدد الروايـات حـول الخبر الواحد ، لكنه لايجمع بين المتناقضات كثـيرا ، واحيانـا نجـده نـاقدا لبعض ماأورده من مرويات ، منسقا وممضيا لما جمع واورد .

وافدنـا مـن هذا الكتاب عن امر الفتوح فائدة عظيمة ،

فهو كتاب عظيم الاهمية لتاريخ الفتوح ، وان كانت عن فترة البحث قليلة وموجزة ، ونالت اقاليم المشرق اكثر اهتماماته بينما قل حديثه عن الاقاليم الشمالية ، والمغرب الاسلامى ، واغفل الحديث عن الفتوح فى بلاد الغال ، كما قدم لنا معلومات ادارية ومالية قيمة ، اعتمدنا عليها فى الفصل الخامس .

وكذلك اخذنا عن كتابه انساب الاشراف ، ولكن ليس كثيرا اذ ان فترة البحث لايشتمل عليها ماطبع من اجزائه ، مما تيسر لنا الاطلاع عليه منه ، اما المخطوط ، فما وجد من اجزائه بالجامعة ، فان خطها ردىء ، فعاقنا من الافادة منها الا نزرا يسيرا .

وتاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبرى (٢٢٤ ـ ٣١٠هـ) ، ولد بمدينة آمل من طبرستان ، وتعلم بها ، ثم رحل فى طلب العلم الى الرى وبغداد والبصرة وواسط والكوفة والشام ومصر ، فاخذ عن علمائها ، حتى انتهت اليه الرئاسة فى التفسير والفقه والتاريخ ، وكان عالما جامعا ، واخيرا استقر ببغداد ، وتفرغ للدرس والتأليف . فصنف عددا من الكتب ، ندين له منها بكتابين من اهم كتب الثقافة الاسلامية وهى التفسير والتاريخ .

ويهمنا كتابه عن تاريخ الامم والملوك (ويسمى تاريخ الرسل والملوك) ، الذى بلغ من خلاله الطبرى بالتدوين التاريخى ، نهاية عمر التكوين والنشاة ، وكان كتابه من اهم مصادر التاريخ الاسلامى ، بل والمعول عليه فى تاريخ القرون الثلاثة الاولى . وتاريخ الطبرى عالمى عام وشامل ،

بداه بمبدا الخلق ، وانتهى بعصره ، وينقسم الى قسمين : الاول ، عن تاريخ ماقبل الاسلام واورده على اساس الموضوعات والثانى ، عما بعد الاسلام واورده على اساس السنين .

وقد تنوعت مصادره ، وسار فى تدوينه على طريقة المحدثين ، بذكر الاسناد ، مع تعدد الروايات حول الحدث الواحد ، لكنه عمل على تقديم اقوى الروايات سندا ، ثم الروايات المعززة لها ، ثم ايراد ماعداها من الروايات ، وان كان مخالفا لها ، او غير معقولا . وقد حاول انتقاء مادته وتمييزها ، وان لم يصرح بنقد او ترجيح ، ولعل اسلوبه هذا اعانه على ان يكون محايدا ، بعيدا عن الهوى . وقد بين منهجه فى مقدمته ، واوضح عدم التزامه بالصحيح او الراجح ، وايراد الروايات المختلفة ، وان ماضعف هو مسئولية الراوى ، وليس هو .

وقد افدنا منه فى بحثنا عظيم الفائدة ، فكان رفيقنا فى كثير من فصوله ، وقدم لنا معلومات غزيرة ، كان بها على راس المصادر التى اعتمدنا عليها ، وتركزت الافادة منه من الجزئين السادس والسابع ، وتبين من خلالهما فيما يخص فترة البحث ، اهتمامه باحداث المشرق الاسلامى ، بينما قلت معلوماته عن الحجاز واليمن والشام والاقاليم الشمالية كارمينية وآسيا الصغرى ، وكذلك مصر وافريقية ، اما الاندلس وبلاد الغال فاهمل ذكر احداثها .

ومع شمول هذا الكتاب ، الا انه اغفل بعض الحركات الداخلية ، ذاكرا اهمها فى المشرق الاسلامى ، كحركة ابن المهلب ، وشوذب الخارجى . وصرف همه للحديث عن الامور

السياسية والمشاكل الداخلية وان لم يخل كتابه من اللمحات الحضارية . وكان يذيل اخبار كل سنة بذكر الأحداث الموجزة ، فمنها الحديث عن الولاة والقضاة ، وقد افدنا منها فى ذكر عماله ومعرفة بعض التنظيمات الادارية والمالية وهيكل الادارة .

ومن اهم مصادر هذا البحث ، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، على بن الحسن بن هبة الله الشافعى الدمشقى (٤٩٩ - ٥٧٢هـ) ، كان من اسرة معروفة بالعلم والدين ، فطلب العلم منذ صغره ، ورحل من اجله الى كثير من البلدان الاسلامية ، ثم عاد الى دمشق ، فجلس للحديث حوالى أربعين سنة . واثناء ذلك اشتغل بالتدوين ، فصنف عددا من الكتب ، كان منها انجازه الكبير ، وهو تاليف تاريخ دمشق فى ثمانين مجلدا ، الذى صرف فى جمع مادته وتدوينه مايزيد على ثلاثين سنة . وقد كان شاملا لتاريخ دمشق فضائلها وخططها وعمائرها ورجالها ، بل ويتسع نطاق دمشق عنده الى الشام احيانا ، حين يتطرق الى الترجمة لرجال بعض مدنها كصيدا وحلب وغيرهما . وقد قسم مادة كتابه حسب الموضوعات ، ثم الترجمة لأعلام دمشق وفق الترتيب الأبجدى ، ولم يطبع منه الا الجزء الأول وبعض الثانى والعاشر ، والباقى مخطوط . وقد تعددت مصادره ، واتبع طريقة المحدثين ، بذكر السند مهما طال او تعدد . وجمع بين الروايات المختلفة ، وهو كالطبرى همه الجمع مع اهمال النقد وان كان قد عمد الى التدليل بالحديث والقول الماثور على ماأورده . وقد ظهر على كتاباته التعصب لدمشق والرفع من شانها وجمع فضائلها وان كانت غير صحيحة

ولايقرها العقل . ومع ذلك فقد حفظ لنا مؤلفه هذا ، ما احتوت عليه كثير من المصادر التى فقدت ، وعلم مشائخ ذهبوا او ذهب ما الفوا .

وقد افدنا منه فى النواحى المالية والعمرانية ، اما السياسية فقليلة ، لان المطبوع لايغطى فترة البحث ، كما ان اطلاعنا على صورة المخطوط التى نشرت ، اظهرت قلة تعرضه للاحداث السياسية من خلال تراجم الاعلام ، كترجمته ليزيد بن عبد الملك الذى نحن بصدد دراسة عهده . ومع ذلك لم نعدم الفائدة المتميزة ، من مصدر هذا شانه ، ومؤرخ هو احد قمم التاريخ الاسلامى .

وكتاب سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد لابن الجوزى جمال الدين عبد الرحمن بن على بن محمد (ت ٥٩٧هـ) وصاحبه من مشهورى المؤلفين والحفاظ والوعاظ . يعد واحدا من بضعة نفر فى التاريخ الاسلامى . والف فى فروع العلم المختلفة ، منها (٩٢) كتابا فى التاريخ والجغرافيا والرجال . ومجموع آثاره (٤٠٢) كتابا ، بين مخطوط ومطبوع . ويهمنا الكتاب الذى نحن بصدده ، وافدنا منه فى بحثنا ، وهو واحد من كتبه فى مناقب بعض المشاهير ، ويعد من اوسع واشمل الكتب التى حوت اخبار عمر . لكن الغالب عليه الاهتمام بسيرة عمر لاحداث دولته ، وهو مع ذلك يقدم معلومات جيدة ومتميزة ، عن سياسته المالية والادارية ، فافدنا منه فى الحديث عن سياسة عمر بن عبد العزيز المالية والادارية ، واصلاحاته العامة ، ومناقشة سياسة يزيد بن عبد الملك فى ضوء ذلك وموقفه من تلك السياسات فى الفصل الخامس

وقد اورد مادة كتابه على اساس الموضوعات ، اما اسلوبه فتميز بذكر السند على طريقة المحدثين ، وايراد عدد من الروايات المختلفة عن الخبر الواحد ، مع اغفال النقد او الترجيح .

اما كتاب الكامل فى التاريخ لابن الاثير الجزرى ، عز الدين على بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى (٥٥٥ - ٦٣٠هـ) فيعد من اهم مصادر التاريخ الاسلامى ، وصاحبه من ابرز المؤرخين المسلمين بعد الطبرى ، ومؤلفاته التاريخية تبرر ذلك . وقد ولد ابن الاثير بجزيرة ابن عمر على نهر الفرات ، ونشا بالموصل مع ابيه فى كنف الامراء الزنكيين ، فتعلم على علمائها ، ورحل فى طلب العلم الى بعض بلدان المسلمين ، فبرع فى التاليف التاريخى ، ومن اشهر مدوناته هذا الكتاب الذى نحن بصدد الحديث عنه ، والذى يتكون من (١٢) مجلدا ، وهو كتاب تاريخ عالمى عام وشامل ، بدا بمبدا الخلق وانتهى به الى عصره . وقد اتبع فيه النظام الحولى ، واعطاء الأحداث الهامة خلال ذلك عناوين خاصة بها ، واحيانا يستطرد فى تتبع الخبر وان خرج بذلك عن النطاق الزمنى لتلك السنة اما الأحداث الصغيرة فضمها بموجز فى نهاية اخبار كل سنة ، عارضا لذكر الظواهر الجوية والأرضية .

وهو فى عرض مادته محافظ على التوازن بينها موجز اياها ، ناقد لبعضها ، ومقدم ما ارتضاه من الروايات ، وان شك فيها او رد الرواية الاخرى ، وترك الحكم للقارىء ، وقليل مايفعل ذلك وترك طريقة المحدثين ، فقدم رواياته بدون سند . ومع ذلك وقع فيما نقد فيه غيره ، من

ايراد شيء من الأساطير والخرافات والمبالغات ، وخاصة عن تاريخ ماقبل الاسلام والسيرة ، لكنه كان اكثر اتزانا وجدية وشانا في التاريخ الاسلامي بعد السيرة ، وهو مانقل عنه المؤرخون ، واعطى كتابه تلك القيمة . ولاغرابة في ذلك ، فقد اعتمد ابن الاثير على من سبقه وخاصة الطبري ، الذي نقل عنه كثيرا ، بل انه في بعض الاحيان ينقل عنه حرفيا ، ولم يزد دوره عن ممحص ومرجح لبعض ماأورده ، أو مضيفا اليه ماعند غيره .

وابن الاثير لم يخل من الهوى كمؤرخ ، ومن ذلك تحامله على صلاح الدين الايوبي ، بحكم علاقته الطيبة بآل زنكي ، وان كان ذلك لاينقص قيمة كتابه .

ولقد افدنا من هذا الكتاب كثيرا ، ورافقنا في عدد من فصول هذا البحث ، لشموله ، وغزارة مادته . وقد تميز لدينا بما قدم من جديد ، وماانفرد به عن غيره ، وبخاصة في ذكر بعض حركات الخوارج التي لم نجدها عند غيره كابن خياط والطبري ، كما قدم معلومات وحقائق جيدة عن الفتوح ، وقدم ايضاحات عن اخبارها في الشرق وفي أرمينية وارض الروم ، لانجدها عند غيره وتميز بها عمن سبقه ، ومع حرصه على التوازن ، لم نجد له كبير اهتمام ، باحداث المغرب الاسلامي وجزيرة العرب والسند ، وان لم يهملها تماما .

اما الأخبار الحضارية ، فلم يوليها اهتمامه ، وكذلك النظم المالية والادارية ، وان اكتسبنا بعض المعلومات الادارية ، من خلال ذكره لتولية العمال وبعض اخبارهم .

ومن مصادر هذا البحث العامة ، كتاب البداية والنهاية

لابن كثير ، ابو الفدا عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الشافعي (ت ٧٧٤هـ) ، ولد بدمشق وتعلم بها ، ثم رحل فى طلب العلم الى بغداد ومصر ، وتعلم على ابن تيمية والذهبى ، فحاز الكثير من العلوم والمعارف ، فاشتهر بالفقه والحديث والتفسير ، بالاضافة الى العلم بالتاريخ والسير . وله فى تلك الميادين عدد من المصنفات ، يهمنا منها كتاب البداية والنهاية ، الذى يعد من اهم مصادر التاريخ الاسلامى ، وهو كتاب عام وشامل ، بداه مؤلفه بذكر بدء الخليقة ، حتى سنة وفاته ، كما تحدث عن الآخرة وعلامات القيامة ، ووعظ دينى بمخافة الله ورجاء رحمته . وقد عد بهذا الكتاب ومصنفاته الاخرى ، مع كبار المؤرخين ، كالطبرى وابن الاثير .

وقد قدم مادته على طريقة الحوليات ، مستفيدا من تاخر عصره ، وتقدم العلوم فيه ، وتوفر التواريخ المدونة ، فجمع مادة غزيرة ، اورد اصح الروايات منها ، حيث عمل على التثبت من الاخبار ونقد الاسانيد . وان كان قد عدد الروايات احيانا . ولم يكتف بنقد الاسانيد والتثبت من الروايات وذكر اصحها . بل كان يصدر احكامه ، ويدحض بعض اقوال المؤرخين السابقين ويردها كتبرئة الخليفة يزيد ، والرد على من طعن فى دينه . وحرص فى كل ذلك على توزيع جهده واهتماماته ، زمنا وموضوعا ، وان كان قد اغفل بعض الاقاليم كالاندلس وبلاد الغال والسند والحملات البحرية .

ومما زاد اهمية كتابه ذكر وفيات كل سنة ، مع الترجمة لاعلامها ، وقد نال علماء الدين جل اهتمامه ، فاسهب فى

الحديث عنهم ، واستطرد في ذكر اخبارهم وشيء من علومهم ، ومع أن ذلك مخل بالفكرة والتسلسل المنطقي ، الا انه ساعد على احتواء تلك التراجم على معلومات تاريخية وعلمية وادارية ، جيدة ، افدنا منها في الفصل السادس المتعلق بجوانب الحياة العلمية ، وكذلك في الفصول التي اعتمدنا على هذا الكتاب فيها كثيرا .

ومن المصادر العامة التي اثرت هذا البحث ، وبخاصة الفصل السادس المتعلق بالحياة العلمية ، مصنفان من كتب الطبقات والتراجم ، استخرجت من ثنايا ماحوته من تراجم للأعلام كثيرا من المعلومات والحقائق ، وبخاصة من تراجم علماء الدين ، فافدنا منها عند دراسة العلوم الدينية خاصة وغيرها . كما اعتمدنا عليهما في الترجمة لرجال تلك العلوم وبعض الأعلام الآخرين . واولهما :

سير اعلام النبلاء للذهبي ، محمد بن احمد بن عثمان قايماز (٦٧٣ – ٧٤٨هـ) ، تركماني الاصل ، من اسرة تميمية بالولاء ، ولد بدمشق ، ومات بها ، رحل في طلب العلم الى البلاد الشامية والمصرية والحجازية ، وتركزت دراسته على العلوم الدينية والتاريخ واللغة والادب ، وبعد أن حظي بنصيب وافر من العلوم ، اهتم بتدوين مصنفاته الكثيرة والكبيرة التي تقارب المئة ، واشتغل الى جانب ذلك بتدريس الحديث في امهات دور الحديث بدمشق والتي كان يتولى مشيختها ، وقد برزت مكانته العلمية في الحديث والتاريخ والنقد . وكان مفهوم التاريخ عنده يتصل اتصالا وثيقا بالحديث النبوي الشريف وعلومه ، وظهر ذلك في عنايته بكتب

التراجم التى قامت عليها شهرته كمؤرخ .

اما كتابه هذا،فيتكون من (١٤) مجلدا،الأولين منهما عن السيرة النبوية ، والخلفاء الراشدين . وقد نظمه على الطبقات وخصه بذكر الاعلام ، واغفل المشاهير والمغمورين ، وشمل به الاعلام من كل الفئات ، وان كان قد آثر المحدثين . وقد تميز اسلوبه فى فن الترجمة ، بحسن الصياغة والعرض ، ناقدا للمترجمين مبينا احوالهم ، حاكما عليهم ، مقوما لهم ناقدا مصادره ومؤلفيها . وقد اعتمد الاسناد ونقده كما نقد المتون ، بعيدا عن الهوى ، وضمن تلك التراجم كثيرا من علوم اصحابها وجهودهم وآثارهم ، فحوت بذلك علما عظيما .

كما افدنا من بعض كتبه التاريخية الأخرى ، وهى تاريخ الاسلام . وهو مصنف ضخم ، وقد لمسنا موافقة الذهبى فيما أورده فيه من مادة علمية ، بعض ماعند ابن خياط والطبرى وابن الاثير . وكذلك كتابيه دول الاسلام ، والعبر فى خبر من غبر . والاخيران ليسا كسابقيهما ، وان لم نعدم الفائدة منهما .

اما الكتاب الثانى من كتب الطبقات ، فهو تهذيب التهذيب لابن حجر ، شهاب الدين احمد بن على بن محمد الكنانى العسقلانى الاصل ، والمصرى المولد والنشاة (٧٧٣ ـ ٨٥٢هـ) . تلقى العلم فى مصر ، وبلاد الحجاز والشام واليمن واهتم بالحديث خاصة ، وعلوم الدين عامة واللغة ، وانتهت اليه الرحلة والرياسة والحفظ فى الحديث ، وانكب على التاليف ، فبلغت كتبه نحو (٢٨٢) مصنفا ، وتولى القضاء ، واشتغل بالتدريس ، والفتوى ، وبلغ مجده العلمى آخر حياته

وشهد جنازته السلطان والخليفة والاكابر وعامة الناس .

وان كان ابن حجر من اقطاب الحديث والعلوم الدينية ، فهو مؤرخ فذ له تراث تاريخي قيم ، ومن كتبه التاريخية ، انباء الغمر بانباء العمر ، والدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة ، ورفع الاصر عن قضاة مصر ، والاصابة في تمييز الصحابة ، وقد افدنا من الاخير ، وغيرها .

والكتاب الذي نحن بصدده وان كان مؤلف ديني في الرجال وهو اختصار لكتاب تهذيب الكمال في اسماء الرجال للمزي ، مع زيادات تبلغ ثلث الملخص . وبديهي ان يتبع طريقة المحدثين في الاسناد ، كما ذهب الى تعدد الروايات ، ونقدها واصدار الاحكام ، وابداء الرأي . لكن الذهبي فاقه في حسن صياغة الترجمة وسلاسة عرضها .

وقد استقينا منه مادة علمية جيدة حول جهود العلماء في خدمة العلوم الدينية وبعض اخبارهم وآثارهم ، والترجمة لأعلامهم ، سواء كان ذلك في الفصل السادس او غيره واكتساب بعض المعلومات الادارية او المالية او العسكرية وغيرها ، فقد يورد في ترجمة الرجل شيئا عن وظائفه او جهاده . مما افادنا في اكثر من فصل ومنحى .

واعتمد البحث الى جانب المصادر على عدد كبير من المراجع الحديثة العربية والمعربة ، منها الكتاب العلمي ، ومنها الرسالة الجامعية ، مطبوعة او غير مطبوعة ، ومن أهمها :

تاريخ بني أمية لنبيه عاقل ، وقد عرض لتاريخ الدولة منذ الاحداث التي ادت الى انتقال الحكم لبني امية ، حتى

سقوط دولتهم ، وقد عرض لأحداث الدولة وفق عهود خلفائها ، عارضا لسياساتهم ومنجزاتهم والتنظيم المالي والاداري والفتوح والحركات . وقد اهتم بالخطوط العريضة والأحداث الهامة ، في دراسة علمية شاملة ، قامت على التحليل والاستنباط والاستنتاج وابداء الراى وتفنيد التهم والوصول الى حقائق ومفاهيم جديدة . ومن مناقشاته دحض بعض ما اتهم به الخليفة يزيد ، ومناقشة بعض اقوال المؤرخين القديمة حول سقوط الدولة الأموية . ويعاب عليه عدم توثيق كثير من معلوماته ، واهمال تتبع الاحداث وان كان قد بين ذلك في منهجه .

وكتاب فجر الأندلس لحسين مؤنس . من افضل ماكتب عن تاريخ الأندلس في عصر الولاة ، وهي دراسة مستفيضة لتلك الحقبة ، اتسمت بالشمول والعمق ، وتطبيق المنهج العلمي في دراسة النصوص ، في محاولة من المؤلف للوصول الى حقائق الأمور . وقد ادى به ذلك الى استقصاء النصوص المختلفة ومقابلتها ومناقشتها والوصول الى ارجح الاقوال ، معتمدا على الكتب العربية والأجنبية ومقابلة ماورد فيها من النصوص وقد خدمنا في التعرف على السياسة المالية والادارية في فترة البحث وجهود العمال ، والفتوح في بلاد الغال ، وقد قدم دراسة مستفيضة عن حركة بلاى وحركة اخيلا ، وبقدر اعتمادنا عليه واتفاقنا معه في كثير من الامور فقد كان لنا عليه بعض الملاحظات ، ابديناها في نطاق الحديث عن تلك النقاط .

ومن المراجع التى خدمت البحث في دراسة احوال افريقية

والمغرب ، رسالة الماجستير التى أعدتها فاطمة رضوان تحت عنوان : المغرب فى عصر الولاة الأمويين ، وهى لم تطبع .

وكتاب مصر فى فجر الاسلام لسيدة كاشف . وهو رسالة جامعية فى الأصل ، اتسم بالشمول والعمق وتناول الامور السياسية والعسكرية والادارية والحضارية والعلمية فى عصر الولاة . وقد ظهر عليه اثر الاعتماد على عدد من المصادر المتنوعة وحسن العرض والمناقشة الجادة الموصلة الى حقائق وآراء جديدة ، افدنا منها فيما يخص اخبار ذلك الاقليم .

ومن المراجع العامة كتاب "الأمويون والبيزنطيون" لابراهيم العدوى ، وقد شملت الدراسة الحديث عن البيت الأموى قبل الاسلام وبعده ، ودولة بنى امية ، ومنجزات خلفائها ، والفتوح بأرض الروم ، بل وفى المشرق والمغرب ، والعلاقات مع الدولة البيزنطية . واهم دراساته الفصل الخامس المتعلق بالتجاوب الحضارى بين الدولتين وفيه عرض للادارة والعمارة والاتصال الثقافى والسياسى ، والافادة منه جيدة ، وان كانت قليلة .

ومن المراجع العامة فى دراسة التاريخ الأموى فى الأقاليم الشمالية والعلاقات مع الروم ، كتاب الحدود الاسلامية البيزنطية لفتحى عثمان ، ودراسات تاريخية عسكرية عن الثغور البيزنطية العربية منذ الفتح العربى للشام حتى نهاية العصر العباسى الأول لهاشم اسماعيل الجاسم (رسالة ماجستير غير مطبوعة) ، ودراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية لحسنين محمد ربيع ، ودراسات فى تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية لوسام عبد العزيز فرج وغيرها .

اما فى الناحية الادارية والمالية ، فياتى كتاب النظم الادارية والمالية فى الدولة العربية الاسلامية لفرج محمد الهونى وهى (رسالة ماجستير مطبوعة) ، ومرجعا مميزا فى هذا المجال .

اما عن الناحية العلمية والتدوين ، فكتاب الحياة العلمية فى الشام لخليل داود الزرو (رسالة ماجستير مطبوعة) ، والحياة العلمية فى المدينة النبوية خلال القرن الثانى الهجرى لسعد الموسى (رسالة ماجستير غير مطبوعة) ، وتوثيق السنة فى القرن الثانى الهجرى لرفعت فوزى عبد المطلب (رسالة جامعية مطبوعة) ، والسنة قبل التدوين لمحمد عجاج الخطيب (ماجستير مطبوعة) ، وغيرها من الكتب كفجر الاسلام لأحمد أمين ومالايقل اهمية عما ذكرنا .

أما البحوث فنكتفى بذكر اثنين منهما ، الأول :

حول انهيار الدولة الأموية دراسة مقارنة فى سياسة يزيد بن عبد الملك (١٠١ ـ ١٠٥هـ) ، لعماد الدين خليل ، وهو بحث جيد ، الا ان مؤلفه الذى دون كتاب ملامح الانقلاب الاسلامى فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، كان مبهورا بشخصية الخليفة الزاهد ، متاثرا بفقدان كثير من اصلاحاته بعد مماته ، مما جعل دراسته ليزيد مقارنة بعمر ، متاثرة بميله الى عمر ، مما دفعه الى التحامل على يزيد واهمال منجزات عصره .

والثانى للمستشرق فازيليف ، وعنوانه :

(THE ICONOCLASTIC EDICT OF THE CALIPH YAZID 11, A.D.721)

وهو عن مرسوم الخليفة يزيد بن عبد الملك الخاص

بتحريم الصور ، والحق انه دراسة مميزة افدنا منها ، حيث جمع فيه ماورد حول هذا المرسوم فى المصادر المصرية الاسلامية والقبطية ، فضلا عن المصادر اليونانية والسريانية والأرمينية واللاتينية والمراجع المسيحية الحديثة ، وقد ناقشنا بعض ماورد فيه خلال دراستنا لذلك المرسوم فى الفصل الثالث .

وسيجد القارىء فى نهاية هذا البحث ، ثبتا كاملا بالمصادر ، والمراجع العربية والمعربة ، والبحوث التى رجعنا اليها فى كتابة هذه الرسالة .

واخيرا ، نسأل الله تعالى ان يمدنا بعونه ، ويرزقنا توفيقه ، وأن يلهمنا الرشاد والصواب ، ويجنبنا الزلل والهوى ، انه ولى ذلك والقادر عليه .

الطالب

عبدالله بن حسين الشنبرى الشريف

مكة المكرمة

جمادى الأولى ١٤١٠هـ

التمهيد

عرض موجز لأحول الدولة الأموية مطلع القرن الثاني الهجري

التمهيد

عرض موجز لأحوال الدولة الأموية

مطلع القرن الثاني الهجرى

كانت الدولة الاسلامية مطلع القرن الثاني الهجرى ، قد اكتملت مقوماتها ، وتميزت شخصيتها عما عداها ، وبلغت شاوا بعيدا من السعة والقوةوالتطور والنماء . اذ ترامت اطرافها وضمت حدودها مساحة كبيرة من المعمورة آنذاك . واصبحت من القوة ماجعلها مصانة الحدود ، مهابة الجانب ، مقاتلة فى سبيل الله لامقاتلة . ولاأرانى اعدو الحقيقة اذا ماقلت انها اضحت اكبر دولة ، واعظم قوة ، واكرم امة .

كما تطورت التنظيمات الادارية والمالية والعسكرية تمشيا مع التطور العام للدولة ، وخطا المسلمون خطوات حثيثة نحو التقدم العلمى ، وبخاصة فى العلوم النظرية ، والعمران ، والزراعة ، والصناعة . وصبغوا مظاهر حضارتهم بصبغة الاسلام ، وجعلوا اللغة الرسمية لغة القرآن ، معتمدين على موروثات الامة ، آخذين بما عند الآخرين ، مما يناسب الدين الاسلامى ودولته .

ولاشك أن الفضل فى كثير من المنجزات التى حققتها دولة الاسلام حتى ذلك الوقت ، يعود للخلفاء الامويين ، وينسب الى دولتهم . وسنعرض فيما يلى هذا القول لمعالم الدولة الأموية واهم منجزاتها حتى مطلع القرن الثانى الهجرى ، لتصبح صورتها جلية امام اعيننا ، ونحن نتناول بالدراسة عهد يزيد ابن عبد الملك ، الذى جاءت خلافته مطلع ذلك القرن .

ان من المتفق عليه ان أعظم انجازات الدولة الاموية ، هى تلك الفتوحات الكبرى التى شهدها ذلك العصر ، حيث بلغت الدولة الاسلامية على اثرها ، اقصى اتساع لها - تقريبا - ، اذ لم يكد ينقض القرن الاول (قرن الفتوح العظمى) ، حتى وصل المجاهدون المسلمون فى دولة بنى امية ، براية الاسلام حتى حدود الصين شرقا ، والمحيط الاطلسى غربا ، وبحر خوارزم وبحر الخزر شمالا ، والمحيط الهندى وصحراء افريقية الكبرى جنوبا .

لقد كان القيام بالدعوة الى الله ونشر دينه القويم ، وحرية العقيدة وحماية اهلها . الهدف الاسمى لدولة الاسلام منذ نشاتها . فبعد ان اقام الرسول صلى الله عليه وسلم الدولة الاسلامية ، وتم له فتح جزيرة العرب ، وكان قد دعا رؤساء القوى المجاورة للاسلام ، فلم يستجيبوا ، كانت غزوة مؤتة (سنة ٨هـ) فى زمنه ، الخطوة الاولى فى تحقيق ذلك الهدف ، والقيام بالفتح خارج نطاق جزيرة العرب . ثم توالت الفتوح بعد وفاته عليه السلام ، امتدادا لما بداه ، وتحقيقا لغايات الفتح واهدافه ، وقياما بمسئوليات الدولة وواجب الحكام المسلمين ، فتم للمسلمين فى عصر الخلفاء الراشدين القضاء على دولة الفرس ، وفتح ممالكها من العراق وحتى خراسان وسجستان شرقا ، وفتح الشام حتى جبال طوروس والجزيرة وارمينية شمالا ، وفتح مصر حتى بلاد النوبة جنوبا ، هذا بالاضافة الى محاولات فتح افريقية التى لم

تتمخض عن فتح تام ودائم لها[1] .

وفي العصر الأموي ، استأنف المسلمون فتوحاتهم ، وحمل الخلفاء الأمويون وعمالهم وقوادهم راية الجهاد الاسلامي ، في حركة فتح كبرى ، بدئت باعادة السيادة الاسلامية على بعض المناطق التي تمردت على سلطان المسلمين كخراسان وارمينية مستغلة الفتن الداخلية التي عاشتها الدولة الاسلامية ، أواخر عصر الراشدين وأول العصر الأموي . وبلغت أوجها في عهد الوليد بن عبد الملك ، ففتح من الناحية الشرقية بلاد السند والبنجاب على يد محمد بن القاسم الثقفي ، الذي وجه الى تلك البلاد من قبل الحجاج الثقفي ، عامل الخليفة الوليد بن عبد الملك على العراق والمشرق ، حيث سقطت على يده مدنها واقاليمها كالديبل ، والعاصمة راور والبيرون والملتان والكيرج حتى وصل كشمير ، وقد قتل ملك السند داهر وضم السند لدولة الاسلام ، ونشر الاسلام بين اهلها[2] . وبتوجيه

---

(١) عن حركة الفتوح الاسلامية في عهد الخلفاء الراشدين انظر / البلاذري : فتوح البلدان ، راجعه وعلق عليه رضوان محمد رضوان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م – الواقدي : فتوح الشام ، بيروت ، دار الجيل – ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب واخبارها ، تحقيق محمد صبيح ،مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر – ابن أعثم : الفتوح ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ – شكري فيصل : حركة الفتح الاسلامي في القرن الأول ، دراسة تمهيدية لنشأة المجتمعات الاسلامية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة السادسة ، ١٩٨٢م – محمد فرج : الفتح العربي للعراق وفارس ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٣٨٦هـ – احمد عادل كمال : الطريق الى المدائن ، دار النفائس ، بيروت ، ١٣٩٧هـ – أحمد عادل كمال : الطريق الى دمشق (فتح الشام) ، دار النفائس ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

(٢) عن فتوح المسلمين في بلاد السند ، انظر / فوزي محمد عبده ساعاتي : انتشار الاسلام في بلاد السند والبنجاب حتى نهاية العصر الاموي ، رسالة ماجستير مقدمة لقسم =

من هذا العامل وفي خلافة الوليد ايضا ، قام قتيبة بن مسلم الباهلي بفتح بلاد ماوراء النهر (١) وضمها للدولة الاسلامية . اذ تمكن من فتح مدنها واقاليمها ، كبخارى وسمرقند والصغد وفرغانة والشاش وغيرها . وسار الى الصين فاتحا ، فصالحه ملكها ، فكان ذلك اقصى مدى وصلته الفتوح الاسلامية شرقا . كما عمل قتيبة على اجتثاث الوثنية من تلك البلاد ، فحطم الأصنام ، ودعى الى الاسلام ، الا ان دخول اهالي تلك البلاد في الاسلام كان بطيئا ، وولاءهم سطحيا ، لذلك كثيرا ماسنرى في بقية العصر الأموى تمردهم ، وخروجهم على سلطان المسلمين كلما حانت لهم الفرص .

كما فتح على يد يزيد بن المهلب ، كل من جرجان وطبرستان وقوهستان ، في خلافة سليمان بن عبد الملك (٢) .

اما الفتح شمالا ، فقد عمل الامويون على تثبيت سلطان المسلمين في ارمينية ، التي لم تخضع للمسلمين خضوعا تاما

= الدراسات العليا التاريخية والحضارية ، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، جامعة أم القرى ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م عوض الصميرى : محمد بن القاسم وفتح بلاد السند ، رسالة جامعية ، جامعة الامام محمد بن سعود .

(١) لم يكن قتيبة أول من عبر نهر جيحون الى بلاد ماوراء النهر فاتحا ، لكن الفتح لم ياخذ شكلا منتظما ، ويتم في تلك البلاد الا على يد هذا القائد . انظر عن فتوحاته / ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، مراجعة وتعليق نخبة من العلماء ، دار الكتاب العربي ، بيروت الطبعة الرابعة ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ٤/١٠٥-١٤٢ ـ راضي عبد الله عبد الحليم : دراسات في تاريخ خراسان في العصر الأموى ، الأندلس للاعلام والنشر ، مطبعة جامعة القاهرة ، والكتاب الجامعي ، ١٩٨٧م ، ص ٣٥-٤٣ ـ نبيه عاقل : تاريخ خلافة بني امية ، دار الفكر ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص ٢٠٢-٢٠٥،٢٤٠ .

(٢) عن فتوح يزيد بن المهلب لهذه الأقاليم ، انظر : نبيه عاقل : نفس المرجع ، ص ١٥١-١٥٣ ـ راضي عبد الله عبد الحليم : نفس المرجع ، ص ٤٥-٤٩ .

ودائمـا ، مثلمـا حدث فى بعض الاقاليم الاخرى ، كالشام ومصر وغيرهمـا ، والتـى اصبحت جزءا لايتجزا من الدولة الاسلامية ، حـيث ظلت ارمينية منطقة صراع سياسى وعسكرى ، بين المسلمين والأمـراء المحـليين مـن الأرمـن مـن ناحية ، وبين المسلمين والقـوى المجـاورة من الروم والخزر والقبائل القوقازية من ناحية اخرى . وقدساعد على ديمومة هذا الصراع،وعدم استقرار الفتـح ماعاشته الدولـة مـن فتن واضطرابات كاحداث الفتنة الكـبرى ، وكذلك الأحداث التى تعرضت لها الدولة الاموية بعد وفـاة يزيـد بـن معاويـة ، وكادت تقضى عليها حتى نجاح عبد الملـك بن مروان ، فى القضاء على ابن الزبير والسيطرة على الأوضـاع ، وبسـط نفـوذ الدولـة الأمويـة عـلى كـامل الأمصار الاسلامية من جديد ، الى جانب شدة مراس الشعب الأرمنى ، وبأس اهلـه ، وقسـوة طبيعة ارضه ، وانقسام امرائه على انفسهم ، فـاذا والى فريق دولة الاسلام ، مال الفريق الآخر للروم ، او حـالف الخـزر . وهـذا ماساعد الأرمن على الانتقاض كلما حانت لهـم الفرصـة ، واسـتغل الأعداء تلك الظروف لاشغال المسلمين بالجبهـة الارمينيـة . وقد تمكن الامويون فى فترات الاستقرار السيـاسى داخـل الدولـة الاسلامية ، من بسط نفوذهم على تلك المنطقـة ، وضمهـا لدولتهم ، وقد اعطوا للأمراء المحليين ، نوعا من الحكم الذاتى على اقاليمهم ، وهؤلاء يخضعون للوالى المسلم على ارمينية .(١)

---

(١) عـن ارمينيـة انظـر / صـابر محـمد دياب : ارمينية من الفتـح الاسلامى الـى مستهل القـرن الخـامس الهجرى ، النـاشـر دار النهضـة العربيـة ، مصر ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، ص ٢٠-٤٩ .

أمـا الفتـح فى أرض الروم فقد استلزم أمرين ، الأول : تـأمين الفتـوح الأولـى فـى البـلاد التى كانت تابعة للدولة البيزنطية ، باتخاذ عدد من وسائل الحماية والدفاع ، تمثلت فـى بنـاء وتحـصين الثغور البحرية والبرية ، وبنـاء الأربطة والمنـاظر ، وتزويدهـا بـالرجال ، وشحنهـا بـالميرة والسلاح .

الأمـر الثـانى : استمرارية الجهاد ومواصلة الفتح فى أرض الـروم برا وبحرا . وذلك عن طريق غزوات برية موسمية ، عـلى أملاك الروم فى آسيا الصغرى ، وحملات بحرية مستمرة على الجـزر البيزنطيـة فى البحر المتوسط ، والتعاون مع الحملات البريـة فـى غزواتهـا على معاقل الروم فى آسيا الصغرى ، أو الحـملات الكـبرى عـلى القسطنطينية . وقد تحقق على اثرها ، الاسـتيلاء على بعض المدن والثغور البيزنطية فى آسيا الصغرى وعدد من جزر البحر المتوسط . وكـان أعظم الحروب التى خاضها الأمويون ضد البيزنطيين ، هى تلك الحملات الثلاث التى وجهوها لفتـح مدينـة القسطنطينية ، عاصمة الدولة البيزنطية (١) . وان لـم تنجـح هـذه الحملات ، فانهـا شكلت تهديدا اسلاميا للدولة البيزنطيـة ، وجعلت زمام المبادرة وكفة التفوق العسكرى فى ذلك العصر للمسلمين (٢) .

وبـاتجاه الغرب ، أتم الأمويون فتح افريقية ، وذلك بعد جهود عسكرية كبيرة قادها عدد من القادة على مراحل متتالية

---

(١) قـامت فـى عهد معاوية بن أبى سفيان الحملة الأولى سنة ٤٩هـ ، والثانية سنة ٥٤هـ ، أما الحملة الثالثة فقد حـدثت فـى عهـد سـليمان بـن عبد الملك ٩٨هـ . عن هذه الحـملات انظـر/عمـر سليمان العقيلى : خلافة معاوية بن أبى سفيان ، ص ١٠٨ ومابعدها – ابراهيم أحمد العدوى : الأمويون والبيزنطيون ، ص ١٦٢-١٧٨ ، ٢١٢-٢٢٣ .

(٢) عن الفتوح فى أرض الروم ، وأساليب المسلمين الدفاعية والهجوميـة ، ولمعلومـات أشـمل وأوسـع ، انظر / هاشم اسـماعيل الجاسم : دراسات تاريخية وعسكرية عن الثغور البيزنطيـة والعربيـة منـذ الفتـح العـربى للشام حتى نهـايـة العصـر العباسـى الأول ، رسالة ماجستير ، غير مطبوعة ، مقدمة لكلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٧م ص ٨٠-٩٦ ، ١٠٢-١٤٥ – ابـراهيم العـدوى : الأمويـون والبيزنطيون .

وهم معاوية بن حديج ، وعقبة بن نافع الفهرى ، وابو المهاجر دينار ، وعقبة للمرة الثانية ، وزهير بن قيس البلوى ، وحسان بن النعمان ، وآخرهم موسى بن نصير ، الذى فتح الله على يديه ايضا ، هو وقائده طارق بن زياد اقليم الاندلس .(١) وتشير مجموعة من المراجع ، الى ان موسى اجتاز جبال البرتات (البرنيه) ، فاتحا بلاد الغال ، وان ذلك كان تنفيذا لمشروعه الرامى الى فتح اوروبا من ناحية الغرب ، واسقاط كرسى المسيحية فى روما ، وفتح القسطنطينية عن طريق البر من غربها ، بعد ان اعجز المسلمون فتحها بحرا من الناحية الشرقية ، ومن ثم الالتفاف شرقا عن طريق آسيا الصغرى حتى الوصول الى دمشق ، لتصبح اوروبا وقد اشرق عليها نور الاسلام ، ويضحى البحر المتوسط بحيرة اسلامية ، ويتخذ من تلك الارض مسلكا بريا لاهل الاندلس الى المشرق وبالعكس ، لايركبون بحرا . لكن استدعاء الخليفة الوليد بن عبد الملك لموسى وطارق ، والحاحه عليهما ، ادى الى عدم تنفيذ هذا المشروع .(٣)

---

(١) عن فتح المغرب ، انظر / حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، القاهرة ، مطبعة مصر ، ١٩٤٧م .

(٢) عن فتح الاندلس ، انظر / حسين مؤنس : فجر الاندلس ، دراسة فى تاريخ الاندلس من الفتح الاسلامى الى قيام الدولة الاموية (٧١١-٧٥٦م) ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، ١٩٥٩م ، ص ٥٢-١٠٣ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس من الفتح العربى حتى سقوط الخلافة بقرطبة ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨١م ص ٥١-١١٢ .

(٣) عن الفتوحات فى بلاد الغال ، انظر / شكيب ارسلان : تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٨٣م ، ص ٣٠-١٤٧ .

كما ادى ذلك الى ايقاف الجهاد فى الاندلس قبل ان يتم فتح جميع نواحيه ، وخاصة الجنوب الشرقى الذى اتم فتحه عبد العزيز بن موسى ، والجزء الشمالى الغربى ، وهو منطقة اشتريس ، وجليقية . وقد كانت فلول القوط ، قد تقهقرت امام جيوش الفتح فى الاندلس ، واعتصمت بصخرة بلاى من نواحى كنتبرية بجليقية ، فى حين وصل موسى بن نصير الى مدينة خيخون من تلك المنطقة ، وبعث سرية وصلت البحر ، وحاربت الفل فى تلك الصخرة ، حتى صاروا ثلاثين رجلا ، ليس لهم من قوت سوى عسل النحل ، فاعى المسلمون امرهم لوعورة المنطقة ، فانصرفوا عنهم ، ولعل استصغار شانهم ، والحاح الخليفة على موسى بالقدوم ، هو السبب فى تركهم . المهم أن بقاء تلك المنطقة دون فتح ، مكن تلك القلة القليلة من تشكيل قوة مقاومة للوجود الاسلامى ، حيث نبتت هناك وفى تلك الصخرة جذوة المقاومة النصرانية ضد المسلمين – كما سنرى ذلك عند حديثنا عن حركة بلاى فى الفصل الثانى ، الذى تزعم تلك القوة وقاد تلك المقاومة – والتى ستكون نواة لقيام دولة اشتورية المسيحية ، او ماعرف بعد ذلك بمملكة ليون . (١)

و ما من شك ان ماتحقق من عظيم الفتوحات فى العهد الاموي ، كان وراءه عوامل مساعدة معنوية وحسية ، ولعل من اهم تلك العوامل ، ماوصل اليه الجيش الاموى من كثرة وكفاءة

(١) عن الجزء الشمالى الغربى من شبه جزيرة ايبيريا وترك موسى بن نصير هذه البلاد دون فتح ، وعن فتح الجنوب الشرقى من شبه الجزيرة على يد ابنه عبد العزيز ، انظر : حسين مؤنس : فجر الاندلس ، ص ١٠٥-١٠٦،١١١-١١٧، ٣١٣-٣١٥ – خليل ابراهيم السامرائى : الثغر الاعلى الاندلسى ، ودراسة فى احواله السياسية (٩٥-٣١٦هـ/٧١٤-٩٢٨م) ، مطبعة اسعد ، بغداد ، ١٩٧٦م ، ص ١٠٢ .

وقوة جوهرها الايمان ، وظاهرها ، حسن الاعداد والتنظيم والتدريب والتجهيز ، وتطور الاساليب ، وتنمية القدرات .

ويشير ابن عساكر (١) الى ان الجيش الاموى بلغ تعداده ، خمسمائة الف جندى . وتلك قوة ضاربة اذا ماجمعت قوة الايمان وسلامة الاعداد ، وهذا ماحرص بنو امية عليه (٢) .

والحق أن مافتح على يد الامويين من بلاد ، وماانضوى فى ظل دولتهم من العباد ، فى تلك الحقبة القصيرة ، يعد من خصائص هذه الامة ، ومفخرة لبنى امية ، ودليلا على قوة دولتهم ، واثر دعوة الاسلام ، ومدى استجابة الناس لها .

ومما يحسب للدولة الاموية ، تطور الجهاز الحكومى الذى تمثل فى انشاء بعض الدواوين التى دعت الحاجة الى استحداثها وفيما قام به الامويون من تنظيمات ادارية ومالية وعسكرية ، كما وان من ابرز سمات الحكم الاموى ، تحويل نظام الخلافة من نظام يقوم على الشورى الى نظام وراثى ، واخذ الخلفاء الامويين بمظاهر الملك ، بعد بساطة الخلافة الراشدة اما فيما يخص اشكال الحكم وأساليبه ، فقد سار بنو امية على كثير مما كان منها فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين رضى الله عنهم . فقام الكثير منهم

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق ، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م ٢٦٢/١ .

(٢) عن الجيش الاموى وتنظيماته ، انظر : خالد جاسم الجنابى : تنظيمات الجيش العربى الاسلامى فى العصر الاموى ، رسالة مطبوعة ، دار الشئون الثقافية العامة الدار الوطنية للتوزيع والاعلان ، وزارة الثقافة والاعلان ، العراق ، بغداد ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦م — وفيق الدقدوقى : الجندية فى عهد الدولة الاموية ، رسالة جامعية ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الاولى ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م .

بامامة الناس فى الصلاة ، ومباشرة احوال الناس ، والجلوس لمظالمهم ، والاخذ بمبدا الشورى فى تصريف ماعظم من الامور ، والاستعانة باهل العلم ، وذوى الراى والخبرة ، وحراسة الدين وسياسة الدنيا به .

كما ابقوا على التنظيمات التى وضعها النبى عليه الصلاة والسلام ، وخلفاؤه الراشدين ، لكنهم طوروها بما يلائم نمو الدولة ، واستحدثوا مادعت اليه الحاجة ، وذلك بعد توسع رقعة الدولة الاسلامية ، ودخول عناصر جديدة فى المجتمع الاسلامى ، وكذلك ثقافات واديان ومذاهب متعددة ، والاطلاع على مظاهر حضارية جديدة ، واساليب حياة ، ونظم حكم ، ورثوها عمن كان قبلهم من الامم فى البلاد المفتوحة .

وقد برز التطور الادارى فى العصر الأموى ، فيما وصل اليه نظام الدواوين من تطور ، تمثل فى توسع اختصاصات الدواوين السابقة وتنميتها ، واستحداث اخرى دعت اليها الحاجة ، ولشمول الخدمات والضبط والدقة . ولعل من اهم مايذكر لبنى أمية وينسب لدولتهم ، استكمال انشاء الدواوين التى دعا تطور الدولة الى انشائها . واهم دواوينهم : ديوان الخاتم ، وديوان البريد ، وانشاهما معاوية رضى الله عنه ، وديوان الخراج ، وديوان الرسائل ، وديوان الجند ، وديوان بيت المال . والثلاثة الاخيرة منها انشئت قبل العصر الأموى . كما انشئت دواوين فرعية فى الأمصار للدواوين المركزية الموجودة فى عاصمة الدولة دمشق (١) .

---

(١) عن الدواوين فى العصر الاموى ، انظر / احمد السيد دراج : صناعة الكتابة وتطورها فى العصور الاسلامية ، دعوة الحق ، سلسلة شهرية تصدر عن رابطة العالم الاسلامى بمكة المكرمة ، السنة الأولى ، ١٤٠١هـ ، ذو القعدة ، العدد (٨) ، ص ٢٦-٣٤ . وقد اشار الى ان =

لكن هذا التطور الذى شهده الجهاز الادارى والمالى ، كان ينقصه اكتمال الشخصية ، فلقد ظلت بعض الدواوين تكتب بلغة أهل البلاد المفتوحة وتقوم على خبرات كتابها ، حتى عهد عبد الملك بن مروان ، الذى عرب الدواوين ، وكانت تكتب فى الشام بالرومية ، فنقلها له الى العربية سليمان بن سعد الخشنى سنة ٨١هـ ، وكانت تكتب فى العراق بالفارسية ، فعربها صالح بن عبد الرحمن ايام الحجاج بن يوسف ، وفى مصر كانت تكتب بالقبطية ، فنقلها الى العربية ابن يربوع الفزارى ، باشراف الوالى عبد الله بن عبد الملك فى خلافة اخيه الوليد بن عبد الملك بن مروان ، وفى مصر عربت القراطيس (أوراق البردى) ، حيث كانت تصدر بالشعار المسيحى فامر عبد الملك بن مروان بازالة ذلك واستبداله بذكر الله تعالى ، والنبى عليه الصلاة والسلام ، وكذلك فعل بصناعة الطرز (الاقمشة) فامر بتعريب الكتابات والنقوش التى عليها كما سك عبد الملك النقود الاسلامية ، وأوقف التعامل بالدنانير الذهبية البيزنطية ، والدراهم الفضية الفارسية (١)

= ابو زيد شلبى : (تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص ١١٠-١١١) يجعل الدواوين الرئيسية فى العصر الأموى خمسة مسقطا ديوان بيت المال . كما أشار الى أن فرج الهونى، النظم الادارية والمالية ، ص ١٩٦-٢٠٤ يجعلها سبعة دواوين باضافة ديوان الزمام . ولمعلومات أشمل انظر هذين المرجعين الذى أشار اليهما د. احمد الدراج .

(١) عن تعريب الدواوين والقراطيس والطرز وسك العملة الاسلامية ، انظر / فرج الهونى : النظم الادارية والمالية فى الدولة العربية الاسلامية (منذ قيام حكومة الرسول بالمدينة حتى نهاية الدولة الأموية) ، ماجستير فى الآداب ، منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان ، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م . ص ٢٠٥-٢١٩ .
(هذا وقد اغفل فرج الهونى وغيره من المؤرخين المحدثين الذين تحدثوا عن تعريب الدواوين ، الاشارة الى تعريب=

وما اعظم اثر تلك الاعمال على الدولة الاسلامية ، فقد صبغت الدولة بصبغة الاسلام ولغته ، وادت الى تميز الدولة وتكامل شخصيتها ، وتحريرها من اى نفوذ اجنبى .

ومن معالم الدولة الاسلامية البارزة مطلع القرن الثانى ماوصلت اليه من تقدم علمى ملحوظ ، وبخاصة فى العلوم الدينية من قراءات وتفسير وحديث وفقه ، وفى الادب ، والكتابة التاريخية . فقد عاشت الدولة الاسلامية حركة علمية نشطة ، تتزامن مع بداية الرسالة ، حيث جاء القرآن آمرا بالعلم حاثا عليه مفضلا لاهله ، وكذلك الحديث والاثر ، ومن هنا عاشت الامة حركة علمية واسعة ، حظيت باهتمام اولى الامر واهل العلم واقبال الناس (١) .

= ديوان خراسان ، وكان بالفارسية ، فنقله الى العربية اسحق بن طليق الكاتب سنة ١٢٤هـ فى ولاية نصر بن سيار بامر من عامل العراق يوسف بن عمر الثقفى ، فى خلافة هشام بن عبد الملك . عن ذلك (انظر / الجهشيارى : كتاب الوزراء والكتاب ، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابيارى وعبد الحفيظ شلبى ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى واولاده ، بمصر ، الطبعة الثانية ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص ٦٧). وهذا يعنى أن تعريب الدواوين وان بدأ فى عهد عبد الملك بن مروان الا انه لم يستكمل فى بعض الاقاليم الا فى اواخر الدولة الاموية .

(١) عن النصوص الدالة على فضل العلم ووجوب العمل به وتعليمه ، وما اتخذ من تدابير فى سبيل دفع الحركة العلمية والكتب التى اختصت بذلك ، انظر : سعد بن موسى الموسى : تاريخ الحياة العلمية فى المدينة النبوية خلال القرن الثانى الهجرى ، رسالة ماجستير فى التاريخ الاسلامى ، مقدمة لقسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية ، بكلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، جامعة أم القرى ، غير مطبوعة ، ١٤٠٩هـ ، ص ٣-٧ - خليل داود الزرو : الحياة العلمية فى الشام فى القرن الأول والثانى للهجرة ، رسالة ماجستير فى الآداب ، الجامعة الأمريكية ببيروت ، مطبوعة ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الاولى ، ١٩٧١م ، ص ١٨-١٩ - محمد امين بدوى : دراسات فى التربية والفكر فى الاسلام خلال عصور الاسلام القوية ، الطبعة الاولى ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ص ٩-١٩ .

ولاشك ان العلم بمبادىء الدين الجديد ، قد حظى باهتمام الناس وتكالبهم عليه ، فكانت حركة العلوم الدينية اكبر الحركات العلمية واوسعها نطاقا . حيث اقبل الناس على القرآن يتلونه ، ويفهمون معانيه ، ويفسرون آياته ويستنبطون منه الاحكام ، وكذلك فعلوا فى الحديث ، وقد بدات هذه الحركة منذ زمن المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ثم اخذت فى الاتساع بعده ، فقد تتلمذ صحابته رضوان الله عليهم على يديه ، فصاروا ائمة يقتدى بهم ، وعلماء يعلمون الناس ويفقهونهم فى الدين ، اينما كانوا وحيثما حلوا ، سواء كان ذلك بتوجيه من اولى الامر او من تلقاء انفسهم ، فكونوا لهم مدارس بالامصار ، اصبح التابعون فيها تلاميذهم ، ثم اضحى هؤلاء علماء الناس ، تلقى عنهم اتباعهم ، فى حركة علمية متنامية جيلا بعد جيل .(١)

واذا اراد الباحث ان يتحدث عن العلوم فى القرن الاول الهجرى فانه لايستطيع فصل علم من العلوم عن علم آخر ، كما يصعب العثور على عالم لايجيد الا تخصصا واحدا .(٢) لهذا آثرنا الحديث عن العلوم فى قول مجمل ، يركز على اهم معالم هذه النهضة ، نشاتها وتطورها ، وايضا بداية التدوين ومراحله ، والسمات الاساسية للحركة العلمية ، واهم مظاهر نشاطها .

لقد ظل الاسلوب الغالب فى حفظ العلوم وتدارسها ، أسلوب الحفظ فى الذاكرة ، حيث سيطر هذا المنهج على العلوم

---

(١) احمد امين : فجر الاسلام ، مكتبة النهضة العلمية ، القاهرة ، الطبعة العاشرة ، ١٩٦٥م ، ص ١٤٥-١٥٢ .
(٢) سعد الموسى : تاريخ الحياة العلمية فى المدينة ص ٨ .

الى مايقارب الربع الأخير من القرن الاول الهجرى (١) . لكنه لم يكن الأسلوب الوحيد ، فقد اعتمد المسلمون ايضا على تقييد العلم ، وبداوا يدونونه منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، بعلمه وامره او اقراره ، من ذلك كتابة القرآن ، وماكتبه الرسول الى الملوك والأمراء وبعض عماله ، وكذلك ماكتبه بعض الصحابة من صحف خاصة بهم ، تضم فنونا شتى ، كعلى بن ابى طالب ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وابو شاة ، وابو امامة الباهلى ، وابو الدرداء ، وابو موسى الاشعرى ، وابن عباس وغيرهم كثير ، ويذكر فى هذا الصدد اكثر من خمسين صحابيا كتبوا الحديث او كتب لهم (٢) .

ولما جاء عصر التابعين ومن تلاهم ، قويت الحركة العلمية ، بسبب الفتوح ، ومادات اليه من دخول امم متعددة ذات تراث حضارى فى الاسلام ، وما اورثته من مستجدات ومتغيرات جعلت الحاجة ماسة فى نشر العلم وتفقيه الناس وتلبية حاجاتهم ، فنما العلم وكثر التدوين زمن التابعين (٣) .

---

(١) سعد الموسى : تاريخ الحياة العلمية فى المدينة ص ٨٥ .

(٢) رفعت فوزى عبد المطلب : صحيفة همام بن منبه عن ابى هريرة رضى الله عنه ، تحقيق وشرح ، مكتبة الخانجى ، مصر ، الطبعة الاولى ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م ، ص ٤-٥ - وانظر للمؤلف أيضا / توثيق السنة فى القرن الثانى الهجرى اسسه واتجاهاته ، رسالة مطبوعة ، مكتبة الخانجى ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٠هـ/١٩٨١م ، ص ٤٧-٥٣ - سعد الموسى : نفس المرجع ، ص ٨٥-٨٦ - خليل الزرو : الحياة العلمية فى الشام ، ص ٧٥ .

(٣) من أجل ذلك ، انظر / احمد أمين : فجر الاسلام ، ص ١٩٧-١٩٨ - سعد الموسى : نفس المرجع ، ص ١٠، ٢٤، ٨٦-٨٧ - خليل الزرو : نفس المرجع ، ص ٧٨ . وسيتبين مدى انتشار التدوين عند دراستنا لجوانب الحياة العلمية زمن يزيد فى الفصل السادس .

واما تلقي المعلومات ونقلها الى الآخرين ، فكان يتم بعملية شفهية بحتة ، واما حفظ هذه المعلومات فكان يعتمد على الكتابة في معظم الاحوال ، ليستذكر العالم ماكتب ، يستعين به على الحفظ ، ويعود اليه وقت الحاجة (١) .

اما مراحل ذلك التدوين ، فالحق ان وضع فواصل زمنية لمراحل تطوره ، امر لايمكن تحقيقه على وجه الدقة المطلقة ، والآراء حول ذلك متضاربة ، وان قد تبين لنا بمالامجال للشك معه ، أن بداية التدوين تمت منذ العصر النبوى ، وان كانت بدايات بسيطة غير واضحة المعالم . ويبدو ان اختلاف الآراء حول بداية التدوين ، راجع الى الاختلاف في فهم المقصود بالتدوين ، اهو بداية الكتابة ، أم تأليف الكتب ، أم وضع المصنفات المبوبة المرتبة ، فمن عنى بالتدوين الكتابة جعل بدايته منذ عصر النبوة ، ومن عنى به ظهور الكتب الجامعة للعلم دون تبويب وترتيب ، ارخ له بأواخر القرن الاول وبداية الثاني ، ومن عنى به التصنيف في العلوم كل على حدة وفق التبويب والترتيب ، جعل بدايته منذ منتصف القرن الثاني تقريبا (٢) .

ولعل مما ساعد على القول بتأخر التدوين ، الاعتماد على ما اشتهر من القول ، أن المسلمين اعتمدوا في حفظ

---

(١) شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون ، دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الاسلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٣م ، ٧٥/١-٧٦ .

(٢) ممن فهم التدوين على انه التصنيف الذى تم في العصر العباسي ، محمد يوسف موسى ، انظر قوله في كتابه : تاريخ الفقه الاسلامي ، الجزء الثاني ، عصر نشأة المذاهب ، دار المعرفة ، القاهرة ، ص ٥٠ .

علومهم على الذاكرة وتناقلوها وتدارسوها عن طريق الرواية الشفهية البحتة ، مع اغفال دور التدوين والمدونات في تلك العملية . وكذلك على ماورد من نصوص تفيد كراهة الكتابة والنهي عنها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعض الصحابة رضوان الله عليهم ،وعدد من التابعين ، وتلك امور لاتصح عطفا على ماقدمناه من ثبوت التدوين منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد فند رفعت فوزي عبد المطلب (١) تلك المزاعم وعلل ماورد حول القول بالكراهية واقرب مارايته الى الصحة عن مراحل تدوين العلم ، التقسيمات التي وضعها سعد الموسى (٢) ، الذي جعلها ثلاث مراحل ، الأولى : كتابة القرآن ، وتدوين بعض المعلومات المتفرقة من حديث او فقه أو شعر او نوادر ، على يد بعض الصحابة ، واستمر ذلك حتى الربع الاخير من القرن الأول ، وكان اصحاب هذه المدونات يسمونها صحيفة او جزءا .

الثانية : جمع الكتابات المتفرقة في كتاب واحد بدون ترتيب او تبويب ، كجمع السنن في دفاتر زمن عمر بن عبد العزيز ، وهذه المرحلة جاءت في أواخر القرن الأول وبداية الثاني .

الثالثة : مرحلة التصنيف المبوب المرتب حسب الموضوعات ، وتبدأ منذ منتصف القرن الثاني تقريبا .

---

(١) من أجل ذلك ، انظر : توثيق السنة ، ص ٤٣-٥٤ .
(٢) تاريخ الحياة العلمية في المدينة ، ص ٨٦-٨٧ . وعن مراحل التدوين التاريخي بشكل خاص ، انظر / محمد ابن صامل السلمي : منهج كتابة التاريخ الاسلامي ، ماجستير مطبوعة ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، الرياض الطبعة الاولى ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ص ٢٨٦-٢٩٠ .

أما صفة العلماء في العصر الأموي وتدوينهم ومدوناتهم فجملة القول فيها ، ان العلماء كانوا موسوعيون ، ياخذون من كل علم بنصيب وافر ، وكان للعلماء من الموالي دورهم المميز الى جانب العرب خصوصا في اواخر القرن الاول ، وكانت العلوم والدروس خليطا من فنون العلم المختلفة ، لاتميز بينها ولا استقلال ، وان بدا في اواخره ظهور التدوين والتدريس المستقل لكل علم (١) . اما العلوم المدونة فلم تكن الا مجموعة روايات واخبار لااثر للدرس والتحقيق فيها (٢) . فلم تظهر شخصية المؤلف فيما دون ، واقتصر دوره على الجمع في الغالب (٣) . وقد انصبت العناية بشكل رئيسي في ذلك العصر على العلوم النقلية ، بينما ظهر الاهتمام بالعلوم العقلية في العصر العباسي (٤) .

ولقد حظيت الحركة العلمية باهتمام غالب الخلفاء الأمويين ، لكنه اهتمام محدود الجوانب والاثر ، غير ان العلوم عاشت حركة نمو من تلقاء نفسها ، في أمة دعاها دينها الحنيف الى العلم وحثها عليه (٥) .

وكان لهذا النشاط العلمي مظاهره المتمثلة في مؤسساته ورجاله ، ومناهجه ، وياتي على رأس المؤسسات العلمية في

---

(١) احمد امين : فجر الاسلام ، ص ١٥٢،١٦٣-١٦٤ .
(٢) محمد عبد المنعم خفاجي : تاريخ الادب في العصر الأموي مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، ص ١٩ .
(٣) احمد امين : نفس المرجع ، ص ١٦٩ .
(٤) محمد الحسيني عبد العزيز : الحياة العلمية في الدولة الاسلامية ، ماجستير مطبوعة ، وكالة المطبوعات الكويت ١٩٧٣م ، ص ١٨ – محمد خفاجي : نفس المرجع ، ص ٤٤ .
(٥) محمد بدوي : دراسات في التربية والفكر في الاسلام ، ص ٢٥-٢٨ – احمد امين : نفس المرجع ، ص ١٦٤-١٦٥،١٨٩ .

صدر الاسلام المساجد (١)، حيث قامت بالدور الأساسي في التعليم واشهرها المسجد النبوى ، والمسجد الحرام ، وجامع دمشق ، والكوفة ، والبصرة ، وجامع عمرو بن العاص بالفسطاط ، وجامع القيروان بافريقية . حيث جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجده يعلم الناس ، وهكذا فعل علماء الصحابة والتابعين ، كانوا يجلسون فى حلقات علمية ، غالبا ماتكون متعددة فى الجوامع الكبيرة ، ويتناولون من العلم فنونا شتى من تفسير وحديث وفقه ومغاز وغير ذلك ، كابن عباس ، ومنهم من يقتصر الدرس فى حلقته على فن معين كالقصص او المغازى أو اللغة . وكانت هذه الحلقات اما فردية ، يتصدرها عالم واحد ، كحلقة سعيد بن المسيب ، أو ثنائية يشترك فيها عالمان ، كحلقة سالم بن عبد الله والقاسم بن محمد فى المسجد النبوى . وكان لبعض الأسر حلقات ، كاسرة آل حزم وآل عقبة . كما كان هناك مجالس لبعض العلماء فى منازلهم ، ومجلس لكبار الفقهاء فى المدينة ، يعرض عليه ما أشكل من المسائل (٢). وكان للتعليم فى هذه الحلقات والمجالس ، مناهجه وأساليبه وآدابه (٣).

---

(١) عن دور المسجد فى خدمة الحركة العلمية ، انظر / محمد بدوى : دراسات فى التربية والفكر فى الاسلام ، ص ٧٢-٧٤ محمد السيد الوكيل : الحركة العلمية فى عصر الرسول وخلفائه ، دار المجتمع للنشر والتوزيع ، السعودية ، جدة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ص ١٤-١٦ .

(٢) عن الحلقات والمجالس العلمية ، انظر / سعد الموسى : تاريخ الحياة العلمية فى المدينة ، ص ٨٩-٩١ .

(٣) عن مناهج وطرق التعليم وأساليبه ، انظر / محمد السلمى : منهج كتابة التاريخ الاسلامى ـ محمد بدوى : نفس المرجع ، ص ٩٤-١٠٦ ـ خليل الزرو : الحياة العلمية فى الشام ، ١٩/٢-٢٣ .

ومـن دور العلم الكتاب (١) ، وهى من اقدم مؤسسات التعليم فـى الدولة الاسلامية ، حيث اسهمت مع المساجد فى نشر العلوم والمعـارف ، وتعتبر النواة الأولى فى العملية التعليمية ، ولعـل دورهـا الأساسى تعليم الصبيـان القراءة والكتابة ، وتحفيظهم القـرآن . وقـد اشتغل بالتعليم فيها رجال بلغوا درجة كبيرة من العلم ، كالامام القدوة الحافظ ، القاسم بن مخيمرة الهمدانى الكوفى (ت ١٠٠هـ او ١٠١هـ) .

كمـا ظهـرت فئة المؤدبين فى العصر الأموى ، وهم الذين يعلمـون ابنـاء الخلفـاء والأمـراء والخاصـة ، ويشرفون على تـاديبهم وتربيتهم فى منازل آبائهم ، ومن مؤدبى ذلك العصر دغفل بن حنظلة الشيبانى ،الذى اختاره معاوية رضى الله عنه مؤدبـا لابنه يزيد ، واسماعيل بن عبيد الله بن ابى المهاجر مـؤدب بنـى عبـد الملـك بن مروان ، وكان الخليفة يزيد ممن تـربى عـلى يديـه ، وغيرهمـا كثير . وكـان اختيارهم يتم وفق شـروط يـاتى فـى مقدمتهـا الدين وسعة العلم والفضل ، وكـان للتـاديب مناهجه وطرقه ، وهو بهذا كان عظيم الاثر فى شخصيات هؤلاء المتعلمين (٢) .

---

(١) عـن الكتـاب ، انظـر / يوسـف احـمد حوالـه : الحيـاة العلميـة فى افريقية "المغرب الادنى" منذ اتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجرى ، رسالة دكتوراه غير مطبوعـة ، مقدمـة لقسـم الدراسـات العليا التاريخيـة والحضاريـة ، كلية الشريعة ، جامعة ام القرى ، ١٤٠٥-١٤٠٦هـ/١٩٨٥-١٩٨٦م ، ص ٢٣٢-٢٣٤ — محمد بدوى : دراسات فى التربية والفكر فى الاسلام ، ص ٦٩-٧١ .

(٢) عـن المؤدبين فى العصر الأموى ، انظر / محمد صالحية : مؤدبـوا الخلفـاء فـى العصـر الأموى ، (بحث) ، المجلة العربيـة للعلـوم الانسانية ، تصدر عن جامعة الكويت ، العدد الثالث ، المجلد الأول ، صيف ١٩٨١م ، ص ٣٥-٧٤ — خليل الزرو : الحياة العلمية فى الشام ، ص ٢١، ٢٨-٢٩.

والـــى جـــانب ذلك عرفت المكتبات العامة والخاصة ، وقد وصلـــت الى درجة جيدة من وفرة الكتب ، وكفايتها على القيام بالدور المنوط بها ، ومنها خزانة الامويين للكتب ، ومكتبات العلمـــاء فـــى منـــازلهم ، كمكتبـــة عـــروة بـــن الزبير ، وبعض المكتبـــات التـــى اقامهـــا بعـــض النـــاس لخدمة العلم ، وفتحت ابوابهـــا لســـائر المتعلمين ، كمكتبة عبد الحكم بن عمرو بن عبـــد اللـــه بـــن صفـــوان الجمحى ، وقد كان هناك اسواق رائجة لنســـخ الكـــتب وبيعهـــا ، ســـاعدت عـــلى انتشـــار الكـــتب وظهور المكتبات ونشاط حركة العلم (١) .

وعـــلى ضـــوء هذا العرض الموجز لاهم منجزات العصر الاموى حـــتى مطلع القرن الثانـى ـ ماعدا سياسات عمر بن عبد العزيز واصلاحاته والتى سنشير الى معالمها فى اواخر هذا التمهيد ـ يتبين بما لا اختلاف حوله عظمة الانجازات التى تحققت فى الستين عاما ـ تقريبا ـ التى سبقت عهد يزيد بن عبد الملك . خصوصا اذا اخذنـــا فـــى الاعتبـــار ماعانتـــه الدولة الاموية من مشاكل داخلية مستعصية ، كان من الممكن فى حالة عدم وجودها تضاعف تلك الانجازات وازديادها .

فقد حفل العصر الاموى بصراع داخلى شبه دائم ، تمثل فى قيـــام كثـــير مـــن الحركات المناوئة للحكم الاموى ، والخارجة عـــلى سلطان المسلمين ، والتـــى كـــان وراء حدوثهـــا اسبابا متعددة ، اما مذهبية ودينية ، أو سياسية ذات صبغة شخصية ، او نزعـــة اقليمية ، او عرقية . وان كان من الحق القول بان

---

(١) انظر / احمد امين : فجر الاسلام ، ص ١٦٨،١٦٧،١٦٣ ـ سعد الموسى : تاريخ الحياة العلمية فى المدينة النبوية ، ص ٩٦،٨٧،٢٣،٢٤ .

سياسات بعض حكام بنى امية ، كانت وراء قيام بعض تلك الحركات والتى ابتلى المسلمون بفتنها ، وشغلت الدولة باخمادها ، واراقت من الدماء ، واستنزفت من الجهد والمال الكثير . فكانت بذلك عقبات اعاقت الدولة عن تحقيق كثير من اهدافها العليا ، كالاستمرار فى الفتح ونشر الدين ، والاهتمام بتطوير الدولة وخدمة رعاياها . كما عرضتها للمخاطر وطمع الأعداء المتربصين فى الداخل والخارج . ومع ذلك فقد تصدى لها الخلفاء الامويون ، وعالجوها بشىء من اليقظة والحزم حينا ، وبالحكمة واللين حينا آخر ، بينما ظلوا فى عزيمة لاتهن يواصلون تحقيق كثير من الخير للاسلام ودولته . وان كان تكالب تلك الظروف ، واستمرار تلك الحركات ، قد اوهن جسم الدولة الأموية مع الايام ، فادى اخيرا الى انهيارها قبل ان تبلغ من العمر قرنا من الزمان .

ويمكن حصر اهم تلك الحركات ، فى حركات الخوارج ، ومن خرج من رجالات الاسلام والعرب ، على الحكم الأموى ، على اساس رفض وراثة الخلافة ، والمطالبة بعودتها شورية والدعوة لأنفسهم باعتبارهم احق بالخلافة ، ومنهم من كان خروجه لأسباب ومطامع شخصية . وكذلك حركات الموالى ، وحركات اهل الذمة .

فبالنسبة لحركات الخوارج فى العصر الأموى ، فما هى الا استمرارا لحركاتهم التى بدات منذ نشاة هذه الفرقة فى خلافة على بن ابى طالب رضى الله عنه ، اذ يكاد المؤرخون واصحاب الملل والنحل ان يتفقوا على ان ظهور فرقة الخوارج كان بعد حادثة التحكيم زمن الخليفة على رضى الله عنه ، وقد انقسم

الخوارج الى فرق كثيرة اختلف المؤرخون على عددهم ، لكنهم اتفقوا على انها لاتقل عن عشرين فرقة ، بعضها اصول وبعضها فروع . وفرقهم الاصلية – على خلاف – هى : المحكمة الاولى ، والازارقة ، والنجدات ، والبيهسية ، والعجاردة ، والثعالبة والاباضية ، والصفرية . ويجتمع الخوارج رغم اختلافهم على تكفير على وعثمان واصحاب الجمل والحكمين ومن رضى بالتحكيم وصوب الحكمين او احدهما ، ووجوب الخروج على السلطان الجائر ، كما يتفقون على أن الخلافة لايتولاها احد الا بانتخاب حر صحيح ، يقوم به عامة المسلمين ، ويبقى فى منصبه مادام يطبق الشرع ، فان انحرف او اخطأ وجب عزله وقتله ، ويقولون أن الخلافة حق لكل عربى حر ، وانه اذا اختير لايحق له أن ينزل عنها ، ثم ادخلوا تعديلا على هذا الشرط فى اواخر القرن الاول الهجرى ، فاشترطوا الاسلام والعدل بدلا من العروبة والحرية ، وذلك لانضمام بعض المسلمين من غير العرب الى صفوفهم ، كما انهم يختلفون على أمور كثيرة أيضا .

وتعتبر معركة النهروان سنة ٣٧هـ ، اول حرب يخوضها الخوارج ضد الدولة الاسلامية ، كما انها اول وآخر معركة يجتمع فيها الخوارج تحت قيادة واحدة ، حيث تفرقوا بعدها ، واختلفوا فيما بينهم ، فتعددت فرقهم .

فلما انتقلت الخلافة الى بنى أمية ، رأى الخوارج أن حرب معاوية حق لاشك فيه ، لاعتقادهم انه لم ينل الخلافة عن اجماع من المسلمين ورضا منهم ، ولما اتخذه من مظاهر الملك لذا قامت منذ عهد معاوية رضى الله عنه ، وحتى آخر العصر

الأموى حروب كثيرة بين فرق الخوارج الثائرة ، وولاة بنى امية ، وخاصة فى العراق ، فتصدى لها ولاة بنى امية على العراق ، كالمغيرة بن شعبة ، وزياد بن ابيه ، والحجاج بن يوسف الثقفى ، ونجحوا فى توجيه ضربات قاضية لنشاط الخوارج الأمر الذى ادى الى ازدياد الخلاف بين فرقهم وانقسامهم الى عدة فرق ، مما ساعد الأمويين على ملاحقتهم والقضاء على حركاتهم ، حتى استؤصلت فرق من الخوارج نهائيا ، كفرقة الأزارقة التى قضى عليها (سنة ٧٧هـ) ، فى ولاية الحجاج الثقفى .

ونتيجة لجهود الحجاج وقائده المهلب بن ابى صفرة ، هدات حركات الخوارج فى عهد الوليد بن عبد الملك واخيه سليمان بن عبد الملك ، ثم عادوا للظهور زمن عمر بن عبد العزيز (١) .

اما أهم الحركات التى قام بها رجالات الاسلام والعرب ، فكان اولها خروج الحسين بن على بن ابى طالب رضى الله عنه على يزيد بن معاوية ، بعد رفضه البيعة ليزيد ، وارسال العراقيين له بالبيعة وهو فى مكة ، داعينه للخروج اليهم

---

(١) عن الخوارج فى تلك الفترة ، انظر / نايف محمود معروف الخوارج فى العصر الأموى ، نشاتهم ، تاريخهم ، عقائدهم ، أدبهم ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الاولى ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ـ على مصطفى الغرابى : تاريخ الفرق الاسلامية ونشاة علم الكلام عند المسلمين ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٥م ، ص ٢٦٤-٢٨٤ ـ فاطمة عبد القادر رضوان : المغرب فى عصر الولاة الأمويين (٩٠-١٣٢هـ) ، رسالة ماجستير ، غير مطبوعة ، مقدمة لقسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية ، كلية الشريعة ، جامعة أم القرى ، ١٤٠٤هـ ، ص ١٠١-١٠٤ ـ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى والثقافى والاجتماعى ، ١/٢٧٥-٣٩٤

لمناصرته ، فخرج الى العراق ، لكن الامر انتهى بمقتله بعد خذلان اهل العراق له ، وذلك فى كربلاء (سنة ٦١هـ) (١) .

واستعاذة عبد الله بن الزبير رضى الله عنه بالبيت ، ثم البيعة له بالخلافة بعد موت يزيد بن معاوية ، وخضوع الأمصار الاسلامية له ماعدا بعض بلاد الشام ، والامويين وبعض بنى هاشم ، لكن امره تناقص وانتهى بمقتله (سنة ٧٣هـ) (٢) .

وحركة المختار بن ابى عبيد الثقفى ، والذى قام باسم المطالبة بحق آل البيت فى الخلافة ، والدعوة لمحمد بن الحنفية ، وان كان قد اخفى مطامعه الشخصية وراء ذلك وهى الوصول الى السلطان ، وانتهى الامر بمقتله (سنة ٦٧هـ) (٣) .

وحركة عبد الرحمن بن الاشعث ، الذى خلع الحجاج وعبد الملك بن مروان ، انفة من الخضوع للحجاج ، وطموحا لأهداف شخصية ، ساعده على ذلك كره الناس للحجاج ، والنزعة الاقليمية فى نفوس العراقيين تجاه اهل الشام وحكومته ، وانتهى الأمر بمقتله (سنة ٨٥هـ) (٤) . وغيرها من الحركات (٥) .

---

(١) عن قيام الحسين على يزيد بن معاوية ، انظر / عبد العزيز غنيم : موقف الحسين من الخلافة وآثاره السياسية ، رسالة دكتوراه مقدمة لكلية اللغة العربية الازهر .

(٢) عن قيام عبد الله بن الزبير على الدولة الأموية ، انظر / على الخربطلى : حركة ابن الزبير واثرها على تاريخ الدولة الأموية ، ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ـ شهادة الناطق : ثورة عبد الله بن الزبير ، ماجستير كلية الآداب ، الجامعة اللبنانية .

(٣) عن حركة المختار الثقفى ، انظر / خالد ابو النصر محمد : قصة المختار بن ابى عبيد الثقفى ، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ـ نجيب جرجس : المختار الثقفى وأثره فى العصر الأموى ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، الجامعة اللبنانية .

(٤) عن حركة ابن الاشعث ، انظر / نبيه عاقل : تاريخ خلافة بنى أمية ، ص ١٧٢-١٨٣ .

(٥) عن الحركات فى العصر الأموى عموما ، انظر / محمد جمعة عبد العزيز : المعارضة فى العصر الأموى ، ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة الملك عبد العزيز .

أمـــا حركات المـوالــي ، فلاشك
أن سياســات بعض الحكام الأمويين كانت وراء قيامها ، اذ دخل المـــوالـي فـــي ديـــن الاسـلام ، مدفـــوعين اليـــه بعظمته وسماحة مبادئه وشرائعه ، عالمين ماتحتوى عليه من العدل والمساواة بيـــن النـــاس . فكانوا ينتظرون بعد اسلامهم أن يكونوا للعرب الفـــاتحين اخـــوة فـــي الاســلام ، متســاوين معهـم فـــي الحـــقوق والواجبات ، ينعمون بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة . لكن الأمر الـــواقع فـــي العصـــر الأمـــوى ، لـم يات بتلك الصورة المثلى ، التـــي رسـمها الاسـلام وحـدد معالمها ، حيث تجمع الاشارات في المراجـــع التاريخيـــة عـــلى دلائـــل لأنفـــة العربي وتعاليه على الأعجـــمي ، ونحـــن لانســتبعد وقـــوع شيء من هذا ، اذ كنا نعلم بعـــودة العصبيـــة الـــى الظهور بين العرب انفسهم ، لكن الأمر لايصـــل الـــى الحد الذى غالى فيه بعض الكتاب المحدثين ، فـــان مـــن النصوص مايدل على حسن معاملة المـوالـي ، والتعامل معهم الـنـــد بالـنـد ، بل وتبجيلهم واتخاذهم ائمة يقتدى بهم ، اذا ماكـــانـوا أهـــلا لـــذلك ، كالحســـن البصرى وغيره من أهل العلم والفضل والدين .

والدولـــة الأمويـــة ، كـــان من أبرز معالمها الاعتماد على العنصـــر العربـــي ، لكن ذلك لم يكن على وجه الاطلاق فقد اعتمد بنـــو أمية على الموالـي فى ادارة الدولة وماليتها ، وقيادة جيوشـــها ، فمن الولاة أبو المهاجر دينار ، ومن القادة طارق ابن زياد ، ومن عمال الخراج عبد اللـه بن دراج مولى معاوية الذى ولاه خراج العراق . وغيرهم كثير .

والبيـــن أن تذمـــر المـــوالـي قد جاء بشكل رئيسى من بعض

السياسات المالية المخالفة للنهج الاسلامى ، والتى عمل بعض الحكام الامويين على تطبيقها ، فالنهج الاسلامى يقتضى اسقاط الجزية عمن اسلم ، والخراج عن الارض التى اسلم عليها اهلها والارض التى صولح اهلها على ان تبقى على ملكهم ، وان يفرض له فى العطاء ، ولايفرض عليه ضرائب غير شرعية ، ولايلزم الا بدفع الزكاة .

وكان الامويون قد اعادوا تنظيم الخراج والجزية واتخذوا بعض الاجراءات المالية المخالفة للنهج الاسلامى والمتسمة بالعسف والشدة ، بما يكفل زيادة الموارد لمواجهة الاحتياجات المتزايدة للدولة وتغطية مصروفاتها . ففرضت الجزية على بعض من اسلم ، وكان اول من فرضها الحجاج بن يوسف ، الذى حرمهم ايضا من حق ترك قراهم اذا ما اسلموا ، والزمهم العودة اليها - وسيكون لنا راى عن مدى تطبيق هذا القرار وحدوده فى الفصل الخامس - وكان عبد الملك قد زاد جزية العراقيين الى اربعة دنانير ، بعد ان راى قدرتهم على ذلك ، وكذلك فعل باهل الجزيرة .

اما الخراج ، فقد فكر معاوية فى زيادة قيراط على القبط ، وان لم يتم فى عهده فقد نفذ فى خلافة هشام بن عبد الملك ، مما ادى الى ثورات القبط على الدولة الاسلامية (سنة ١٠٧هـ) ، كما لم يسقطوا الخراج عن الارض التى اسلم اهلها وكانوا قد صولحوا على ان تبقى ملكا لهم ، وتلك ارض يسقط عنها الخراج ويجوز بيعها وتكون عشرية . اما بالنسبة للعطاء ، ففرض للبعض ولم يفرض للكل ، فقد اشتكى موالى خراسان وافريقية من عدم الفرض لهم فى العطاء ، مع اسلامهم

ومشاركتهم فى القتال . ويدل على ذلك ايضا نقد العرب للمختار الثقفى ، عندما جعل للموالى عطاء كمن معه من العرب . وكان اول من فرض لهم فى العطاء معاوية ، حيث جعل لكل واحد خمسة عشر درهما ، زادها عبد الملك خمسة ، وكذلك سليمان وهشام ، الذى بلغ عطاء المولى فى عهده ثلاثين درهما وهو قليل اذا ماقورن بما يعطى للعربى ، ومن هو فى شرف العطاء .

اما الضرائب ، فقد اعيد عليهم الضرائب التى كانوا يؤدونها قبل الاسلام ، كهدايا النيروز والمهرجان وغيرهما ، وحدث ذلك منذ عهد معاوية .

وقد استخدم الأمويون أسلوب الشدة فى تنفيذ مثل هذه الاجراءات ، لارغام الموالى على ادائها ، وهذا ما ادى الى تذمر الموالى وتمردهم وخروجهم على الحكام الامويين ، كلما وجدوا فرصة سانحة لذلك ، فلكل فعل رد فعل ، وذلك بالمشاركة فى الحركات التى تقوم ضد الحكم الاموى ، كالدخول مع المختار الثقفى ، ومصعب بن الزبير وابن الاشعث ، بل ومع الخوارج . او بالقيام بحركات تخصهم تعبر عن نقمتهم وتطالب بحقوقهم ، وظهر ذلك فى النصف الثانى من العصر الاموى ، مثل ذلك ، تمرد الصغد فى ماوراء النهر ، وثورات القبط بمصر ، والبربر بافريقية ، واخيرا الانضمام لابى مسلم الخراسانى ، قائد الثورة العباسية ، فكان لهم دور بارز فى اسقاط الخلافة الاموية (١) .

---

(١) عن الموالى ، انظر / محمد الطيب النجار : الموالى فى العصر الأموى ، دار النيل للطباعة ، الطبعة الأولى ، ١٣٢٨هـ/١٩٤٩م ، ص ٤٨-٦٨ – ثريا حافظ عرفة : =

أما أهل الذمة ، فقد حظيوا فى ظل الدولة الاسلامية بسماحة الاسلام ، ووجدوا من الأمويين التقريب وكثيرا من التسامح والحظوة . فقد اعطوا الحرية الدينية التى نصت عليها عهود الصلح ، بل وتسامح معظم الأمويون فى هذا الأمر ، اذ سمحوا لهم بممارسة شعائرهم بكل حرية ، والاحتفال باعيادهم ، وابتناء الكنائس وترميمها ، بل واعانة الدولة لهم على بعض ذلك ، كما قرب الذميون ، فكان منهم شاعر البلاط كالأخطل ، والطبيب ، كابن أثال طبيب معاوية .

أما فى مجال الادارة ، فقد اعتمد الأمويون على أهل الذمة فى ادارة كثير من مرافق الدولة ، وخصوصا المالية منها ، فقد أسند معاوية الى سرجون بن منصور الرومى ديوان الخراج فى دمشق وظل يتوارثه ابناؤه حتى تعريب الدواوين ، وكذا كان حال اهل الذمة جميعا ، والحق ان التعريب لم يكن يعنى اقصاء أهل الذمة عن تلك الوظائف ، فقد ظلوا يتولون كثيرا منها ، ولكن بمشاركة العرب ، بعد أن كانت مقصورة عليهم قبل التعريب .

غير أن المناصب الكبرى حولت الى العرب ومن أسلم من اهل الذمة (الموالى) بينما تركت الحكومة الاسلامية لرؤساء اهل الذمة ، جباية الأموال من ابناء ملتهم .

لكن الأمويين اتخذوا تجاه اهل الذمة بعض الاجراءات

= الخراسانيون ودورهم السياسى فى العصر العباسى الأول ، رسالة ماجستير مطبوعة ، الناشر تهامة ، جدة ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ص ٢٨-٣٨ — فرج الهونى — النظم الادارية والمالية ، ص ١٩٢-١٩٦ — وانظر عن ثورات البربر ، فاطمة رضوان : المغرب فى عصر الولاة الأمويين ، ص ١١٣-١٤٤ .

المغايرة لما اشرنا اليه من حسن المعاملة والتسامح ، وتمثل ذلك ، فى اعادة فرض ضرائب النيروز والمهرجان وغيرها مما كان يؤخذ منهم قبل الاسلام فى العراق ، كما فرض الخراج على الاساقفة واملاك الكنائس ، وزيد عليهم فى الجزية والخراج ، مع اتخاذ بعض التراتيب التعسفية لتنفيذ ذلك ، وضبطه .

ولقد ظلت طبيعة معاملة اهل الذمة ، مرهونة باختلاف الخلفاء والولاة ، والاوضاع السياسية خصوصا مع الدولة البيزنطية ، وموقف اهل الذمة منها .

وعطفا على حسن معاملة الامويين لأهل الذمة ، وقلة قيمة تلك الضرائب والزيادات المالية التى وضعت عليهم ، مع احساسهم بعدم تثاقلها ، لفرضها على من أسلم ايضا ، فقد ادى ذلك الى استكانة اهل الذمة ، وخلو صدر العصر الاموى من مشاركتهم فى الحركات المناوئة او القيام بثورات ضد الحكم الاسلامى .

الا ان تزايد تلك الاجراءات المالية مع مرور الوقت ، والتعسف فى تنفيذها ، واتخاذ بعض السياسات التى تحد من تجاوز أهل الذمة لما اعطوا من حرية دينية ، بنص عهود الصلح والأمان ، وماتسمح به مبادىء الدين الحنيف ــ كبعض سياسات عمر بن عبد العزيز ، ويزيد بن عبد الملك ــ وظهور بعض الزعامات الدينية والسياسية لهم ، جعلتهم يقومون بعدد من الحركات فى اواخر العصر الاموى ، كثورات القبط فى مصر (١٠٧هـ) ، وبعض حركاتهم التى شهدها عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ــ وان كانت قد قامت بدوافع سياسية او عقائدية ــ

لاتاثرا بسياسات بنى امية تجاههم .(1)

هكذا كانت الدولة الأموية فى أواخر القرن الأول الهجرى فتوحات كبرى وتطورا فى كثير من المجالات ، وبالمقابل حركات وفتن داخلية شبه دائمة ، ومشاكل مستعصية ، ومتغيرات ومستجدات كثيرة ، كل ذلك تم فى فترة وجيزة من عمر التاريخ مما ضاعف المسئولية على هذه الدولة ، واظهر حاجتها الى وقفة ينظر من خلالها الى كل ذلك ، لاستيعابه والسيطرة عليه وهذا مايستوجب ترتيب السياسات الاموية بما يتناسب مع كل تلك المنجزات والأحداث ، والقيام بكثير من الاصلاحات ، واحتواء كل المتغيرات والمستجدات ومهرها فى قالب الدولة والأمة الواحدة ، وتصحيح الأخطاء ، وتطوير النظم والأساليب بما يمكن من هيمنة الدولة على الموقف ، ثم مواصلة الواجب التاريخى .

وحقا جاء عمر بن عبد العزيز الرجل المناسب فى الوقت المناسب ، وادرك ببعد نظره ماتعانيه الدولة داخليا ، وان بدت قوية ، وان الاستمرار فى التوسع لايعنى الا ازدياد المتغيرات والمستجدات وثقل الحمل على كاهل الدولة ، كما أن الاستمرار على النهج الأموى ، فى مواجهة الحركات

---

(1) عن اهل الذمة ، انظر / أ.س. ترتون : اهل الذمة فى الاسلام ، ترجمة وتعليق حسن حبشى ، دار الفكر العربى ، مطبعة الاعتماد بمصر ـ توفيق سلطان اليوزبكى : تاريخ اهل الذمة فى العراق (١٢-٢٤٧هـ) ، دار العلوم للطباعة والنشر ، الرياض ، المملكة العربية السعودية الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص ٧١-١٣٩ ـ نادية حسنى صقر : سياسة عمر بن عبد العزيز تجاه اهل الذمة المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ، ص ٧-١٣ . وعن حركات اهل الذمة فى عهد يزيد بن عبد الملك انظر بعد الفصل الثانى ،المبحث الثالث والرابع والخامس .

الداخلية ، والاكتفاء بالحلول الوقتية واخمادها ، دون النظر في أسبابها وعللها ، وفي اصلاح الأحوال وتغيير السياسات ، بما يضمن زوالها وعدم تكرارها ، ماهو الا استمرار للمشاكل وتعقدها . ادرك كل ذلك عمر ، فوقف يصلح شئون الدولة ، يتفحص مواضع الداء ، فيصف الدواء ، ولنعرض الآن لمعالم اصلاحاته وسياساته تجاه أهم الأمور التي عاشتها الدولة قبله .

فبالنسبة لموقفه تجاه الفتوح ، نرى انه ارتكز على ثلاثة أسس ، أولها : الحد من التوسع في الفتوحات الخارجية وذلك لعاملين ، العامل الأول : الالتفات الى اصلاح الشئون الداخلية ، لتمكين الدولة من استيعاب المتغيرات الكبيرة التي اورثتها الفتوح العظيمة التي سبقت عهده ، وذلك عن طريق نشر الاسلام بين العناصر الجديدة التي انضوت تحت لواء الدولة ، وحل مشاكلها وفق النهج الاسلامي ، وصهر الأجناس والحضارات والعقائد في قالب المجتمع الاسلامي الكبير (١) .

العامل الثاني : الحرص على الجند الاسلامي ، سواء كان المحارب في ميادين القتال أو المرابط في الثغور ، وتقديم المحافظة على سلامته وأمنه ، على المغامرة به اذا ماتعرض للأخطار ، ويتبين موقفه هذا من سياسته ازاء الفتوحات الاسلامية في الجبهات العسكرية في ماوراء النهر شرقا ، ومع

---

(١) عن سياسة عمر تجاه أهل الذمة ، ونشر الاسلام بين العناصر الجديدة وتفقيهها ، انظر / نادية حسني صقر : سياسة عمر بن عبد العزيز تجاه أهل الذمة – ماجدة فيصل زكريا : عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم ، ماجستير مطبوعة ، مكتبة الطالب الجامعي ، مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، ص ١٧٣- ١٧٩ .

الروم شمالا ، وفي الأندلس غربا ، فلقد حاول عمر اجلاء المسلمين من بلاد ماوراء النهر الى خراسان بعد أن لمس الأخطار المحدقة بهم من جراء تمرد الصغد وهجمات الترك على تلك البلاد ، ثم أمر بايقاف الفتح في ذلك الميدان ، والاكتفاء بما فتح بعد أن امتنع المسلمون عن الجلاء (١) .

أما الحرب مع الروم ، فقد أمر عمر بفك الحصار الذى فرض على القسطنطينية منذ عهد سلفه سليمان بن عبد الملك ، بعد أن تكالبت الظروف على الفاتحين وتعرضوا للمخاطر والهلاك ، وفي آسيا الصغرى نقل المرابطين في ثغر طرندة الى ملطية ، ثم اخرب طرندة ، خشية على المسلمين لايغالها في بلاد الروم ، كما فكر في هدم المصيصة للسبب نفسه ، فامسك عندما تبين اهمية بقائها (٢) .

كما فكر عمر في اقفال المسلمين من الاندلس واخلائها منهم ، خشية من تغلب العدو عليهم ، ولانقطاعهم وراء البحر عن المسلمين (٣) .

ولعل خبر ظهور المقاومة النصرانية بقيادة بلاى في الأندلس ، في أواخر خلافة سليمان – والتي سنتحدث عنها في الفصل الثاني – قد وصل الى مسامعه ، فخشي على المسلمين سوء العاقبة .

الأساس الثاني : تغليب الدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ونشر الاسلام دون قتال ، وتمثل ذلك في

---

(١) انظر نص هذا الخبر بعد : الفصل الرابع ، المبحث الأول ، ص ٣١٥ .

(٢) من أجل ذلك ، انظر / ماجدة فيصل زكريا : عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم ، ص ١٦٨-١٧٠ – هاشم الجاسم : دراسة تاريخية عسكرية ، ص ١٤٠ .

(٣) انظر / حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ١٣٦-١٣٧ .

توجيه رسائله ورسله الى ملوك القوى المجاورة ، يدعوهم الى الاسلام ، فقد بعث الى ملوك السند وماوراء النهر والى ليو الثالث امبراطور الروم (١) .

الأساس الثالث : حسن تجهيز القوة الاسلامية ، واعداد الجندى المؤمن المجاهد ، العارف بمبادىء دينه واخلاقياته ، وأكد على قواده ، تحقيق منهج الاسلام فى فتوحاتهم ، وذلك بدعوة الأعداء الى الاسلام ، أو دفع الجزية ، والا فالقتال . كما حرص على صيانة الثغور واعمارها ، كأمره ببناء اللاذقية بعد أن هدمها الروم من جراء غارة قام بها أسطولهم عليها فى زمنه (٢) وكذلك الحرص على درء الأخطار عن الدولة وصيانة حدودها ، والدفاع عنها ، مثل ذلك توجيه حاتم بن النعمان الباهلى للتصدى للخزر الذين اغاروا على اذربيجان ، وايضا الحرص على ابقاء زمام المبادرة بيد المسلمين ومواصلة الجهاد ، من ذلك الاستمرار فى ارسال حملات الصوائف والشواتى الى بلاد الروم ، وقيام عامله على السند بغزو بعض بلاد الهند ، وكذلك ايغال الجراح الحكمى عامله على خراسان فى بلاد الترك حتى هم بدخول بلاد الصين (٣) .

لقد حاول عمر أن يتخذ سياسة عسكرية متوازنة ، فلاقتال الا بعد الدعوة الى الله ، ولاجهاد الا باسم الدين ووفق

---

(١) عن ذلك ، انظر / قدامة بن جعفر : الخراج وصناعة الكتابة ، شرح وتعليق محمد حسين الزبيدى ، العراق ، وزارة الثقافة والاعلام ، دار الرشيد للنشر ، ١٩٨١م ، ص ٤٠٩،٤٢١ — ماجدة فيصل زكريا : عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم ، ص ١٧٢-١٧٣ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٣٩ — ماجدة فيصل زكريا نفس المرجع ، ص ١٧٢ .

(٣) ماجدة فيصل زكريا : نفس المرجع ، ص ١٧٠-١٧١ .

مبادئه ، ولاغزو ولامرابطة فيها مخاطرة بجند المسلمين ، ولااستكانة او ضعف ، بل اعداد وتيقظ ودفاع عن الاسلام ودياره واهله ، وان كانت بعض سياساته كايقاف الفتوح ، قد اطمع بعض الأعداء في غزو المسلمين ، كالترك في ماوراء النهر ، والخزر في اذربيجان ، أو تمرد بعض العناصر الجديدة في الأطراف ، كتمرد الصغد فيما وراء النهر . لكن العمر القصير لخلافة عمر لم يسمح بوضوح منهجه ، والتمكن من تطبيق كل سياساته ، التي اراد من ورائها الاصلاح ، في ضوء فهم صحيح لأوضاع الدولة ، ووفق النهج الاسلامي ، كما أن عودة يزيد بن عبد الملك الى سياسة التوسع في الفتوح ، قد عاق استكمال مابدأه .

اما سياسات عمر بن عبد العزيز الادارية والمالية ، وماقام به من تنظيمات واصلاحات ، وموقفه من السياسة التي اتبعها الخلفاء الأمويين قبله في هذا المجال ، فقد اخذت السمة العامة لخلافته ، وهي العودة الى هدى الخلفاء الراشدين . فاحيا مامات من السنن ، وأمات ماظهر من البدع واصلح مااحدث من الامور ، في حركة اصلاح كبرى ، عمت جميع مناحي الحياة ومرافق الدولة ، وكان هدفها نشر العدل ، ورفع الظلم ، وتطبيق الشرع بين الناس . ولاغرابة في ذلك فقد جاء عمر الى الخلافة وقد خبر الأمور ، واعد لكل داء دواء . وهذا ماجعل البعض يعده خامس الخلفاء الراشدين .

وسنكتفي هنا بذكر المعالم الرئيسية لسياسته في هذا المجال ، مما له علاقة بما قدمناه عن احوال الدولة قبله ، ومايرتبط بسياسة يزيد بعده .

فبالنسبة لتطوير النظم الادارية والمالية ، قام عمر بانشاء فروع لديوان بيت المال وفق موارده ، فجعل لكل من الفيء والصدقة والخمس ، بيوت مال تخصها ، منعا للتداخل والفوضى ، كما نظم السجون واعد لها ديوانا خاصا يشرف عليها .

اما ادارة الدولة فقد سار على مبدا الشورى ، ومظاهر الخلافة الراشدة ، وقام عمر بعزل من اساء السيرة من العمال وولى اهل التقوى والصلاح والثقة والقدرة (١) . وجعل ولايتهم عامة ، واطلق ايديهم ، لكنه ظل موجها لهم ، رقيبا عليهم ، محاسبا لمن خالف منهم ، كما وسع عليهم تحصينا لهم من الخيانة واعانة لهم على التفرغ لشئون الرعية . وفي المقابل امر عمر بمنع استعمال غير المسلمين في ادارة الدولة ، والعمل في دواوينها ، وعزل من كان بها ، الا من اسلم منهم (٢) . وندب عمر نفسه لرد المظالم ، عامة او خاصة ، وجد في ذلك .

أما من الناحية المالية : فقد رشد مصروفات الدولة ، وحفظ بيت المال من الاهمال والتفريط ، وحافظ على اموال المسلمين .

وفي سبيل معالجة واصلاح بعض السياسات المالية السابقة

---

(١) عن عزله العمال السابقين ، انظر / اليعقوبي : مشاكلة الناس لزمانهم ، تحقيق وليم ملورد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٢م ، ص ١٩ — محمد كرد علي : الادارة الاسلامية في عز العرب ، مطبعة مصر ، القاهرة ، ١٣٥٢هـ/١٩٣٤م ، ص ٩٧ .

(٢) عن امر عمر بمنع غير المسلمين من الأعمال الادارية ، انظر / ابن الاثير : الكامل ، ١٦٥/٤ — نادية حسني صقر : سياسة عمر بن عبد العزيز تجاه اهل الذمة ، ص ٣٤-٤٥ .

امـر عمـر بـرفـع الجزيـة عمـن اسلم ، وعن الرهبـان ، والـغى الضـرائب غـير الشرعية ، ماكـان منها على العرب او الموالى او اهـل الذمـة ، ورفـع الخـراج عـن املاك الكنـائس ، واسقط مـازيد عـلى صلـح بعض اهل الذمة ، كمـا وسع دائرة العطاء ، وزاد فيه ، وفرض للموالى . والغى عمر المكوس .

ومـن ناحيـة اخـرى حـرص عمـر على تنمية موارد الدولة والمحافظة عليها ، ومن اجل ذلك منع بيع الاراضى الخراجية ، واكـد عـلى بقائها خراجية حتى مع اسلام صاحبها ، يدفع عنها الخـراج ان بقـى عليهـا ، او مـن صارت اليه (١) ، ونظم الاراضى المفتتحـة حديثـا ، كـامره بمسـح الاندلس . واستصلح واستغل اراضـى الصوافى لصالح المسلمين ، ومنع اقطاعها (٢) . واكد على جباية الزكاة والعشور ، وصرفها فى وجوهها الشرعية (٣) .

امـا بالنسبة لدور عمر فى النهضة العلمية التى شهدها العصـر الامـوى ، فلاشك ان تكـوين عمـر العلمى ، وتفقهه فى الدين قد دفعه الى دور مميز فى خدمة العلم والعلماء ، فقد امـر بنشـر العلـم ، وحـث العلماء على بثه من خلال حلقاتهم ومجالسـهم ، وعين المعلمين .

---

(١) عـن مجـمل سياسـة عمـر بن عبد العزيز المالية ، انظر بعد : الفصل الخامس ، المبحث الثانى .

(٢) فـالح حسين فـالح : الحيـاة الزراعية فى بلاد الشام فى العصـر الأمـوى ، ماجسـتير مطبوعـة ، بـدعم الجامعـة الأردنية ، ١٣٨٩هـ/١٩٧٨م ، ص ٥٢ .

(٣) عن مجمل سياسة عمر الادارية والمالية ، واهم تنظيماته واصلاحاتـه ، انظـر : فـرج الهـونى : النظـم الادارية والماليـة ، ص ٢٢٣-٢٥٥ ــ نبيه عاقل : تاريخ خلافة بنى أميـة ، ص ٢٥٥-٢٩٥ ــ ناديـة حسنى صقر : سياسة عمر بن عبد العزيز تجاه اهل الذمة ــ ماجدة فيصل زكريا : عمر ابن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم ، ص ١٠١-١٦٦ ، ٢٢٧-٢٥٦ .

كما انفق على العلماء وطلاب العلم ، ووجه البعثات العلمية لتفقيه الناس وتعليمهم فى البوادى والامصار . وان أعظم اعماله فى هذا المجال هو امره بتدوين وجمع الحديث ، ونشره فى كافة بلدان الدولة الاسلامية وتعليمه . فامدر فى هذا الشان اوامر بصيغة العموم الى الآفاق واهل المدينة ، كما خص بالامر بعض العلماء ، كابى بكر بن محمد بن حزم ، ومحمد بن شهاب الزهرى ، وكان العلم يكتب فى مجلسه ، ويقوم بمراجعة بعض مادون . وقد اتم بعض العلماء كالزهرى ، هذه المهمة فى عهد عمر ، وقد دونوا ذلك فى دفاتر ، فنسخت وبعث منها الى كل الاقطار الاسلامية . بينما توفى عمر ولم يمله كل مادون . ويعرف هذا التدوين ، بالتدوين الرسمى للسنة ، كما كان لعمر اهتمامه الخاص بالفقه ايضا (١) .

اما الادب ، وبخاصة الشعر ، فلم يحظ باهتمام عمر بن عبد العزيز ورعايته ، فقد اقفل الباب فى وجوه الشعراء ،

---

(١) عن عطاءات عمر العلمية ، وامره بتدوين السنة وجمع الحديث ، ونشره وتعليمه ، انظر / ابا زرعة : تاريخ أبى زرعة الدمشقى ، تحقيق شكر الله بن نعمة الله القوجانى ، ماجستير مطبوعة ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، مطبعة المفيد الجديدة ، دمشق ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، ١/٣٥٤-٣٥٥،٥٢٠،٦٢٨ - ابن الجوزى : سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد ، ضبطه وشرحه وعلق عليه الاستاذ زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الاولى ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ص ٩٢ - عماد الدين خليل : ملامح الانقلاب الاسلامى فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، الدار العلمية للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٩١هـ/١٩٧١م ، ص ١٨٣،١٨٥،١٩٠ - محمد عجاج الخطيب : السنة قبل التدوين ، ماجستير مطبوعة ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الاولى ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م ، ص ٣٢٩-٣٣٢، ٣٦٧،٥١٧ - حسن على الشاذلى : المدخل للفقه الاسلامى ، تاريخ التشريع الاسلامى ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٩٦هـ/١٩٧٧م ، ص ٢٢٠-٢٢١ - سعد الموسى : تاريخ الحياة العلمية فى المدينة ، ص ٤٦-٤٧ .

ومنع عنهم ما اعتادوه من حظوة الخلافة وعطاياها (١) ، بينما اهتم بالمغازي ، وامر بتدريسها في جامع دمشق (٢) .

ويتبقى أن نلمح لموقف عمر من الحركات والمشاكل الداخلية ، فالحق ان عمر لم يات بجديد ، وانما عاد الى تطبيق المنهج الاسلامي على كل مناحي الحياة . فبالنسبة للحركات نجد ان عهده قد نعم باستقرار نسبي ، غير انه لم يخل من قيام بعض الحركات ، ومنها : خروج شوذب الخارجي بأرض العراق ، وخارجي آخر من الحرورية بالعراق ايضا ، وثالث منهم بالموصل ، وكذلك استمرار حركة بلاي بالاندلس . ولقد حاول عمر ان يجرب الطريق السلمي مع الخوارج ، عن طريق مجادلتهم ودعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، معالجة للمشاكل عن طريق تلمس الأسباب ، وحلها ، وكرها في اراقة الدماء ، وتقديما للحلم واللين على العنف والشدة . فنجح مع شوذب عندما اقنع رسله ، فترك القتال ، لكنه عاد للخروج بعد موت عمر (٣) . غير أن هذا الأسلوب الذي افاد مع شوذب ، لم يكن مجديا على الدوام ، اذ لم يستطع اقناع الخارجي الآخر بالعراق ، والذي بالموصل ، فاستمروا في طغيانهم ، فما كان هناك بدا من مقاتلتهم (٤) ، كما قاتل السمح بن مالك عامل عمر على الأندلس متمردي ذلك الاقليم (٥) .

---

(١) عن موقف عمر من الشعراء ، انظر / ابن الجوزي : سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ١٩٦- ٢٠١ .
(٢) انظر بعد : الفصل السادس ، المبحث الثالث ، ص ٧٣٤ .
(٣) انظر ماسنكتبه عن حركة شوذب بعد : الفصل الثاني ، المبحث الثاني ، ص ٢٣١ .
(٤) انظر ماذكرناه عنهما بعد : الفصل الثاني ، المبحث الثاني ، ص ٢٤٦
(٥) من أجل ذلك انظر / الفصل الثاني ، المبحث الرابع ، ص ٢٥٤-٢٥٥ ، والمبحث الخامس ، ص ٢٦١-٢٦٣ .

أما قضايا الموالى واهل الذمة ، فكان وراءها فى الغالب أسباب مادية ، واخرى عامة تتعلق بالعدل والمساواة والحرية ، وكان فيما اشرنا اليه قبل عند عرضنا لسياسة عمر المالية حلولا لمشاكلهم وقضاياهم ، وذلك حينما رفع الضرائب غير الشرعية عن الفنشتين ، ورفع الجزية عمن اسلم من الموالى ، واعطاهم حرية الهجرة الى الامصار ، والالتحاق بالجيش ، كما فرض لهم فى العطاء مع العرب ، فازال اسباب تذمرهم ، ومأ ابقى لهم على الدولة حجة . اما اهل الذمة فرفع الجزية عن الرهبان والأساقفة ، والخراج عن املاك الكنائس ، كما اعطاهم الحرية الدينية ، فى حدود الشريعة ومانصت عليه عهود الصلح ، ورد مظالمهم كالزيادة فى الجزية التى صولح عليها بعضهم كاهل قبرص ، واعاد كنائسهم التى اخذت منهم . وبالمقابل التزم عمر بالنهج الاسلامى ، وماجاء فى عهود الصلح ، من الزام اهل الذمة بحدود لحريتهم الدينية ، اذ منع استحداث الكنائس ، والخروج عما جرى عليه الصلح فى ممارسة بعض الشعائر ومظاهر العبادة ، كاظهار الصلبان ، ودق النواقيس ، ورفع الصوت بالترتيل ، وايضا منعهم من العمل فى دواوين الدولة ، ومنع بيع الأرض الخراجية ، والزامهم بزيهم الخاص فى الملبس ، وعدم الركوب على السرج ، ومنعهم من اقتناء الأسلحة فى منازلهم .

ان مافعله عمر لم يكن بدعا ، بل هو الحق ، حين طبق الشرع ، فاعطى رعايا الدولة حقوقهم ، والزمهم حدودهم وواجباتهم ، على اساس من العدل والمساواة فى ضوء الشريعة

والعهود [1] .

كان ماقدمناه في هذا التمهيد وصفا لحال الدولة الأموية مطلع القرن الثاني ، عنينا فيه بابراز ملامح القوة واهم المنجزات ، وابنا مظاهر التطور والنمو في الدولة الاسلامية خلال العصر الأموي ، بل والاشارة الى مقدمات بعض تلك المظاهر منذ نشأة الدولة الاسلامية ، اذا كان في تلك اللمحات مايعين على وضوح الرؤية والتصور .

وبالمقابل تتبعنا الحركات والمشاكل الداخلية ، التي اخذت تعاني منها الدولة الأموية ، واضحت تمثل عوامل هدم ، في كيان تلك الدولة ، عارضين لسياسات بني امية في مواجهة تلك القضايا ، واثر ذلك على الدولة .

ثم عرضنا لملامح عهد عمر بن عبد العزيز ، الذي طلع القرن الثاني على عهده ، فعرضنا لمعالم سياسته واصلاحاته ، وتبين أنه لمس واقع دولته وحاجتها الى الاصلاح ، فوقف معها يعيد ترتيب سياساتها ، ويصلح احوالها ، في محاولة منه لاعادة توازنها ، حتى تستطيع الاضطلاع بدورها التاريخي من جديد ، بكل قدرة وقوة . فبدأ اصلاحاته ، وعمل قدر طاقته ، فقدم الكثير ، وانتظر منه الكثير ، لكن عمر خلافته لم يطل ليأتي يزيد بن عبد الملك مكان عمر خليفة للمسلمين ، فماذا سيقدم من انجازات ، وماموقفه من سياسة عمر وتلك الاصلاحات ، وكيف تكون احوال الدولة في عهده ، وعلى اي حال ستؤول الى خلفه ؟ أسئلة نجد اجابتها في ثنايا هذا البحث .

---

(١) عن سياسة عمر تجاه الموالي واهل الذمة ، انظر / نبيه عاقل : تاريخ خلافة بني أمية ، ص ٢٥٥-٢٩٥ ـ نادية حسني صقر : سياسة عمر بن عبد العزيز تجاه أهل الذمة فرج العوني : النظم الادارية والمالية ، ص ٢٣٥-٢٥٥ ـ ماجدة فيصل زكريا : عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم ، ص ٢٢٧-٢٤٨ .

الفصل الأول

سيرة الخليفة يزيد بن عبد الملك

الفصل الأول

سيرة الخليفة
يزيد بن عبد الملك

ان غايتنا من دراسة سيرة يزيد بن عبد الملك ، تكمن في الرغبة الصادقة ، والاهمية الكبرى ، للتعرف على حقيقة شخصية رجل تولى الخلافة ، وادار دفة الحكم في دولة الاسلام ، ومدى تاثير تلك الشخصية على الدولة الاسلامية ، واحداث ذلك العهد . وتبرز هذه الأهمية في ضوء ماورد حول شخصية يزيد من الاقاويل ، وماوصف به من سفه ومجون وفسق وقلة دين ، صور من خلالها في صورة مشوهة ، منصرفة عن شئون الحكم ، مؤثرة سلبيا في مجرى بعض الأحداث .

لذلك سينصب اهتمامنا في المقام الأول ، على ماقيل في يزيد بن عبد الملك ، ماله ، وماعليه ، ومدى صحة ذلك ، في محاولة الوصول الى التصور الأرجح لحقيقة شخصيته ، ومدى اثرها على الدولة في عهده . اعتمادا على معالجة المعلومات والحقائق الواردة في مختلف المصادر حول سيرته الذاتية ، وماتوصلنا اليه خلال دراستنا الجدية لأحداث عهده ، واحوال الدولة في زمنه .

ترجمته :

يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن ابي العاص ابن امية بن عبد شمس ، ابو خالد . وقيل : ابو ليلى ، القرشي الأموي ، أمير المؤمنين . قيل : كان يلقب القادر

بمنع الله ويزيد الفتى ، وامه عاتكة بنت يزيد بن معاوية ابن ابي سفيان وكثيرا ماينسب لأمه النابهة الذكر ، فيسمى يزيد بن عاتكة .(١)

ولد بدمشق (سنة ٧١ او ٧٢هـ ، وقيل ٦٦هـ) والثاني أرجح الاقوال . وكان رجلا طويلا جسيما جميلا ، ابيض مدور الوجه افقم .(٢)

وكان له من الزوجات ، سعدة بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، وزينب بنت محمد بن يوسف الثقفي ، اخي الحجاج بن يوسف ، وبنت عون بن محمد بن علي بن ابي طالب ، وربيحة بنت محمد بن عبد الله بن جعفر ، وعاتكة بنت عبد الله بن معاوية بن ابي سفيان ، والجرباء بنت عقيل بن علفة .

وله من الأولاد عشرة ذكور هم : الوليد(٣) ، ويحيى ، وعبد الله ، والغمر ، وسليمان ، وعبد الجبار ، وداود ، وابو سفيان ، وقيل : ابو سليمان ، والعوام ، وهاشم ، وذكر له بعضهم من الأولاد ايضا محمد والنعمان ، وقيل : ثمانية ، وثلاث بنات .

---

(١) انظر ترجمة أمه عاتكة عند / عمر رضا كحالة : أعلام النساء في عالمي العرب والاسلام ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ٢١٦/٣-٢٢٠ .

(٢) أفقم : الفقم في الفم ، دخول الأسنان العليا الى الفم وقيل : الفقم اختلافه ، وهو أن يخرج أسفل اللحي ويدخل أعلاه . ابن منظور : لسان العرب ، دار الفكر ، دار صادر ، بيروت ، (فقم) .

(٣) هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، الذي تولى الخلافة (١٢٥-١٢٦هـ) . انظر عنه / حسين عطوان : سيرة الوليد ابن يزيد ، دار المعارف ، القاهرة . وقد اشتمل هذا الكتاب على مبحث عن يزيد بن عبد الملك ابو الوليد ، وقدم فيه المؤلف على منهجه في الكتاب ، دراسة علمية مميزة ، قامت على الاستقصاء والتحليل والاستنباط ، والوصول الى حقائق جديدة ، انظر ذلك بين ص ١٤-٤٧ .

وقد تولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز ، يوم الجمعة الخامس والعشرين من رجب (سنة ١٠١هـ) على المشهور . وكان عمره آنذاك تسع وعشرون سنة ، وقيل غير ذلك ، يسند ذلك قول جرير ، الشاعر المعاصر :

سربلت سربال صدق غير مغتصب

قبل الثلاثين ان الملك مؤتشب

وحيث ان بعض الروايات القديمة قد جعلت عمره عند توليه الخلافة (٢٩) سنة ، فان ذلك يرجح ان يكون مولده (سنة ٧٢هـ) . وكانت ولايته بعهد من اخيه سليمان بن عبد الملك ، الذي عهد اليه بها بعد عمر بن عبد العزيز . فعهد اليه بها عمر ، واوصاه بالأمة . كما عهد هو بالخلافة من بعده لأخيه هشام بن عبد الملك ، ثم ابنه الوليد بن يزيد .

ومات يزيد بن عبد الملك يوم الخامس والعشرين من شعبان (سنة ١٠٥هـ) على المشهور والراجح ، وقيل غير ذلك . عن ثلاث وثلاثين سنة ، او اربع وثلاثين ، وقيل غير ذلك . وقد دامت مدة خلافته اربع سنين وشهرا ، على المشهور والراجح .

وكانت وفاته باربد (١) من أرض البلقاء (٢) ، وقيل : بحوران (٣) ، وقيل : بسواد الأردن (٤) . وقيل غير ذلك .

---

(١) اربد : قرية بالأردن ، قرب طبرية . ياقوت : معجم البلدان ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، ١٣٦/١ .

(٢) البلقاء : كورة من اعمال دمشق بين الشام ووادي القرى بها قرى كثيرة ، وقصبتها عمان . ياقوت : معجم ، ٤٨٩/١ .

(٣) حوران : كورة واسعة من اعمال دمشق ، من جهة القبلة ، ذات قرى كثيرة . ياقوت : معجم ، ٣١٧/٢-٣١٨ .

(٤) سواد الأردن : نواحي قرب البلقاء . وسميت بذلك لسواد حجارتها . ياقوت : معجم ، ٢٧٢/٣ .

وحمل على الاعناق ، ودفن فى دمشق بين باب الجابية وباب الصغير وقيل : بل دفن فى الموضع الذى مات فيه . وصلى عليه ابنه الوليد ، وقيل : هشام ، وقيل : مسلمة .

وكان مرضه طرفا من السل ، او الطاعون (١) .

ولقد استقينا هذه الحقائق المجملة الموجزة من الكتب التى ترجمت للخليفة يزيد ، او تناولت شيئا من سيرته ، سواء كانت من كتب التراجم او كتب التاريخ العامة (٢) ، والتى سنعرض فيما يلى لذكر ماورد فيها حول شخصية يزيد بن عبد الملك ، مالها وماعليها ، ثم مناقشة ذلك ، وابراز ماتوصلنا اليه من الحقائق والمفاهيم الجديدة فى هذا الصدد .

بادىء ذي بدء ، لم يترجم ابن سعد (ت ٢٣٠هـ) ، صاحب اول كتاب وصل الينا من كتب التراجم ، للخليفة يزيد بن عبد الملك ، وان كان قد اورد عهد سليمان له بالخلافة بعد عمر فى ثنايا ترجمة عمر بن عبد العزيز ، وكتاب عمر الى يزيد يوصيه بالامة (٣) .

اما النسابة مصعب الزبيرى (ت ٢٣٦هـ) (٤) ، فذكر نسبه من

(١) اتسمت المصادر الاسلامية بتعدد الروايات ، وفيما يخص يزيد بن عبد الملك كان هناك اختلافا كبيرا فى مولده ، وولايته ، وعمره عند الخلافة ، ووفاته ، وعمره عند وفاته ، ومدة ولايته ، ومكان وفاته ، وكثير من اخباره فعملت على تقديم ما رأيته الأرجح ، وأخرت ماعداه ، واشرت الى وقوع الاختلاف أو وجود أقوال أخرى .

(٢) لاستكمال ما اجملناه عن سيرة يزيد انظر ماسنورده فى الصفحات التالية من اقوال المؤرخين حول سيرته .

(٣) انظر : الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ٣٣٥/٥-٣٣٩،٤٠٥-٤٠٦ .

(٤) كتاب نسب قريش ، عنى بنشره لأول مرة وتصحيحه والتعليق عليه ا.ليفى بروفنسال ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ص ١٦٢-١٦٣،١٦٦-١٦٧ .

طريق ابيه وامه ، والعهد له من سليمان بعد عمر ، وان عبد الملك قد اخذ على سليمان عندما عهد له بالخلافة بعد الوليد ان يعهد الى احد بنى عاتكة يزيد ومروان ، وكان مروان قد مات فى خلافة الوليد . فجاء عهد سليمان ليزيد بعد عمر . كما اورد استخلافه لهشام ثم ابنه الوليد بن يزيد . وذكر اولاده وامهاتهم . والاهم ان حديثه عن يزيد جاء خاليا من اى اشارة فيها مايدل على سوء سيرته .

وترجمته عند ابن خياط (ت ٢٤٠هـ)(١) مقتصرة على نسبه ومولده ووفاته وعمره ومدة خلافته ، ليس فيها شىء مما ينسب الى يزيد من السوء ، ويترجم له عبد الله بن محمد بن يزيد (ت ٢٧٣هـ)(٢) ، ترجمة مختصرة على نهجه فى كتابه ، لاتشتمل على شىء من سمات سيرته سواء كان له او عليه . اما ترجمة ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) له فى كتاب الامامة والسياسة(٣) ، فقد تضمنت الاشارة الى حسن هديه قبل الخلافة ، والسير على نهج الوليد فى خلافته ، ونص قوله : "وكان يزيد قبل ولايته محبوبا فى قريش بجميل مأخذه فى نفسه ، وهديه وتواضعه وقصده ، وكان الناس لايشكون اذا صار اليه الامر ، ان يسير بسيرة عمر لما ظهر منه ، فلما صارت اليه الخلافة حال عما كان يظن به ، وسار بسيرة الوليد اخيه واحتذى على مثاله ، واخذ مأخذه ،

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق اكرم ضياء العمرى ، دار طيبة ، الرياض ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ص ٣٢٢، ٣٣١-٣٣٢ .

(٢) تاريخ الخلفاء ، رواية ابى بكر السدوسى وزيادات لابى بكر السدوسى ، وابى بكر الشافعى ، وابى على بن شاذان تحقيق محمد مطيع الحافظ ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الاولى ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، ص ٣٣ .

(٣) تحقيق طه محمد الزينى ، دار المعرفة ، الناشر مؤسسة الحلبى وشركاه للنشر والتوزيع ، ١٠٣/٢-١٠٤ .

حتى كان الوليد لم يمت" . ثم ذكر استعظام الناس لذلك ، وان جماعة من اشراف قريش وخيار بنى امية هموا بخلعه ، فاخذهم ومن صانعهم ، وسجن وقتل بعضهم ، واغرم وصادر اموال آخرين ، بعد ان نكل بهم وفرقهم فى البلاد . وهذا الخبر الأخير لم نجد له ذكرا فيما اطلعنا عليه من المصادر الاخرى سوى اشارة عن تحدث الناس فى خلعه ، اوردها الكتبى[١] ، ولعله استوحاها من هذا الخبر .

ويترجم له ابن قتيبة فى كتابه الآخر ، المعارف[٢] ، والى جانب ذكره لمعالم ترجمته من نسب وخلافة ومولد ووفاة وعمر وولاية وابناء ، نجده اول من يشير الى ميل يزيد الى اللهو والملذات ، ولكن فى قول مختصر ، ونصه : "وكان (يعنى يزيد) صاحب لهو ولذات ، وكان صاحب حبابة[٣] ، وسلامة[٤] " .

---

(١) انظر اشارة الكتبى الى ذلك بعد : ص ٩٨ .

(٢) تحقيق ثروت عكاشة ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، ص ٣٦٤ .

(٣) حبابة جارية يزيد بن عبد الملك ، مغنية من الحن القيان ، ومن احسن الناس وجها واكملهم عقلا وافضلهم ادبا ، قرات القرآن وروت الاشعار وتعلمت العربية ، وهى من مولدات المدينة ، كانت لرجل يعرف بابن رمانه وقيل ابن مينا ، هو الذى خرجها وادبها ، فاخذت الغناء عن بعض المغنين فى ذلك الوقت ، ثم اشتراها يزيد بن عبد الملك باربعة آلاف دينار . وكان اسمها العالية ، فلما شراها يزيد سماها حبابة ، ولها اخبار كثيرة . انظر ترجمتها عند / عمر رضا كحالة : اعلام النساء ، ٢٣٢/١-٢٣٥ .

(٤) سلامة القس ، نسبة الى عبد الرحمن بن ابى عمار الجشمى وهو من قراء اهل مكة ، يلقب بالقس لعبادته ، كان قد احبها لكنه انصرف عنها تقوى ، فغلب لقبه عليها . وهى من مولدات المدينة ، اخذت الغناء عن عدد من المغنين وحذقت الضرب على الأوتار ، وقالت الشعر الكثير . وهى جميلة ظريفة حسنة الغناء . ثم اشتراها يزيد بن عبد الملك ، وعاشت بعده ، ولها اخبار كثيرة . انظر ترجمتها عند/عمر رضا كحالة : اعلام النساء ٢٢٩/٢-٢٣٤ .

ونجد ابن قتيبة ايضا في كتابه عيون الاخبار (١)، وان لم يترجم له، يذكر اخبارا متفرقة ذات صلة بسيرته، وهي زواجه من الجرباء بنت عقيل بن علفه (٢)، وكتابه الى اخيه هشام معاتبا اياه على سروره عندما الم بيزيد المرض (٣)، وكذلك عطفه على اهل الهوى والعشق، وذلك من خلال ايراده قصة عاشقين، ماتا كمدا ووجدا، عندما امتنع ابو الفتاة ان يزوجها من ابن عمها العاشق، وكان قد علم بذلك من رسول بعثه اليه عامله على المدينة في امر، فعطله عن مهمته ولم يعطه جوابا عما قدم من اجله، وامره بالعودة واستقصاء خبرهما، واثبات ذويهما في شرف العطاء مع اهل المدينة، ثم العودة اليه بالخبر، واخذ الجواب فيما بعث من اجله اولا (٤).

وآخر اخباره في هذا الكتاب عن يزيد، خطبة لأبي حمزة الخارجي، يعرض فيها ببني امية، ويصف سوء سيرة يزيد فيها عند ذكره بقوله: "ياكل الحرام، ويلبس الحلة بالف دينار قد ضربت فيها الابشار، وهتكت الاستار، حبابة عن يمينه وسلامة عن يساره تغنيانه، حتى اذا اخذ الشراب فيه كل ماخذ قد ثوبه ثم التفت الى احداهما فقال: الا اطير ؟! نعم طر الى النار" (٥) مما يدل على شيوع القول بسوء سمعته، واستغلالها من قبل خصوم الدولة الاموية.

---

(١) دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
(٢) نفس المصدر، ١٢/٤.
(٣) نفس المصدر، ١١٤/٣.
(٤) نفس المصدر، ١٢٨/٤، ١٣٠.
(٥) نفس المصدر، ٢٤٩/٢.

وترجمته في انساب الأشراف هي اشمل ترجمة له في كتب التاريخ ، فقد استوفى البلاذري (ت ٢٧٩هـ) فيها سيرته الذاتية والرسمية ، واستقصاها في جميع الروايات ، بغير تحيز له او تحزب عليه ، مع ابانة مايميز شخصيته وسياسته ، والتدقيق في البحث عن دوافعها وبواعثها ، فساق اخبار يزيد التي تتصل باسرته ونشاته وازواجه واولاده ، ومزاجه ، وشغفه بالنعيم ، وكلفه بالغناء ، وسرد اخباره التي تتصل بولايته للعهد وخلافته ، والحركات التي قامت في عهده (١) .

اما اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ) في كتابه تاريخ اليعقوبي (٢) ، فقد جاءت ترجمة يزيد عنده ، مقتصرة على نسبه وخلافته ، واحداث عهده وسياسته ، ولم يشر الى شيء مما ذكر له او عليه . لكنه في كتابه الآخر مشاكلة الناس لزمانهم (٣) ، يشير الى تاثره بحب حبابة وتاثيرها على سياسته في شيء من الايجاز ، اذ يقول : "وكان يزيد بن عبد الملك فهو اول خليفة اتخذ قينة وغلبت على امره امراة ، فكانت حبابة جاريته تولي وتعزل وتطلق وتحبس وتامر وتنهى" . ويقول : "وكان مع ذلك يسرع الى الدماء والأموال وعاود عماله ماكانوا عليه من الجور" .

ويأتي الطبري (ت ٣١٠هـ) (٤) على سيرة يزيد بعد ان عرض لأحداث عهده وسياساته ، وقد اشار الى خلافته وعمره آنذاك ،

---

(١) حسين عطوان : سيرة الوليد بن يزيد ، ص ٣٢ .
(٢) دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، ٣١٠/٢-٣١٥ .
(٣) ص ٢٠ .
(٤) تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم دار سويدان ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ، ٥٧٤/٦ – ٢٤/٧ .

ثم ذكر وفاته ومكانها وعمره وقت وفاته ومدة ولايته ، ثم أورد أربع مرويات ، عن بعض سيره واموره ، خص بها الجانب اللاهي في حياة يزيد ، ذكر في الاولى فتوة يزيد وشدة طربه بغناء جاريته حبابة ، وحزن جاريته سلامة عليه عند وفاته وتمثلها بشعر لبعض الانصار . وهذه الرواية من حديث عمر بن شبه (١٧٣ - ٢٦٢هـ) عن علي بن محمد المدائني (١٣٢ - ٢٢٤هـ) والثانية من قول علي بن محمد المدائني عن قصة شراء حبابة والثالثة من قول علي ايضا عن يونس بن حبيب (ت ١٨٣هـ) عن ٨٣ سنة وقيل جاوز المئة ، يذكر فيها شدة طربه بغناء حبابه وحزنه وبكاءه عليها عند مرضها ، وكانت الرواية الاخيرة من قول عمر بن شبه عن علي بن محمد المدائني ، وتضمنت الاشارة الى مكوث يزيد سبعة ايام لايخرج الى الناس بعد موت حبابة وذلك بمشورة اخيه مسلمة ، خشية أن يظهر منه مايسفهه عند الناس .

وكما يتبين ان اسناد هذه الروايات منقطع ، فالاولى لم يذكر فيها مصدر المدائني ، والثانية لم يذكر فيها المصدر الذي استقى منه الطبري قوله عن المدائني ، ولا المصدر الذي روى عنه المدائني ، وكذلك الثالثة لم يذكر الطبري المصدر الذي اخذ عنه رواية المدائني ، والاخيرة لم يورد مصدر المدائني فيها .

وكنا نريد أن نتتبع نقد السند الى جانب النظر في متون المرويات ، لكن ورود هذه المرويات بسند منقطع في بعض المصادر وخصوصا القديمة كالطبري ، والتي سينقل عنها كثير من المؤرخين الذين سيأتون من بعدهم ، وورود الكثير منها

فـي كثير من المصادر دون اسناد ، دفعنا الى صرف النظر عن اتباع هذا المنهج وهو نقد السند ، والاكتفاء بالنظر في المتون ، واستخلاص ماتوصلنا اليه ، بعد عرضنا لما ورد عن سيرة يزيد في المصادر التي نحن بصدد ذكرها ، خصوصا أن من الروايات ما اسند الى من وصفوا بالصدق والثقة والعدالة ، لذلك لم يعد هناك جدوى من مناقشة تلك المرويات ومعالجتها على أساس نقد السند .

فعلى سبيل المثال ، نجد أن مرويات الطبرى الأربع اخذها عن المدائني ، وهو اخبارى حافظ ، قال الذهبي فيه : "كان عجبا في معرفة السير والمغازى والأنساب وأيام العرب مصدقا فيما ينقله عالى الاسناد" . وقال ابن معين : ثقة ثقة ثقة . وقال الطبرى : "كان عالما بأيام الناس صدوقا في ذلك" . وذكره ابن عدى في كتابه الكامل في الضعفاء وقال ليس بالقوى . وقال ابن حجر : "لم أره في ثقات ابن حبان وهو على شرطه "(١) . وقال ابن حجر : "صدوق"(٢) .

وغيره من الثقات من رووا شيئا من هذه الروايات ، سنذكر منهم من نرى في ذكره تأييدا لقولنا آنف الذكر .

ونعود مع ماأوردته المصادر حول سيرة يزيد . فنجد ابن اعثم(٣) (ت ٣١٤هـ) ، يصب اهتمامه على احداث عصر يزيد وبخاصة فتنة ابن المهلب والفتوح ، ثم يشير الى وفاته وعمره ومدة خلافته ولايزيد على ذلك شيئا عن سيرته .

---

(١) محمد السلمي : منهج كتابة التاريخ الاسلامي ،ص ٤٧٧-٤٧٨
(٢) تقريب التهذيب ، قدم له دراسة وافية وقابله بأصل مؤلفه مقابلة دقيقة محمد عوامة ، دار الرشيد ، سوريا حلب ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ص ٤٠٥ .
(٣) الفتوح ، م٤/٢٤٢-٢٦٤ .

أما ابن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ)(١) فقد قدم ترجمة جيدة ضمنها نسبه وخلافته ومماته وعمره وولايته ، واولاده ، والعهد لهشام وابنه الوليد ، وعتبه على هشام في تنقصه اياه ، وبعض رجال الادارة في عهده وشيئا من سياسته ، وفتنة ابن المهلب ، ثم عرض للهو يزيد وكلفه بجاريتيه حبابه وسلامة ، فكرر قول ابن قتيبة في كتابه المعارف من انه صاحب لهو ولذات ، وهو صاحب حبابة وسلامة ، واضاف رواية اخرى ، ظهرت فيها روح المبالغة تضمنت شدة كلفه بحبابة ، وانه اكب عليها ، يتشممها اياما حتى انتنت ، ثم دفنها بنفسه .

ويشير ابن عبد ربه في موضعين آخرين خارج نطاق سيرة يزيد ، الى تبذيره المال قبل توليه الخلافة ، عندما ذكر ان سليمان هم بالحجر عليه عندما اصدق سعدة بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان عشرين الف دينار ، وشرى جارية باربعة آلاف دينار ، وان سليمان قال : "هممت ان اضرب على يد هذا السفيه و..."(٢) .

كما اورد ان كلفه بحبابة وانشغاله بها ، قد ادى به الى اضاعة امر الرعية ، والاحتجاب معها عن الناس ، وشهود الجمعة ، مشيرا الى لوم مسلمة له على ذلك ، وارعوائه قليلا ثم العودة الى سيرته الاولى بتاثير من حبابة(٣) .

اما الازدي (ت ٣٣٤هـ)(٤) ، وقد عرض لشيء من سياسة يزيد

---

(١) العقد الفريد ، تحقيق عبد المجيد الترحيني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، توزيع دار الباز ، مكة المكرمة ، الطبعة الاولى ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م ، ١٨٧/٥-١٩١ .
(٢) نفس المصدر ، ١٧٥/٥ .
(٣) نفس المصدر ، ٦٦/٧ .
(٤) تاريخ الموصل ، تحقق علي حبيبة ، القاهرة ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ، ص ٥-٢١ .

واحداث عهده ، فقد ترجم له بايجاز ، وكرر ذكر الروايات الأربع التي أوردها الطبري ، لكنه اضاف : "وكان يزيد مولعا بالنساء والغناء واللهو والشراب" . فزاد القول بولعه بالنساء ، والشرب ، دون مستند او رواية نقل عنها او اشار اليها .

ويترجم المسعودي (ت ٣٤٦هـ) له في كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر (١)، ترجمة مختصرة عن نسبه وخلافته ووفاته ، تاريخها ومكانها ، وعمره ومدة ولايته . ثم عرض لمعا من اخباره وسيره . صدرها بذكر الجانب المعتم من سيرته ، فذكر غلبة جاريتيه سلامة وحبابه عليه ، واقباله على الشرب واللهو واحتجابه عن الناس ، ولوم مسلمة له على ذلك ، واقلاعه عما كان فيه مدة مديدة ، ثم عودته الى ماكان عليه من لهو وقصف . وذكر عدم اكتفائه بهن ، واستدعاءه لاحد بني أبي لهب من مكة ، على دواب البريد والانفاق على حمله من بيت المال ، لانه يحسن غناء شعر بعينه ، وقدومه على الخليفة وغناءه له ، وطربه بغنائه ، وثناءه على أبي لهب الذي اخذ عنه ذلك الغناء ، ووصله واعادته مكرما . ثم يكرر رواية شدة طربه لغناء حبابة وسلامه ، واحتجابه عن الناس عند مرض حبابة ، وامتناعه عن دفنها بعد موتها من شدة الجزع عليها حتى جيفت ، ثم دفنه اياها ، وموته بعدها بايام قلائل ، ذاكرا قول أبي حمزة الخارجي في يزيد (٢) كدليل على سوء سيرته . ثم عرض لبعض اخبار دولته ، وختم قوله :

(١) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، ص ٣٠٦-٣١٥ .
(٢) انظر قوله قبل : ص ٨١ .

وليزيد اخبار حسان . فصدر حديثه عن يزيد بالمساوىء ، وختمه بالاشارة للمحاسن ولم يذكرها ، مع التوسع فى ذكر اخبار لهوه وطربه واحتجابه ، مكررا قول الازدى فى شربه الخمر .

ويترجم له ايضا فى كتابه الآخر التنبيه والاشراف (١) ، فيوجز ترجمته ، ويصفه اخلاقه بعد وصف خلقه ، بقوله : "فتى الشباب شديد الفخر ظاهر الكبر ، يحب اللهو ويستعمل الحجاب لايعرف موابا فياتيه ، ولاخطا فيدعه " .

ويكرر المقدسى (ت ٣٥٥هـ) (٢) القول بلهوه وشغفه بحبابة وشربه الخمر ، ثم تنكره لها ، وعزمه على الرشد ، والتشبه بعمر ثم العودة الى سيرته الاولى بتاثير منها ، عندما غنته ابياتا تزين له فيها اللهو والطرب الامر الذى ادى به يوما الى الاعتزال معها فى مقصورة له لينال حظه من الاستمتاع بها ، وامر حجابه الايفتحوا الباب ذلك اليوم ولو كان بطلبه واشار الى موتها ذلك اليوم ، حيث غصت بحبة رمان وحمله جنازتها ، ودفنها ، وموته بعدها بخمسة عشر يوما .

ثم نرى دور الكتاب واضحا فى تفخيم الامور ، والمبالغة فى الوصف ، والتحريف والزيادة او النقص ، يتبين لنا ذلك مما اضافه الجاحظ (ت ٣٥٥هـ) (٣) الى قول ابى حمزة الخارجى فى يزيد ، وهو ينقل الخطبة التى نقلها ابن قتيبة (٤) ، اذ يحرف

---

(١) دار صعب ، بيروت ، ص ٢٧٧-٢٧٨ .
(٢) كتاب البدء والتاريخ ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٩١٩م ٤٨/٦-٤٩ .
(٣) البيان والتبيين ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون مكتبة الجاحظ ، الناشر مكتبة الخانجى بالقاهرة ، الطبعة الخامسة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ١٢٢/٢-١٢٥ .
(٤) انظر قبل : ص ٨١ .

فيهـا ويزيـد ، ونـص ماأورده : "ثم ولى يزيد بن عبد الملك الفاسق فى دينه ، المابون فى فرجه ، الذى لم يؤنس منه رشد وقد قال الله تعالى فى أموال اليتامى : {فان انستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم} (١) فامر أمة محمد عليه السلام أعظم . يأكل الحرام ، ويشرب الخمر ، ويلبس الحلة قومت بألف دينار ، قد ضربت فيها الأبشار ، وهتكت فيها الاستار ، واخذت من غير حلها ، حبابة عن يمينه ..." .

وبالقاء نظرة مقارنة بين النصين ، نجده زاد كل ماقبل قوله "ياكل الحرام" مضيفا بعدها ، رميه بشرب الخمر ، مما يوضح ماأصاب النص من تحريف ، هذا ان كان قد صح نقله عن قائله من الأساس ، مع عدم التسليم بما جاء فيه ، لأنه قول عدو خارج نال من الصحابة رضوان الله عليهم فكيف لاينال من يزيد .

ويبلغ القول عن اخبار يزيد مع سلامة وحبابة مداه عند ابى فرج الأصفهانى (ت ٣٥٦هـ) (٢) ، الذى جمع فى ترجمتيهما الكثير من الروايات حول ذلك ، وكرر القول حول شرائهما ، ولهوه وطربه وشربه وغلبتهما عليه ، واحتجابه مع امائه ، وتركه الظهور للناس ، وشهود الجمعة والجماعة ، والارسال فى احضار بعض الشعراء والمغنين ، للسماع منهم ، او الحكم فيما يختلفن عليه من الشعر والغناء ، كاستقدام الأحوص الشاعر ، ومعبد والغريض المغنيان .

---

(١) النساء : من آية ٦

(٢) كتاب الأغانى ، مصور عن طبعة دار الكتب ، وزارة الثقافة والارشاد القومى ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، مطابع كوستا توماس وشركاه ، القاهرة ، ٣٥١-٣٣٤/٨ ، ١٤٥-١٢٤/١٥ .

وقد اشار الى هجره حبابة مدة من الزمن ، رغبة فى التشبه بعمر بن عبد العزيز ، وفى رواية ، للوم مسلمة اياه على سلوكه ذاك ، ثم العودة الى سيرته ، لتعرضها له واسماعه غناء اطربه ، وقيل من شعر سمعه من الاحوص ، فترك ما اراد من الرشد وعاود الغى .

وباقل جهد ، وشىء من امعان النظر ، تظهر مبالغة الاصفهانى فيما أورده ، والخيال فيما قصه ، والتناقض والاضطراب فى مروياته .

فعلى سبيل المثال ، نراه فى رواية يشير الى أن يزيد قال : بماذا صار عمر ارجى لربه جل وعز منى ، فاراد التشبه به ، فشق ذلك على حبابة ، فعملت على رده عن الرشد ، ونجحت فى ذلك . وغالب المصادر تشير كما سنرى الى سير يزيد على نهج عمر فى اول خلافته لمدة وجيزة حددها البعض باربعين يوما ، ثم نكوصه عن ذلك . ولكن ليس بسبب حبابة لانها لم تكن عنده آنذاك ، فانه لم يشترها الا فى خلافته ، كما ان الروايات تورد اسبابا اخرى لنكوصه ، نوردها عند ذكر المصادر التى اوردتها . ورواية تقول أن التى شرت حبابة هى زوجته سعده التى اخذت عليها ان تمهد لابنها عبد الله ولاية العهد ، ورواية اخرى تقول أن زوجته الثقفية أم الوليد هى التى شرتها له ، وانها اخذت عليها ان تعمل على تولية ابنها الوليد العهد ، ورجح القول الاخير .

ويبدو الاضطراب كبيرا فى خبر موتها ودفنها ، فرواية تقول : انه امر بدفنها بعدما انتنت ، وحضر دفنها ، ثم اراد نبشها ورجع عند ذلك ، وفى رواية انه نبشها بعد ثلاثة

أيام فأزالوه عنها ، ودفنوها فلم يلبث أن مات ودفن الى جانبها . وثالثة ، تقول ان مسلمة طلب منه أن يكفيه الصلاة عليها ، فأمر مسلمة بعض اصحابه بالصلاة عليها وانصرف ، وغيرها . ولعل الاخيرة اقرب المرويات الى مايقبله العقل ويناسب سمة ذلك الزمان واهله .

ويقول حسين عطوان فيما نقله الاصفهاني (١) : وحذا ابو الفرج حذو المسعودى فى عرض اخبار يزيد الذاتية اللاهية عرضا موجها ، يزرى به وينال منه ، فاكثر ما اورده من المرويات استقاه من علماء الزبيريين واليمنيين ، وفيه اخبار مصنوعة . ثم اورد خبرا عن موت حبابة ودفنها وموقف الخليفة وموته كمدا عليها كانموذج على مروياته الباطلة . فمصدر الخبر عبد الله بن عروة بن الزبير الذى قال انه خرج الى الشام مع ابيه زمن يزيد بن عبد الملك ، وحكى القصة . وقد ابطل حسين عطوان الخبر ، على اساس ان عروة بن الزبير لم يدرك زمن يزيد ، فوفاته كانت (٩٣ او ٩٤ او ١٠٠هـ) . مما يدل على تلفيق واختلاق هذا الخبر ، وكثير من الاخبار المسيئة لشخص هذا الخليفة ، سواء كان ذلك من بعض المؤرخين أو رواة الاخبار .

ومرويات الاصفهاني فى هذا الصدد بعضها مسند ، واخرى منقطعة السند ، وغيرها بلا اسناد . وقد اعتمد فيها على عدد من الرواة الكذابين والمجروحين والمطعون عليهم ، الى جانب اناس من اهل الصدق والثقة والعدالة . وهو فى ذاته لاتقبل اخباره الا بعد تمحيص ونظر ، فهو شيعى المذهب ، شعوبى

---

(١) سيرة الوليد بن يزيد ، ص ٣٥ .

النزعة ، كذاب ، يصرح فى كتاباته بما يوجب عليه الفسق ، ويهون شرب الخمر ، وبها كثير من الطعن والاعاجيب (١).

وقدم له ابن عساكر (ت ٥٧١هـ) (٢) ترجمة جيدة ، جمعت بين ماله وعليه ، مسندة مروياتها على طريقة المحدثين ، وقد اورد فيها نسبه ، ومولده ، وخلافته ، وموته زمانا ومكانا ، وعمره ومدة خلافته وصفته ، ثم عرض لبعض سيره ، ومما ذكره ليزيد من المحاسن ، مجالسة العلماء ، وحضور حلقاتهم العلمية والاخذ عنهم سواء فى دمشق او المدينة وذلك قبل توليه الخلافة ، فيروى عن ابن جابر قوله : "بينما نحن عند مكحول (٣) اذ اقبل يزيد بن عبد الملك ، فهممنا ان نوسع له ،

---

(١) عن أبى الفرج الاصفهانى ، ترجمة ، ومذهبا ، ومنهجا ، ومصادرا ، وقول العلماء فيه وفي كتابه الاغانى ، ونقد بعض مروياته ، انظر : وليد الاعظمى : السيف اليمانى فى نحر الاصفهانى صاحب الاغانى ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، المنصورة ، الطبعة الاولى ، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م . وقد أورد فيه روايتين من مختلقات الاصفهانى عن يزيد بن عبد الملك وناقشهما ، انظر منه ص ١٥٢-١٥٣ ، ١٥٨-١٦٤ .

(٢) تاريخ دمشق ، صورة من نسخة المخطوط بالمكتبة الظاهرية بدمشق وكمل نقصها من النسخ الأخرى بالقاهرة ومراكش واستانبول ، صنع لكل جزء منها فهرسا للتراجم والموضوعات الشيخ محمد بن رزق بن الطرهونى ، الناشر مكتبة الدار بالمدينة المنورة ، ١٤٠٧هـ ، ٣٣٧/١٨-٣٤٥

(٣) ابو عبد الله مكحول بن أبى مسلم شهراب بن شاذل الدمشقى ، مولى لامراة هذلية ، واصله من سبى كابل على الصحيح ، حيث اختلف على ولائه واصله ، وهو من التابعين ، جليل القدر ، محدثا ، ثقة ، صدوقا . كان يرى القدر ثم رجع ، (ت ١١٢هـ على خلاف) . انظر ترجمته عند : الذهبى : سير أعلام النبلاء ، اشرف على تحقيق الكتاب وخرج احاديثه ، شعيب الارناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ١٥٥/٥-١٦٠ - ابن كثير : البداية والنهاية ، دقق اصوله وحققه أحمد ابو ملحم وفؤاد السيد وعلى عطوى ومهدى ناصر الدين وعلى عبد الستار ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م ، ٣١٧/٩ - ابن حجر : تهذيب التهذيب ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الاولى ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ٢٥٨/١٠-٢٦٠ .

فقال مكحول : دعوه يجلس حيث انتهى به المجلس يتعلم التواضع" . وعن عبد الله بن يسار : "انى لجالس فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم وقد حج فى ذلك العام يزيد بن عبد الملك ، قبل ان يكون خليفة فجلس مع المقبرى (١) ومع ابن ابى العتاب (٢) ..." وذكر قصة وقوف ابى عبد الله العراط صاحب ابى هريرة رضى الله عنه عليه وهو عندهما ، ووصايته له باهل المدينة .

ويبدو أنه حفظ كثيرا من الحديث ورواه ، حتى عد من المحدثين ، فيروى ابن عساكر ان ابا زرعة قال : "ومن بنى امية ممن يحدث ، يزيد بن عبد الملك" .

كما أورد مايدل على سير يزيد اول خلافته على نهج عمر ثم نكوصه عن ذلك . يقول عبد الرحمن بن زيد بن اسلم : "لما توفى عمر بن عبد العزيز وولى يزيد بن عبد الملك قال سيروا بسيرة عمر ، قال فاتى باربعين شيخا فشهدوا له ماعلى الخلفاء حساب ولاعذاب" ، وقال عبد الملك بن الماجشون : "لما مات عمر بن عبد العزيز قال يزيد : والله ماعمر باحوج الى الله منى . قال فاقام اربعين ليلة يسير بسيرة عمر .." لكن الرواية عللت نكوصه عن نهج عمر بسبب عمل جاريته حبابة على صرفه عن ذلك باسماعه غنائها ، فصرفته الى اللهو .

وبالمقابل اورد شيئا مما قيل فيه ، وذلك عن شراء

---

(١) ابوسعيد المقبرى ، واسمه كيسان ، مولى لبنى جندع من كنانة ، ادرك عمر بن الخطاب ، وكان ثقة كثير الحديث (ت ١٠٠هـ) فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، وقيل توفى بالمدينة فى خلافة الوليد بن عبد الملك . ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ٥/٨٥-٨٦ .
وقد يكون الذى تعلم على يديه الخليفة يزيد هو ابن ابى سعيد المقبرى ، واسمه سعيد بن ابى سعيد المقبرى فابن عساكر اكتفى بذكر اللقب ولم يحدد الاسم .
(انظر ترجمة الابن بعد : الفصل السادس ، المبحث الاول ص ٦٥٩) .

(٢) أراه منصور بن المعتمر ويكنى ابا عتاب ، اذ لم نعثر على احد بهذا الاسم فى تلك الفترة غيره ، ومنصور من العباد ، رفيعا عاليا صدوقا ، ثقة كثير الحديث ، مات ١٣٢هـ . ابن سعد : نفس المصدر ، ٦/٣٣٧ .

سلامة واختلائه مع حبابة وموتها شرقا ، ودفنها بعدماجيفت ، وحزنه وجزعه عليها ، وشعره فيها ، وموته على اثرها . بل انه اورد رواية تطعن فى دينه ، مع انه ذيلها بالحكم على اسنادها ، اذ قال : "فى اسنادها غير واحد من المجهولين" .

أما ابن الاثير (ت ٦٣٠هـ)(١) ، فقد استهل حديثه عن عهد يزيد باستخلاف يزيد ، وبعد أن عرض لاحداث عهده وسياسته ، استكمل الحديث عن سيرته وشيء من اخباره . فذكر استخلافه بعد عمر بعهد من سليمان ، واشار الى وصية عمر اليه ، وقول ينم عن حسن رأيه فيه قال : لما احتضر عمر قيل له : اكتب الى يزيد فاوصه بالامة . قال : بماذا اوصيه ؟ انه من بنى عبد الملك ، ثم كتب وصيته اليه(٢) .

لكن ابن الاثير ، سرعان مايضمن حديثه عن يزيد بقوله : "وعمد يزيد الى كل ماصنعه عمر بن عبد العزيز مما لم يوافق هواه فرده ، ولم يخف شناعة عاجلة ولا اثما عاجلا" . وهذه مقولة سنناقش مدى صحتها فى دراستنا لسياسته الادارية والمالية(٣) .

أما اخبار سيرته ، فكرر فيها ابن الاثير ، ماورد عند الطبرى وغيره من الروايات عن شرائه لجاريتيه سلامة وحبابة وشدة طربه لغنائهما وكلفه بهما ، وحزنه وجزعه على حبابة بعد موتها . وعلى طريقة المحدثين كان يورد الروايات المختلفة وان تناقضت ، وعلى منهجه دون اسناد ، لكن الدارس

---

(١) الكامل ، ١٦٥/٤-١٩٢ .
(٢) انظر نصها بعد : الفصل السادس ، المبحث الثانى ، ص ٧٢٢-٧٢٣ .
(٣) انظر ذلك فى الفصل الخامس . وقد اثبتت الدراسة الجدية عدم صحة هذا القول على وجه الاطلاق .

يلمس تقديمه لما هو اقرب للمنطق ، مستبعدا امدار الاحكام عليه والروايات التي تطعن في دينه . فنراه على سبيل المثال ، يقدم القول بموته بمرض السل ، على موته كمدا على فقد حبابة ، وعندما يصور طربه بالغناء يقدم الرواية التي تقول : "كان يزيد من فتيانهم ، فقال يوما وقد طرب وعنده حبابة وسلامة القس : دعوني أطير ، فقالت حبابة : على من تدع الامة ؟ قال : عليك" . ثم يورد بعدها رواية تقول : "وغنته يوما :

وبين التراقي واللهاة حرارة ... وماطمئنت ماء يسوغ فتبردا

فاهوى ليطير ، فقالت : ياامير المؤمنين ان لنا فيك حاجة فقال : والله لاطيرن ، فقالت : على من تخلف الامة والملك ؟ قال : عليك والله ، وقبل يدها ، فخرج بعض خدمه وهو يقول : سخنت عينك فما اسخفك" . فالخبر واحد ، لكن الرواية الثانية بها زيادة ، وفيها مبالغة تستهدف التعريض والاساءة ، فاورد الاثنتين لكنه قدم اكثرها اتزانا . (١)

ويكثر المؤرخ المجهول ، من الروايات التي ترسم صورة يزيد اللاهي ، في شيء من المبالغة وهو لايكتفي بايراد الروايات المشيرة الى لهوه ، وانصرافه الى الاماء ، والشرب ومصاعب الناس من الظلم والجور بسبب ذلك ، واقلاعه ثم عودته الى سيرته الأولى ، كما عند كثير ممن سبقه من المؤرخين ، بل يصدر احكاما قاسية ، فبعد أن عرف بيزيد على انه صاحب لهو وهو صاحب حبابة وسلامة وصف خلقه ، كما وصف خلقه

---

(١) العيون والحدائق في اخبار الحقائق ، ويليه تجارب الامم لمسكويه ، مكتبة المثنى ، ببغداد ، ٣/٧٥-٨٠ .

بالفجور . ومن المبالغة فى رواياته التى نقلها ، القول بشراء حبابة وسلامة بمائتى الف دينار ، وروراياته غير مسندة .

وسنتجاوز عددا من المؤرخين لنصل الى ترجمته عند اثنين من كبارهم ، اولهما : الذهبى (ت ٧٤٨هـ) ، الذى تناول شيئا من سيرته فى كتبه التاريخية ، فاورد فى تاريخ الاسلام (١) ، وصف خلقه ، وحضوره مجلس مكحول ، كما كرر القول أن يزيد قال : سيروا بسيرة عمر ، فاتى باربعين شيخا ، فشهدوا له أن ماعلى الخلفاء من حساب ولاعذاب . واضاف فى كتابه دول الاسلام (٢) قوله : "وكان طائفة من الجهال الشاميين يعتقدون ذلك" . كما اشار فى كتابه تاريخ الاسلام الى طرف من قصته مع حبابة ، وموتها ، وحزنه عليها وموته على اثرها . وترجم ليزيد فى كتابه سير اعلام النبلاء (٣) ترجمة جيدة ، اورد فيها نسبه ، واستخلافه ، ومولده ، وصفته ، ووفاته زمانها ومكانها ، ومدة خلافته ، وعهده لهشام ثم ابنه الوليد . ثم اشار الى جانب من محاسنه ، حيث كرر القول بحضور حلقة مكحول لطلب العلم ، والسير بسيرة عمر أول خلافته ، وشهادة اربعين شيخا له ، أن ماعلى الخلفاء من حساب ولاعذاب . واورد رواية اخرى لهذا الخبر ، ذكر فيها ان يزيد قال : والله ماعمر بن عبد العزيز باحوج الى الله منى ، فاقام اربعين يوما يسير بسيرته ، ثم اشار الى انصرافه عن ذلك

---

(١) وطبقات المشاهير والاعلام ، مطبعة السعادة ، نشرة مكتبة القدس ، القاهرة ، ١٩٦٨م ، ٤/٢١٢-٢١٤ .

(٢) مطبعة دار المعارف النظامية الكائنة بمدينة حيدر اباد ، الدكن ، الطبعة الاولى ، ١/٥٥ .

(٣) ٥/١٥٠-١٥٢ .

الى اللهو مع حبابة التى اغرته بغنائها .

ثم عرض للجانب اللاهى من حياة يزيد ، فذكر قصة وفاة حبابة ، وحزنه عليها ، وموته بعدها بخمسة عشر يوما . وعرض لوصفها ، كما ذكر لوم مسلمة لأخيه يزيد فى شغفه بتلك الجارية ، وتركه مصالح المسلمين ، وعدم افادته فيه . وبين رأيه فى يزيد بقوله : "وكان لايصلح للامامة ، مصروف الهمة الى اللهو والغوانى" .

وثانيهما ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)(١) ، الذى تعد ترجمته ليزيد من افضل التراجم التى تناولت سيرته ،لما تميزت به من الشمول والاتزان ، حيث تناول ماله وماعليه بل ودرء بعض الشبه عنه . واشتملت على نسبه ، وصفته ، وخلافته بعد عمر ابن عبد العزيز بعهد من سليمان ، وذكر كتاب عمر اليه ووفاته وعمره ومدة ولايته ، والعهد من بعده لهشام ثم ابنه الوليد بن يزيد . اما اخبار سيرته ، فقدم ماكان ليزيد من اثر حسن ومحامد طيبة ، ثم تناول الجانب اللاهى فى شىء من الاتزان . فبدا بخبر متابعة يزيد لعمر بن عبد العزيز الذى عاد الى ماكان فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين من عدم توريث المسلم الكافر ، والكافر المسلم ، وترك ماسار عليه بنو أمية منذ عهد معاوية من توريث المسلم الكافر ، فلما تولى هشام اخذ بما كان عليه بنو أمية . ثم كرر رواية تعلم يزيد على يد مكحول وحضوره مجلسه . ثم اكد على كثرة حضور يزيد مجالس العلماء ، واثر ذلك عليه فى عزمه على التاسى بعمر عند توليه الخلافة ، يتبين ذلك من

---

(١) البداية ، ط٤ ، ٢٤١/٩-٢٤٢ .

قوله : "وقد كان يزيد هذا يكثر من مجالسة العلماء قبل ان يلي الخلافة ، فلما ولي عزم على أن يتاسى بعمر بن عبد العزيز ، فما تركه قرناء السوء ، وحسنوا له الظلم ، قال حرملة عن ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن اسلم قال : لما ولي يزيد بن عبد الملك قال سيروا بسيرة عمر ، فمكث كذلك اربعين ليلة ، فاتى باربعين شيخا فشهدوا له انه ماعلى الخلفاء من حساب ولاعذاب" .

وقد دفع عنه تهمة الطعن في دينه بقوله : "وقد اتهمه بعضهم في الدين ، وليس بصحيح ، انما ذاك ولده الوليد بن يزيد كما سياتي ، اما هذا فما به من باس" . وبالمقابل تناول الجانب الآخر ، حيث تحدث عن علاقة يزيد بجاريته حبابة شراءها ، وحظوتها عنده ، وكلفه بها ، وقصة موتها عندما اعتزل كل شيء ليخلو بها في احد قصوره ، فماتت على اثر شرقها بحبة عنب ، وتاخيره دفنها حتى جيفت ، ومدى حزنه عليها وموته على اثرها ، بمرض السل .

وقد قدم ذلك بشكل موجز ، مستبعدا ماينم عن التحامل ، وان لم يسلم قوله من ذكر مايستغرب ، كالقول ببقائه اياما بعد موتها يقبلها ويرشفها وهي ميتة حتى انتنت وجيفت . ويتضح انه جمع اكثر من رواية في خبر موجز اجمل فيه قصة يزيد مع حبابة ، وبدون اسناد ، مخالفا منهجه وبخاصة في الروايات المسندة التي تناولت الجانب الحسن من سيرة يزيد .

وكرر كثير من المؤرخين المتاخرين ، القول بلهوه ، وكلفه بجاريتيه سلامة وحبابة ، وانصرافه اليهن ، بينما

اشار بعضهم الى اتباعه نهج عمر اول خلافته . واصدر بعضهم الاحكام القاسية عليه ، كقول ابن الطقطقا (ت ٧٠٩هـ)(١) : "كان – يعني يزيد – خليع بني امية ، شغف بجاريتين اسم احداهما سلامة والاخرى حبابة ، فقطع معهما زمانه" . ومثل ذلك نجده في ترجمته عند الكتبي (ت ٧٦٤هـ)(٢) ، الذي ضمن ترجمته الكثير مما يسيء ليزيد دون ذكر لشيء من محاسنه ، فوصفه بالعجز ، وقال : "كان يسمى يزيد الماجن" وخلال تحدثه عن قصته مع حبابة ، قال : ان عقله اختل على اثر موتها . واضاف قوله : "وتحدث الناس في خلعه من الخلافة" وهو خبر سبقه اليه ابن قتيبة(٣) ، الذي اشار الى محاولة خلعه ، لعودته الى سياسة الوليد بن عبد الملك ، وليس بسبب علاقته بحبابة كما قال هذا . وابدى رايه فيه ونصه : "فغلبت – اي حبابة – على قلبه من ذلك – وقت شرائها – ولم ينتفع به في الخلافة" .

واضاف بعضهم تبذيره المال ومبلغ ترفه ، فاشار اليافعي (ت ٧٦٨هـ)(٤) ، الى اعطاء يزيد قبل الخلافة لاحد الحلاقين اربعة آلاف درهم . ويذكر القلقشندي (ت ٨٢٠هـ)(٥) ان يزيد كان يلقب القادر بصنع الله . وقد انفرد بذلك . كما يذكر تنعمه وعظمة قماشه ، فيقول : "كان قماشه – يعني

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م ، ص ١٣١ .
(٢) فوات الوفيات والذيل عليها ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٤م ، ٣٢٢/٤-٣٢٣ .
(٣) انظر قوله قبل : ص٨٠ .
(٤) مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان ، تحقيق عبد الله الجبوري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م ، ٢٥٣/١ .
(٥) مآثر الانافة في معالم الخلافة ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٤م ، ٣٦٣/١ .

يزيد - يحمل على ستمائة جمل ، وانه خلف عشرة آلاف قميص لنفسه ، وليقس على ذلك باقي امواله " . غير ان لهذا الخبر مثيلا ينسب مثل ذلك لهشام بن عبد الملك ، لاليزيد ، ولعله اصل هذا الخبر ، فحرفت نسبته من هشام الى يزيد .

قال المصعب الزبيري (١) : "وكان - اى هشام - قد اتخذ طرازا له قدر ، واستكثر منه ، حتى كان يحمل طرازه على سبعمائة جمل ، وحمله على ذلك ان عمر بن عبد العزيز لما مد يده الى بعض اموال بنى امية ، لم يعرض لما قطعوا من الثياب ولبسوا ، تركها لهم ، فراى هشام ان عمر امام عدل ، وان من ياتى بعده من اهل العدل يقتدى به ، فجعل يتخذ المتاع الجيد ويؤثر فيه ويلبسه ، ثم يدخره لولده ، وكان يستجيده ويغالى بثمنه " .

وروى ابن تغرى بردى (ت ٨٧٤هـ) (٢) ، فى ترجمته ليزيد القول بان يزيد صاحب لهو وطرب ، وكذلك سيره على نهج عمر اربعين يوما ، ثم ترك ذلك الى اللهو والشرب .

بينما خلت ترجمته عند آخرين من اى ذكر لاخبار سيرته ، كما عند ابن العمرانى (ت ٥٨٠هـ) (٣) ، او الاقتصار على ذكر الحسن من اخباره ، كما فعل السيوطى (ت ٩١١هـ) (٤) ، الذى ضمن ترجمته روايتين عن اتباعه نهج عمر اول خلافته ، ثم عدوله .

---

(١) نسب قريش ، ص ١٦٤ .

(٢) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والنشر ، ١/٢٥٥-٢٥٦ .

(٣) الانباء فى تاريخ الخلفاء ، تحقيق قاسم السامرائى ، دار العلوم للطباعة والنشر ، الرياض ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٢م ، ص ٥١ .

(٤) تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، ص ٢٤٦-٢٤٧ .

ونرى ان فيما أوردناه من اقوال المؤرخين واصحاب التراجم ، مايكفى لمناقشة ماقيل حول شخصية يزيد بن عبد الملك ، ووضع التصور الأقرب لسيرته ، ولانقول التصور الأصوب او ماكانت عليه سيرته فى الحقيقة ، لأن المعلومات التى اشتملت عليها مصادرنا حول سيرته ،قليلة نادرة ، مقتصرة على بعض جوانب حياته وليس كلها ، مضطربة متناقضة ، مما يصعب معها الوصول الى الحقيقة أو الحكم القاطع .

وماعرضنا له من المصادر التى تناولت سيرة يزيد ، يمكن تقسيمه الى فئات ، الأولى : احجمت عن ذكر اخبار سيرته واقتصرت على ايراد ابجدياتها ، من نسب ، ومولد ، وخلافة ، ووفاة ، وعمر ، ومدة خلافة ، وشيء عن أسرته ، وهى : نسب قريش ، وتاريخ ابن خياط ، وتاريخ الخلفاء لعبد الله بن محمد بن يزيد ، وتاريخ اليعقوبى ، والفتوح ، والانباء فى تاريخ الخلفاء .

فئة ثانية : ضمنت ترجمته الجمع بين ذكر المحمود من سيره ومذمومها ، وهى الامامة والسياسة . وانساب الاشراف وتاريخ دمشق ، وتاريخ الاسلام ، ودول الاسلام ، وسير أعلام النبلاء ، والبداية والنهاية ، ومرآة الجنان .

وفئة ثالثة : أوردت فى ترجمته من الأخبار ما أخذ عليه وهى المعارف ، ومشاكلة الناس لزمانهم ، وتاريخ الأمم والملوك ، والعقد الفريد ، وتاريخ الموصل ، ومروج الذهب ، والتنبيه والاشراف ، والبيان والتبيين ، والبدء والتاريخ ، والأغانى ، والكامل ، والعيون والحدائق ، ومآثر الانافة . بينما وجدنا السيوطى كمثال لمن اقتصر على شيء من محاسنه

في الترجمة ليزيد .

وهذا التقسيم مبني على طبيعة ماحوته تلك المصادر من اخبار سيرة يزيد ، لاعلى أساس انه يبين اتجاه هؤلاء المؤرخين واهواءهم ، ولايدل بشكل مطلق على اثر الهوى في كتاباتهم التاريخية . فعلى سبيل المثال ، نجد ان الطبري قد اقتصر فيما أورده من اخبار سيرة يزيد ضمن ترجمته ، على بعض ماأخذ عليه من علاقته بجاريته حبابة ، لاعن هوى في نفسه وهو الامام الحافظ العلامة الثقة الصدوق حسن المذهب والاعتقاد (١) ، وان كنا لانجد مبررا لاغفاله اي شيء عن الجانب الحسن من سيرة ذلك الخليفة ، الا انه لم يسمع أو يطلع على شيء من ذلك . بينما أغفل أخبار سيرته اللاهية من كان يتوقع منه الطعن والاساءة ، كاليعقوبي في كتابه تاريخ اليعقوبي ، وهو المعروف بالتشيع ، واتباع الهوى في كتاباته (٢) ، وان كان قد ذكر شيئا من اخبار تلك السيرة في كتابه الآخر مشاكلة الناس لزمانهم .

ويمكن ان نجمل اخبار سيرة يزيد بن عبد الملك ، كما جاءت فيما استعرضناه من المصادر في جانبين : المحمود من سيرته وهو مايحسب له ، والمذموم منها وهو مايؤخذ عليه .

وتمثل المحمود من سيرته ، انه كان قبل الخلافة محبوبا في قريش (٣) ، بجميل مأخذه في نفسه ، وهديه وتواضعه وقصده .

ويحسن بنا ان ننوه ـ وان كان من خارج تراجم يزيد في

---

(١) عن ترجمة الطبري ، وعقيدته ، انظر : محمد السلمي : منهج كتابة التاريخ الاسلامي ، ص ٤٣٦-٤٣٩ .
(٢) عن ترجمة اليعقوبي ، وعقيدته ، انظر : محمد السلمي : نفس المرجع ، ص ٤٢٦-٤٣٢ .
(٣) انظر قبل : ص ٧٩ .

المصادر التى عرضنا لها ـ الى حسن تربيته وتاديبه فى صغره كواحد من ابناء الخليفة عبد الملك بن مروان ، الذى أولى تربية أولاده عناية كبيرة واهتماما بالغا ، زودهم بتوجيهاته ووصاياه ، واعطاهم حبه ، واسبغ عليهم عطفه ، وهاهو ذا يعبر عن حبه لهم بشعر قال فيه عن يزيد :

يزيد زيادة الرحمن فينا وصاحب عروة الأمر الشديد (١)

كما احسن اختيار المؤدبين لأبنائه ، فانتقاهم من اهل الدين والعلم والفضل ، وقدم لهم توجيهاته ، فيما ينبغى أن يفعلوه ومايريد أن يكون عليه ابناؤه . فكان منهم الضحاك ابن مزاحم الهلالى ، وعامر بن شراحيل الشعبى ، واسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر ، ومحمد بن مسلم الزهرى (٢) .

وقد تادب يزيد على يد اسماعيل بن أبى المهاجر (٣) (٤) ،

---

(١) عن اهتمام عبد الملك بن مروان بتربية أبنائه ، انظر محمد ضياء الدين الريس : عبد الملك بن مروان والدولة الاموية ، مطابع سجل العرب ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٩م ص ٤٩-٥٣ ـ عواد مجيد الأعظمى : الأمير مسلمة بن عبد الملك ، منشورات اتحاد المؤرخين العرب ، بغداد ، ١٩٨٠م ، ص ١٩-٢٢ .

(٢) عن مؤدبى بنى عبد الملك ، التعريف بهم ، واسس اختيارهم ، وتوجيهات عبد الملك لهم ، وتربيتهم لبنيه انظر : محمد صالحية : مؤدبو الخلفاء ، (بحث) ، ص ٤٠-٤٣، ٤٨-٥٣ .

(٣) اسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر ، مولى بنى مخزوم ، امام كبير ، من العلماء رواة الحديث الثقات كان مفقه أولاد الخليفة عبد الملك بن مروان ، وهو من الزهاد ، ولى المغرب لعمر بن عبد العزيز ، فاقام بها سنتين حتى عزل بابن أبى مسلم ، وقد أسلم عامة البربر فى ولايته . وكان حسن السيرة . توفى سنة ١٣٢هـ . الذهبى : سير ، ٢١٣/٥ .

(٤) ابو زرعة : تاريخ أبى زرعة ، ٣٤٧/١-٣٤٨ .

والزهري .[1][2]

ولاشك أن مثل هذه التربية ، والتأدب ، والتعلم ، على مثل هؤلاء العلماء ، سيكون له الأثر الحسن في سلوك يزيد وهديه ، وإن كان حسين عطوان[3] ، يشير إلى ضعف الصلة العاطفية بين يزيد وأبيه عبد الملك ، وأنه كان ميالا لابنه الوليد ، فلم يرع يزيد كبقية أبنائه من زوجاته الأخريات ، وطلق أمه .

وذكر أنه بعد تطليق عبد الملك لأمه عاتكة بنت يزيد ، أصبح يزيد كل أملها ، خصوصا أنه ابنها الأكبر ، ولما اتصف به من حسن الخلق وتمام البنية وسمات الرجولة ، فأسبغت عليه حنانها ، وأحاطته برعايتها ، وغرست فيه الشموخ بالنسب والنفس ، لانتمائه إلى البيت المرواني عن طريق أبيه والبيت السفياني عن طريق أمه . كما قوت فيه الشعور بالكرامة والشهامة ، والفخر بذاته ومنزلته ، وقد نشأ في أحضانها نشأة فيها الرقة والنعومة والترف .

ولعل هذه التربية في أحضان أمه ، ما أوجد فيه بعض

---

(١) محمد بن مسلم الزهري القرشي ، الفقيه الحافظ ، أحد الأئمة الأعلام ، وعالم الحجاز والشام ، كان ثقة كثير الحديث ، له نحو ألفي حديث ، وكان وافر العلم ، كثير الرواية ، جامعا . وكان يكتب كل مايسمع ، من أعلم الناس ، قال عنه عمر بن عبد العزيز : لم يبق أعلم بسنة ماضية منه . وقال عن نفسه : مانشر أحد من الناس هذا العلم نشري ولابذله بذلي ، ولد سنة ٥١هـ على خلاف ومات سنة ١٢٤هـ على خلاف أيضا . انظر : ابن حجر : تهذيب ، ٩/٣٩٥-٣٩٩ . وأضاف الذهبي : أنه قدم الشام على عبد الملك بن مروان ، ثم لازم الوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد ، فاستقضاه يزيد بن عبد الملك مع سليمان بن حبيب جميعا . انظر : سير ، ٥/٣٢٦-٣٥٠ .

(٢) محمد صالحية : مؤدبو الخلفاء (بحث) ، ص ٤٢ .

(٣) سيرة الوليد بن يزيد ، ص ١٤، ١٥ .

السمات ، وماكان معينا لبعض المؤرخين يستقون منه أوصافه التى ضمنوها كتبهم ، كقولهم انه كان فتى الشباب ، ظاهر الكبر ، شديد الفخر ، وغير ذلك من الصفات .

وعلى كل حال فانه لما شب ونضج ، اعتمد على نفسه ، وسعى فى طلب العلم ، فكان يكثر من مجالسة العلماء قبل أن يلى الخلافة ، ويغشى مجالسهم ، ويحضر حلقاتهم ، ويتادب بآدابهم ، ويصغى لكلامهم ويقبل توجيهاتهم ، وياخذ العلم عنهم (١). وشيوخه الذين تلقى عنهم العلم ، مكحول (٢) والزهرى (٣) ، فى الشام ، والمقبرى ، وابن ابى العتاب ، من علماء المدينة (٤) .

وعلى مايبدو انه بلغ درجة رفيعة من العلم وبخاصة فى حفظ الحديث وروايته ، جعلت بعضهم يعده من المحدثين (٥) .

وقد كان راى عمر بن عبد العزيز فى يزيد حسنا (٦) ، كما كان عمر عند يزيد ممن به يقتدى ، فانه لما ولى الخلافة بعد عمر ، أراد التاسى به ، والسير على طريقته ، وقال :والله ماعمر باحوج منى الى الله ، فامر بالسير على نهجه . وكان مما تابعه فيه ، احياء سنة عدم توريث المسلم الكافر ، والكافر المسلم . وذلك كما كان متبعا فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وخلفائه الراشدين . بعد أن ورث معاوية

---

(١) انظر قبل : ص ٩١-٩٢،٩٥،٩٦-٩٧،١٠٢-١٠٣ .
(٢) انظر قبل : ص ٩١ .
(٣) عن تعلم يزيد على يد الزهرى ، انظر : حسين عطوان : سيرة الوليد بن يزيد ، ص ١٥ (نقلا عن : عيون التواريخ مخطوطة المكتبة الظاهرية ، رقم ٤٥ تاريخ ، ج ٥ ، الورقة : ١٥و) .
(٤) انظر قبل : ص ٩٢ .
(٥) انظر نص ابن عساكر فى ذلك ، قبل : ص ٩٢ .
(٦) انظر اشارة ابن الاثير الى ذلك ، قبل : ص ٩٢ .

رضى اللــه عنه المسلم الكافر ، وتابعه على ذلك خلفاؤه من بنـــى اميـــة ، حـــتى عـــاود عمر السنة الأولى ، ووافقه فى ذلك يزيـــد . وقـــد سار يزيد بسيرة عمر مدة حددها البعض بأربعين يومـــا ، اذ لـــم يتركــه قرنـــاء الســوء ، فحسنوا لـه الظلم ، واتـــوه بـأربعين شيخا ، شهدوا لـه أن ماعلى الخلفاء من حساب ولاعذاب .(١)

اما الجانب الآخر ، وهو ماذم به واخذ عليه ، فتمثل فى عدد من الأوجه اولهـا : تركه السير على نهج عمر الذى عمل به أول خلافتـــه ، ســـواء عـــلى اثر شهادة الاربعين شيخا أن ماعلى الخلفـــاء مـــن حســـاب ولاعـــذاب ، او بفعل حبابة التى سعت الى صرفـــه الـــى اللهـــو معهـا ، وزاد من ذلك انه عمد الى كل شىء منعـــه عمـــر ممـــا لـــم يـــوافق هواه فرده ـ كما قال بذلك ابن الأثير(٢) وهو ماسنناقشه فى ثنايا الفصل الخامس بعد ـ والعمل بسيرة اخيه الوليد ، واتباع هديه(٣) .

الوجـــه الثـانى : وهو الجانب اللاهى فى حياة يزيد ، أو ميلـــه الـــى اللهـــو واللذات . وقد بنى على قصته مع جاريتيه سلامة وحبابـــة ، واستمد ممـــا روى حقا حول حبه لهمـــا ، وكلفه بهمـــا ، وحظوتاهمـــا عنده ، ومازيد على ذلك ، او اختلق حوله وقـــد اتضـــح لـى انه المحور الذى دارت عليه الرحا التى طحنت شخصية يزيد بن عبد الملك .

وقصـــة يزيـــد مع جاريتيه فى الأصل بسيطة كما يبدو لـــى ، فهمـــا جاريتـــان ، جميلتـــان ، ظريفتـــان ، مغنيتـــان ، شراهما

---

(١) انظر ذلك قبل : ص ٩٢،٩٥،٩٧ .
(٢) انظر قوله : ص ٩٣ .
(٣) انظر ذلك ضمن قول ابن قتيبة قبل : ص ٩-٨٠ .

يزيد بعد استخلافه ، فملكتا عليه قلبه ، خصوصا حبابة ، التى كلف بحبها ، واشتد طربه لغنائها ، فحظيت عنده ، فلما ماتت ، حزن لموتها وجزع عليها ، ولم يطل العمر به بعدها حيث مات بعدها بايام معدودة ، بالطاعون وقيل بل كان مرض السل .

وقد أغمض كثير من المؤرخين القول بموته مطعونا أو مسلولا ، وجعلوه كمدا واسفا على فقد حبابة . مع انه من غير المستبعد ذلك بل هو الأولى ، فكثيرا ما انتشر وباء الطاعون وغيره من الأوبئة فى حواضر الشام كدمشق ، فكان ذلك من الأسباب التى دعت الخلفاء الأمويين الى بناء قصور لهم فى بوادى الشام وأريافه (١) .

ومع أن قصر الصفراء الذى بناه سليمان بن عبد الملك ظل دارا للخلافة حتى اتخذ هشام بن عبد الملك الرصافة مقرا له بدلا من دمشق (٢) ، الا أن يزيد كان ككثير من الخلفاء الأمويين الذين اتخذوا لهم قصورا خارج دمشق ، يستجمون بها ويقضون فيها بعض أوقاتهم . فنزل قصر الموقر (٣) ، الذى يرجع

---

(١) عن أسباب بناء الأمويين للقصور الصحراوية والريفية ، انظر : فواز أحمد طوقان : الحائر فى العمارة الأموية الاسلامية ، بحث ضمن اعمال المؤتمر الدولى (الأول) لتاريخ بلاد الشام ، من القرن السادس الى القرن السابع عشر الميلادى ، المنعقد فى الجامعة الأردنية ، ١٩٧٤م ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت ، ١٩٧٤م ، ص ٧١-٧٥ (وان كان قد حاول ابطال القول بالأسباب القديمة كالهروب من الأوبئة ، وذكر أسبابا أخرى) .

(٢) عصام عبد الرؤوف : الحواضر الاسلامية الكبرى ، دار الفكر العربى ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٦م ، ص ٤٢ .

(٣) موقر : اسم موضع بنواحى البلقاء من نواحى دمشق ، وكان يزيد بن عبد الملك ينزله . ياقوت : معجم البلدان ، ٥/٢٢٦ . ويتضح ان القصر سمى باسم المكان الذى بنى فيه .

ان يكـون يزيد بن عبد الملك هو الذى بنـاه ، او رممه (١) ، وقد بنـى عـلى قمـة جـبل الموقـر ، الـى الشمال الشرقى من قصر المشـتى ، وقـد تهـدم ولـم يبـق منـه سوى البركـة وانقاض ابنيته (٢) .

ولقد احتوت مدائح وقصائد بعض الشعراء فى يزيد بن عبد الملـك ، اشـارات الـى ذلك القصر ونزوله فيه ، من ذلك قول الأحوص الشاعر يمدح يزيد بن عبد الملك :

الا لاتلمه اليوم أن يتبلدا فقد غلب المحزون أن يتجلدا
نظرت رجاء بالموقر ان ارى اكاريس يحتلون خاخا فمنشدا (٣)

وقول جرير :

اشاعت قريش للفرزدق خزيـه
وتلك الوفود النازلون الموقـرا
عشية لاقى القين قين مجاشع
هزبرا ابا شبلين فى الغيل قسورا (٤)

ويرجـح ايضـا نسـبة قصر المشتى ليزيد بن عبد الملك (٥) ، فانـه وان اختلفت الآراء حـول نسـبة هـذا القصـر ، الـى اى العصـور والملـوك والخلفـاء ، فان انضجها نسبته الى العصر

(١) ابـراهيم أحمد العدوى : الأمويون والبيزنطيون ، الدار القومية للطباعة والنشر ، دار الجبل ، الفجالة ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م ، ص ٢٧٢ - فيليب حتى تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة كمال اليازجى ، اشرف على مراجعته وتحريره جبرائيل جبور ، دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٢م ، ١٢٥/٢ .
(٢) عـن موقع هذا القصر وصفته ، انظر : فواز طوقان : الحائر (بحث) ، ص ١١٩ .
(٣) انظر قوله عند : الأصفهانى : الأغانى ، ١٢٣/١٥ .
(٤) ياقوت : معجم ، ٢٢٦/٥ .
(٥) عـن قصر المشتى موقعه وصفته ، انظر : زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، ملتزم الطبع والنشر ، دار الفكر العربى ص ٤٨-٥٢ .

الأموى ، وقد ذهب من نسبه الى العصر الأموى الى رأيين : الأول نسبته الى يزيد بن عبد الملك ، والثانى الى ابنه الوليد بن يزيد ، وقد فسر أصحاب الرأى الأول ترك القصر قبل اتمامه بوفاة يزيد بعد وفاة جاريته حبابة (١) .

وحيث أن أجزاء من قصر المشتى جاءت خالية تماما من رسوم الكائنات الحية ، عكس بقية الأجزاء التى احتوت على رسوم طيور وحيوانات حقيقية وخرافية ، مما حير علماء الآثار وأدى الى اختلافهم فى تفسير هذه الظاهرة ، والتى رأى بعضهم أن صاحب هذا القصر اقتنع بعد اتمام القسط الأكبر من الزخرفة ، بكراهية تصوير الكائنات الحية فى الاسلام ، ففضل الزخارف النباتية فى الجزء الباقى (٢) .

ولعلمنا بموقف الخليفة يزيد بن عبد الملك من الصور ، والمتمثل فى اصداره المرسوم القاضى بمحو الصور وازالة التماثيل وكسر الأصنام وتحطيمها (٣) ، فاننا نرى ذلك قرينة قوية لنسبة قصر المشتى اليه .

ولقد جعلنا موته بالطاعون أولى ، لموته بعد فترة وجيزة من موت جاريته حبابة . بينما لايستبعد موته بالسل ، فلقد وردت الاشارات الى مرضه اثناء الخلافة ، فلعله كان مريضا بالسل . فقد ذكر أن يزيد ألم به المرض واشتكى شكاية شديدة ، قيل أن أخاه هشاما سربها . فكان من يزيد العتب ، ومن هشام الاعتذار (٤) .

---

(١) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ٥٢ .
(٢) زكى محمد حسن : نفس المرجع ، ص ٥٠-٥١ .
(٣) انظر مرسوم الخليفة يزيد فى الفصل الثالث .
(٤) ابن قتيبة : عيون الأخبار ، ١١٤/٣ — ابن عساكر : تاريخ دمشق ، المخطوط ، ٣٤١/١٨ — ابن كثير : البداية ط٤، ٢٤١/٩ — وقيل : بل كان ينتقمه ويتمنى موته ، انظر ابن عبد ربه : العقد ، ١٨٩/٥-١٩٠ — المسعودى : مروج ٢١٣/٣ .

كما أشار أيضا الى مرضه هذا بعض المصادر غير الاسلامية (١)
وكما ذكرنا أن قصة يزيد مع جاريتيه كانت فى الأصل بسيطة عادية ، غير أنها جاءت فى المرويات التى تناولتها مهولة مشوهة ، اعتراها كثير من المبالغة والاضطراب ، والتناقض والزيادة بل والاختلاق ، فمنها مايشير الى تلك القصة باتزان ، ومنها وان كان مسندا ونقله بعض كبار المؤرخين على طريقة المحدثين ، فقد شابه مالايقبل ويعقل ، ومنها ماظهرت فيه الاساءة والطعن بتحريف ، أو زيادة ، أو اختلاق ، فجاءت تلك المرويات تحمل العجب والمنكر ، وذلك اما لهوى فى نفس راويها ، أو لغرض يقصده ناقلها ، أو نقلها من لم يهتم بالاختيار ، أو نقلها مسندة ، فحمل المسئولية من رواها .

فاذا مادققنا النظر فى الروايات التى تناولت لهو يزيد من خلال هذه القصة ،لوجدناها بدات متزنة الى حد ما عند المؤرخين الأوائل ، كابن قتيبة والطبرى (٢) ، ثم بدا الترقى فى تفخيمها ، والزيادة عليها واختلاق مالم يكن موجودا ، مع تكرار أقوال السابقين أو بعضها .

وان أوضح مثال لذلك ، ماصور به الخليفة يزيد عند موت حبابة ، ومدى حزنه عليها . فمن المصادر مايشير الى موتها واعتزال يزيد بن عبد الملك الناس بعد وفاتها سبعة أيام حتى لايرى عليه مايسفهه ، بعد أن ترك أمر الصلاة عليها ودفنها لأخيه مسلمة ، فأمر مسلمة أحد أصحابه بالصلاة عليها

---

(١) انظر ذلك بعد : الفصل الثالث ، ص ٢٨٨ .
(٢) انظر قبل : ص ٧٩-٨١،٨٢-٨٣ ، ٢٦٨ .

واخرى قالت بدفنه اياها ، وغيرها قالت لم يستطع المشى جزعا فحمل بينما تشير بعض المصادر الى تاخير دفنها ثلاثة أيام ، وقال غيرهم كان يقبلها ويرشفها وهى ميتة حتى جيفت بينما نجد من بالغ فى تصوير حزنه بعد دفنها وبكائه على أطلالها ، والتمثل بالأشعار وتقريب مويحباتها ، حتى وصل ببعضهم الأمر الى القول بنبشه قبرها واخراجها ، لامرة فحسب بل ومرتين .

ولنرى كيف صور الأصفهانى يزيد بن عبد الملك ، قال : "روى المدائني : انه اشتاق اليها بعد ثلاثة أيام من دفنه اياها ، فقال : لابد من ان تنبش ، وكشف له عن وجهها وقد تغير تغيرا قبيحا فقيل له : ياامير المؤمنين اتق الله ، الا ترى كيف قد صارت ؟ فقال : مارايتها قط احسن منها اليوم اخرجوها ، فجاءه مسلمة ووجوه أهله ، فلم يزالوا به حتى ازالوه عن ذلك ،ودفنوها ، وانصرف فكمد كمدا شديدا حتى مات فدفن الى جانبها" (١) .

سخف وأيما سخف ، لاسخف يزيد الخليفة ، بل سخف هذه الروايات وما اشتملت عليه ، مما لايقره العقل ، ولايوافق المنطق والعرف ، أمر نستبعده عن سفيه فى عصرنا الحاضر ، فكيف نصدقه من خليفة للمسلمين ، عاش مطلع ثانى خير القرون ولكنه التاريخ ، يوجب علينا أن نذكر مثل هذا السخف ، فندرسه وننقده .

وليتبين لنا اثر بعض الرواة والمؤرخين فى تفخيم هذه القصة ، وتعاظمها مع تقادم الأزمان ، بما زادوه فيها او عليها ، حتى صارت بالشكل الذى وصل الينا ، وجعلت سيرة

(١) الأغانى ، ١٥/١٤٤-١٤٥ .

يزيد بتلك الصورة المعتمة التى أمسى فيها . سنتتبع اهم الاضافات ، والآراء ، والأحكام ، فى المصادر التى استعرضنا أخبار سيرته فيها ، آخذين فى الاعتبار تكرار المؤرخين لبعض أو كل ماذكره السابقون حول ذلك . فيشير اليعقوبى الى غلبة حبابة على يزيد حتى غدت تولى وتعزل ، وتطلق وتحبس (١) . ثم كان ابن عبد ربه أول من اشار الى احتجابه مع تلك الجارية وترك شهود الجمعة والجماعة ، واتهامه بالسفه والتبذير (٢) .

ويصرح الأزدى ، باتهام يزيد بالولع بالنساء وشرب الخمر (٣) ، وان كان قد ورد ذكر شربه عرضا فى خطبة ابى حمزة الخارجى التى رواها ابن قتيبة (٤) . ويظهر المسعودى مدى اهتمامه بالغناء ، واستدعاء المغنين اليه ، ولايقف عند ذلك فيصفه بما لايحمد ويتهمه بالجهل (٥) .

ويتكرر قول تلك الاشياء أو بعضها ، فى كل مصدر ياتى فلما اتانا الأصفهانى ، أو جئنا على ماعنده فى الأغانى ، وجدنا عنده حشدا كبيرا من تلك الروايات واخبار حبابة وسلامة مع يزيد ، ودعوته المغنين ، منها ماهو مكرر ومنها ماهو مبالغ ، وان كان فى الحقيقة لم يبد آراءه فى يزيد ولم يصدر اوصافا شنيعة او احكاما قاسية ، من لدنه (٦) .

ولم يسلم يزيد من روايات تطعن فى دينه ، كما جاء فى تاريخ دمشق (٧) ، وقد دفع عنه ابن كثير ذلك (٨) . كما بالغ المؤرخ

---

(١) انظر قبل : ص ٨٢ .
(٢) انظر قبل : ص ٨٥ ، وانظر كذلك القول بتبذيره وتنعمه ص ٩٨-٩٩ .
(٣) انظر قبل : ص ٨٥-٨٦ .
(٤) انظر قبل : ص ٨١ .
(٥) انظر قبل : ص ٨٦-٨٧ .
(٦) انظر قبل : ص ٨٨-٨٩ .
(٧) انظر قبل : ص ٩٣ .
(٨) انظر دفعه لتلك التهمة ، قبل : ص ٩٧ .

المجهول في رواياته المزرية بهذا الخليفة ، فكرر وبالغ في كثير مما ذكر ، واتهمه بالفجور (١) .

ونصل الى بعض المؤرخين الذين لم يكتفوا بايراد الروايات التي تتناول شخصيته ، فقدموا له أوصافا خلقية ، وبينوا فيه آراءهم وأصدروا فيه أحكامهم ، في ضوء تلك المرويات التي وصلت اليهم ، فكان منها الجارح المرفوض ، والمعتدل المقبول .

فقالوا : فتى الشباب ، شديد الفخر ، ظاهر الكبر ، يحب اللهو (٢) ، فاجرا (٣) ، عاجزا ، لايعرف صوابا فياتيه ، ولاخطا فيدعه (٤) . ووصفه بعضهم : بخليع بني امية (٥) ، ويزيد الماجن (٦) .

ومن اقوالهم : ولم ينتفع به في الخلافة (٧) ، وكان لايصلح للامامة ، مصروف الهمة الى اللهو والغواني (٩) .

وتاتي الاشارة الى تحدث بعض الناس وعزمهم على خلع يزيد من الخلافة (٩) ، واحدة ذكرها ابن قتيبة ، وذكر ان ذلك جاء لتركه سيرة عمر التي اطمان لها الناس ، واخرى عند الكتبي (١٠) ، أوردها على اثر حديثه عما صار اليه حال يزيد بعد موت جاريته حبابة . وهاتان الاشارتان لم اجد لهما مثيلا

---

(١) انظر قبل : ص ٩٤-٩٥ .
(٢) انظر قبل : ص ٩٤-٩٥ .
(٣) انظر قبل : ص ٩٨ .
(٤) انظر قبل : ص ٨٧ .
(٥) انظر قبل : ص ٩٨ .
(٦) انظر قبل : ص ٩٨ .
(٧) انظر قبل : ص ٩٨ .
(٨) انظر قبل : ص ٩٦ .
(٩) انظر قبل : ص ٨٠ .
(١٠) انظر قوله قبل : ص ٩٨ .

ولاقرينة في المصادر التي اطلعت عليها في هذا البحث ، سواء اثناء دراسة سيرة يزيد ، أو أحداث عصره .

هكذا كانت شخصية الخليفة يزيد بن عبد الملك ، كما صورتها المصادر الاسلامية ، فكان جهدنا استقصاء ماذكر حوله وابراز ماله وماعليه ، ماحمد من سيرته وماذم . مؤكدين وكما ناقشنا وبينا في ثنايا هذه الدراسة على مااعترى مرويات هذه السيرة من مبالغة واختلاق وتزييف ، حتى غدت كأنها اسطورة من نسج الخيال ، حوت مالايوافق المنطق ، ولايقبله العقل ، ولايقره العرف . وابتلى صاحبها بالأوصاف الشنيعة ، والآراء المتحاملة ، والأحكام الجائرة .

ونحن اخيرا لانستطيع أن ننفي كل ماقيل عنه ، ولانؤكد ماقيل فيه ، ولانحكم له أو عليه ، لأن مثل ذلك لايتم الا بالحجة البينة والحقيقة الواضحة ، فكنا نريد أن نصل الى ذلك عن طريق نقد السند ، فوجدنا قليلها المسند ، وكثير قليلها منقطع السند . أما كثيرها فغير مسند . واذا مالجأنا الى نقد المتون ومقابلتها ، وهذا ماعملنا عليه ما استطعنا ، فاننا نجد كثيرا من الاضطراب والتناقض والاختلاف مما يدل على الزيادة والتحريف والاختلاق . لذلك لم نستطع الوصول الى الحقيقة المطلقة ، ولاالحكم النهائي القاطع ، غير أننا نستطيع ان نقول ، أن يزيدا لم يكن بتلك الدرجة التي صور بها من السوء ، ونردد قول ابن كثير فيه : اما هذا فما به من باس .

ويبقى سؤال مهم يفرض نفسه ، مامدى تاثير شخصية يزيد وحياته الخاصة في سياساته الرسمية وادارته الدولة الاسلامية

ومسامدى تاثر الدولة بسيرته ، ومامدلول أحداثها على حقيقة شخصيته ؟

لاشك أن لبعض جوانب سيرة يزيد شيء من الاثر على سياسته العامة . فيذكر انه ماعزل ابا بكر ابن حزم عن المدينة ، الا انتقاما لنفسه ، فان يزيدا كان قد حج فى خلافة الوليد ابن عبد الملك ، فتزوج بنت عون بن محمد بن على بن ابى طالب ، وأصدقها مالا كثيرا ، فكتب الخليفة الوليد الى ابن حزم قاضى المدينة ، ان يفسخ نكاح يزيد من بنت عون ، وان يستعيد المال ، فنفذ ابن حزم أمر الوليد . (١)

كما أن اصهاره الى ثقيف ، وتزوجه من زينب بنت محمد ابن يوسف ، أخو الحجاج بن يوسف الثقفى ، كان له بالغ الاثر فى سوء العلاقة بين الخليفة يزيد ، ويزيد بن المهلب ، الذى اوكل اليه زمن سليمان تعقب آل الحجاج ومحاسبتهم وتعذيبهم فما قبل ابن المهلب شفاعة يزيد بن عبد الملك فى زوجته الثقفية أو أختها ، مما أغضب عليه يزيد بن عبد الملك ، الذى هدده بالانتقام ان تولى الخلافة ، فكان ذلك من الأسباب التى أدت الى هروب ابن المهلب من سجن عمر بن عبد العزيز فى آخر حياته ، وخروجه على يزيد بن عبد الملك ، والقيام بالحركة التى استهدفت تقويض الحكم الأموى . (٢)

أما مدى تاثر الدولة بشخصية يزيد ، فالحق أنه لم يكن الرجل المناسب لتلك الفترة ، ولم تكن سياسته تلائم وضع الدولة آنذاك . فان خليفة عمر بن عبد العزيز الذى أدرك

---

(١) حسين عطوان : سيرة الوليد بن يزيد ، ص ١٧ .
(٢) انظر ذلك خلال أسباب حركة ابن المهلب ، بعد : الفصل الثانى ، المبحث الأول ، ص ١٣٣-١٣٥ .

حاجة الدولة للاصلاح ، كان يجب أن يدرك ذلك ، ولو لم يكن كعمر في شخصه ، وان اتخذ في سبيل ذلك سياسة تخصه ، المهم أن يحقق الغاية ويتم مابدأه عمر بن عبد العزيز .

غير أن من الحق أيضا ، أن يزيدا لم يقد الدولة نحو الهاوية ، ولم يكن عهده بداية الانهيار والنهاية ، وأن شخصيته وسيرته ، لم تكن سببا قويا فيما أصاب تلك الدولة ، ولعل مجمل دوره ، انه عاد بالدولة الى سابق عهدها ، فطبق كثيرا من سياسات أسلافه من بني أمية ، وخالف كثيرا من سياسات عمر ، وأبقى على شيء منها ، لتعيش الدولة من جديد في ظل كثير من الظروف الماضية التي كانت بمثابة معاول هدم تزايد أثرها مع الزمن حتى أسقطت الدولة الأموية .

ومما هو جدير بالذكر أن دراستنا الجدية لأحداث عصره ، اثبتت لنا قيام يزيد بتحمل مسئولية الحكم ، ومباشرة مهام الدولة ، فوجدناه على رأس كثير من الأحداث الجليلة ، والأخبار الهامة ، يسوسها ، فيضع الخطط ، ويستشير ذوي الرأي ، ويتخذ القرارات ، ويشرف على التنفيذ ، ويتابع الأحداث ، وينتظر النتائج ، ويتخذ الحلول المناسبة للمشاكل المستعصية .

فلم نجد لسيرته الذاتية اللاهية ، أثرا كبيرا في قيامه بواجبات الجانب الرسمي من حياته ، اذ لم نطلع على حدث نتج عن اهماله ، أو على خبر يؤكد انصرافه عن شئون الحكم ، وترك مصالح المسلمين .

لكن الواقع أن قدراته السياسية ، وكفاءته الادارية ،

لم تكن تؤهله لملء مكانه وقيادة الدولة باقتدار ، أو تحقق العظيم من المنجزات والفريد من السياسات التي تلفت اليه الانظار .

فكان يزيد حاكما عاديا ، ليس سياسيا مقتدرا كمعاوية او اداريا ناجحا كعبد الملك ، أو مصلحا كعمر ، كما لم يكن سيئا كابنه الوليد بن يزيد . ويمكن القول أن توليه الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز جعل المفارقة بينه وبين عمر واضحة وكبيرة ، وادت الى عتامة صورته لدى جمهرة المسلمين .

هذه سيرة يزيد ، وتلك سمة شخصيته ، التي كان لها صدى واسعا ، استغله الأعداء والخصوم واهل الهوى ، من الساسة والقادة والمؤرخين ، واهمل بسببها كثير من المؤرخين قدماء ومحدثين ، أحداث عهده ومنجزات حكمه .

ومادراستنا هذه لعهد يزيد وسيرته ، الا صدى لتلك السيرة ، ولكنه صدى ايجابيا ، استهدف البحث الجاد ، وجلاء الحقائق ، وتصحيح كثير من المفاهيم الخاطئة ، عن يزيد بن عبد الملك وعهده .

الفصل الثاني

الحركات الداخلية في الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك

المبحث الأول : حركة يزيد بن المهلب .

المبحث الثاني : حركات الخوارج .

١- حركة شوذب .

٢- حركة مسعود العبدي .

٣- حركة مصعب الوالبي .

٤- حركة سعيد بن بحدل .

٥- حركة عقفان .

المبحث الثالث : حركة شيريم اليهودي .

المبحث الرابع : حركة بلاي .

المبحث الخامس : حركة أخيلا

الفصل الثانى

الحركات الداخلية فى الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك

يعتبر عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ، نموذجا يمثل الحركات المختلفة المشارب ، التى عانت منها الدولة الأموية منذ قيامها ، وكذلك سياسة الدولة فى التصدى لها ، وأساليب معالجتها ، وقدرة الدولة على تجاوزها والاستمرار فى أداء واجبها التاريخى .

وسنعرض فى مباحث هذا الفصل للحركات التى قامت فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ، احداثها ، وسياسة الدولة فى التصدى لها واخمادها ، وأهم آثارها ونتائجها .

المبحث الأول

حركة يزيد بن المهلب

حدثت حركة يزيد بن المهلب ضد الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ، لكن مقدماتها وأسبابها لم تكن وليدة زمنه ، بل بدأت فى الظهور منذ تألق نجم ابن المهلب ، خصوصا بعد ولايته على خراسان ، فى عهد الخليفة عبدالملك بن مروان ، وبروزه كزعيم يمنى التفت حوله عصبيته وتولى جل شأنها ، فوضعه ذلك مابين نقمة الخلفاء ذوى الهوى القيسى وأمرائهم على المشرق ، وبين حظوة من قرب اليمانية واعتمد عليهم من بنى أمية . فأضحى ابن المهلب ممن يشكل سياسة عصره ، ويحرك أحداثها ، وجنى من وراء ذلك تحمل مسئولية بعض الأحداث وعداء بعض أطراف النزاع فيها ، كالحجاج الثقفى ومن ثم الخليفة يزيد بن عبد الملك . وهذا ما أدى الى خلق دوافع الثورة وأسباب حدوثها . كما أثمر عن كسب ابن المهلب مقومات القيام والتحدى ، وهذا ماتمثل فى المكانة التى وصلها ، والخبرة التى نالها ، والثروة التى جمعها . فكان لزاما علينا أن نعرض لتلك المرحلة من حياة يزيد بن المهلب وهى ماقبل الحركة ، لنتعرف بايجاز على تلك المقدمات والأسباب .

حياة ابن المهلب قبل الحركة :

كان لحياة يزيد بن المهلب قبل الحركة ومارافقها من احداث ، بحكم مكانته وموقعه منها كقائد وأمير وزعيم قبيلة

وعلاقته بالبيت الحاكم ، وامارة المشرق ، دور كبير في الخروج على الحكم الأموى ، وتبدل موقف الأسرة المهلبية ، ودورها الايجابي في مساندة الأمويين وتثبيت سلطانهم في شرق الدولة الاسلامية ، الى اسرة ثائرة ، وعصبية يمنية ناقمة . مافتئت تلعب دورها في هدم البيت الأموى وتقويض سلطانه .

نسبه :

هو يزيد بن المهلب بن أبي صفرة واسمه ظالم بن سراق ابن صبح بن كندى بن عدى بن وائل بن الحارث بن العتيك بن الأزد - ويقال الأسد بالسين الساكنة - بن عمران بن عمرو بن عامر بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد ، الأزدى العتكى البصرى (١) ، من أزد دبا (٢) .

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ٢٩٩/٦ - الزركلى : الأعلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، الطبعة السابعة ، ١٩٨٦م ، ١٨٩/٨ - المسعودى التنبيه والاشراف ، ص ٢٧٧ (واضاف : عمرو بعد كندى ، وقال : عامر بن حارثة بن ثعلبة ، وزاد بعد الأزد على نسبه : الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان ابن سبا) .

(٢) ابن قتيبة : المعارف ، ط٤ ، ص ٣٩٩ (قال : ان دبا فيما بين عمان والبحرين . أسلم اهلها وارتدوا ، فحاربهم عكرمة وقتل وسبى ، وكان ابو صفرة غلاما لم يبلغ وكان فيمن بعث منهم الى ابى بكر ، فاعتقهم عمر فنزل ابو صفرة البصرة) . لكن ابن خلكان الذى يضيف فى كتابه : وفيات الأعيان ، ٣٥٨/٥ على التعريف بدبا قوله أضيفت جماعة من الأزد اليه لما نزلوه ، وكان الأزد عند تفرقهم اضيفت كل طائفة الى شىء يميزها عن غيرها ، فقيل أزد دبا وازد شنوءه ، وازد عمان ، ومرجع الكل الى الأزد المذكور . ونجده فى نفس المصدر ٣٥٠/٥-٣٥١ . يرد على الواقدى قصة قدوم أبى صفرة على ابى بكر وهو غلام ناقلا عن ابن قتيبة بقوله : هذا الحديث باطل ، اخطأ فيه الواقدى لأن ابا صفرة لم يكن فى هؤلاء ولارآه ابو بكر قط ، وانما وفد على عمر وهو شيخ ، أمره عمر أن يخضب . وكيف يكون غلاما زمن ابى بكر وقد ولد المهلب =

ويكنى بابى خالد .(١)

وقد برز آل المهلب كقادة كبار لقبيلة الأزد ، فى البصرة ، وكانوا فيها كما كان الأحنف(٢) فى تميم(٣) . وكانوا من المكانة علوا وجودا فى دولة بنى امية كالبرامكة فى دولة بنى العباس(٤) . حتى اننا نجد التشابه فى النهاية السيئة للأسرتين على يد الدولة وتصفيتهما . لكن ناجى حسن ينقل عن الأصفهانى : "أن آل المهلب لم يكونوا من الازد ، وانما كان أبو صفرة والد المهلب فارسى من اهل خارك(٥) ، فقطع الى عمان

= وهو من اصاغر ولده قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بسنتين ، وقيل سنين وقد كان فى ولده من ولد قبل وفاة النبى صلى الله عليه وسلم بثلاثين سنة أو أكثر . ونحن نستغرب رد ابن خلكان الذى قال أنه نقله عن ابن قتيبة ، لأننا نحن قد نقلنا الخبر عن ابن قتيبة الذى صرح بنقله عن الواقدى ، ولم يشكك فى الخبر ولم يرد عليه بعدما ذكره (للتاكد من ذلك ، انظر ابن قتيبة : نفس المصدر والصفحة) .
وليس هناك خلاف بين الخبرين الا ان الواقدى قال : فاطلقهم ابو بكر ولم يقل عمر كما وجدناه نحن عند ابن قتيبة . وقد أورد قصة الواقدى ابن خلكان ورد عليها نقلا عن ابن قتيبة .

(١) الزركلى : الأعلام ، ١٨٩/٨ .
(٢) الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المرى السعدى المنقرى التميمى ، أبو بحر ، سيد تميم ، واحد العظماء الفصحاء الشجعان الفاتحين . يضرب به المثل فى الحلم ، ولد فى البصرة (سنة ٣ ق.هـ) ، ادرك النبى صلى الله عليه وسلم ولم يره ، ووفد على عمر ، واعتزل الفتنة يوم الجمل ، وشهد صفين مع على ، كما شهد الفتوح فى خراسان ، ووليها . وقد وفد على صديقه مصعب ابن الزبير فى الكوفة ، وتوفى فيها وهو عنده ، سنة ٧٢هـ . انظر : الزركلى : نفس المرجع ، ٢٧٦/١-٢٧٧ .
(٣) ناجى حسن : القبائل العربية فى المشرق خلال العصر الأموى ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٠م ، ص ٩٨ .
(٤) اليافعى : مرآة الجنان ، ٢٤١/١ ـ ابن العماد : شذرات الذهب فى اخبار من ذهب ، ١٢٤/١ .
(٥) خارك : جزيرة فى وسط البحر الفارسى (الخليج العربى) من أعمال فارس . انظر / ياقوت : معجم البلدان ، ٣٧٧/٢ .

ثم قدم البصرة ، فكان سائسا لعثمان بن أبى العاص (١) ، ولما هاجرت الأزد الى البصرة كان معهم فى الحروب فوجدوه نجدا فاستلاطوه (٢) ، فادعى الى الأزد (٣) .

وقد ولد يزيد بن المهلب (سنة ٥٣هـ) (٤) ، ونشأ فى كنف أبيه ، فشاركه فى معظم حروبه ، واكتسب خبرة حربية عالية ، كما كان أفضل أولاد المهلب ، يتجنب مواطن الذم ويعمد الى فعل المحامد . الا انه لم يكن بمنأى عن رمى خصومه له ببعض المثالب ، كاتهامه بالنساء وشرب الخمر ، وان كان هناك

---

(١) عثمان بن أبى العاص بن بشر بن عبد دهمان بن عبد الله ابن همام بن أبان بن يسار بن مالك بن خطيط بن جشم من ثقيف . أبو عبد الله . قدم على الرسول مع وفد ثقيف ، فاستعمله على الطائف ، وأقره أبو بكر وعمر ، الذى ولاه البصرة ، وقيل عمان والبحرين سنة ١٥هـ . ثم عزله عثمان بن عفان ، له فتوح وغزوات فىالهند وفارس . وهو الذى منع ثقيفا عن الردة ، خطبهم وقال : كنتم آخر الناس اسلاما فلاتكونوا أولهم ارتدادا . وسكن البصرة حتى توفى سنة ٥١هـ وقيل : سنة ٥٥هـ . انظر : ابن سعد الطبقات الكبرى ، ٤٠/٧ ـ ابن حجر : التهذيب ، ١١٧/٧-١١٨ ـ ابن حجر : كتاب الاصابة فى تمييز الصحابة دار احياء التراث العربى ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٣٢٨هـ ، ٤٦٠/٢ ـ الزركلى : الأعلام ، ٢٠٧/٤ .

(٢) استلاطوه : أى ألزقوه بأنفسهم . انظر : اللسان (لوط) .

(٣) القبائل ، ص ٩٨ (نقلا عن: الأغانى ، ٣٠٠/١٤ ـ الأعلاق ، ص ٢٠٦) . وقد دحض خبر الأصفهانى بفارسية المهالبة ، لعدم ذكرها فى المصادر الأخرى ، ومجيئها على لسان خصوم المهالبة . الا أننا وجدنا هذه التهمة عند المؤلف المجهول وياقوت ، اللذين أورداها على لسان بعض الخصوم والشعراء المعاصرين . (انظر : العيون والحدائق ، ٤٩/٣ ـ معجم البلدان ، ٣٣٧/٢) . لكن ذلك ليس كافيا لتصديق هذه المقولة ، خصوصا أن كتب التراجم لم تقل بذلك ، وقد عدنا لترجمة عثمان بن أبى العاص (انظر أعلاه هـ ١) ولم نجد فى ترجمته ذكرا لكون أبى صفرة مولى له . ومع ذلك فان هذه الروايات تفتح بابا للبحث الجدى حول هذه المقولة ، والوصول الى حقيقتها .

(٤) نافع توفيق العبود : آل المهلب بن أبى صفرة (ودورهم فى التاريخ حتى منتصف القرن الرابع الهجرى) ، رسالة دكتوراه ، غير مطبوعة ، مقدمة لجامعة بغداد ، كلية الآداب ، ١٩٧٦م ، ص ٥٧-٥٩ ـ الزركلى : الأعلام ، ١٨٩/٨.

مايعارضها ، كتحذيره لابنه مخلد من التعرض لأعراض الناس ، واقامته الحد الشرعي على ذوى المنكر ، مثل ضربه للشاعر هزيمة بن كعب حدا فى السكر ، وعزله لكاتبه يحيى بن يعمر العدواني بسبب شربه النبيذ . ويمكن القول : ان يزيدا كان شخصية قوية ومؤثرة ، استطاع أن يقوم مقام والده ، ويوحد شمل بيته . فكان اخوته سندا قويا له فى الشدائد ، وبخاصة عند خروجه على الامويين (١) .

ولايته الأولى على خراسان :

ولى يزيد بن المهلب خراسان بعد وفاة أبيه (سنة ٨٢هـ) اذ استخلفه عليها عند وفاته ، وهو أمير خراسان آنذاك من قبل الحجاج الثقفي (٢) . فكتب يزيد بذلك فاقره الحجاج على خراسان (٣) . وقيل بل كانت ولايته (سنة ٨٣هـ) (٤) .

وقد أقره الحجاج على كره منه لصلفه وتيهه (٥) . فمكث فى ولايتها أقل من ثلاث سنوات . اذ مالبث الحجاج أن عزله عنها باذن الخليفة عبد الملك بن مروان ، وذلك سنة ٨٥هـ (٦) .

---

(١) عن صفات يزيد بن المهلب ، وحياته فى كنف ابيه . انظر / نافع العبود : آل المهلب بن أبى صفرة ، ص ٥٧-٩٩ .

(٢) لمعلومات أوسع عن ولاية المهلب على خراسان . انظر / الطبرى : تاريخ الأمم ، ٣١٩/٦ ومابعدها ـ نبيه عاقل : تاريخ خلافة بنى أمية ، ص ١٦٦ .

(٣) نافع العبود : نفس المرجع ، ص ٥٩ ـ الطبرى : نفس المصدر والجزء ، ص ٣٥٤-٣٥٥ ـ ابن الاثير : الكامل ، ٨٣/٤-٨٤ .

(٤) الزركلى : الأعلام ، ١٨٩/٨ .

(٥) عواد مجيد الأعظمى : مسلمة ، ص ٤١ .

(٦) نافع العبود : نفس المرجع ، ص ٦٠ ومابعدها ـ نبيه عاقل : نفس المرجع ، ص ١٦٦ ـ الطبرى : نفس المصدر والجزء ، ص ٣٩٥ ـ الزركلى : نفس المرجع ، ١٨٩/٨-١٩٠. الا أنه جعل ولايته ست سنوات . وهذا خطأ ، اذ أن ولايته كانت سنة ٨٢هـ ، وعزله سنة ٨٥هـ ، بامر الخليفة عبد الملك الذى توفى سنة ٨٦هـ . فكيف تكون ولايته ست سنوات ، وهى فى الحقيقة مايقارب سنتين وأربعة أشهر .

أسباب العداء بين ابن المهلب والحجاج :

لما فرغ الحجاج من حركة عبد الرحمن بن الأشعث ، لم يكن له هم الا يزيد بن المهلب ، وأهل بيته ، وقد كان أذل أهل العراق كلهم الا آل المهلب ، ومن معهم بخراسان . اذ كان يخاف على العراق ، خشية من بأسهم (١) . فقد كان المهالبة (٢) أصحاب السيطرة والنفوذ في خراسان ، ويعود ذلك لأن قبيلتهم (أزد عمان) التي نزحت من البصرة وسكنت خراسان ، حالفت قبائل ربيعة وتألفت منها جبهة يمنية ربعية في خراسان ، تقابل جبهة مضرية تتألف من قبائل تميم وقيس . وكان يلي خراسان في هذا الوقت يزيد بن المهلب الذي كان أيضا زعيم الجبهة اليمنية المناوئة للحجاج (٣) ، الذي كان بدوره يريد التخلص من ابن المهلب لأشياء أخذها عليه منها عدم جديته في ملاحقة فلول ابن الأشعث الذين التجأوا الى هراة ، واطلاقه اليمنية دون المضرية ممن أسر منه ، وتباطؤه في محاربة موسى بن عبد الله بن خازم (٤) ، وأصحابه من القيسية ،

(١) ابن الأثير : الكامل ، ٩٦/٤ .
(٢) الزركلي : الأعلام ، ١٨٩/٨-١٩٠ .
(٣) هذا التفسير المبني على العصبية القبلية وحدها ، وأن الحجاج القيسي كانت قبائل اليمن مناوئة له ، وأن خطر ابن المهلب عظم بزعامته لهذه الجبهة ، وأن عزله كان خشية من هذا الخطر ، يعتبر تفسيرا قاصرا ، فقد كان المهلب سيد الأزد وزعيمها قبل ابنه ومع ذلك لم يخشه الحجاج بل كان محل احترامه ومقدر جهوده ، فكافأه على قضائه على الأزارقة بامارة خراسان ، ثم أقر ابنه من بعده ، وكان بمقدوره أن يجعلها لغيره ، لذا فاننا سنجد فيما سيأتي ذكره في الصفحات التالية المبررات الحقيقية لعزل ابن المهلب عن خراسان .
(٤) موسى بن عبد الله بن خازم ، ثائر اعتصم بعد أن ضعف أمر أبيه بترمذ - وكان أبوه أمير خراسان لابن الزبير فرفض البيعة لعبد الملك بن مروان ، وقاتل رجاله ، =

وامتناعه عن تنفيذ أمر الحجاج بغزو خوارزم سنة ٨٥هـ ، التي غزاها فيما بعد عندما توجس من الحجاج خيفة بالحاحه عليه بالقدوم الى واسط ، وعدم اطاعة الحجاج بقتل بني الأهتم ، واتهامه باختلاس مبلغ وقدره مائة ألف درهم من خراج خراسان (١) .

الا أن تعاظم أمره وحظوته عند الأمويين (٢) ، وسعيه الى تثبيت مركزه بالاعتماد على الازد وحليفتها ربيعة ، وحرصه على توثيق صلته بالامويين ، حيث أظهر مناوأته حركة ابن الاشعث ، وتصديه له في خراسان ، وذلك بايعازه الى أخيه المفضل واليه على هراة بحربهم (٣) ، كان كل ذلك من الاسباب الرئيسية التي أقلقت بال الحجاج من ابن المهلب ، خصوصا ان صحت الرواية القائلة بأن راهبا اجاب الحجاج عن سؤاله فيمن سيلي العراق من بعده : انه رجل يقال له يزيد . فوقع في

= فقتل سنة ٧٢ هـ ـ وظل فيها نحو خمسة عشر عاما ، وسيطر على ماوراء النهر جملة في كثير من الاحيان ، ونجح في التغلب على من قاتله من الترك ، وجيوش امراء خراسان ، وكان المهلب غير مقاتلا له ، وأوصى بنيه بعدم مقاتلته ، وقال : ان قتلتم موسى كان أول قادم عليكم أمير من قيس على خراسان . فلم يقاتله يزيد بن المهلب ، ثم قاتله المفضل بن المهلب ليحضى عند الحجاج ،فظفر به سنة ٨٥هـ ، فعزله الحجاج بقتيبة بن مسلم الباهلي . (انظر عنه / ابن الاثير : الكامل ، ٤/٩٧-١٠١) .

(١) نافع العبود : آل المهلب ، ص ٦٠ ومابعدها ـ عواد الاعظمي : مسلمة ، ص ٤١ . وأضاف : وفي رواية (ابن أعثم : الفتوح ، م٧/٢١٣) أن الحجاج طالب يزيد بن المهلب بسبعة آلاف درهم فانكرها .

(٢) نافع العبود : نفس المرجع ، ص ٦٠ ومابعدها .

(٣) نافع العبود : نفس المرجع ، ص ٥٩ .

نفسه أنه يزيد بن المهلب ، فكتب الحجاج الى عبد الملك يذم يزيد وآل المهلب ويستأذنه في عزله (١) . وكان الحجاج قبل ذلك يحاول استخراج يزيد من خراسان الى واسط ، والآخر يعتذر بالعدو وحرب خراسان . وقد رفض عبد الملك مشورة الحجاج بادىء الأمر ، ثم وافق أخيرا على عزل ابن المهلب ، وكان ذلك (سنة ٨٥هـ) (٢) . وبعد استصدار عزل يزيد من عبد الملك ، تزوج الحجاج هند بنت المهلب لئلا يثير شكوك يزيد ، واستدعاه (٣) ، فقدم عليه واسط ، وترك أخاه المفضل على خراسان الذى كتب اليه الحجاج بولايتها ، فأخذ يستحث يزيد على الخروج الى الحجاج (٤) . فلما قدم يزيد على الحجاج سجنه ، وعزل حبيب بن المهلب عن كرمان وسجنه ، وعزل عبد الملك بن المهلب عن شرطته (٥) . وأمر فأخرج اخوته عن خراسان وقطع أصولهم منها ، وفرق التجمع اليمني الذى كانوا يرأسونه (٦) .

وفي (سنة ٩٠هـ) هرب يزيد بن المهلب واخوته الذين كانوا معه في سجن الحجاج ، الذى كان يطالبهم بستة آلاف ألف ، واخذ يعذبهم عليها ، فاحتالوا لذلك والتجأوا الى سليمان ابن عبد الملك في الرملة من فلسطين ، فأمنهم واستعفى الخليفة الوليد بن عبد الملك ، فعفى عنهم ، وكتب الى الحجاج بالكف عنهم ، فكف عنهم . واقام يزيد بن المهلب عند

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، ٩٦/٤ .
(٢) نبيه عاقل : تاريخ خلافة بني أمية ، ص ١٨٣-١٨٤ .
(٣) نافع العبود : آل المهلب ، ص ٦٠ ومابعدها .
(٤) ابن الاثير : نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٥) نافع العبود : نفس المرجع ، ص ٦٠ ومابعدها ـ ابن العماد : شذرات ، ١٢٤/١ ـ اليافعي : مرآة ، ٢٤٢/١-٢٤٣ ـ الزركلي : الأعلام ، ١٨٩/٨ .
(٦) نبيه عاقل : نفس المرجع ، ص ١٨٣-١٨٤ .

سليمان بن عبد الملك .(١)

مما تقدم من حياة يزيد بن المهلب يظهر تغير موقف الحجاج أمير المشرق تجاه الأسرة المهلبية ، وسوء العلاقة بين الطرفين ، مما ترتب عليه ابعادهم عن مراكز السلطة ، ومعاقبتهم بأكثر مما كانوا ينتظرونه . ومع ذلك نستطيع أن نقول ان هذا العداء كان لايزال محصورا بين آل المهلب والحجاج أمير المشرق ، وحفظ البيت الأموى ولاء المهالبة واليمانية باجارة سليمان وعفو الوليد حتى الآن . لكن قادم الأيام من حياة يزيد بن المهلب بولايته الثانية على العراق ثم خراسان ، وتوليه تعذيب آل أبى عقيل ذوى الحجاج بأمر من الخليفة سليمان بن عبد الملك ، سيوسع دائرة الصراع ، لتسوء علاقتهم بالبيت الأموى نفسه ، ممثلا فى الخليفة عمر بن عبد العزيز ، المحاسب لابن المهلب على أموال المسلمين التى أفاء الله بها عليهم من فتوحاته لجرجان وطبرستان ، وماجمعه من خراج خراسان ، فانكرها ، ويزيد بن عبد الملك

---

(١) نافع العبود : آل المهلب ، ص ٦٦-٦٩ (وقال : ان سليمان اجارهم لعلمه بمكانتهم فى اليمانية الذين كان يسعى الى استمالتهم ليساعدوه للوصول الى الخلافة ، كما اضاف : انه اتخذ يزيد كاتبا له) ـ نبيه عاقل : تاريخ خلافة بنى أمية ، ص ٢٣٩ (وقال : ان سليمان تحمل المال الذى طالبهم به الحجاج ، وحدد مدة بقاء يزيد لديه بتسعة أشهر) ـ ابن الأثير : الكامل ، ٤/١١٤-١١٦.
ونحن نشير هنا الى أننا قد سعينا لجمع أسباب الخلاف بين الحجاج وآل المهلب . حتى لانفسر الأحداث من زاوية واحدة ، وبنظرة قاصرة ، ولتكن الرؤية الشاملة لما يحيط بالحدث هى عين الباحث الممحصة ، ووصولا الى الحقيقة ، وتحقيقا لمعالجة تاريخية ادق . فقد رأينا قصور النظرة لمن علل هذا العداء على أساس العصبية ، أو الخوف على المركز فحسب ، ولكننا وجدنا وراء ذلك أسبابا تعددت وتعاونت على خلق الحدث .
كما أن هذا العداء يمثل سببا رئيسيا فى ثورة ابن المهلب على الدولة الأموية كما سنرى .

الناقم على ابن المهلب في تعذيبه لأصهاره آل أبي عقيل وعدم مبالاته بشفاعة الامير الاموى لهم ، مما سيؤدى بالتالي الى سجنه على يد عمر ، والخروج على سلطان الدولة زمن الخليفة يزيد بن عبد الملك .(١)

ولايته على العراق ، وتوليه خراسان للمرة الثانية :

ما ان تولى الخلافة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٦هـ ، حتى امر بالقبض على آل أبي عقيل ، وهم أسرة الحجاج . ثم بعث يزيد بن المهلب الى البلقاء من اعمال دمشق ، فاستولى على اموال الحجاج وحمل عياله الى سليمان ، وكان فيهم زوجة يزيد بن عبد الملك — وهي من ثقيف — فعذبها يزيد بن المهلب بالرغم من شفاعة زوجها لها (٢). وفي نفس العام عزل سليمان يزيد بن أبي مسلم عن العراق وأمر عليه يزيد بن المهلب ، وجعل صالح بن عبد الرحمن على الخراج ، وأمره أن يقتل آل أبي عقيل ويبسط عليهم العذاب ، فعذبهم ، وكان الذى يلي عذابهم عبد الملك بن المهلب (٣). وهنا نرى اعتماد سليمان على خصوم الحجاج في الانتقام منه بتعذيب آله . ثم ولاه الخليفة سليمان امارة خراسان بطلب منه لما عساها أن تدره عليه من الاموال والثروات التي حرمه منها صالح بن عبد الرحمن في العراق ، فقدمها سنة ٩٧هـ ، بعد أن اقصى عنها وكيع بن الاسود الذى تولاها تسعة اشهر بعد قتل قتيبة ، وقد استخلف

---

(١) انظر تطور الاحداث في الصفحات التالية .
(٢) نافع العبود : آل المهلب ، ص ٦٨-٦٩ .
(٣) الطبرى : تاريخ الامم ، ٥٠٦/٦ — ابن الاثير : الكامل ، ١٣٨/٤ — الزركلي : الأعلام ، ١٨٩/٨ .

على العراق واموره فيها (١) .

وفي عام ٩٨هـ فتح الله على يدى ابن المهلب جرجان وطبرستان كما صالح قهستان (٢) ، وفتح الرويان ودنباوند (٣) ، وسبى وغنم ، وكتب الى سليمان بالفتح يعظمه ويخبره انه قد حمل عنده من الخمس ستمائة الف الف وقيل اربعة آلاف الف (٤) ، وهذا نص كتابه :

"أما بعد ،ياأمير المؤمنين فان الله عز وجل قد فتح فتوحا لم يفتحها على خليفة من خلفاء المسلمين من قبلك من أهل خراسان الى جرجان ودهستان وطبرستان ، وقد أعيى ذلك الفاروق وعثمان ومن بعدهما من الخلفاء ، حتى فتح الله ذلك كرامة لأمير المؤمنين وزيادة فى نعم الله عليه ، وقد صار فى يدى مما افاء الله على المسلمين بعد أن صار الى كل ذى حق حقه من الفيء والغنيمة عشرون الف الف درهم ، وأنا باعث بهذه الاموال التى افاء الله بها الى امير المؤمنين انشاء الله ، والسلام" (٥) .

<u>عزله عن خراسان وسجنه بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز :</u>

ويذكر البلاذرى : أن ابن المهلب ولى ابنه مخلدا خراسان ، وانصرف الى سليمان ، فكتب اليه أن معه خمسة

---

(١) نافع العبود : آل المهلب ، ص ٦٩-٧٤ ـ الزركلى : الاعلام ، ١٩٨/٨-١٩٠ .
(٢) انظر عن تفاصيل هذا الفتح واخباره : ابن الاثير : الكامل ، ١٤٧/٤-١٥٠ ـ الزركلى : نفس المرجع ، ١٨٩/٨-١٩٠ .
(٣) عواد الأعظمى : مسلمة ، ص ٤٢-٤٣ .
(٤) ابن الاثير : نفس المصدر والجزء ، ص ١٥٠ .
(٥) ابن أعثم : الفتوح ، م٢٢١/٤ ـ نافع العبود : نفس المرجع ، ص ٧٦-٧٧ . وقد خالفه فى مقدار الخمس بأنه (ستة آلاف الف درهم) . (نقلا عن الطبرى : تاريخ الأمم ، ٥٤٤/٦) .

وعشرون الف الف درهم ، فوقع الكتاب في يدى عمر بن عبد العزيز ، فاخذ يزيد به وحبسه (١). اذ كان سليمان بن عبد الملك قد توفي في هذه الاثناء سنة تسع وتسعين ، وتولى الخلافة عمر بن عبد العزيز بعهد من سليمان (٢). الذى كتب الى ابن المهلب باستخلاف سليمان له وليزيد بن عبد الملك من بعده وطلب منه اخذ بيعة من قبله ، فبايعوا ، ثم كتب اليه ان يستخلف على خراسان ويقدم عليه (٣) ، فلما بلغه كتابه شخص من خراسان ، واستخلف بها ابنه مخلدا ، وحمل كل ماكان معه مخافة من اهل خراسان ، واصطحب معه وجوه خراسان ، وقد اشار عليه قوم الا يبرح ، فلم يفعل (٤) ، وخرج ، حتى صار الى الرى فوجه بجميع ماكان معه من الاموال الى البصرة ، ثم خرج بعد ذلك يريد البصرة فنزل واسطا ، وركب منها السفن الى البصرة فلما وصل الى نهر معقل ، عند جسر البصرة ، لحق به موسى بن الوجيه الحميرى الذى بعثه عدى بن ارطاه امير البصرة من قبل عمر بن عبد العزيز ، فقبض عليه وأوثقه ، وكان عمر قد كتب الى عدى بالقبض عليه وارساله مقيدا . فقدم له كتاب عمر ، فقال سمعا وطاعة لأمير المؤمنين وعامله ، ثم رجع مع

---

(١) فتوح البلدان ، ص ٣٣٣ ـ ابن خلكان : وفيات ، ٢٩٩/٦ .
(٢) ابن الاثير : الكامل ، ١٥١/٤-١٥٢ .
(٣) الطبرى : تاريخ الامم ، ٥٦٧/٦ ـ ابن الاثير : نفس المصدر والجزء ، ص ١٦٢ ـ ابن الجوزى : سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ، ص ٣١٨-٣١٩ ـ مجهول : العيون ، ٤٨/٣ ـ ابن اعثم : الفتوح ، م٢٣٢/٤ .
(٤) في هذا الخبر دليل على ايثار ابن المهلب للعافية ، وعدم عزمه على الانشقاق والفتنة . وان اسباب الثورة وان كانت قد ظهرت قبل زمن الخليفة يزيد ، الا ان شرارة اشعالها كان خوفه من يزيد بن عبد الملك ، وهروبه من السجن لذلك .

ابن الوجيه الى واسط ، وكان قدومه اليها حيث وجد أمر عزله[١] والقبض عليه (سنة ٩٩هـ)[٢] .

فاستأداه عدى فى الأموال التى جباها من خراسان وطبرستان وجرجان بأمر عمر ، فقال فرقتها فى الأجناد لتقويتهم على جهاد عدوهم ، فلما أبى اخراجها أمر بحبسه[٣] ، ثم أوثقه فى الحديد وبعث به الى عمر (سنة ١٠٠هـ) ، فلما وصل عمر زج به فى السجن[٤] .

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم ، ٦/٥٥٤-٥٥٧ ـ ابن خياط : تاريخ ابن خياط ، ص ٣٢٠ ـ اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، م٢/٣٠١ ـ ابن أعثم : الفتوح ، م٤/٢٣٢-٢٣٣ ـ مجهول : العيون ، ٣/٤٨-٤٩ ـ ابن الأثير :الكامل ، ٤/١٥٤-١٥٧ ـ الذهبى : تاريخ الاسلام ، ٣/٣٣٣ ـ الذهبى : كتاب دول الاسلام ، ١/٥٣ ـ أرمينيوس فامبرى : تاريخ بخارى ، ترجمة أحمد محمد الساداتى ويحيى الخشاب ، المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ،١٩٦٥م ، ص ٧٤-٧٥ . وهويقدم قولا ليس له أصل فى المصادر الاسلامية التى اطلعنا عليها اذ يقول :"اذا كان ابن المهلب قد أثار شكوكه ـ يعنى عمر ـ بما صار له من النفوذ والثراء البالغ فى مدى عامين ، وحين تأكد له اعتزام عامله هذا على الخروج عليه رأى أن يسبقه فى خططه ويفسدها عليه ، فعهد بخلع يزيد الى قائده مسلمة وكان يقود الجند فى حرب الروم اذ ذاك ، وكتب الخليفة نفسه الى يزيد يستدعيه فلبى الدعوة ، حتى اذا مابلغ البصرة ألقى القبض عليه " وهذا القول يتنافى مع موقف ابن المهلب الذى لم يسمع لمن نصحه بعدم اجابة الخليفة عمر بالقدوم عليه ، بل استجاب وأعلن السمع والطاعة له ولعامله عدى بن أرطاه عند القبض عليه . الا أن عزله قد يكون لأن عمر لايحب آل المهلب ، اذ كان يقول هؤلاء جبابرة ، ولاأحب مثلهم . كما أن نوعية ابن المهلب من الرجال لاتناسب سياسة الخليفة الجديد التى اعتزمها .(انظر / نافع العبود : آل المهلب ، ص ٧٨ ـ الطبرى : نفس المصدر والجزء ، ص ٥٥٤-٥٥٨ ـ ابن الأثير ـ نفس المصدر والجزء والصفحات ابن خلكان : وفيات ، ٦/٣٠٠) .

(٢) نافع العبود : نفس المرجع والصفحة ـ ابن خياط : نفس المصدر والصفحة ـ الذهبى : تاريخ الاسلام ، ٣/٣٣٣ .

(٣) ابن أعثم : نفس المصدر ، م٤/٣٣٣-٣٣٧ .

(٤) الطبرى : نفس المصدر ، ٦/٥٥٨ ـ مجهول : نفس المصدر ٣/٤٨-٤٩ ـ ابن كثير :البداية والنهاية ،دار الفكر العربى ، دار النيل ، الجيزة ، الطبعة الأولى ، ١٣٥١هـ/١٩٣٣م،٩/٢١٠ ـ ابن خياط : نفس المصدر والصفحة الذهبى : نفس المصدر والجزء والصفحة ـ أرمينيوس فامبرى ، نفس المرجع ، ص ٧٥ ـ ابن قتيبة : المعارف ط٤ ، ص ٤٠٥ .

فدعا به عمر ، وسأله عن الأموال التى كتب بها الى سليمان ، فاعتذر بأنه لم يكتب ذلك الا ليسمع الناس ، ولعلمه أن سليمان لن يأخذه بها ، وأنه بالغ فى الصرف لتفخيم أمر الخلافة ، وأنه لذلك انفق اكثرها على عساكره وبعضها على الاصلاحات العمرانية فى جرجان فلم يقتنع الخليفة بانفاقها جميعا ، واعتقد أن يزيد اختلسها ، وانها حقوق للمسلمين لايسعه تركها ، فأمر به الى السجن . ورفض وساطة ابنه مخلد بن يزيد ، الذى طلب من الخليفة أن يصالحه على مايسأل فيه أبيه ، فأبى الخليفة الا أن يحمل كل المال ، فقال مخلد : ان كان لك بينة فخذه بها والا فصدق قوله واستحلفه ، فان لم يفعل فصالحه ، فأبى الخليفة الا اخذه بجميع المال ، فلما أبى يزيد أن يؤديها ، ألبسه جبة صوف وحمله على جمل وأمر بتسييره الى دهلك (١) . فاستشار ابن المهلب قبيلته ، التى غضبت له ، وخشى انتزاعه ، واشير على عمر برده الى محبسه ، فرد الى سجنه بحصن حلب (٢) . وكلم عمر فى يزيد ، فقال هو رجل سوء قتال والسجن خير له (٣) . ولعل

---

(١) دهلك : جزيرة فى بحر اليمن (البحر الأحمر) وهى مرسى بين بلاد اليمن والحبشة ، بلدة ضيقة ، كان بنو أمية اذا سخطوا على أحد نفوه اليها .(انظر / ياقوت : معجم ٤٩٢/٢) .
وقيل : جزيرة فى بحر عيذاب (البحر الأحمر) بالقرب من سواكن .(ابن خلكان : وفيات ، ٣٠٠/٦). والمعنى واحد . وانظر عن التعريف بها أيضا / القلقشندى : صبح الأعشى، ٣٣٥/٥ .

(٢) لمعلومات أوسع عما كان بين عمر وابن المهلب ، انظر / نافع العبود : آل المهلب ، ص ٧٧-٧٨ ـ ابن الجوزى : سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ٢٧٠ ـ ابن الأثير : الكامل ، ١٥٧/٤ ـ اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، ٣٠١/٢-٣٠٢ ـ المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ٢٧٧ ـ ابن اعثم : الفتوح ، م٢٣٧/٤-٢٣٨ ـ مجهول : العيون ، ٥٠/٣ ـ ابن كثير : البداية ، ط١ ، ٢١٠/٩ ـ ابن خلكان نفس المصدر والجزء والصفحة ـ الزركلى : الأعلام ، ١٩٠/٨

(٣) مجهول : نفس المصدر والجزء والصفحة .

هذا يوضح لنا رأى عمر فيه وفى أهل بيته اذ يقول : هؤلاء جبابرة ولا احب مثلهم ، وكأنه يشير الى جبروت هذه الأسرة واحتمالات تشكيلها مركز ثقل يهدد الدولة الأموية وارادة سلطتها العليا ، لكنه لم يتعامل مع رأس هذا المركز على انه يمثل كتلة يمنية من ازد اليمن ، وانما كسارق لأموال المسلمين (١) . وكان رأى عمر فيه قديما (٢) ، وماكذب رأيه ، بل اضحى الشك يقينا فما أن توفر السبب ، وتهيأت الفرصة ، بمرض عمر وانتظار كرسى الخلافة ليزيد بن عبد الملك الناقم على ابن المهلب ، حتى هرب من سجنه وهدد كيان الدولة بتمرده على سلطانها ، وخلعه حاكمها .

أسباب الحركة :

لم يزل يزيد بن المهلب محبوسا فى سجن عمر بن عبد العزيز حتى بلغه خبر مرضه فأخذ يعمل فى الهرب من سجنه مخافة أن يتولى يزيد بن عبد الملك الخلافة ، لما كان بينهما من العداء . فقد قام ابن المهلب بتعذيب آل ابى

---

(١) محمد على نصر الله : تطور نظام ملكية الأراضى فى منطقة السواد حتى نهاية العصر الاموى ، رسالة ماجستير لم تطبع ، مقدمة لآداب بغداد ، ١٩٧٤م ، ص ٢٥٦ ـ عماد الدين خليل : دراسة مقارنة فى سياسة يزيد بن عبد الملك ١٠١-١٠٥هـ ، بحث ، مجلة البحث العلمى والتراث الاسلامى ، العدد الرابع ، ١٤٠١هـ ، ص ٢٩٦ ـ الطبرى : تاريخ الأمم ، ٥٥٧/٦ ـ ابن الأثير : الكامل ، ١٥٧/٤ ـ ابن كثير : البداية ، ط١ ، ٢١٠/٩ .

(٢) كان لعمر رأى فى يزيد ، عبر عنه فى مجلس الخليفة سليمان بن عبد الملك ، على اثره اختصم الرجلان . عن ذلك (انظر : المؤرخ المجهول : العيون ، ٤٨/٣) وهذا يعضد قولنا أن عزله كان لرأى عمر فيه ، وانه لايلائم السياسة التى اعتزم انتهاجها . أما سجنه فكان لانكاره اموال المسلمين ، الثابتة عليه فى كتابه الى سليمان .

عقيل أصهار الخليفة يزيد بن عبد الملك ، حيث كان متزوجا من أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفى ، أخى الحجاج . وذلك زمن الخليفة سليمان بن عبد الملك ، الذى طلب آل أبى عقيل فأخذهم وسلمهم الى يزيد بن المهلب ليخلص أموالهم ويعذبهم . وبعث ابن المهلب الى البلقاء من أعمال دمشق وبها خزائن الحجاج وعياله فنقلهم وما معهم اليه ، وكان فيمن اتى به منهم أم الحجاج زوجة يزيد بن عبد الملك ، وقيل بل اخت لها ، فاتى يزيد بن عبد الملك الى ابن المهلب فى منزله ، فشفع فيها ، فلم يقبل منه ، وأراد احتمال ماقرر عليها ، فأبى ابن المهلب ، فقال يزيد بن عبد الملك متهددا : أما والله لئن وليت من الأمر شيئا لأقطعن منك عضوا فرد عليه ابن المهلب : وأنا والله لئن كان ذلك لأرمينك بمائة ألف سيف ، فحمل يزيد بن عبد الملك ماكان عليها وقدره مائة ألف دينار ، وقيل بل أكثر من ذلك (١) .

وفى القول تناقض ، فكيف حمل عنها وقد أشار الى أن ابن المهلب لم يقبل شفاعته فيها واحتماله ماعليها ، وهذا بيت الداء وأساس العداء ، فلو كان قد حمل عنها فهذا معناه قبول ابن المهلب شفاعة يزيد بن عبد الملك ، فلماذا يعاديه اذا ، ولم كان يخشاه ابن المهلب .

والأصح أنه لم يقبل منه . ثقة فى حظوته عند الخليفة سليمان ، وأن غضب يزيد لن يؤثر عليه ، واستبعادا فى ذلك

---

(١) عن سبب العداء بين يزيد بن عبد الملك ويزيد بن المهلب انظر / (الطبرى : تاريخ الأمم ، ٦٤/٦ - ابن الاثير : الكامل ، ١٦٠/٤-١٦١ - ابن كثير : البداية ، ط١ ، ٢١٤/٩ - مجهول : العيون ، ٥٠/٣ - ابن خلكان : وفيات ، ٣٠٠/٦ - ابن خلدون : العبر ، ٧٦/٣) .

اليوم أن يكون الامر ليزيد بن عبد الملك على الاقل قريبا ، فحملها عليه يزيد بن عبد الملك ، وخشى ذلك ابن المهلب عندما علم بمرض عمر وأن الخلافة سائرة الى يزيد بن عبد الملك .

ويضيف ابن أعثم سببا آخر للعداء بين الرجلين ، وهو أن ابن المهلب خرج من الحمام يوما فى عهد سليمان وقد تضمخ بالغالية (١) ، فمر على يزيد بن عبد الملك الجالس الى جنب عمر ابن عبد العزيز ، فقال يزيد : قبح الله هذه الدنيا ومافيها ! لوددت أن مثقال غالية بالف دينار فلاينالها الا كل شريف . فسمعه ابن المهلب ، وقال : وددت أن الغالية لاتوجد الا فى جبهة الأسد فلاينالها الا مثلى . فقال يزيد : والله ان وليت هذا الأمر يوما من الايام لاقطعن خير طابق فى يدك ، أو قال : لاقتلنك . فقال ابن المهلب : والله لئن وليت هذا الأمر وأنا حى لأضربن وجهك بخمسين الف سيف (٢) . وليس لنا أن نستبعد هذا السبب أو ذاك ، وان كنا نستطيع أن نقول ان هذا السبب ان صح فانه يعتبر ثانويا وشخصيا وقد أدى الى اذكاء روح العداوة بين الرجلين والتى يرجع سببها الرئيسى الى تعذيب ابن المهلب لأصهار الخليفة .

وكانما حكم على ابن المهلب أن يظل طريد السلطة وسجينها من عهد الى آخر ، لكن الكارثة كانت تتربص به على يد يزيد بن عبد الملك ، فأدرك أنها النهاية القريبة ، فلم

---

(١) الغالية : من الطيب ، نوع مركب من مسك وعنبر وعود ودهن ، وهى معروفة ، يقال أن أول من سماها بذلك سليمان بن عبد الملك ، والأصح أنها عرفت بهذا الاسم قبل ذلك . انظر : اللسان (غلا) .

(٢) الفتوح ، م٤/٢٣٩-٢٤٠ ـ ابن الأثير : الكامل ، ١٧٥/٤ .

يجد لنفسه سبيلا غير الهرب .(١)

هرب ابن المهلب من سجن عمر :

كتب ابن المهلب الى مواليه الذين كانوا معه بالشام ، أن يعدوا له ابلا وخيلا ليهرب عليها ، وقد عين لهم مكانا . فاحتال لذلك ، وقيل بل رشا حرسه وعامل حلب ، فخلى سبيله .(٢) فلما ثقل على عمر المرض ، نزل يزيد من محبسه الى المكان الذى واعد فيه مواليه ،ومضى هاربا من هناك ومعه مواليه يؤم العراق ، فلما قرب من العراق ، كتب الى عمر بن عبد العزيز انى والله لو علمت انك تبقى ماخرجت من محبسى حتى تكون انت الذى تخرجنى ، ولكنى لم آمن يزيد لما قد علمت بينى وبينه فلاتظن بى غير ذلك والسلام .(٣)

---

(١) ابراهيم بيضون : ملامح التيارات السياسية فى القرن الأول الهجرى ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٩م ، ص ٣٣١ .

(٢) ابن قتيبة : المعارف ط٢، ص ٤٠٠ ـ ابن خلدون : العبر ، ٧٦/٣-٧٧ ـ نافع العبود : آل المهلب ، ص ٧٩ . وعلق على ذلك بقوله : لماذا لم يحاول الهرب قبل مرض عمر مادام يستطيع ذلك بالرشوة ، أو يدفعنا هذا الى احتمال أن يكون الخليفة نفسه قد سهل اخراجه ، واحتمال أن يكون أمير حلب كارها لمجىء يزيد بن عبد الملك الى الخلافة ، فأبدى تعاطفا مع ابن المهلب ، واطلق سراحه .
الا اننا نرد قوله ونقول : لم يهرب ابن المهلب قبل مرض عمر ، لأنه لم يكن يخشاه ، وكان يأمل العفو ، اما أن يكون عمر سهل أمر اخراجه ، فهذا ماتبطله النصوص التى سنشير اليها مبينة موقفه من هربه (انظر نفس الصفحة هـ٣) كما نستبعد تعاون أمير حلب وتعريضه نفسه للخطر ، ولكن لانستبعد تواطؤ حرسه ، الذين قد يكونون من اليمنية ، فأثرت عليهم روح العصبية ، وحلاوة المادة ، مما سهل على مواليه وعترته أمر التفاهم معهم ومساعدته .

(٣) عن هرب ابن المهلب : انظر : الطبرى : تاريخ الأمم ، ٥٦٤/٦-٥٦٥ ـ ابن أعثم : الفتوح ، م٢٤٠/٤ ـ مجهول : العيون ، ٥٠/٣ ـ ابن الأثير : الكامل ، ١٦٠/٤-١٦١ ـ =

ولعل نص هذا الكتاب يعضد قولنا في الرد على العبود الذى احتمل ان يكون الخليفة عمر سهل هروب ابن المهلب من سجنه ، والراجح انه كان يتأمل العفو منه ، ولايخشى شره . وكان هروبه هذا قبل موت عمر بليلتين (١) ، فلما بلغ ذلك عمر بن عبد العزيز قال : اللهم ان كان يريد بهذه الأمة سوءا فاكفهم شره ، واردد كيده فى نحره (٢) . ولم يقف الخليفة عند قوله هذا ، بل وجه فى اثره رسلا فلم يلحقوا به (٣) . الا أن ابن خلكان ينقل عن الواقدى زعمه : أن هرب ابن المهلب كان بعد موت عمر وذلك فى رجب (سنة ١٠١هـ) . ورد عليه بقوله : "وجدت فى مسودة تاريخ القاضى كمال الدين بن العديم الحلبى أن عمر حبس يزيد بن المهلب وابنه معاوية بحلب ، وهربا منها ـ أى فى حياته ـ والله أعلم" (٤) .

موقف الخليفة يزيد بن عبد الملك من هربه :

أما يزيد بن عبد الملك فما أن تولى الخلافة بعد وفاة

= ابن خلكان : وفيات ، ٣٠٠/٦ ـ ابن كثير : البداية ، ط١ ، ص ٢١٤،٢١٠ (وقال : علم أنه يموت فى مرضه ذلك ، وبذلك كتب اليه ، واظنه كان عالما أن عمر قد سقى سما) لكن أمر علمه بذلك فرضا يستبعد صحته ، خصوصا أن قضية سم عمر أمر مختلف عليه ، والأقرب أنه ماخرج من سجنه بعد احتياله على ذلك ، الا بعد أن علم بثقل المرض على عمر .

(١) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، ٣٠٨/٢ .

(٢) ابن كثير : نفس المصدر والجزء ، ص ٢١٤ ـ ابن خلدون : العبر ، ٧٧/٣ ـ ابن خلكان : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) اليعقوبى : نفس المصدر والمجلد والصفحة .

(٤) نفس المصدر والجزء ، ص ٣٠١ ـ الطبرى : تاريخ الامم ، ٥٦٥/٦ ـ المسعودى : التنبيه ، ص ٢٧٧ ـ اليافعى :مرآة ٢٤١/١ ـ الذهبى : دول الاسلام ، ٥٣/١ (واضاف : وسار على البريد) أى أنه سلك طريق البريد ـ المقدسى : البدء ، ٤٧/٦ ـ ابن العماد : شذرات ، ١٢٤/١ .

عمــر بــن عبد العزيز حتى بعث في طلب ابن المهلب الذى توجه الى العراق فلم يقف له على خبر (١) . وليس هناك من تفسير لعدم تمكــن رسـل عمر ومن بعده يزيد فى اللحاق بابن المهلب ، الا انـه اتخــذ طريقــا غير المألوف ، متواريا عن العيون ومضللا عمن قد يلحق به ويطلبه ، خصوصا اذا علمنا انه هرب قبل موت عمر بليلتين ، أى أن الخليفة عمر طلبه بعد هربه فى اقل من ليلتيــن ، وكــان من الممكن اللحاق به ، اذا مااستخدمت خيل الـبريد . فــاتخذ الخليفــة يزيد الخطوة الثانية فى محاولة القبض على ابن المهلب ، الذى يخشى خطره ان وصل الى البصرة مكمن قوته وأرض عشيرته . راجيا أن يستاصل الداء فى مهده . فكــتب الــى عبــد الحميد بن عبد الرحمن (٢) عامله على الكوفة ، يخــبره بهربــه ، ويــأمره بطلبــه ، ليقطــع الطريق عليه الى البصــرة ، كما كتب الى عدى بن أرطاة (٣) ، عامله على البصرة ، يعلمه بهربه ، آمرا اياه أن يتهيأ لاستقباله ، وأن يأخذ من كان بالبصرة من أهل بيته (٤) .

فقــام عبد الحميد بالقبض على خالد بن يزيد بن المهلب

---

(١) مجهول : العيون ، ٥١/٣ .

(٢) عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب العدوى ، أبــو عمــر ، أمــير من أهل المدينة ، ثقة فى الحديث ، استعمله عمر بن عبد العزيز على الكوفة . وتوفي بحران فى خلافة هشام سنة ١١٥هـ . (الزركلى : الاعلام ، ٢٨٦/٣) .

(٣) عــدى بن أرطاة الفزارى ، أبو واثلة أمير من أهل دمشق كــان من العقلاء الشجعان ، ولاه عمر بن عبد العزيز على البصــرة سـنة ٩٩هــ ، فاسـتمر الى أن قتله معاوية بن يزيد بن المهلب ، بواسط ، فى فتنة أبيه يزيد بالعراق (الزركلى : نفس المرجع ، ٢١٩/٤) .

(٤) الطبرى : تاريخ الأمم ، ٥٧٨/٦ ـ ابن الاثير : الكامل ، ١٦٨/٤ ـ ابــن أعثــم : الفتــوح ، م٢٤٢/٤ (لـم يشر الـى كتــاب الخليفة الى عبد الحميد) ـ مجهول : نفس المصدر والجزء والصفحة .

وكان بالكوفة ، وعلى حمال بن زحر الجعفي ، لصلته بالمهالبة ، فبعث بهما الى الخليفة يزيد بن عبد الملك ، فسجنا حتى هلكا (١) .

كما بعث هشام بن مساحق بن عبد الله القرشي على رأس قوة (٢) من الكوفة لاعتراض طريق ابن المهلب عند العذيب ، حيث ستكون طريقه من هناك ، فنزل هشام العذيب ومر ابن المهلب بالقرب منهم ، فاتقوا الاقدام عليه ، وقيل بل ارتفع ابن المهلب على القطقطانة (٣) ، فاخبر هشام بمروره فركب اليه فحاد عنه (٤) ، ومضى يزيد الى البصرة ، وانصرف هشام الى عبد الحميد وكان قد بلغه خبر وفاة الخليفة عمر وتولى يزيد بن عبد الملك الخلافة ، وكتبه الى أميرى الكوفة والبصرة ، وسجن اخوته ومواليهم ، فاغتم لذلك ولم يكن معه آنذاك الا اقل من مائة رجل ممن اتبعه من أهل الشام ومواليه وبني عمه (٥) .

ويذكر المؤلف المجهول من كان معه بقوله : ومامعه الا برذون

---

(١) الطبرى : تاريخ الامم ، ٥٨٥/٦ - ابن الاثير : الكامل ، ١٦٩/٤ - ابن خلدون : العبر ، ٧٧/٣ (الا أنه أورد اسم حمال : حماد بن ذخر ، تحريفا) .

(٢) العذيب : هو الماء الطيب وهو ماء بين القادسية والمغيثة ، وقيل هو واد لبني تميم ، من منازل حاج الكوفة ، وقيل هو حد السواد ، وقيل : العذيب يخرج من قادسية الكوفة اليه . وهناك عذيب الهجانات ، وعذيب القوادس . (ياقوت : معجم ، ٩٢/٤) . واظن المقصود العذيب الذي يخرج من قادسية الكوفة اليه .

(٣) القطقطانة : موضع قرب الكوفة من جهة البرية بالطف ، تخرج منها الى عين التمر ، ثم ينحط حتى يقرب من الفيوم الى هيت . (ياقوت : معجم ، ٣٧٤/٤) .

(٤) الطبرى : نفس المصدر والجزء ، ص ٥٧٨-٥٧٩ - ابن أعثم الفتوح ، م٢٤٢/٤ (وأضاف لاسم هشام بعد عبد الله : بن مخرمة الكناني) - مجهول : العيون ، ٥١/٣-٥٢ - ابن الاثير : نفس المصدر والجزء ، ص ١٦٨ (واضاف لنسبه العامرى . ولاتناقض فالعامرى قرشي والقرشي كناني) - ابن خلدون : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) ابن أعثم : نفس المصدر والمجلد والصفحة .

وعجلان وابو فديك ، ومولى له آخر ومن على ثقله (١) .

استيلاؤه على البصرة :

استجاب عدى بن أرطأة لأمر الخليفة فأخذ آل المهلب ، وفيهم المفضل وحبيب ومروان بنو المهلب ، فحبسهم (٢) . وكان قد امن المفضل وعبد الملك ، ثم بعث الى أبى عيينة ومدرك ، فصاروا ستة فقيدهم جميعا وحبسهم (٣) .

وقد أشار عليه وكيع بن الاسود بقتلهم أو هدم دورهم أو اعطاء الناس من بيت المال ليدافعوا عنه ، فأباه (٤) . ثم جمع عدى اليه أهل البصرة ، وخندق عليها ، وبعث على خيلها المغيرة بن عبد الله بن أبى عقيل الثقفى فى خمسمائة فارس كما بعث على كل خمس من أخماسها رجلا (٥) . وتقدم فى هذه الاثناء عبد الملك بن المهلب الى عدى بن أرطأة ، بأن يحبس ابنه حميدا مكانه ، ليتولى رد يزيد عن البصرة الى فارس ، حتى يطلب لنفسه الأمان ، فلم يقبل عدى منه (٦) . وقد يكون ذلك من خشية عبد الملك على أخيه عندما رأى استعداد عدى وظن قدرته

---

(١) العيون ، ٥٢/٣ .

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم ، ٥٧٨/٦ ـ ابن الأثير : الكامل ، ١٦٨/٤ ـ اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، ٣٠٨/٢ ـ ابن خلدون : العبر ، ٧٧/٣ .

(٣) مجهول :نفس المصدر والجزء ، ص ٥٣-٥٤ ـ الجاحظ : البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، مصر ، الطبعة الرابعة ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ، ١٧٣/٢ .

(٤) مجهول : نفس المصدر والجزء ، ص ٥١ .

(٥) عن تهيؤ عدى لابن المهلب انظر / الطبرى : نفس المصدر والجزء ، ص ٥٧٩-٥٨٠ ـ مجهول : نفس المصدر والجزء ، ص ٥٤ ـ ابن الاثير : نفس المصدر والجزء والصفحة ـ ابن خلدون : نفس المصدر والجزء والصفحة (ويلاحظ عليه هنا وفى كثير من المواضع تحريف الأسماء) .

(٦) الطبرى : نفس المصدر والجزء ، ص ٥٧٩ .

فى القبض على يزيد ، أو على الأقل منعه من دخول البصرة ، وهذا نفسه مادعى عدى الى رفض عرضه وطمعه فى الغلبة . الا أن تدخل محمد بن المهلب الذى لم يقع فى يدى عدى ، والذى جمع حوله قوة تمكن بها من مساعدة يزيد على الدخول الى البصرة قلبت موازين القوى فى صالح ابن المهلب .

ذلك انه عندما اقبل يزيد ومن معه وجد البصرة محفوفة بالرجال ، فجمع محمد بن المهلب ـ ولم يكن ممن حبسهم عدى ـ أهل بيته ورجالا من مواليه وخرج لاستقبال يزيد ، فاقبل فى كتيبة تهول من رآها ، مامرت بخيل أو قبيلة الا تنحوا له عن الطريق ، ولم يعرضوا له . فتصدى له المغيرة الثقفى فى الخيل ، الا أنه تراجع عندما حمل عليه محمد بن المهلب ، وأفرج لهم الطريق دون قتال[(١)] . بل انه عندما مر بالحرس الذين سيرهم عدى فى الأزد بقيادة بدل بن نعيم فى رجال من بنى تميم ، رحبوا بابن المهلب ولم يفعلوا شيئا[(٢)] . ويبدو أن مهمة هذه القوة كانت مكلفة بحراسة منزل الأزد فى البصرة ، لتمنع ابن المهلب من دخوله ، لكنهم تخاذلوا كما يفيد النص فنزل يزيد دار المهلب[(٣)]. وقيل : نزل داره[(٤)] . وقد اشير على عدى بأخذ ابن المهلب بعد دخوله البصرة ، قبل أن يعظم أمره ، فأبى ذلك[(٥)] . وكأنه لايريد أن يبدأ الفتنة . وكان دخوله البصرة ليلة البدر من شهر رمضان سنة احدى ومائة من

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، ١٦٨/٤ ـ ابن خلدون : العبر ، ٧٧/٣ ـ نافع العبود : آل المهلب ، ص ٧٩-٨٠ .
(٢) مجهول : العيون ، ٥٢/٣ .
(٣) مجهول : نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٤) الطبرى : تاريخ الأمم ، ٥٨٠/٦ ـ ابن الأثير : نفس المصدر والجزء والصفحة ، وقد لايكون هناك خلاف ، على اعتبار أن دار أبوه المهلب قد تكون آلت اليه بعد ممات ابيه ، فغدت دارا له .
(٥) مجهول : نفس المصدر والجزء والصفحة .

الهجـــرة .(١)

وباستقراء لموقف عبد الحميد بن عبد الرحمن أمير الكوفة ، وعدى بن أرطاة أمير البصرة ، يتبين لنا انهما عجزا عن تحقيق هدف الخليفة بوأد الفتنة فى مهدها عن طريق القبض على ابن المهلب ومنعه من الوصول الى البصرة مكمن قوته وموطن عشيرته . فان كان عبد الحميد بن عبد الرحمن قد قبض على بعض بني المهلب ومواليهم ، الا أن مبعوثه هشام بن مساحق لم ينجح فى المهمة الموكلة اليه ، وهى اعتراض طريق ابن المهلب والقبض عليه . ضعفا من ابن مساحق وسوء اختيار من عبد الحميد ، وسوء تقدير ، فما كان عليه لو خرج الى ابن المهلب بنفسه .

ومع أن عديا بن ارطاة ، امير البصرة ، قد تاهب لذلك فخندق عليه فى البصرة ، واعد جنده ، الا أن ابن المهلب تمكن من التغلب عليه ، ودخل البصرة . وهذا يكشف لنا حال اهل البصرة وموقفها المبكر من الخليفة وعامله . اذ سرعان ما اتضح تخاذلهم ، بافساح المجال لابن المهلب قبيلة بعد اخرى دون أن يعرضوا له . بل أن المغيرة الثقفى الذى كان ينتظر منه موقف اشد حزما ، لما بين آل ابى عقيل والمهالبة من عداء . نجده يتراجع امام محمد بن المهلب ، حتى دخل ابن المهلب البصرة دون قتال . أما عدى نفسه فاننا نستطيع ان

---

(١) مجهول : العيون ، ٥٢/٣ . اى انه قطع الطريق من حلب الى البصرة فى اكثر من شهر ونصف ، وفى هذا مايبطل القول بانه سار على البريد ، لامكانية وصوله باسرع من هذا الوقت بكثير فيما لو حدث ذلك ، وهذا يسند قولنا بانه اخذ طريقا غير المالوف ، او انه اختفى فى مكان ما حتى خف عنه الطلب . انظر قبل : ص ١٣٨ .

نقول ان مواقفه تبين نوعية رجال عمر بن عبد العزيز ، لايثاره العافية على القتال ، وعدم التصرف فيما ليس من ملاحياته ، مع أن خطورة الموقف وبعد المكان عن مركز الخلافة يتطلب اتخاذ الأسباب المناسبة لدرء الخطر وتحقيق الغاية فى حدود الشرع ماأمكن ، فتوقف عند أمر الخليفة بالقبض على ابن المهلب ، لذا لم يفسح المجال لعبد الملك ليرد اخاه عن البصرة الى فارس ، لكنه عجز عن تنفيذ الأمر . فما استطاعت قوته التى اعدها الوقوف في وجه ابن المهلب ، كما انه لم يسع الى القبض عليه بعد نزوله البصرة قبل استفحال خطره . ولعل قلة القوة الشامية فى العراق منذ عهد عمر بن عبد العزيز ، جعل عدى يعتمد على عرب البصرة ، الذين لم يكونوا ليقفوا الى جانبه دون مقابل ، وهو لم يدرك ذلك ، اذ رفض نصيحة وكيع بن الاسود بتوزيع بعض المال على الناس ليدافعوا عنه . المهم أن يزيد بن المهلب نزل البصرة ، فحل بين أهله واتباعه وقبيلته الأزد وحلفائها من ربيعة ، وهما أعز القوى بها واكبرها . نجد ذلك على لسانه فى اجابة منه على سؤال الخليفة سليمان له : فيمن العز بالبصرة ؟ اذ يقول : "فينا وفى حلفائنا من ربيعة" (١) . ولعل هذا مما ساعده على دخولها لمساندتها له وترحيبها به من ناحية ، وتقدير القبائل الأخرى لهذه القوة ، بل قد يكون ذلك مامنع عدى من اخذه بعد دخولها ، لعلمه أن قومه لن يخلوا بينه وبين ابن المهلب .

ولاننس ارتباط المهالبة مع البصرة واهلها بعلاقات

---

(١) ناجى حسن : القبائل ، ص ١٥٣ ـ نبيه عاقل : تاريخ خلافة بنى أمية ، ص ٢٩٦ .

قديمة منذ زمن والده ، حيث كون لهم ذلك انصارا . ففضلها على خراسان التى اشار بها عليه اخوه حبيب ، لعلمه بانهيار سمعة الخلافة الاموية فى هذا الاقليم ، وازدحامه بالقوى المعارضة (١) .

وكتب ابن المهلب من ليلته التى وصل فيها الى يزيد بن عبد الملك يسأله الأمان ، وبعث به مع حميد بن عبد الملك بن المهلب (٢) ، وابنه خالد بن يزيد (٣) ، فلما قدما على الخليفة يزيد استشار الناس فى امانه ، فقالت المضرية لاتؤمنه ، فانه احمق غدار ، وقالت اليمانية تؤمنه فتحقن الدماء وتستصلح قومه . فامر أن يكتب له امانه ولأهل بيته ، على أن يقيم "ببلده" (٤) . وانفذ معهما خالد القسرى وعمر الحكمى ،

---

(١) ابراهيم بيضون : ملامح التيارات السياسية ، ص ٣٣١-٣٣٢

(٢) الطبرى : تاريخ الامم ، ٥٨٠/٦ ـ ابن الأثير : الكامل ، ١٦٨/٤ ـ مجهول : العيون ، ٥٢/٣ ـ ابن خلدون : العبر ٧٧/٣ .

(٣) مجهول : نفس المصدر والجزء والصفحة . (لكننا نقف عند قوله هذا ، فقد ذكر أن خالد بن يزيد قد قبض عليه عبد الحميد بن عبد الرحمن ، وبعثه الى الخليفة يزيد ، وظل فى سجنه حتى هلك . بل اننا لن نجد له ذكرا فى احداث الفتن ، مما يعضد الرواية الأولى ، ويدفعنا الى استبعاد قول المؤرخ المجهول ، منفردا بذلك ومخالفا لمن هو اقدم منه) . انظر قبل : ص ١٣٨-١٣٩ .

(٤) يفهم من هذا النص انه أعطاه الأمان على أن يقيم ببلده (أى البصرة) ، ولكن محقق كتاب العيون والحدائق للمؤلف المجهول ، أشار فى هامش (٣) ، ص ٦٧ أن المقصود ببلده هو بلدة (كود) Cod ، وبالرجوع الى معجم البلدان للحموى ، وجدت تعريفا لها فى ٤٨٨/٤ قال فيه أن كود : بالضم هو كود اثال . وهو اسم موضع قتل فيه الصميل بن الأعور الضبابى . وقيل : ماء لبنى جعفر وقيل : جبل . واثال : جبل لبنى عبس بينه وبين الماء الذى ينزل عليه الناس اذا خرجوا من البصرة الى المدينة ثلاثة أميال ، وهو منزل لأهل البصرة بعد فو وقبل الناجية ، وقيل مواضع اخرى . انظر نفس المصدر ، ٨٩/١-٩٠ . وقد ذكر "كى لسترنج" أن جبل كود يقع على بعد فرسخ عن مدينة بم الواقعة الى الجنوب الشرقى من ماهان وفى شرق كرمان . انظر : بلدان =

فتقدم خالد الى أبيه بالبشارة (١) . وفى طريقهما الى ابن المهلب بأمانه ، لقيا الحوارى بن زياد بن عمرو العتكى هاربا من يزيد بن المهلب يريد الخليفة ، فأخبرهما بتغلب ابن المهلب على عدى واشار عليهما بالرجوع ، فاقبلا عائدين الى الخليفة ومعهما حميد ، الذى ناشدهما ايصال الأمان لعمه فما سمعا منه ، وفى الطريق سلماه الى عبد الرحمن بن سليم الكلبى (٢) ، وكان يزيد قد بعثه عاملا على خراسان ، فلما بلغه خبر خلع ابن المهلب للخليفة ، كتب الى الخليفة أن يجعله ممن يجاهد عدوه ، راغبا عن ولاية خراسان ، وبعث بحميد الى الخليفة يزيد بن عبد الملك (٣) .

= الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ص ٣٥٠ .
كما ذكر فى ص ٣٧٧ من نفس المرجع "كودزره" وقال انها عقيق ثانى لبحيرة زرة الواقعة جنوب عدوة نهر هيلمند الأسفل الا أننا لم نعرف العلاقة بين كود والنص ، عندما فسر المحقق أن كلمة (ببلده) تعنى كود . اذ لم نجد علاقة بين ابن المهلب وبين هذا الاسم ، وأن المهالبة استوطنوه أو كان بلدا لهم .

(١) مجهول : العيون ، ٣/٦٦-٦٧ ـ الطبرى : تاريخ الأمم ، ٦/٥٨٠ ـ ابن الأثير : الكامل ، ٤/١٦٨ . وقد أشار كالطبرى الى اسم والد الحكمى فقالا : عمر بن يزيد الحكمى .

(٢) لم أعثر له على ترجمة . وقد ولاه مسلمة بن عبد الملك البصرة اثناء ولايته على العراق ثم عزله . انظر : الفصل الخامس ، المبحث الأول ، ص ٤٦٣ .
كما شارك فى قيادة الحملات العسكرية فى أرض الروم ، زمن الخليفة يزيد بن عبد الملك . انظر الفصل الرابع المبحث الثالث ، ص ٣٧٧،٣٨٠ .

(٣) الطبرى : نفس المصدر والجزء ، ص ٥٨٤-٥٨٥ ـ مجهول : نفس المصدر والجزء ، ص ٦٧ . لكنه لم يشر الى التقاء الوفد بالحوارى ، وقال : أن الوفد سار حتى وصل الى المكان الذى به عبد الرحمن بن سليم بالقرب من الكوفة حيث أقام فيه عندما سمع بخلع ابن المهلب للخليفة ، قال : فشد على حميد واوثقه وبعث به الى الخليفة ـ ابن الاثير : نفس المصدر والجزء ، ص ١٦٩ وقد أورد =

نرى مما تقدم أن ابن المهلب طلب الأمان من الخليفة يزيد بن عبد الملك حين وصوله البصرة ، وهذا يبين أن ابن المهلب لم يكن فى بادىء الأمر يفكر فى الخروج على الخلافة ، وانما دفعه الى الهرب خوفه من يزيد بن عبد الملك ، فأراد أن يأخذ لنفسه الأمان ، وهو فى مأمن من شر خصمه . الا أن حبس عدى لاخوته ، احرج موقفه فان هو أمن على نفسه فى البصرة أو فى غيرها ان خرج منها ، فاخوته فى خطر ، وكونه غير واثق من حصوله على امان الخليفة ، حدا به ذلك الى مفاوضة عدى بأن يطلق اخوته مقابل خروجه واياهم عن البصرة فلم يقبل منه (١) .

فخشى أن يبقى على هذا الوضع ولايعطيه الخليفة الأمان ، ويبعث فى طلبه فيكون هو واخوته تحت رحمة الخليفة وأمير البصرة وفى متناول سلطته . وهذا مادفعه الى جمع الناس حوله ليستطيع الدفاع عن نفسه وقت الحاجة وانقاذ اخوته ، الا أنه فيما يظهر بلغ أعوانه واتباعه من العدد والقوة ماأوحى له بحرب عدى واستنقاذ آل المهلب من سجنه ، ليكون هو واخوته سواء اما فى أمان الخليفة وعفوه ، أو فى

= اسم الحوارى : المغيرة بن زياد ، ولم يشر الى تسليم حميد للكلبى ، بل قال : ورجعا به ـ ابن خلدون : العبر ، ٧٧/٣. وافق ابن الأثير فى اسم الحوارى ، والخبر .

(١) الطبرى : تاريخ الأمم ، ٥٨٠/٦ ـ مجهول : العيون ، ٥٢/٣-٥٣ ـ المسعودى : التنبيه ، ص ٢٧٧ ـ ابن الأثير : الكامل ، ١٦٨/٤ ـ ابن أعثم : الفتوح ، م٤/٢٤٣ . الا أنه يشير الى أن مفاوضة ابن المهلب لعدى كانت قبل دخوله البصرة ، وأنه نزل على مرحلة منها وبعث الى عدى الا أننا نرى صحة القول بحدوثها فى البصرة ، اذ لو تمت قبل ذلك ، وأنه دخل البصرة مخالفا لعدى محاربا له ، لما استأمن من الخليفة بعد ذلك .

مواجهته . لكن ظهوره على عدي وغلبته على البصرة وماوالاها واستشعاره القوة سيدفعه الى خلع الخليفة يزيد بن عبد الملك وروم الخلافة لنفسه .

اما الخليفة يزيد ، فان معالجته لحركة ابن المهلب من أولها تميزت باليقظة واعطائها حقها من الاهتمام والسعي الى اخمادها في مهدها ، فمن البعث في طلبه عند هربه الى امدار الأوامر لأمراء العراق باستقباله والقبض على ذويه والجد في طلبه (١) . ونراه بعد أن وصله كتاب ابن المهلب الذى تمكن من دخول البصرة مركز عصبيته يطلب الأمان فيه ، يتعامل مع الواقع بكل حكمة ، فيستشير ، ويرتفع بنفسه كخليفة عن التعامل مع الحدث تحت تاثير الهوى والتعصب ، فينسى كراهيته لابن المهلب وحزازات الماضي ، كما يرفض رأى المضرية عصبيته بعدم اعطائه الأمان ، ويأخذ برأى اليمانية الداعي لتأمينه ، حقنا للدماء واستصلاحا لقومه . فيؤمنه . وبذلك يسمو فوق روح العصبية واطارها الضيق ، الى مستوى المسئولية ، وتعامل السلطة مع الحوادث بما يحقق المصلحة العامة ، ويحفظ الأمن ويكفل استمرار السيادة .

لذا فاننا نخالف نافع العبود الذى يقول : "اعلن يزيد ابن المهلب خلافه ليزيد بن عبد الملك على اثر وصوله البصرة ليلة القدر من شهر رمضان سنة ١٠١هـ/٧١٩م" (٢) . اذ رأينا مما

---

(١) انظر قبل : ص ١٣٧-١٣٩ .

(٢) آل المهلب ، ص ٨٠ (نقلا عن ابن خياط : تاريخ ابن خياط ص ٣٤١) . ونحن نرجح قول المؤرخ المجهول بأنه دخل البصرة ليلة البدر ، اى ليلة النصف من رمضان . انظر قبل : ص ١٤١. وبرجوعنا لابن خياط : تاريخ ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ص ٣٢٢ . وجدناه ذكر دخوله ليلة البدر كما عند المؤرخ المجهول ، لاليلة القدر ، وهذا يعنى أن العبود وقع فى خطأ فى النقل ، أو الطبع

تقدم أن ابن المهلب كاتب الخليفة وفاوض عدي بعد دخوله البصرة ، وهذا يدل على انه لم يعلن مخالفته الا بعد أن تعذر عليه اخراج اخوته عن طريق المفاوضة مع عدى ، واجتماع الناس حوله ، مما اغراه بالخروج .

فقد بعث يزيد الى الأزد وربيعة ، فجاءت الأزد وابطئات ربيعة ، ثم جاءت وطلب مساندتها ، ثم أمر العرفاء أن يفرضوا للناس ، وجعل يعطيهم قطع الفضة ، واعطى قومامن القراء والقصاص. فمال الناس اليه ، ربيعة وبكر وبقية تميم (١) وقيس وبعض الجند الشامي في العراق ، بينما كان عدى لايعطي الا درهمين درهمين . (٢) والذى دفع ربيعة لمساندة الأزد ذلك الحلف القديم الذى وجد بين القبيلتين ، الا أن علينا الانغفل أثر المصلحة المادية الى جانب ذلك ، فعندما حشدت ربيعة أثناء الحركة استبطاته فى امر يتعلق بالعطاء ، فشغبت عليه حتى أرضاها وهى بعملها هذا انما تعرض الحركة للفشل . (٣) وكان ممن مال اليه عمران بن عامر بن مسمع الذى غضب عندما حول عدى الراية عنه الى ابن عمه نوح بن شيبان وعبد الملك ومالك ابنا مسمع . (٤)

وجعل سادات البصرة يخرجون الى ابن المهلب ، فيحسن اليهم ويمنيهم ، حتى صار فى قريب من ثلاثة آلاف ، وقعد عامة

---

(١) مجهول : العيون ، ٥٣/٣ .
(٢) محمد عبد الحى شعبان : الثورة العباسية ، ترجمة عبد المجيد حسيب القيسى ، رسالة دكتوراه مطبوعة ، دار الدراسات الخليجية ، أبو ظبى ، ١٩٧٧م ، ص ١٦١ - المسعودى : التنبيه ، ص ٢٧٧ - ابن الاثير : الكامل ، ١٦٨/٤ .
(٣) ناجى حسن : القبائل ، ص ١٥٤-١٥٥ .
(٤) الطبرى : تاريخ الأمم ، ٥٨٠/٦ - مجهول : نفس المصدر والجزء ، ص ٥٤-٥٦ .

اهل البصرة فى منازلهم ممن كان يهوى ابن المهلب .(١)

كما انضم اليه جماعتان ، احدهما من الخوارج بقيادة السميدع (٢) ، والثانية من المرجئة (٣) يقودها رؤبة (٤)(٥) .

ثم أرسل يزيد الى الأسواق فحرقها او أكثرها الى الأزد واشترى السلاح ، واعتزل فنزل مقبرة بنى يشكر . وكانت اليمانية وربيعة تختلف اليه ، ومضر تاتى عديا (٦) . فان صح هذا النص اتضح لنا تعصب الرجل فى حركته من اولها . الا أنه كيف يخص بها الأزد ، ويحرم ربيعة وهى الحليفة ، وان رضيت ربيعة ، فهل سكتت مضر ، ومانصيب من انضم اليه منها على الاقل . وهذا مايدعونا الى استبعاده ، كما أن قول كثير من النصوص بانضمام كثير من القبائل اليه أو بعضها ، يبين انه

---

(١) ابن أعثم : الفتوح ، م٤/٢٤٣ .

(٢) السميدع : السميدع الكندى من بنى مالك بن ربيعة من ساكنى عمان ، يرى رأى الخوارج ، وقد خرج اثناء الفتنة بين عدى وابن المهلب ، واعتزل مع طائفة من القراء ، دعاه ابن المهلب الى نفسه ، فأجابه ، واستعمله يزيد على الأبله . (الطبرى : تاريخ الأمم ، ٥٨٣/٦).

(٣) المرجئة : الارجاء بمعنى التاخير ، اى أمهله وأخره ، أو اعطاء الرجاء . قيل : الارجاء تاخير حكم صاحب الكبيرة الى يوم القيامة . وقيل : الارجاء تاخير على رضى الله عنه عن الدرجة الأولى الى الرابعة . والمرجئة أربعة أصناف : مرجئة الخوارج ، ومرجئة القدرية ، ومرجئة الجبرية ، والمرجئة الخالصة وقد قيل أن أول من قال بالارجاء : الحسن بن محمد بن على ابن ابى طالب . (الشهرستانى : الملل والنحل ، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل ، طبعة دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ص ١٣٩-١٤٦).

(٤) رؤبة : رأس طائفة المرجئة ، ناصر ابن المهلب فى حربه لبنى أمية ، هو وجماعة من أصحابه . (الطبرى : نفس المصدر والجزء ، ص ٥٩٣).

(٥) محمد شعبان : الثورة ، ص ١٦١ .

(٦) مجهول : العيون ، ٥٣/٣ وان كان الأمر ليس على ماقال تماما ، فمن مضر من انضم الى يزيد ، ومن اليمنية من ناصر عديا .

ليس مــن الحكمــة أن يصنــع ذلــك ، فهو أحرى أن يتألف الناس بالعدالة حتى يجمعهم حوله . وهناك نصوص تؤيد ماذهبنا اليه وذلــك بدعوتــه الــى جعل الأمــر شــورى ، والعــودة الى سيرة العمــرين وغيرهــا (١) . كما انه ليس من الدقة أن نقول بانقسام اهــل البصــرة الى قسمين ، مضر مع عدى والأزد وربيعة مع ابن المهلب ، اذ اشرنا الى انضمام بعض المضرية الى ابن المهلب واليمنية الى عدى ، لكن ذلك ينطبق على الأكثرية لا الكلية (٢) .

أمــا عــدى بــن ارطــاة ، فقــد جمع أصحابه وأخبرهم أنه لايســتطيع أن يعطيهــم من بيت المال شيئا الا بأمر الخليفة ، واذا فرغ من قتال يزيد أعطى كل على قدر جهده ، وقسم عليهم مالا أصاب كل فرد درهمين ، وفي ذلك يقول الفرزدق :

أظن رجال الدرهمين يقودهم
الى الموت آجال لهم ومصارع
واكيسهم من قَرَّ في قعر بيته
وأيقــن أن الموت لابد واقــع (٣)

ولعــل هــذا مــاأدى الى تفرق الناس من حوله ، فنجد ابن أعثم يقــول : حــتى بقى عدى في أصحابه الذين قدموا معه من الشام ونفر يسير من قيس عيلان وتميم (٤) .

وهــذا ليس مــن الدقة بمكان فقد جمع عدى حوله جند أهل الشام ، وانضمت اليه بقايا قبائل البصرة ومن بينها الأزد ،

---

(١) انظر بعد : ص ١٥٣،١٥٦ .
(٢) انظر قبل : ص ١٤٨-١٤٩ .
(٣) ابــن أعثم : الفتوح ، م٢٤٤/٤ ـ مجهول : العيون ، ٥٤/٣ قــال : خطبهم وفرض لهم في كل يوم درهمين ، وأخبرهم انــه كتب الى الخليفة ليطلق يده في عطائهم ـ الطبرى تاريخ الأمم ، ٥٨٠/٦-٥٨١ .
(٤) ابن أعثم : نفس المصدر والمجلد ، ص ٢٤٣ .

قبيلة ابن المهلب نفسه (١). كما ايده بنو مجاشع الذين اثار حفيظتهم قتل الخيار بن سبرة المجاشعي على يد ابن المهلب، وكان أميرا على عمان من قبل عدي، الى جانب مناوئة زعمائهم لابن المهلب خشية من عزلهم عن زعامة أخماس البصرة (٢).

وباستقراء الموقف نجد بعض الاضطراب في النصوص التاريخية، فبعضها يشير الى مساندة الأزد ليزيد واخرى تقول بولائها لعدي، وكذلك القبائل الأخرى. الا انه يظهر لنا أن الأزد خاصة وربيعة قد والت ابن المهلب، الا بعض الأسر والرجال لعداء قديم او مصالح رئاسية ظلوا على ولائهم لعدي وحاربوا يزيد، وكذلك القبائل الأخرى، نجد بعضها انضم ليزيد لمصالح مادية أو أهدافا رئاسية أو خلاف مع عدي الا انه فيما يظهر أن سواد البصرة الأعظم لم يشارك في ذلك الصراع بين ابن المهلب والأمير عدي بن أرطاة، على الاقل قبل غلبة الأول على البصرة وسجنه أميرها، وهذا ماتستشفه من عدد الذين انضموا اليه (٣)، وعدد من قاتل بهم عدي بعد.

وبعد أن جمع عدي رجاله عزم على محاربة ابن المهلب (٤)، فاستعد لحربه، ونظم مابين دار الامارة والمربد الخيل والرجال، وكتب الى الخليفة يزيد بن عبد الملك يعلمه بخلع ابن المهلب له (٥). فكتب اليه الخليفة يأمره بأخذ ابن

---

(١) محمد شعبان : الثورة، ص ١٦١ .
(٢) ناجي حسن : القبائل، ص ١٥٦ .
(٣) كان عدد الذين انضموا اليه ثلاثة آلاف . (انظر قبل : ص ١٤٨) .
(٤) ابن أعثم : الفتوح، م٤/٢٤٣ .
(٥) مجهول : العيون، ٣/٥٤-٥٦ . لم يرد معنا مايثبت خلع ابن المهلب للخليفة قبل حربه لعدي واستيلائه على البصرة، الا اذا كان عدي اعتبر استعداد ابن المهلب للحرب مخالفة للخليفة، وأرى المؤلف قد حمل النص اكثر من معناه . وهذا ماسيتضح من سياق الأحداث .

المهلب . وكنا قد ذكرنا نزول ابن المهلب جبانة بني يشكر (١) وهو المنتصف فيما بينه وبين القصر (٢) ، وكان بعد مسيره لحرب عدى قد امر بتخريب ظلال السوق وهدم الدكاكين واستعد للحرب (٣) فجاءت عديا بنو تميم وقيس واهل الشام (٤) ، وخرج على جمعهم هريم بن ابى طحمة (٥) الى المربد . فوقف فى القلب فى حنظلة وسعد (٦) . وكانت محاربة عدى لابن المهلب فى شهر رمضان من نفس العام (٧) . وفى هذه الاثناء خرج السميدع الكندى وكان يرى راى الخوارج ، واصحاب يزيد وعدى مصطفون للقتال ، فاعتزل ، ومعه ناس من القراء ، فقال طائفة منهم رضينا بحكم السميدع فدعاه يزيد الى نفسه ، فاجابه واستعمله على الابله (٨) ، فاقبل

---

(١) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، ٣١٠/٢ (ولعل الخليفة اراد تعطيل ابن المهلب بحرب عدى له حتى يعد جيش الشام ويرسله اليه) .

(٢) انظر قبل : ص ١٤٩ .

(٣) مجهول : العيون ، ٥٤/٣-٥٦ .

(٤) الطبرى : تاريخ الامم ، ٥٨١/٦ ـ ابن أعثم : الفتوح ، م٢٤٣/٤-٢٤٦ (قال : خرج اليه عدى فى أهل الشام ومن جاءه من اهل البصرة . والصحيح ان عديا لم يخرج اليه بنفسه بادىء الامر ، وانما خرج بعد هزيمة أصحابه واقتراب يزيد من القصر ، كما سنرى ذلك فى الصفحات التالية) ـ ابن الاثير : الكامل ، ١٦٨/٤ (وذكر هو والطبرى خروج بنو عمرو بن تميم من اصحاب عدى الى المربد ، ولعلهم كانوا أول من نزل به قبل تكامل اصحاب عدى فيه مع هريم ، فبعث اليهم ابن المهلب دارس مولى حبيب بن المهلب ، فهزمهم) .

(٥) هريم بن عدى (أبى طحمة) بن حارثة بن الشريد بن مرة المجاشعى الدارمى التميمى ، من فرسان تميم فى العصر الأموى ، قاتل الأزارقة مع المهلب ، ثم كان مع عدى بن ارطاة فى حرب ابن المهلب ، وأخذ اللواء يوم سورا فى حربه ايضا ، كان شجاعا كيسا ، عاش بعد ذلك وكبر ، توفى سنة ١٢٠هـ . (الزركلى :الأعلام ، ٨٣/٨) .

(٦) مجهول : نفس المصدر والجزء ، ص ٥٤-٥٦ .

(٧) اليعقوبى : نفس المصدر الجزء والصفحة .

(٨) الأبلة : بلدة على شاطىء دجلة البصرة العظمى فى زاوية الخليج الذى يدخل الى مدينة البصرة وهى أقدم من البصرة . (ياقوت : معجم ، ٧٧/١) .

على النعيم[1] . ولعل العداء للبيت الأموى قد جمع بينهما ، كما ان فى هذا اشارة الى أن الخوارج كانوا ينشدون من وراء بعض حركاتهم الدنيا ونعيمها . وتدانى القوم ، فبعث اليهم يزيد محمد بن المهلب وابن عمه المهلب بن العلاء بن ابى صفرة فى ألف رجل وقيل بل محمد والمشمعل الشيبانى ودارس[2] مولى حبيب بن المهلب[3] ، فاقتتلوا ، وهزم أصحاب عدى ، وكان قد مال الى يزيد اثناء القتال بشر بن حاتم بن سويد بن منجوف واصحابه ، واعان ابن المهلب[4] ، فشكر ووصل . وتعقب ابن المهلب القوم اثر انهزامهم حتى دنا من القصر ، فخرج اليه عدى بنفسه ، الا انه انهزم واصحابه[5] . وكان هذا النصر لابن المهلب فى اليوم الثانى من القتال ، بعد هزيمة رجال عدى الذين بعثهم عند مسجد الانصار ، وفى كل ناحية . وقد لجأ عدى بعد هزيمة اصحابه وهزيمته هو أمام القصر الى دار الامارة ، فتسلقوا عليه الدار ، واخذوه ، واقبل ابن المهلب حتى وقف على باب الدار ولم يدخلها ، واخرج اليه اخوته الذين كانوا فى سجن عدى ، فاطلق قيودهم . وكان امتناعه عن دخول الدار ، ليكون الأمر شورى على حد زعمه[6] ، فنزل دار

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم ، ٥٨٣/٦ .
(٢) ابن أعثم : الفتوح ، م٤/٢٤٣-٢٤٦ .
(٣) مجهول : العيون ، ٥٤/٣-٥٦ .
(٤) عن حرب ابن المهلب لعدى انظر / الطبرى : نفس المصدر والجزء ، ص ٥٨١-٥٨٢ — مجهول : نفس المرجع ، ٥٦/٣-٥٧ ابن اعثم : نفس المصدر والجزء والصفحة — ابن الأثير : الكامل ، ١٦٩/٤ .
(٥) الطبرى : نفس المصدر والجزء والصفحات — ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ١٦٨-١٦٩ .
(٦) مجهول : نفس المصدر والجزء ، ص ٥٦-٥٨ — الطبرى : نفس المصدر والجزء والصفحات — ابن أعثم : نفس المصدر والمجلد ، ص ٢٤٥ — ابن الأثير : نفس المصدر والجزء والصفحة — نبيه عاقل : تاريخ خلافة بنى أمية ، ص ٣٠١=

سلم بن زياد بن ابى سفيان (١) ، المجاورة للقصر (٢) . فامر بسجن عدى وبعض من اخذ من اصحابه (٣) ، الا اننا نجد من يقول بفرار عدى من ابن المهلب عندما توثب على البصرة (٤) . لكنه خبر يبطله اجماع جل المصادر على سجنه وبقائه فى الحبس حتى مقتله فى واسط على يد معاوية بن يزيد فى اعقاب هزيمة ابيه فى العقر . ويزيد من ضعف الخبر وروده فى مصادر ثلاثة متاخرة ، يوهنها مخالفتها تسلسل الاحداث المؤيد لمن قال بسجنه . وقد تمكن سادات اهل البصرة من قيس وتميم ومالك بن المنذر ، من الهرب ، بعد ظهور ابن المهلب ، فلحق بعضهم بالكوفة ، والبعض الآخر بالشام (٥) .

وهكذا تم ليزيد بن المهلب فى سنة ١٠١هـ الاستحواذ على البصرة ، واخذ عاملها اسيرا ، بعد حصار وقتال طويل (٦) .

= (لكنه يقدم خبرا شاذا ، يشير فيه الى حدوث مناوشات بين المهالبة المساجين وحرسهم . انتهت بتمكنهم من الافلات والهرب من سجن عدى . فلم نجد لذلك اصلا فى المصادر التى اطلعنا عليها ، والتى اجمعت على اخراجهم من السجن على يد اخيهم بعد تغلبه على عدى) .

(١) قال ابن أعثم فى كتابه الفتوح ، م٤/٢٤٥ انه نزل دار أم محمد بنت عبد الله بن عثمان الثقفى . وهذا تعارض الا انه قد لايكون هناك تناقض ، فقد تكون هذه المراة ، زوجه ، او امه . لان الرجل كانت اقامته فى البصرة حتى وفاته بها (سنة ٧٣هـ) . انظر ترجمته فى : (الزركلى : الاعلام ، ٣/١١٠) .

(٢) الطبرى : تاريخ الامم ، ٣/٥٨١ — ابن الاثير : الكامل ، ٤/١٦٩ (لكنه حرف سلم الى سليمان) — ابن خلدون : العبر ، ٣/٧٧ (وحرف اسم سلم الى مسلم) .

(٣) الطبرى : نفس المصدر ، ٦/٥٨٢-٥٨٣ — المسعودى : التنبيه ، ص ٢٧٧ — مجهول : العيون ، ٣/٥٨ — ابن كثير البداية ، ط١ ، ١/٢٤٤-٢٤٥ — ابن الاثير : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) الذهبى : العبر فى خبر من غبر ، ١/١٢٤ — اليافعى : مرآة الجنان ، ١/٢٤١ — ابن العماد : شذرات ، ١/١٢٤ .

(٥) الطبرى : نفس المصدر والجزء ، ص ٥٨٣ — ابن الاثير : نفس المصدر والجزء والصفحة — مجهول : نفس المصدر والجزء ، ص ٦٦ — ابن خلدون : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٦) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، ٢/٣١٠ — ابن كثير : نفس المصدر والطبعة والجزء ، ص ٢٤٤ — ابن خلكان : وفيات ٦/٣٠٣ .

واذا ماأردنا تفسيرا لهزيمة عدى أمام ابن المهلب ، لوجدنا فى ثنايا أخبار القتال بين الرجلين بعض وجوهه ، ولعل أولها تخاذل أهل البصرة عن نصرة أميرهم ، فان كان العدد الذى انضم الى يزيد قليلا الا أن من اعتزل القتال هو سواد الناس ، وكانت قلوب عامتهم خصوصا من اليمن مع ابن المهلب . ومع ذلك فانه يظهر أن ابن المهلب لم يكن مرغوبا من الجميع ، بالذات من العلماء وبعض الزعامات والمضرية ، وذلك لمعرفتهم حقيقته وماعهد سليمان عنهم ببعيد،وان كان قد استهوى بعض أهلها بالمال والسلطان .(١)

أما لما تركوا عديا اذا ، فلعل التزامه بالروح الاسلامية فى سياسته المالية فى مثل ذلك الظرف فى عرب العراق ، الذين لم يكن للمال بديلا يجمعهم حول عدى ،(٢) فهم المناوئون لحكومة الشام تعصبا للعراق ومجده المندثر ، أو المحاربون لها باسم الأحزاب والقوى المعارضة التى كان العراق مسرحها ،فلم يكن العراقيون يوما مناصرين لبنى أمية الا لمصالح يضمنونها فما وجدوها عند عدى ،أو تحت رهبة أمير قوى وجيش شامى يفرض سيادة الدولة والانقياد لطاعتها . فما كان عدى تلك الشخصية ، كما أن أحداث الحركة قد بينت بجلاء قلة الجند الشامى . الذى قد يكون الخليفة عمر بن عبد العزيز قد سحب جله ،(٣) لأنه وطد سلطانه بالعدل وكانت سياسة السلم شعار حكمه خارجيا وداخليا . وقد دعاهم الى هذا الموقف خشيتهم من تعصب الخليفة لقيس ، وعودة سياسة الحجاج من جراء ذلك ، صاحب ذلك كره القراء للخليفة يزيد لما

---

(١) نبيه عاقل : تاريخ خلافة بنى أمية ، ص ٣٠١ ـ يوسف العش : الدولة الأموية والأحداث التى سبقتها ومهدت لها ابتداء من فتنة عثمان ، ص ٢٧٩ .
(٢) يوسف العش : نفس المرجع ، ص ٢٨٠ .
(٣) محمد شعبان : الثورة ، ص ١٥٣-١٥٤ ـ يوسف العش : نفس المرجع والصفحة .

سمعوا عنه من سوء السيرة (١) .

ومع ذلك لانغفل العوامل الأخرى ، فخيانة بعض رجاله اثناء القتال كابن المنجوف الذى مال هو وأصحابه الى ابن المهلب فاعانه (٢) ، وخبرة يزيد العسكرية ، ساعدت في النهاية على انتصار ابن المهلب ، وسيطرته على البصرة .

خروج يزيد بن المهلب على الدولة وأخذ البيعة لنفسه :

بعد ظهور ابن المهلب اقام يومه ذاك ، فلما أصبح نودى في الناس ، فاجتمعوا في المسجد وخطبهم قائلا : انا غضبنا لكم فانظروا لأنفسكم رجلا يحكم فيكم بالعدل والسوية ، ويقيم فيكم الكتاب والسنة ويسير فيكم بسيرة الخلفاء الراشدين (٣) ، وحثهم على الجهاد ، زاعما أن جهاد أهل الشام أعظم ثوابا من جهاد الترك والديلم (٤) . وهكذا خرج على الخلافة ، ودعا الى التبرؤ من بني أمية (٥) . وقيل دعاهم الى سيرة عمر بن الخطاب (٦) فبايع الناس يزيد بن المهلب على كتاب الله وسنة رسوله صلى

---

(١) يوسف العش : الدولة الأموية ، ص ٢٨٠،٢٧٩ .
(٢) مجهول : العيون ، ٥٦/٣-٥٧ . وانظر قبل : ص ١٥٣ .
(٣) مجهول : نفس المصدر ، ٥٨/٣-٥٩ - الطبرى : تاريخ الامم ٥٨٧/٦ - ابن الأثير : الكامل ، ١٧٠/٤ .
(٤) الطبرى : نفس المصدر والجزء والصفحة - ابن أعثم : الفتوح ، م٢٤٦/٤ - ابن الأثير : نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٥) الذهبي : تاريخ الاسلام ، ٨٦/٤ - الأربلي : خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك ، تصحيح مكى السيد جاسم مكتبة المثنى ، بغداد ، ص ٦٩ - المقدسي : البدء ، ٤٧/٦ .
(٦) الذهبي : نفس المصدر والجزء ، ص ١٥٠ - والعبر في خبر من غبر ، ١٢٤/١ - اليافعي : مرآة ، ٢٤١/١ - ابن العماد : شذرات ، ١٢٤/١ .

الله عليه وسلم . وكانت بيعته (١) : تبايعون على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وعلى ألا تطأ الجنود بلادنا ولابيضتنا ، ولايعاد علينا سيرة الفاسق الحجاج ، فمن بايعنا على ذلك قبلنا منه ، ومن أبى جاهدناه ، وجعلنا الله بيننا وبينه ، ثم يقول : تبايعون ؟ فاذا قالوا نعم ، بايعهم (٢).

وبتفحص هذه النصوص ، نجد ابن المهلب يعلن الخروج على الحكم الأموى ، ومحاربة الوجود الشامى فى العراق ، واقامة حكم اقليمى على أساس الشريعة الاسلامية ، أيده من حضر بالبيعة له ، لكن ذلك لم يتعد حتى الآن حدود ذلك . فلم يخلع الخليفة ، ولم يتعرض لسيادة الدولة فيما عدا العراق كما أنه لم يرم الخلافة لنفسه ، وهذا ماسنرى حدوثه مع تطور الفتنة وتنامى قوته .

يؤيد ماذهبنا اليه ما اضافه ابن اعثم الى خطبته فى الناس حيث يقول : "ولست اقول انى خليفة " (٣).

لكن البيعة لم تكن عامة ، فقد عارضه البعض ، كالحسن البصرى (٤) ، وكثير من أهل الشرف والسيادة ، اذ حضر الحسن الى

---

(١) ابن اعثم : الفتوح ، م٢٤٦/٤ ـ مجهول : العيون ، ٥٩/٣ .

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم ، ٥٩٢/٦ ـ ابن كثير : البداية ، ط١ ، ٢٤٦/٩ .

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) الحسن بن أبى الحسن يسار البصرى ، ابو سعيد ، مولى زيد بن ثابت الأنصارى ، وقيل فى ولائه غير ذلك ، تابعى كان سيد اهل زمانه علما وعملا ، وهو شيخ أهل البصرة ، من رواة الحديث ومن القراء والمفسرين ، وكان مجاهدا كاتبا ، وكان عالما جامعا رفيعا ، فقيها ، ثقة حجة مامونا ، عابدا ، ناسكا ، فصيحا ، نشأ بوادى القرى وسكن البصرة ، لم يكن يخشى فى الحق لومة لائم ، تولى الكتابة والقضاء ، وله أخبار وفضائل ومآثر . ولد سنة ٢١هـ ، وتوفى بالبصرة سنة ١١٠هـ . (الذهبى : سير ، ٥٦٣/٤-٥٨٨) .

المسجد وسمع مايدعو اليه ابن المهلب ، فانكر قوله ، واشار الى سوء سيرته عندما كان فى خدمة بنى امية ، مخذلا الناس مع ابدائه عدم الرضى عن أهل الشام ، لكن ابن المهلب لم يلتفت اليه ، ولم يرد قوله الناس عن الالتفاف حول يزيد (١).

اذ أن بعضا من القراء قد ناصر ابن المهلب ، كالنضر بن انس ابن مالك (٢) ، الذى أيد يزيد ودعا الناس الى اجابته (٣).

بعدها خرج ابن المهلب من المسجد وبين يديه الأعلام وقد احدق به الناس (٤) ، فتحول الى دار الامارة (٥) ، وكان الناس قد سلموا له بيت المال بعد أن بايعوه ، فوجد فيه عشرة آلاف

---

(١) عن موقف الحسن هذا انظر / الطبرى : تاريخ الامم ، ٥٨٧/٦-٥٨٨ ـ مجهول : العيون ، ٥٩/٣ ـ ابن اعثم : الفتوح ، م٢٤٧/٤ (وقال :أن الحسن لم يبد رايه فى أهل الشام عندما سالوه ، ودخل منزله ، وكانه يشير بذلك الى اعتزاله الفتنة) ـ ابن الاثير : الكامل ، ١٧٠/٤ ـ ابن خلكان : وفيات ، ٣٠٤/٦ ـ الذهبى : سير ، ٥٠٦/٤ .

(٢) النضر بن انس بن مالك الأنصارى ، ابو مالك البصرى ، تابعى ثقة له أحاديث ، قيل كان فيمن خرج الى الجماجم وذكر الطبرى أنه فيمن خرج مع ابن المهلب أيام خروجه على يزيد بن عبد الملك . مات قبل أخيه موسى ، والحسن البصرى . (ابن حجر : تهذيب ، ٣٨٩/١٠) .

(٣) الطبرى : نفس المصدر والجزء ، ص ٥٨٧ ـ ابن الاثير : نفس المصدر والجزء والصفحة ـ ابن أعثم : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٤٦-٢٤٧ الا أن ابن خلدون يشير الى انكار النضر كالحسن لما يدعو اليه ابن المهلب . ومتابعة الناس لهما فى النكير (العبر ، ٧٨/٣) . لكننا لم نجد هذا القول عند غيره ، وهو مخالف لمن سبقه ، كما أن الأحداث لم تشر الى انكار الناس ومخالفتهم ابن المهلب بل اتبعه اكثرهم .

(٤) ابن أعثم : نفس المصدر والمجلد ، ص ٢٤٧ . الا أنه يشير فى نصه الى وجود الشاعر القطامى مع ابن المهلب وارتجازه امامه بابيات من الشعر ابان خروجه من المسجد لكننا نجد عند الطبرى ، مايخالف ذلك ، حيث يشير الى أن القطامى كان ممن بعثهم الخليفة يزيد من الشام ليسكنوا أهل الكوفة ، وانه شارك فى معركة العقر الى جانب مسلمة بن عبد الملك ضد ابن المهلب . نفس المصدر والجزء ، ص ٥٨٥ .

(٥) مجهول : نفس المصدر والجزء والصفحة .

الف درهم ، فأخذها وفرقها في الناس (١) ، ثم خندق على البصرة (٢) .

وهكذا تم له الاستيلاء على البصرة ، بعد هزيمة أميرها وأسره ، ونجاحه في جمع أهلها حوله .

استيلاء ابن المهلب على ماحول البصرة :

لما استوثق الأمر ليزيد في البصرة ، بعث عماله على الأهواز وفارس وكرمان ومكران والسند والهند وماجاوره من بلاد فاحتوى عليها (٣) ، فاستعمل زياد بن المهلب على عمان واشعث بن عبد الله على البحرين ، وهلال بن عياض على الأهواز ومحمد بن المهلب على فارس ، ووداع بن حميد على قندابيل (٤) ، والمنهال بن أبي عيينة على جزيرة بركوان (٥)(٦) .

---

(١) ابن أعثم : الفتوح ، م٤/٢٤٦ .
(٢) مجهول : العيون ، ٥٩/٣ .
(٣) ابن أعثم : نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٤) قندابيل : مدينة بالسند ، وهي قصبة لولاية الندهة . ياقوت : نفس المصدر ، ٤٠٢/٤ ـ وقال لسترنج أنها من أعمال طوران وتعد قصبتها ، ص ٣٧٠ .
(٥) بركاوان : بالفتح ، والسكون ، ناحية بفارس .(ياقوت : معجم ، ٣٩٩/١). ولم يقل جزيرة كما ذكر صاحب العيون .
(٦) مجهول : نفس المصدر والجزء والصفحة ـ عبد الرحمن عبد الكريم العاني : عمان في العصور الاسلامية الأولى ، ودورها في المنطقة الشرقية من الخليج العربي وفي الملاحة والتجارة الاسلامية ، رسالة دكتوراه ، لم تطبع مقدمة الى آداب جامعة بغداد ، ١٩٧٥م ، ص ١١٠-١١١ (اشار الى ولاية زياد على عمان ، وأضاف أنه قتل الخيار بن سبرة المجاشعي عامل الحجاج وصلبه ، وكان الخيار قد اضر بالأزد ، ويرجع ذلك الى الروابط التي تربط يزيد بأزد عمان ، ولضرر الأمويين بهم ، مما أوجد له سندا شعبيا ، حتى القبائل الأخرى لم تعارضه ، وقد يكون ذلك لمعاملته الطيبة لهم ، أو لسيطرته على مناطق ذات ارتباط وثيق بعمان كالبصرة ، ولأنه لايحمل عقائد مذهبية ، مما جعلهم يؤيدونه ، أو على الأقل لم يعارضوه . الا أن الأمويين اعادوا سيطرتهم على عمان بعد القضاء على ثورة ابن المهلب .

كما بعث مدرك بن المهلب (١) الى خراسان ، وكان عليها عبد الرحمن بن نعيم الأزدى ، فلما وصل الى راس المفازة ، حرض ابن نعيم عليه تميما ، فخرجوا يستقبلونه ، فلحق بهم الأزد ، ومنعوه منهم ، الا انهم مع ذلك لم يوافقوه على الدخول الى خراسان ومساندته ، بل أرادوا أن ينصرف حتى ينجلى أمر أخيه ، فان نصر كانوا أسرع الناس اليه ، مبدين عواطفهم نحو آل المهلب . فرأى الانصراف عند ذلك ، وترك خراسان (٢) . الا أن موقف عبد الرحمن بن نعيم الناتج من حرصه على مركزه ، لايمثل موقف ازد خراسان ، الذين أظهروا تأييدهم للحركة (٣) . ومع ذلك فقد فسد تطلع ابن المهلب الى خراسان ، الذى كان فى ضمه اليه مايجعل من الجبهة الشرقية للدولة الاسلامية بما فيها من امكانيات القوة وحدة واحدة تحت سلطة ابن المهلب ، يواجه بها سلطان الخلافة فى الغرب . أفسد هذا التطلع موقف عرب خراسان والأزد خاصة ، الذين وان منعوا مدرك من تميم ، وأبدوا تعاطفهم مع ثورة أخيه ، الا أنهم فى النهاية لم ينصروا الحركة ولم ينضموا اليها ، اذ أنهم بدلا من أن يسهلوا طريق مدرك الى خراسان ، صدوه عنها ان تقديم المصلحة والعافية على الانتصار للعصبية ظاهرة هامة فى تاريخ تلك الفترة ، كما أن انضمام فئة من الجيش

---

(١) مدرك بن المهلب بن أبى صفرة ، قائد من الشجعان ، ولد سنة ٥٣هـ . قال كعب بن معدان : لايستحى الشجاع أن يفر من مدرك ، له أخبار فى حروب أبيه مع الازارقة . توفى سنة ١٠٢هـ . (الزركلى : الأعلام ، ١٩٧/٧) .

(٢) الطبرى : تاريخ الامم ، ٥٨٥/٦-٥٨٦ ـ ابن الأثير : الكامل ، ١٧٠/٤ ـ ابن كثير : البداية ، ط١ ، ٢٤٥/٩ ـ ابن خلدون : العبر ، ٧٨/٣ ـ نافع العبود : آل المهلب ص ٨٢ .

(٣) نافع العبود : نفس المرجع والصفحة .

الشامي الى حركة يزيد ، يعتبر ظاهرة مميزة لتلك الحقبة ، وقد يكون عرب خراسان الذين ارضتهم سياسة عمر لم يجدوا مبررا للحركة ، خاصة أن الخليفة يزيد اقر لهم حتى ذلك الحين ، الوالي الذي عينه عمر (١) . وقد يكون لسياسة ابن المهلب التي عرفوها ومقتوها اثناء ولايته على خراسان ، زمن سليمان بن عبد الملك ، والمتمثلة في اهمال رجال القبائل ، والتصرف الحر المتعسف في اموال يعتبرونها حقا لهم ، الى جانب تحيزه وتفضيله للجند الشامي (٢) ، دور كبير في عدم الاستجابة ليزيد ، والبقاء على الولاء للبيت الأموي ممثلا في عامله عبد الرحمن بن نعيم . أما الأزد خاصة فقد يكون لوقوف تميم ضدهم ، حائلا دون مناصرة الحركة ، لأن الغلبة والكثرة في خراسان لتميم (٣) ، كما هي للأزد في البصرة ، كما عرف الأزد بولائهم للخليفة الأموي ، فانهم من وقفوا في وجه قتيبة بن مسلم عندما اراد خلع الخليفة سليمان والبوا عليه مضر (٤) .

وان كنا قد وجدنا تفسيرا لموقف عرب خراسان السلبي وازدها خاصة نحو حركة يزيد بن المهلب ، الا ان جند الشام في موقفه من الحركة وانضواء فئة منه الى ابن المهلب ، يعد ظاهرة جديدة وخطيرة ، اذ لم يعرف أهل الشام الا عمادا للبيت الأموي وسر سيادته ، بولائهم التام ، لخليفة دمشق أو ممثله في اى قطر وأمام اى خصم . ولعل اعتماد ابن المهلب اثناء ولايته على العراق وخراسان زمن الخليفة سليمان على الجند الشامي وتمييزه في توزيع الغنائم وغيرها (٥) ، جعل له في

---

(١) محمد شعبان : الثورة ، ص ١٦٣ .
(٢) محمد شعبان : نفس المرجع ، ص ١٤٥ .
(٣) ابن الاثير : الكامل ، ١٤٠/٤ .
(٤) ابن الاثير : نفس المصدر والجزء ، ص ١٣٩-١٤٠ .
(٥) محمد شعبان : نفس المرجع والصفحة .

نفوسهم مكانة دفعتهم الى الانضواء تحت لوائه ، ولما ستدره الحركة من مكتسبات في حالة نجاحها ، خصوصا بعد فقدانهم خاصية التميز في ظل سياسة عمر الرامية الى عدم الاعتماد على جند الشام في حكم الدولة وفرض سيادتها على اقاليمها . (١)

وقد ولى يزيد بن المهلب شرطته عثمان بن الحكم الأزدى وكان قد بسط العدل في الناس ، وبذل الأموال (٢) . ولعله اراد ان يقدم للعراقيين ماافتقدوه جل العصر الأموى ، لعلهم اذا ماخشوا فقد هذه المكتسبات ، وقفوا وراء من قدمها لهم ، وهكذا تالفهم ، وهياهم للذود عن حركته الا انه كما رفض هذه الحركة بعض رؤساء اهل البصرة ، بالوقوف الى جانب عدى في حرب ابن المهلب ، والخروج منها بعد انهزامه (٣) ، نجد أن فئات ورجالا من مجتمع البصرة ، كبعض علمائها ، ممثلين في شيخ البصرة آنذاك ، الحسن البصرى ، الذى كما رأينا انكاره على ابن المهلب مايدعو اليه بعد ظهوره على عدى ، واعتزاله الفتنة في بيته ، فاننا نجده يدعو الى ترك القتال معه باعتباره جائرا ، وان هدفه السلطة والمصلحة ، كما انه ليس القائد اللائق للجبهة المعارضة للحكم الأموى (٤) . ونحن نقول أن المصادر قد اتفقت على أن الحسن البصرى قام بتخذيل الناس عن ابن المهلب ، بل وخطب الناس وحط من شأنه (٥) . الا أن من المؤكد أن الحسن البصرى لم يكن يوما ما في حزب معارضة حتى يرى بان ابن المهلب غير لائق لقيادة المعارضة او كفؤا لها

(١) مجهول : العيون ، ٥٩/٣ .
(٢) ابن كثير : البداية ، ط١ ، ٢٤٤/٩ .
(٣) انظر قبل : ص ١٥٤ .
(٤) محمد نصر الله : تطور ، ص ٢٥٥-٢٥٦ .
(٥) الذهبي : دول الاسلام ، ٥٣/١ .

وقد ساءت العلاقة بين الرجلين حتى هم يزيد بضرب الحسن البصرى حتى الموت ، لولا خوفه من علو قدره فى المصر وفضله (١) وهذا مادفعه الى منع احد قومه من قتل الحسن ، وقد غشوا مجلسه ، الذى فيما يبدو أنه نال منهم فيه ، وذلك خوفا من انقلاب الناس عليه . لذا فانه من الصعب تصديق القول (٢) باستعمال ابن المهلب الحسن البصرى على قضاء البصرة (٣) ، اذ يشير وكيع (٤) الى القول بتوليته القضاء عند خروج ابن المهلب منها لقتال مسلمة ، فقبلها الحسن ، فقد لزم الحسن بيته بعد خروج يزيد ، وانكر بعض اهل العلم صحة ذلك الخبر .

وكان لقتادة الفقيه (٥) موقف كموقف الحسن ، فقد ذهب الى تنقص ابن المهلب والنيل منه ، فقيده ، وبعث به الى الاهواز فظل محبوسا حتى قتل يزيد فاخرج (٦) .

الا ان تلك المعارضة لاتقلل من الاهمية الكبيرة والخطورة السياسية والادارية ، والقوة العسكرية التى تحققت لابن المهلب ، باستيلائه على البصرة ، والاقاليم المجاورة ذات الصلة بها . ولعله أول من احس بذلك ، مما قوى نفسه ، فغدت تحدثه بالخلافة وأن يزيد بن عبد الملك

---

(١) مجهول : العيون ، ٦٦/٣ .
(٢) محمد أمين صالح : العرب والاسلام من البعثة النبوية حتى نهاية الخلافة الأموية ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ، ١٩٨٠م ، ص ٣٦٨ .
(٣) نافع العبود : آل المهلب ، ص ٨٦ .
(٤) اخبار القضاة ، تصحيح عبد العزيز المراغى ، المكتبة التجارية ، مصر ، مطبعة الاستقامة ، طبعة أولى ، ١٣٦٦هـ ، ١/٣٠٣-٣٠٨ .
(٥) قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز ، أبو الخطاب ، السدوسى البصرى ، مفسر حافظ ، ضرير أكمه ، كان يرى القدر ، مات بواسط فى الطاعون (سنة ١١٨هـ) . (الزركلى الأعلام ، ١٨٩/٥) .
(٦) مجهول : نفس المصدر والجزء والصفحة .

ليس أحق بها منه .(١)

خلع ابن المهلب للخليفة يزيد بن عبدالملك ورومه الخلافة :

أقدم يزيد بن المهلب على خلع الخليفة يزيد بن عبد الملك ،(٢) وكان ذلك عندما خرج الى المصلى يوم عيد الفطر – سنة ١٠١هـ – وشتم بني مروان ،(٣) بل رام الخلافة لنفسه ،(٤) ونجد ذلك عند حاشيته ، فحظية له تسلم عليه بامرة المؤمنين فينشدها :

رويدك حتى تنظري عم تنجلي
عماية هذا العارض المتالق(٥)

لكن الذهبي(٦) ينقل لنا أن ابن المهلب ، دعا الى نفسه ،

---

(١) مجهول : العيون ، ٦٥/٣ .
(٢) ثابت اسماعيل الراوي : العراق في العصر الاموي ، من الناحية السياسية والادارية والاجتماعية ، رسالة ماجستير مطبوعة ، مكتبة الاندلس ، بغداد ، الطبعة الثانية ، ص ٢١٦ – الطبري : تاريخ الامم ، ٥٧٨/٦ – المسعودي : مروج ، ٢١٠/٣ – المسعودي : التنبيه ، ص ٢٧٧ .
(٣) نافع العبود : آل المهلب ، ص ٨٠ .
(٤) الذهبي : أسماء الذين راموا الخلافة ، نشر صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٨م ، ص ٩-١٠ – ابن خلكان : وفيات ، ٣٠٣/٦ .
(٥) ناجي حسن : القبائل ، هامش ٤ ، ص ١٥٤ (واشار ان ذلك كان من احد الأزد ، لاحظيته) – ابن خلكان : نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٦) الذهبي : نفس المصدر والصفحة ،وهامش (١) . (كما اضاف قال قرة عن ابن سيرين قال : القحطاني حق ، ولكنه من قريش . وروى ابن أبي ذيب عن المعدي ، عن ابي هريرة مرفوعا : لاتقوم الساعة حتى يسوق الناس رجل من قحطان ويروى نحوه ثور بن زيد ، عن أبي الغيث ، عن أبي هريرة . وروى الزهري ، عن محمد بن حيان وعبد الله بن عمرو : سيملك رجل من قحطان) – اليافعي : مرآة ، ٢٤١/١ – الذهبي : تاريخ الاسلام ، ١٥٠/٤ – ابن العماد شذرات ، ١٢٤/١ .

وتسمى بالقحطاني ، ونصب رايات سوداء . فكان ممن بويع له بالخلافة في ايام بني امية (١). بل اننا نجد اخبارا من نوع آخر ، فيذكر انه دعا الى الرضا من بني هاشم (٢) ، وانه وجه الى علي بن عبد الله بن عباس يدعوه الى القيام بالامر ، وأن عليا أجابه "ان رأيت الا تذكر اسمي حتى الى مايصير اليه أمرك ، فان ظفرت صنعت ماتريد وان كان غير ذلك لم تكن ذكرت اسمي" (٣). وقد شكك العبود في هذه الرواية لكون الدعوة العباسية سرية تعتمد على كتمان اسم الامام ، اذ يرى انه من المستبعد أن يضع علي بن عبد الله يده في يد ابن المهلب ، ويطلب اليه القيام بالامر . ونحن نقول : أن ابن المهلب لو محت هذه الرواية التي ندحضها ، لبحث عن رجل علوى ، اذ ان الناس في ذلك التاريخ لم يكونوا يشايعون الا آل علي دون العباسيين ، الذين هم أنفسهم كانوا يدركون هذا ومن اجله عموا على الناس في دعوتهم السرية ، بالدعوة للرضى من آل محمد (٤) ، كما انه ليس من المنطق أن يقدم يزيد ثمرة جهده للعباسيين وليس لهم فيه ادنى جهد .

ويقال : أن يزيد دعا المفضل بن عبد الرحمن بن العباس

---

(١) ابن العمراني : الانباء ، ص ٥٥ .
(٢) نافع العبود : آل المهلب ، ص ٨٠ (قال لانعلم علاقة بين يزيد وبني هاشم ، ولعل ذلك دعاية لثورته واغاضة لبني امية بتلويحه لهم انه سيحول الخلافة الى الد خصومهم) مجهول : العيون ، ٦٥/٣-٦٦ .
(٣) نفس المرجع ، ص ٨٤ .
(٤) عن الدعوة العباسية انظر / مجهول : اخبار العباس وولده – الدوري : أضواء جديد على الدعوة العباسية مجلة آداب بغداد ، عام ١٩٦٠م – الشيال : تاريخ الدولة العباسية – فاروق عمر : طبيعة الدعوة العباسية – شاكر مصطفى : دولة بني العباس .

ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب (١) ، الى متابعته ، فتابعه ، ثم توارى (٢) .

والدكتور محمد شعبان (٣) ينكر محاولة ابن المهلب القضاء على الحكم الأموى ونقل الخلافة الى بنى هاشم ، او ادعاءه لقب القحطانى ، ويقول أن هذه الاخبار مبالغات خيالية اضيفت مؤخرا الى حركة يزيد ، ولم يقم الدليل على صحتها ، ويعلل حركته بانها محاولة لايقاف سياسة الحجاج التوسعية التى يرى أن عمر يزيد سيكون استمرارا لها ، فلم يجد غير اللجوء الى العنف وحمل السلاح لايقافها .

ونحن ان كنا وافقناه فى بطلان اخبار دعوته للرضى من بنى هاشم ، فاننا نقول انه ان لم يدع انه القحطانى ، فقد تكون اشاعة فشت بين اتباعه ، قد يكون مصدرها الأزد من قحطان ، أو هو الذى أوحى بها ، دعاية لحركته ، واضافة عامل معنوى يسندها . أما قوله بعدم رغبته الاطاحة بالحكم الاموى ورومه الخلافة ، فليس له دليل على ذلك ، ونرى النصوص التى قدمناها ، وماسياتى من نصوص على لسان الخليفة يزيد نفسه أو مسلمة بن عبد الملك ، وحربهم له ، دليلا كافيا على صحة ماتطلع اليه يزيد بن المهلب من عظيم الأمر . كما أن تعليله للحركة ابعد مايكون عن الصحة ، فابن المهلب ذاته كان يوما يدا للحجاج فى خراسان ، يمثل سياسته

---

(١) لم اعثر له على ترجمة . ويبدو أنه المفضل بن عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب الذى شارك ابن الاشعث فى حركته ضد الدولة الأموية ، وكان له دور بارز فيها . (من أجل ذلك : انظر : الطبرى : تاريخ الأمم ، ٣٤٣/٦، ٣٧١-٣٧٣ ومابعدها) .

(٢) مجهول : العيون ، ٦٦/٣ .

(٣) الثورة ، ص ١٦٢-١٦٣ .

التوسعية ، بل وبعد ذلك في عهد سليمان ، الذى كان عصره استمرارا لسياسة بني أمية التوسعية خارجيا ، وان تميزت بالاتزان داخليا ، ولعل موقف عمر بن عبد العزيز من ابن المهلب ، وعزله ، وسجنه ، دليلا على عدم صلاحه لسياسته السلمية ، وانه يمثل سياسة الحجاج ومن سايره ، بل كان يقول : هؤلاء ـ يعني المهالبة ـ جبابرة ولا احب مثلهم (١) . فابن المهلب هرب من سجنه خائفا على نفسه من يزيد بن عبد الملك ثم حارب عدى لينقذ اخوته من سجنه ، ثم خالف يزيد كارها وطامعا ، وخلعه أخيرا ورام الخلافة لنفسه بعد أن آنس القوة والقدرة . دعوة يميزها الاضطراب (٢) . وحركة تتنامى في مراحل يدفع صاحبها تعاظم شأنه واشتداد شوكته .

لذا جاء اعلان ابن المهلب الخروج على الحكم الأموى وخلع الخليفة يزيد بن عبد الملك بعد أن حشد له الازد وغيرهم ، وسيطر بهم على البصرة ، وقد عظم أمره ، واشتدت شوكته (٣) . ولعل الظروف التي أعلن فيها حركته تستلزم منه الدخول في تيار العصبية القبلية والاعتماد على اليمنية ، سيما أن التكتلات القبلية آنذاك اصبحت تتخذ هيئة أحزاب سياسية (٤) .

ثم كتب يزيد بن المهلب الى أخيه زياد عامله على عمان وأمره أن يعرض الناس ، ففرض لثلاثة آلاف رجل واستعمل عليهم

---

(١) انظر قوله هذا في : ص ١٣٣ .
(٢) عواد الأعظمي : مسلمة ، ص ١٩٩-٢٠٠ .
(٣) ناجي حسن : القبائل ، ص ١٥٣ (نقلا عن المسعودى : مروج ٢١٠/٣) لكنه ارخ لثورته بعام ١٠٢هـ ، والأصح عام ١٠١هـ ، والقضاء عليها سنة ١٠٢هـ (انظر قبل : ص ١٥٦) وبالرجوع الى كتاب مروج الذهب لم نجده أرخ بذلك . ـ مجهول : العيون ، ٦٥/٣ .
(٤) نافع العبود : آل المهلب ، ص ٨٦ .

المشماس بن عمر الأزدى ، فقدموا على يزيد بن المهلب . (١)

هكذا اشتعلت الحركة فى البصرة ، فاليمانيون كانوا خائفين على انفسهم حاقدين على الحجاج ، وأهل البصرة كانوا يكرهون سياسة الحجاج ، مع وجود من يدرك مقصد ابن المهلب من حركته كالحسن البصرى ، لكنهم لم يستطيعوا عمل شيء كبير (٢) وقد كان هذا الشعور كافيا لقيام الحركة بينهم ، وعدم المسارعة الى اخمادها ، فمع قلة من قام فى الحركة من شيعة ابن المهلب ، تحقق لها النجاح فى بادىء الامر لعدم من يقف فى وجهها . (٣) كما أن كرههم لبقاء جند الشام مفروضين عليهم ، يأكلون خراجهم ، ويمتازون عليهم فى العطاء ، من اسباب سكوتهم عليها ، وعدم مقاومتها . (٤)

ولم تكن البصرة وحدها قد اعطت البيعة لابن المهلب ، فقد كانت حركته فرصة للمتذمرين من أهل العراق ، ومجالا لمنازلة الدولة الأموية ، فقد بايعه بعض زعماء الكوفة ، وانضووا تحت لوائه ، كما شملت حركته عمان والبحرين والجزيرة . (٥) بل نجد ناجى حسن يقول : "باندفاع قبائل الكوفة بأرباعها لتأييد ابن المهلب بكل ماتملك" (٦) . الا أن الواضح

---

(١) مجهول : العيون ، ٦٦/٣ .
(٢) انظر قبل : ص ١٥٧-١٥٨، ٦٢ ، وبعد : ص ١٧٩ .
(٣) يوسف العشي : الدولة الأموية ، ص ٢٧٩-٢٨٠ .
(٤) نافع العبود : آل المهلب ، ص ٨١ .
(٥) ثابت الراوى : العراق ، ص ٢١٧ (نقلا عن الطبرى / تاريخ الأمم ، ١٥١/٨ ـ وانظر بعد : ص ١٨٠ لوجود مايخالف ذلك) .
(٦) القبائل ، ص ١٥٦-١٥٧ (وأضاف : كان لربيعة دور كبير فى مساندة ثورة ابن المهلب) .

ان انضمامهم اليه كان بعد خروجه من البصرة لحرب مسلمة والعباس ، وهو الذى بعث الرجال على ارباعها ، بل انه سعى الى ان تكون ارض المعركة بالقرب من الكوفة ، حتى يتمكن الناقمون فيها على بنى امية من الانضمام اليه ، وهذا ماحدث بعد نزوله العقر . كما أن الأمر ليس بما يوحيه النص ، فلم ينضم اليه كامل اهل الكوفة بل اناس من ارباعها . تسللوا اليه ، فقد استطاع الامويون منع ابن المهلب من الوصول اليها ، وتمكنوا من بقائها بأيديهم ، وقاتل بعض اهلها مع مسلمة . اذ أن حركته لم تلق تأييدا جماعيا من قبائل العراق ، كالذى لقيته حركة ابن الأشعث لاختلاف دوافع الحركة فى الحالين ، اذ كانت حركة ابن المهلب ، وليدة عداء شخصى (١) لذلك لعبت العصبية دورها ، فناصرت الأزد وحليفتها ربيعة ابن المهلب ، وناصر جل مضر الخليفة يزيد وعامله . على أن دوافع هذه الحركة لم تكن قبلية خالصة لذا كان معه نفر من مضر ، كما وقفت طائفة من اليمانية فى صفوف بنى مروان كآل مخنف فى الكوفة الذين عرفوا بولائهم للبيت الأموى (٢) .

وقد يعود فشل ابن المهلب فى استقطاب اهل الكوفة والبصرة واشرافهما اليه ، كما استطاع ابن الأشعث ، الى السياسة السليمة التى اتبعها ولاة عمر بن عبد العزيز فى تألف اهل العراق ، لاسيما وأن الخليفة يزيد لم يعمد الى

---

(١) انظر ذلك فيما بعد ، فى ثنايا الأخبار التى تلت نزول ابن المهلب العقر .

(٢) احسان النص : العصبية القبلية واثرها فى الشعر الأموى دار الفكر ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٣م ، ص ٣١٨-٣١٩ .

عزل اميرى الكوفة والبصرة .(١)

كما اننا نجد اثر العصبية القبلية يحفز بعض الازد للوقوف الى جانب ابن المهلب فى حركته بالبنان واللسان ، كالشاعر ثابت قطنة(٢) ، فبعد وقوفه للدفاع عن مدرك بن المهلب حين قدم خراسان من قبل أخيه ليدفعها للحركة ، وتمدت له تميم ، فمنعه الازد .(٣) نجده يكتب الى يزيد بن المهلب ، يحرضه على بنى امية مؤيدا خروجه كغيره ممن نفخوا فيه ، واثبت فى اسفل الكتاب ابياتا منها :

ان امرءا حدبت ربيعة حوله
والحي من يمن وهاب كئودا

لضعيف ماضمت جوانح صدره
ان لم يلف الى الجنود جنودا

ليزيد كن فى الحرب ان هيجتها
كابيك لارعشا ولارعديدا

شاورت اكرم من تناول ماجد
فرايت همك فى الهموم بعيدا

---

(١) نجدة خماش : الشام فى صدر الاسلام (من الفتح حتى سقوط خلافة بنى امية ، دراسة للأوضاع الاجتماعية والادارية) ، رسالة دكتوراه ، نسخة غير مطبوعة ، مقدمة لجامعة دمشق ، كلية الآداب ، قسم التاريخ ، ص ١٣٧ .

(٢) ثابت بن كعب بن جابر العتكى ، من الازد ، من شجعان العرب وأشرافهم فى العصر المروانى ، يكنى أبا العلاء له شعر جيد ، جمعه ماجد بن احمد السامرائى البغدادى شهد الوقائع فى خراسان سنة ١٠٢هـ ، واصيبت عينه فجعل عليها قطنة فعرف بها ، كان له وقائع مع الترك وظفر بهم ، واستمر معهم حتى قتلوه . (الزركلى : الاعلام ، ٩٨/٢) .

(٣) الهادى حموده الغزى : الشعر الأموى فى خراسان والبلاد الايرانية ، رسالة ماجستير ، مطبوعة ، الدار التونسية للنشر ، مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع ، الكويت ، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م ، ص ١٦٨ .

ياليت اسرتك الذين تغيبوا

كانوا لأمرك فى العراق شهودا

فترى مواطنهم اذا اختلف القنا

والمشرفية يوقدون وقودا

فلما وردت هذه الأبيات على يزيد هش لها ودعته نفسه الى قتال بنى امية ، وعزم على ذلك .(١)

ويلاحظ فيها التفاف ربيعة حوله ، وان يزيد استشاره فاشار عليه بالحرب .

والأبيات وردت مجزأة فى المراجع ، جمعنا منها مافيه الدلالة على ماذهبنا اليه ، ويظهر انها من قصيدة طويلة .

وراح غيره من الشعراء يعضدون أمره ، ويَعِدُونَهُ بالتمكن من بنى امية وازالة ملكهم . فيشير يزيد بن الحكم الثقفى الى ذلك بقوله :

ابا خالد قد هجت حربا مريرة

وقد شمرت حرب عوان فشمر

فان بنى مروان قد زال ملكهم

فان كنت لم تشعر بذلك فاشعر

فمت ماجدا او عش كريما فان تمت

وسيفك مشهور بكفك تعذر

كما ذهب الكهان الى أنه سينقض دمشق حجرا حجرا ، والى هذا اشار الفرزدق فى قصيدته التى مدح بها مسلمة عندما حارب يزيد بن المهلب ، فقال :

---

(١) نافع العبود : آل المهلب ، ص ٨٢-٨٣ ـ الهادى الغزى : الشعر الأموى فى خراسان ، ص ١٦٩ ـ ابن أعثم : الفتوح، م٤/٢٤٨ .

اتتك جنود الشام تخفق فوقها

لها خرق كالطير حين استقلت

تخبرك الكهان انك ناقض

دمشق التي كانت اذا الحرب حرت (١)

وفي الخبر اشارة الى انضمام بعض ثقيف الى حركة ابن المهلب ، مما يؤكد عدم حصر أسباب الحركة في عداء شخصي سببه تعذيب ابن المهلب لآل ابي عقيل من ثقيف ، او قيامها على أساس العصبية القبلية ، اذا ماعلمنا ان ثقيف تعد من قبائل قيس عيلان (٢) . كما أن فيه مايوحي بمدى القوة التي وصل اليها ابن المهلب ، والهالة التي حازتها حركته .

القضاء على الحركة :

كان لخروج ابن المهلب في البصرة واعلانه خلع الخليفة يزيد بن عبد الملك صدى واسعا في دمشق واثرا بليغا في نفس الخليفة يزيد ، غير ان اخاه مسلمة بن عبد الملك (٣) ، كان يشد

---

(١) نافع العبود : آل المهلب ، ص ٨٣ — مجهول : العيون ، ٦٨/٣ ، أورد البيت الأول متأخرا ، ومخالفا له في صدره بقوله : اتتك جنود الشام تخطر بالقنا . كما أورد البيت الثاني ، وخالفه في عجزه بقوله : دمشق التي قد كانت الجن جرت .

(٢) نادية حسني صقر : الطائف في العصر الجاهلي وصدر الاسلام ، رسالة دكتوراه مطبوعة ، دار الشروق ، جدة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص ٦١ (نقلا عن ابن قتيبة : المعارف ، ط٢ ، ص ٤١، ٤٧ . ذكرت ذلك على خلاف، لمعرفة ذلك انظر كتب الأنساب) .

(٣) مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، الأمير القائد الأموي ، يلقب بالجرادة الصفراء ، وله فتوحات مشهورة ، اهمها مسيره على راس مئة وعشرين الفا لغزو القسطنطينية في دولة اخيه سليمان ، وولاه اخوه يزيد امرة العراقين ، ثم ارمينية ، وغزا الترك سنة ١٠٩هـ قال الذهبي : كان أولى بالخلافة من سائر اخوته ، ومات بالشام (سنة ١٢٠هـ) . (الزركلي : الأعلام ، ٢٢٤/٧) .

من أزره ويهون الأمر عليه ، فقد دخل مسلمة على أخيه يزيد ، حين خلعه ابن المهلب ، فرآه في ثوب مصبوغ ، فقال له : أتلبس مثل هذا وانت ممن قيل فيهم :

قوم اذا حاربوا شدوا مآزرهم
دون النساء ولو باتت باطهار

فقال يزيد : ذا ونحن نحارب أكفاءنا من قريش ، فأما أن ينعق ناعق مزوني (١) ، فلاولاكرامة . قال مسلمة : فشممت رائحة الفتح من هذه الكلمة (٢) . على كل وان كان في الرد عنجهية ، الا أنه يرمز الى الثقة في النفس ، وان خالطها غرور لايحمد في مثل هذه المواقف .

على أن الخليفة يزيد بن عبد الملك ، أعطى الحركة ماتستحقه من الاهتمام ، وهذا مالمسناه في مواقفه منذ بدايتها . فقد جهز جيشا كبيرا من مقاتلة الشام والجزيرة ، بلغ عدده ثمانين ألفا (٣) ، وجعل قيادته لمسلمة بن

---

(١) المزون : عمان ، وهو اسم من أسمائها ، ومعناه أن أصل ابن المهلب من أزد عمان وقال أبو عبيدة أراد بالمزون الملاحين وكان أرد شير بن بابك جعل الأزد ملاحين بسحر عمان قبل الاسلام بستمائة سنة . (ياقوت : معجم ، ١٢٢/٥ مجهول : العيون ، هامش ٦٨/٣) .

(٢) عواد الأعظمي : مسلمة ، ص ٦٣، ١٨٥ (نقلا عن / مجهول : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٨٢ – ابن خلكان : وفيات ، ٣٠٩/٦ الا أنه بمراجعتنا لكتاب الوفيات (نفس الطبعة) وجدناه قد ذكر أن الذي قال البيت يزيد وأن الذي رد عليه مسلمة ، ولم يشر الى قوله : فشممت رائحة النصر ، لكني لم أتمكن من الاطلاع على تاريخ الخلفاء لمجهول) .

(٣) اختلفت المصادر في عدد الجيش الموجه الى ابن المهلب وتلك ظاهرة اعتدنا عليها في مصادرنا الاسلامية ، عند ذكر الأعداد ، أيا كان نوعها ، فقيل سبعون ، وقيل خمسون ، وقدمنا ماأيده شعر الفرزدق ، اذ يقول :

أتتك جنود الشام تخطر بالقنا
لها خرق كالطير لما استقلت
يقود نواصيها اليك مبارك
اذا ماتصدى للكتيبة ولت =

عبد الملك ، وعلى مقدمته العباس بن الوليد(٢)، وقيل جعله(١) على جند دمشق خاصة . وأمرهما بالمسير الى ابن المهلب(٣) ، للقضاء على حركته ، فبعث الخليفة يزيد بن عبد الملك العباس بن

= من آل ابى العاصى حول لوائه
ثمانون الفا كلها قد اطلت
(انظر / ابن الاثير : الكامل ، ١٦٩/٤-١٧٠ ــ مجهول : العيون ، ٦٨/٣ ــ ابن أعثم : الفتوح ، م٢٤٨/٤) .

(١) كان اختيار الخليفة لمسلمة قائدا لجيش الشام ، اختيارا موفقا ، لما يملكه من قدرة قتالية ، وخبرة عسكرية . ولعل هناك سببا آخر ، فقد عرف الخليفة ، رغبة مسلمة فى التخلص من ابن المهلب ، عندما أوفد اليه مروان بن عبد الملك يشير عليه بقتل يزيد بن المهلب . وقد يعزى ذلك الى اطلاع مسلمة على تصرفاته التى حاسبه عليها الخليفة عمر ، من خلال ملازمته له اثناء خلافته . انظر/عواد الأعظمى : مسلمة ، ص ١٨٧-١٨٨ وهامش (٦) الذى أورد فيه أن الخليفة سليمان كتب الى مسلمة وهو محاصرا القسطنطينية ، يطلب شخوصه اليه ليوجهه الى خراسان لمحاسبة ابن المهلب واخذ الأموال منه . وان كنا نستبعد خبر سليمان اذ ليس من المنطق ان يقوم سليمان بنزع مسلمة من قيادة الحملة التى اعطاها اهتمامه وكلفت الدولة الكثير من الأموال من اجل ذلك . كما أن ابن المهلب لم يفطر الخليفة سليمان لمحاسبته ، فقد عرف بولائه له ، وكتب اليه بالأموال وعزمه على ارسالها ، وهذا مادفع عمر الى سجنه عندما أنكرها .

(٢) العباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان الأموى ، أمير من كبار القادة ، كان يقال له : "فارس بنى مروان" . قاد الجيش مع عمه مسلمة بن عبد الملك الى قتال يزيد بن المهلب ، وقد افتتح مدنا وحصونا كثيرة من بلاد الروم ، فقد ولاه أبوه المغازى أكثر من مرة ، واستعمله على حمص ، قال المرزبانى : كان يتهم فى دينه ، وقد سجنه مروان بن محمد فى حران فمات سجينا (سنة ١٣١هـ) . (الزركلى : الأعلام ، ٢٦٨/٣) .

(٣) الطبرى : تاريخ الامم ، ٥٨٥/٦ ــ ابن كثير : البداية ط١ ، ٢٤٥/٩ ــ ابن أعثم : نفس المصدر والمجلد والصفحة وفى هذا الخبر رد على الراوى الذى أشار فى (ص ٢١٧ من كتابه الموسوم العراق فى العصر الأموى نقلا عن الطبرى نفس المصدر ، ١٥١/٨) أن حركة ابن المهلب شملت الجزيرة . فكيف يسير مقاتلتها مع الشاميين اليه وهى معه . وبرجوعنا (للطبرى : نفس المصدر ، طبعة دار سويدان ، لبنان ، ١٣٨٤هـ ، ٥٨٥/٦، ٥٨٨) لم نجد ذكرا لذلك ، بل وجدنا مايدل على بقائها تحت سلطان بنى أمية ــ عواد الأعظمى : نفس المرجع ، ص ١٨٧ .

الوليد على رأس اربعة آلاف فارس (١) ، ليبادر الى الحيرة قبل ابن المهلب ، ليكونوا محاذين لأهل الكوفة . ثم اقبل مسلمة وجنود أهل الشام ، آخذا على الجزيرة وعلى شاطىء الفرات ، حتى نزل الانبار (٢) ، وقيل بل قدما الكوفة ونزلا بالنخيلة (٣) . وقد يكون ذلك للراحة ، ثم المسير من هناك نحو العقر (٤) .

وأراد الخليفة أن يقسم الجبهة العراقية ، ويفوت على ابن المهلب محاربة الدولة بأهل العراق جميعا ، فارسل رجالا

---

(١) وقيل بل سار في عشرين الف فارس ، واقبل مسلمة في ثلاثين . انظر : ابن أعثم : الفتوح ، م٤/٢٤٨ . والاولى القول الاول . فغالبا ماتكون المقدمة ، وهي من الفرسان ، قليلة العدد خصوصا اذا كانت موجهة الى المسارعة الى شيء .

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم ، ٦/٥٨٥ ـ ابن أعثم : نفس المصدر والجزء والصفحة ـ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ٢/٣١٠ ـ ابن كثير : البداية ، ط١ ، ٩/٢٤٥ ـ اليافعي مرآة ، ١/٢٤١ .

(٣) النخيلة : موضع قرب الكوفة على سمت الشام . (ياقوت : معجم ، ٥/٢٧٨) .

(٤) عواد الأعظمي : مسلمة ، ص ١٨٩ ـ ابن الاثير : الكامل ، ٤/١٦٩-١٧٠ (وفيه تفصيل أكثر) ـ ابن خلدون : العبر ، ٣/٧٨ (والظاهر أن لا اختلاف بين القول بنزول مسلمة النخيلة أو الانبار ، فيبدو أنه نزل النخيلة في قدومه من الشام ثم سار منها الى الانبار عندما سمع بنزول ابن المهلب العقر ، ومن الانبار عقد جسرا ونزل على يزيد بن المهلب بالعقر . (انظر بعد : ص ١٨٧) .
كما يبدو لنا أن مسلمة قد قضى على ثورة شوذب الخارجي بعد نزوله النخيلة من أرض الكوفة ، وقبل توجهه الى ابن المهلب ، حتى لايترك عدوا قد يطعنه في الظهر ، ويضيع عليه النصر ، اذ تشير المصادر الى أن أهل الكوفة شكوا الى مسلمة مالقيوه من الخوارج . فبعث اليهم الحرشي فقضى عليهم ، وكون مسلمة قد نزل الحيره بعد قضائه على ثورة ابن المهلب ولم يرجع الى الكوفة فان في ذلك مايؤيد ماذهبنا اليه . انظر / الطبرى : نفس المصدر والجزء ، ص ٥٧٧ ـ ابن الاثير : نفس المصدر والجزء ، ص ١٦٧ ـ ابن كثير : نفس المصدر والطبعة والجزء ، ص ٢٤٤ (وقد جعل القضاء على شوذب سنة ١٠١هـ وهذا يعضد قولنا ، اذ أن القضاء على ابن المهلب تم سنة ١٠٢هـ) .

من اهل الشام منهم القطامى بن الحصين (١) ، الى الكوفة ، يسكنون اهلها ، ويثنون عليهم بطاعتهم ، ويفرقون عليهم شيئا من المال ، ويمنونهم الزيادة (٢) . وان كان مافعله الخليفة تجاه أهل الكوفة واجراءات أميرها التى سنتحدث عنها فيما بعد لم تمنع بعض الكوفيين من الانضمام الى ابن المهلب ومساندة حركته . الا انه فيما يبدو ان ابن المهلب قد ضيع من يده فرصة ضم الكوفة اليه ، فلم يسارع بعد ظهوره على البصرة الى الاستيلاء عليها ، مع علمه بموقف الكوفة التاريخى من حكومة الشام الأموية ، وضعف أميرها ، الذى عجز عن الامساك به وهو هارب فى اقل من مئة رجل (٣) . ونتساءل لماذا أهمل شأن الكوفة خصوصا اذا علمنا بأن أخاه حبيب قد أشار

(١) قال الطبرى : وهو أبو الشرقى واسم الشرقى الوليد . تاريخ الأمم ، ٥٨٥/٦ . وقد ترجم له الزركلى بقوله : الوليد (المعروف بشرقى) بن حصين (الملقب بالقطامى) ابن حبيب بن جمال ، عالم بالأدب والنسب ، من أهل الكوفة ، استقدمه المنصور ليعلم ولده المهدى الأدب ، وكان صاحب سمر (ت نحو ١٥٥هـ) . انظر : الأعلام ، ١٢٠/٨ وعلى هذا يكون غير القطامى الشاعر عمير بن شييم . انظر ترجمة هذا بعد : الفصل السادس ، المبحث الثانى ص ٧١٦ .
وكان قد ذكر أن القطامي كان مع ابن المهلب عقب انتصاره على أمير البصرة عدى بن أرطاة (انظر قبل : هامش ٤ ، ص ١٥٨) ، وحيث أن القصيدة التى وردت على لسان القطامي فى المصدرين واحدة ، فالقائل واحد ، فهل يكون القطامى ترك ابن المهلب وخرج الى الشام ، فبعثه الخليفة الى أهل الكوفة ، أو يكون ذلك لبسا حمل على ابن اعثم ، اذ أن القصيدة صالحة أن تقال لأحد اليزيدين ، وهى الى الخليفة أقرب والمصدر الأسبق هو الطبرى ، الذى أشار الى انها فى الخليفة ، وأن القطامى فيمن بعثه الخليفة الى الكوفة لتسكين أهلها اذ كيف ينال رجل لابن المهلب ثقة الخليفة ، وان ترك صاحبه .

(٢) الطبرى : نفس المصدر والجزء والصفحة ـ مجهول : العيون ، ٦٧/٣ ـ ابن الأثير : الكامل ، ١٦٩/٤ ـ ابن خلدون : العبر ، ٧٧/٣-٧٨ (ولم يذكر القطامى) .

(٣) انظر قبل : ص ١٣٩ .

عليه بذلك بعد غلبته على البصرة ، فلم يطعه (١) . وليس لنا ان نقول ان ذلك كان لخوفه ان لايكون رأى أهلها معه ، فقد ثبت انضمام اناس من أهلها اليه ، وان رأى بعض زعمائها معه وهذا مانلمسه من مشورة أخيه حبيب وانضمام أرباعها اليه بعد خروجه لحرب مسلمة . وعلى كل فقد سهل ذلك من مهمة جيش الشام ، واضعف من قوة ابن المهلب وهون من شأنه .

وعندما بلغ يزيد بن المهلب خروج جيش الشام اليه ، استخلف على البصرة مروان بن المهلب (٢) ، ثم خرج بأصحابه قاصدا الكوفة حتى نزل بنهر معقل ومعه الأموال والآلة والسلاح فعسكر هناك (٣) . وقد استشار يزيد أصحابه حين توجه نحو واسط (٤) ، بعد خروجه من البصرة ، فأشار عليه حبيب بن المهلب أن يأتي فارس فيتحصن بها ، فيدنوا من خراسان ، فان حقق مايريد والا اتى خراسان ، فأبى ذلك ، فأشار حبيب وكان قد دعاه بعد ظهوره على البصرة أن يأخذ الكوفة ، فما أطاعه ، أن يبعث خيلا تبادر الى الجزيرة ، ثم يلحق بهم ، فان أهل الشام لن

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم ، ٥٨٨/٦ .

(٢) الطبري : نفس المصدر والجزء والصفحة — ابن أعثم : الفتوح ، م٤ /٢٤٩ — مجهول : العيون ، ٦٩/٣ — اليعقوبي تاريخ اليعقوبي ، م٢/ ٣١٠ — ابن كثير : البداية ، ط١ ٢٤٥/٩ — ابن خلكان : وفيات ، ٣٠١/٦ (خالف ذلك ، وقال استخلف على البصرة ولده معاوية بن يزيد ، وهذا لبس وقع فيه ، فاستخلافه لابنه معاوية كان على واسط وليس البصرة ، وهذا ماسيأتي ذكره في الصفحات التالية) .

(٣) ابن أعثم : نفس المصدر والمجلد والصفحة — مجهول : نفس المصدر والجزء والصفحة — اليعقوبي : نفس المصدر والمجلد والصفحة — المسعودي : مروج ، ٢١٠/٣-٢١١ — المسعودي : التنبيه ، ص ٢٧٧-٢٧٨ .

(٤) واسط : عدة مواضع ، والمقصود هنا مدينة واسط التي بناها الحجاج ، وقد سميت بذلك لتوسطها بين البصرة والكوفة والمدائن والأهواز ، وقد بناها الحجاج زمن عبد الملك بن مروان ، بين سنتي ٨٤-٨٦ ، وسماها واسطا (ياقوت : معجم ، ٣٤٧/٥-٣٤٨) .

يسيروا اليه ويتركوا جنده فى الجزيرة وراءهم ، فيقيمون عليهم ، فياتيهم يزيد ، الذى سياتيه من بالموصل من قومه ويجتمع اليه أهل العراق والثغور ، فيقاتلهم وقد جعل العراق وراء ظهره ، لكنه كره ان يقطع جيشه (١) . فاشار عليه اخوه محمد أن يقاتل باهل البصرة ، لكن حبيب نصحه بعدم الركون اليهم ، وانهم غير مقاتلين معه ، ثم نصحه بالخروج الى الموصل ليدعو عشيرته التى بها ، فراى ذلك قربا من العدو ، الذى سيقاتله فى بلاده ، واخيرا ارتاى يزيد لنفسه أن ياتى واسطا ، ثم يقترب من الكوفة ، فيرتاد مكانا صالحا للمعركة ، راجيا بذلك ان ينضم اليه من أهل الكوفة مثل من معه (٢) .

لم يكن ابن المهلب مخطئا عندما رفض اللجوء لفارس ، اذ لن يحقق ذلك اغراضه ومراميه الكبيرة ، فهو ليس ثائرا عاديا يطمع فى قليل من المال او السلطان ، أو النجاة بنفسه . كما أن حربه باهل البصرة لايكفى لمواجهة جيش قوى ، خصوصا اذا علمنا انقسام أهلها على طاعته وان سكتوا عن

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم ، ٥٨٨/٦-٥٨٩ ـ ابن الاثير : الكامل ، ١٧٠/٤-١٧١ (واورد اسم حبيب محرفا ب "خبيب") مجهول : العيون ، ٦٩/٣ ـ ابن أعثم : الفتوح ، م٢٤٨/٤-٢٤٩ (الا انه اشار الى ان هذه الاستشارة حدثت قبل خروجه من البصرة وسماعه بخروج مسلمة اليه) . والحقيقة وان كان قد خالف الاجماع ، الا ان مشورة اخوانه تدل على عدم علمهم بخروج جيش الشام . وان حذر ابن المهلب كان من واقع الدراية والخبرة ، وان اهل الشام لم يتركوه حتى ذلك الوقت ، فخشى المغامرة ، وكان حذره فى مكانه .

(٢) مجهول : نفس المصدر والجزء والصفحة ـ ابن كثير : البداية ، ط١ ، ٢٤٥/٩ (لكنه ذكر ان هذه المشورة كانت بعد نزوله واسط ، وانه اشير عليه بالاهواز ، او الجزيرة) .

حركته . ويبدو أن ابن المهلب قد رأى أن الوقت قد فات على الوصول الى الجزيرة أو الموصل ، وان قسم جيشه مغامرة ، قد تكون لصالح جيش الشام الذى قد اقترب من العراق ، بل وعجل بمقدمته الى الحيرة لقطع الطريق على ابن المهلب من الوصول الى الكوفة فكيف بغيرها .

نزول ابن المهلب مدينة واسط :

لذا سار يزيد بمن معه حتى نزل واسطا (١) ، وقد قدم فى عشرين الفا (٢) ، وكان قد احتمل معه عدى بن أرطاة ومن حبسه معه ، فسجنهم بها (٣) . وفى هذه الأثناء كان مروان بن المهلب يحث الناس فى البصرة على حرب أهل الشام ، ويسرحهم الى يزيد ، وكان الحسن البصرى يردهم عن ذلك ، درءا للفتنة ، ولئلا يتكرر ماحدث من قتال طويل أيام ابن الأشعث ، ازهق فيه كثير من النفوس ، فلما بلغ ذلك مروان ، تهدد الحسن فى خطبته ، فغضب له أهل البصرة ، وعزموا على منعه ان اراده مروان بسوء فأبى عليهم الحسن ، واشتد مروان عليهم ، واخذ اناسا منهم ، ثم خلاهم ، وفرقهم . الا ان الحسن لم يدع كلامه وكف عنه مروان (٤) . ولعل ذلك عندما احس التفاف أهل القطر

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم ، ٥٨٩/٦ - ابن الاثير : الكامل ، ١٧٠/٤-١٧١ - ابن أعثم : الفتوح ، م٤/٢٥٠ - ابن كثير البداية ، ط١ ، ٢٤٥/٩ - ابن خلدون : العبر ، ٧٨/٣ .
(٢) مجهول : العيون ، ٦٩/٣ .
(٣) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، ٣١٠/٢ - مجهول : نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٤) الطبرى : نفس المصدر والجزء ، ص ٥٩٣-٥٩٤ - ابن الاثير نفس المصدر والجزء ، ص ١٧٢-١٧٣ - ابن أعثم : نفس المصدر والمجلد والصفحة - مجهول : نفس المصدر والجزء والصفحة - ابن كثير : نفس المصدر والطبعة والجزء ، ص ٢٤٦ - ابن خلدون : نفس المصدر والجزء والصفحة .

حوله ، وغضبهم له .

اما يزيد فانه لما بلغه اقبال مسلمة والعباس في جند الشام والجزيرة ، استقدم اخاه محمدا من فارس فقدم عليه (١) ، ولعل في انضمام جيش الجزيرة الى جند الشام مايفسر اختلاف بعض المصادر حول عدد جيش الدولة ، فلعل بعضها ذكر عدد الجيش الشامي قبل انضمام جند الجزيرة والاخرى ذكرت العدد بعد انضمامه ، ثم اخذ يزيد يعد جيشه معنويا ويستثير فيهم النزعات التي دفعت كثيرا منهم الى قتال اهل الشام ، فخطب فيهم في واسط ، وقال : "يا اهل العراق يا اهل السبق والسباق ومحاسن الاخلاق ، ان اهل الشام في افواههم لقمة دسمة قد زبنت لها الاشداق وقاموا لها على ساق وهم غير تاركيها لكم بالمراء والجدال ، فالبسوا لهم جلود النمور" (٢) . اننا لن نجد عناء في فهم مايرمي اليه ابن المهلب ، الا وهو استجاشة كره العراقيين وحسدهم للشاميين على السلطة التي تمتعوا بها والثروات التي ادرتها عليهم ، بتميزهم على من سواهم ، باعتبارهم جند الدولة المخلص ويد سلطانها ، بل ان في الخطبة مايبين اهداف الحركة الحقيقية ، والنزعة الاقليمية التي وراءها .

وهي في حقيقة الامر تدل على ذكاء ابن المهلب حين شخص الداء ووصف له الدواء ، فكان صداها كبيرا باندفاع الناس اليه على مختلف مشاربهم ، وهي محاولة من القبائل اليمنية للمحافظة على سيطرتها في المنطقة التي تمت بجهود آل

---

(١) مجهول : العيون ، ٦٩/٣ .
(٢) نافع العبود : آل المهلب ، ص ٨٩ ـ ثابت الراوي : الراوي ، ص ٢١٧-٢١٨ .

المهلب ، بعد ان لاحظت بوادر ذهابها لصالح القيسية على يد زعيمها المحطرف يزيد بن عبد الملك .(١)

الا اننا نقف ضد تفسير الاحداث على اساس التعصب القبلي فان كان يزيد قد اعتمد على الازد وحليفتها ربيعة ، الا ان حركته شملت سائر القبائل بمشاربها المختلفة ، ولعل هذه الخطبة تؤيد ماذهبنا اليه ، ويرد على تفسير ناجي حسن لها فهو ينادي اهل العراق يمنيهم ومضريهم ، باسم الاقليمية والدوافع المادية ، كما ان الخليفة يزيد بن عبد الملك حتى ذلك الحين لم يتبين اتجاهه وموقفه من العصبية القبلية .

اختيار العقر ارضا للمعركة ونزوله فيه :

وفي فترة اقامة ابن المهلب في واسط ، وجه اخوته يختارون له مكانا للمعسكر ، فاختاروا العقر .(٢)

---

(١) ناجي حسن : القبائل ، ص ١٥٤ .

(٢) العقر : عدة مواضع منها عقر بابل قرب كربلاء من الكوفة ، قتل عنده يزيد بن المهلب في (سنة ١٠٢هـ) وكان خلع طاعة بني مروان ، ودعا الى نفسه ، فندب له يزيد اخاه مسلمة ، فوافقه بالعقر من ارض بابل ، فاسفرت الحرب عن قتل ابن المهلب . (ياقوت : معجم ، ١٣٦/٤) . وعنه نضيف : ومنها العقر القرية بين تكريت والموصل ، او العقر القرية الواقعة على طريق بغداد الى الدسكرة ، او العقر القلعة الحصينة في جبال الموصل ، او عقر السدن من قرى الشرطة بين واسط والبصرة . وهذا التعدد للاماكن المسماه بهذا الاسم ، هو ما اوقع بعض المؤرخين في خطأ تحديد الموقع ، خصوصا انها مختلفة المناطق وجلها في ارض العراق ، مما ادى الى اللبس على غير المدقق . وقد ذكر المؤرخ المجهول في كتابه العيون (٧٠/٣) : ان العقر من ارض سورا بين المدائن والكوفة . وحيث ان سورا : موضع بالعراق من ارض بابل وهي مدينة السريانيين ، قريبة من الوقف والحلة المزيدية . (انظر / ياقوت : معجم ، ٢٧٨/٣) . وقد نقل فتحي عثمان عن نولدكه : انها معقل قرب بابل القديمة . (انظر : الحدود الاسلامية البيزنطية ، ص ١٠٩ ١١٠) . فإننا نرجح انها من بابل ، اذ لاخلاف بين المصادر . فالعقر من ارض سورا ، وسورا من بابل ، وهي من الكوفة ، واقعة بين المدائن والكوفة .

وفى ذلك يقول الفرزدق :

هلا زجرت الطير ان كنت زاجرا

غداة نزلت العقر انك تعقر (١)

وكان قد أقام فى واسط اياما يسيرة حتى تكامل عسكره (٢) . فلما عزم على الخروج منها للقاء مسلمة والعباس ، استخلف ابنه معاوية وترك عنده بيت المال والاسرى الذين اخذهم بالبصرة فى حربه مع عدى بن ارطاة . ثم خرج بجيشه مطلع سنة ١٠٢هـ ، وقدم بين يديه اخوه عبد الملك ، ثم سار حتى مر بفم النيل ، ومنه سار حتى نزل العقر من ارض بابل ، وعزم على محاربة القوم (٣) . والظاهر ان يزيد لم يرد ان يترك العراق امام جند الشام الذين تقدموا نحوها ، واراد ان يسبقهم الى الكوفة قدر الامكان ، الا ان قوات الدولة كانت قد سبقته فتوقف فى آخر سنة ١٠١هـ عند عقر التى تواجه فارط قرب بابل القديمة (٤) .

---

(١) مجهول : العيون ، ٧٠/٣ .

(٢) الطبرى : تاريخ الامم ، ٥٨٩/٦ – ابن أعثم : الفتوح ، م٢٥٠/٤ – ابن الاثير : الكامل ، ١٧١/٤ – ابن كثير : البداية ، ط١ ، ٢٤٥/٩ .

(٣) نافع العبود : آل المهلب ، ص ٨٩ (وقد ذكر انه كان قاصدا الكوفة فوجد اهل الشام سبقوه اليها فنزل للعقر عند كربلاء) . (نقلا عن الطبرى : تاريخ الامم ، ٥٩٠/٦-٥٩١ – مجهول : العيون ، ٦٦/٣) – ابن اعثم : نفس المصدر والجزء والصفحة – ابن كثير : نفس المصدر والطبعة والجزء والصفحة .
وهو الوحيد الذى ارخ لمسيره .

(٤) فتحى عثمان : الحدود ، ص ١٠٩-١١٠ (خالف ابن كثير فى تاريخه لمسير ابن المهلب الى العقر ونزوله فيها ، ونحن نرجع قول ابن كثير ، اذ ان اقامة مسلمة ويزيد فى العقر قبل المعركة ، ثمانية ايام فقط ، اى ان مسلمة وصل العقر قبل المعركة التى حدثت ١٣ صفر او ١٥ صفر على خلاف بثمانية ايام . اى فى خامس صفر او سابعه وحيث انه لم يسر اليها ، الا بعد علمه بنزول ابن المهلب فيها ، وكان فى النخيلة من ارض الكوفة =

ونجد أن فتحي عثمان ، ونافع العبود ، ذهبا الى ان ابن المهلب خرج من واسط قاصدا الكوفة محاولا ان يسبق اهل الشام اليها ، فلما وجدهم سبقوه اليها ، نزل العقر ، ويبدو لنا انه غاب عنهما تلك النصوص التي اشرنا اليها قبل (١) والتي توضح أن ابن المهلب قد وضع خطة مسيره من قبل دخول واسط ، وانه عزم ان يعسكر قرب الكوفة ، عسى ان ينضم اليه بعض اهلها ، وانه بعث من واسط من يختار له ارضا صالحة للمعركة ، فوقع الاختيار على ارض العقر ، وهذا يبطل ماذهبا اليه ، فقد كان نزوله العقر اختيارا لااضطرارا . نعم لقد حاول يزيد بعد نزوله العقر ضم الكوفة اليه فلم يوفق ، وهذا ماسنطالعه في الصفحات التالية .

وقعة سورا :

وبعد أن نزل ابن المهلب العقر ، حاول الاستيلاء على الكوفة ، فوجه اخاه عبد الملك اليها ، فاستقبلهم العباس ابن الوليد عند "سورا" ليصدهم عن الكوفة ، وكان في اربعة آلاف سوى من انضم اليه من اهل البصرة وعلى راسهم هريم بن ابي طحمة ، وقد اضطرهم أصحاب عبد الملك الى نهر ، فاستنجدوا باهل الشام وسالوهم الا يسلموهم ، فكر الشاميون ، وهزم أصحاب ابن المهلب ، حتى انتهى بهم عبد الملك الى اخيه في

= والمسافة ليست بالبعيدة ، فهذا يرجح ان يزيد نزل العقر في المحرم من سنة ١٠٢هـ (عن اقامة الفريقين قبل المعركة في العقر ، انظر / الطبري : تاريخ الامم ٥٩٥/٦-٥٩٧ – ابن الاثير : الكامل ، ١٧٣/٤-١٧٤) .

(١) انظر قبل : ص ١٧٧-١٧٨، ١٨١ .

العقر[1] . وان كانت معركة سورا[2] وقعة جانبية ، الا ان خسارتها تعنى ضياع المحاولة الأولى لابن المهلب فى الوصول الى الكوفة ، بينما ادت الى ارتفاع الروح المعنوية لجيش الدولة ، والشك فى قدرة جيش ابن المهلب القتالية .

ثم عقد ابن المهلب لعبد الله بن حيان العبدى على أربعة آلاف وضم اليه فضيل بن هناد وسالم المنتوف فى خيل فعبروا الى جانب الصراة الاقصى ، فعسكر فى جمعه وخندق عليه فقطع اليهم مسلمة الماء وسعيد بن عمرو الحرشى ، وقيل بل عبر اليهم الوضاح ، فكانوا بازائهم[3] . الا ان المؤرخ المجهول[4] قال : ان مسلمة وجه اليهم الحرشى ، فاقتتلوا وقتل عبد الله بن حيان ، وكان لأهل الشام كمين خرج عند جولة العراقيين فانهزموا ، حتى اتوا يزيد بن المهلب فى العقر وهكذا كانت المناوشات الأولية فى صالح الشاميين ، وعلى اثرها تبدد أمل ابن المهلب فى الوصول الى الكوفة ، واتضح

---

(١) عواد الاعظمى : مسلمة ، ص١٩٠ (وقد ذكر مخطئا ان العباس ابن عم مسلمة ، والصحيح انه ابن اخيه الوليد) مجهول : العيون ، ٣/٧٠-٧١ (الا انه ذكر ان يزيد وجه اخاه محمدا وابنه المعارك ، وليس عبد الملك ، وذلك حين اقترب منه اهل الشام ، ولم يقل نحو الكوفة ، ووافق الاعظمى وابن الاثير فى كون اللقاء حدث بسورا ، واحداثه) – ابن الاثير : الكامل ، ٤/١٧١ .

(٢) اعتبر ابن كثير ان معركة سورا لقاء بين مقدمتى الجيشين ، على اثره تم اللقاء الحاسم ، لكن الواضح انها معركة مستقلة حيث ان جيش ابن المهلب قد استقر فى العقر ، وماكان رجاله الذين خاضوا معركة سورا ، الا فى حملة ذات هدف محدد وهو الاستيلاء على الكوفة ، فصدت ، وانتهى الامر ، وتمت المعركة الفاصلة فى العقر بعيدا عنها بعد ذلك . (انظر : البداية ، ط١ ، ٩/٢٤٥-٢٤٧) .

(٣) الطبرى : تاريخ الامم ، ٦/١٩١ – مجهول : نفس المصدر والجزء ، ص ٧١ .

(٤) نفس المصدر والجزء والصفحة .

ضعف قوته .

ولكن اهل الكوفة التى لم يستطع ابن المهلب الوصول الى مدينتهم ، استطاعوا الوصول اليه ، فقد اجتمع اليه كثير من الكوفيين وبعض زعمائهم ، وانضم اليه ناس من الثغور ، فبعث على ارباع اهل الكوفة الذين خرجوا اليه رجالا ، اذ جعل على ربع اهل المدينة عبد الله بن سفيان بن يزيد بن المغفل الازدى ، وبعث على ربع مذحج واسد النعمان ابن ابراهيم بن الاشتر النخعى ، وبعث على ربع كنده وربيعة محمد بن اسحق بن محمد بن الاشعث ، وبعث على ربع تميم وهمدان حنظلة بن عتاب بن ورقاء التميمى ، وجمعهم جميعا مع المغفل بن المهلب (١) . وهذا يرد على من قال بعدم خروج اهل الكوفة لمساعدة ابن المهلب ، وذلك لاختفاء الاثر الشيعى (٢) . مع أن للرد عليه جانبا آخر ، وهو ان الكوفيين على راس العراقيين الذين غالبا ماحركتهم النزعة الاقليمية ضد الشاميين ، والكراهية للامويين ، مع الاخذ فى الاعتبار بالتاثيرات المادية والمطامع الشخصية والثارات القديمة ، وتلك كفيلة بانضمام أهل الكوفة اليه او بعضهم ، كما اننا قد راينا من قال بدعوة ابن المهلب فى حركته للرضى من بنى هاشم (٣) ، وان كنا قد استبعدنا مثل هذه المقولة . وقد يكون

---

(١) الطبرى : تاريخ الامم ، ٥٩١/٦-٥٩٢ - ابن الاثير : الكامل ، ١٧٢/٤ - ابن خلدون : العبر ، ٧٨/٣ (الا انه لم يشر الى ضمهم الى المغفل . واحداث المعركة تسند القول الاول) .

(٢) ثابت الراوى : العراق ، ص ٢١٨ (ولنا ان نقول : ان شيعة الكوفة ، قد ساندوا ابن الاشعث ، ولم يكن فى حركته الاثر الشيعى) ، عن حركته وموقف الكوفة منه (انظر : الطبرى : نفس المصدر ، ٣٣٤/٦ ومابعدها) .

(٣) انظر قبل : ص ١٦٥ .

هذا التسلل الكوفي الى ابن المهلب في العقر مادعا امير الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن ، أن يضع على الكوفة مناظر وارصاد لتحبس اهل الكوفة عن الخروج الى يزيد بن المهلب ، بل وعسكر بالنخيلة . كما اغرق الارض بالمياه بين الكوفة وابن المهلب ، لئلا يصل اليها (١) . اما ابن المهلب فقد استمر توافد الناس اليه فانضم اليه عامر بن العميثل الازدي في جمع وبايعه (٢) . ولقد احصى ديوان ابن المهلب مائة وعشرين الفا ، الا ان ابن المهلب كان يرى ان اكثرهم ليسوا من اهل القتال ، فكان يتمنى أن يكون معه بدلا منهم قومه الذين بخراسان (٣) . وهذا مالمسناه من اقوال الحسن البصري في البصرة فانه عندما لم ير من يعرفهم فيمن انضم الى ابن المهلب من اهل السيادة والشرف ، قال هؤلاء والله الغثاء (٤) . كما اتضح ذلك من نتائج المناوشات

---

(١) الطبرى : تاريخ الامم ، ٥٩٢/٦ ـ ابن الاثير :الكامل ، ١٧٢/٤ ـ ابن خلدون : العبر ، ٧٨/٣ ـ مجهول : العيون ٧٠/٣ ، لكنه لم يذكر المناظر والارصاد .

(٢) الطبرى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) عواد الاعظمي : مسلمة ، ص ١٩١ . وقد همش معلقا على مادار من محاورة حول رأى ابن المهلب في جيشه مع بعض رجاله ، بانها تعطى انطباعا بما يسود جيش ابن المهلب من تخوف وتردد وضعف الروح القتالية ، والخوف من فشل الحركة كما فشل ابن الاشعث ـ ابن الاثير : نفس المصدر والجزء والصفحة ـ ابن كثير : البداية ، ط١ ، ٢٤٦/٩ ـ ابن أعثم : الفتوح ، م٢٥٠/٤-٢٥١. مخالفا العدد قال : دنت عساكر الشام في خمسين ألف ، ويزيد يومئذ عن عشرين الفا . ونحن لانطمئن لمن قال ان جيشه بلغ (١٢٠ الف) ، لكننا ايضا لانوافق ابن اعثم على العدد الذى اشار اليه ، فقد ذكر المؤرخ المجهول :أن ابن المهلب قدم واسطا في عشرين الفا . انظر : نفس المصدر،٦٩/٣٠ وقد ثبت لنا انضمام كثير من اهل الكوفة اليه ، واناس من اهل الثغور ، وبعض الازد ، وغيرهم ، وذلك بعد نزوله العقر ، الى جانب من سار معه من واسط ، وهذا يعني أن العدد قد زاد عن العشرين الف بكثير ، لكنه بالتاكيد لم يبلغ ١٢٠ الفا .

(٤) الطبرى : نفس المصدر والجزء ، ص ٥٨٧ .

الأولية ، وهذا ماسيؤكده انخفاضهم السريع وتخاذلهم عن ابن المهلب في العقر . وبلغ مسلمة بن عبد الملك نزول ابن المهلب العقر ، فاقبل يسير على شاطىء الفرات حتى نزل الانبار (١) ، فعقد جسرا على الفرات ، فعبر من قبل قرية فارط ، بجيش الدولة وقد خلف الاثقال ، فاقبل حتى نزل على يزيد (٢) . وعلم بذلك العباس ، فاقبل من الحيرة حتى نزل على مسلمة (٣) ، الذى خندق عليه خندقين (٤) ، وجعل على الخندق حائط وضع عليه رجال من رماة النبل (٥) .

وخشى ابن المهلب ان يصل الشاميون بخندقهم الى خندقه ورأى ان يبيتهم ، اى ان يفاجئهم بالهجوم ليلا ، وذلك بمشورة بعض آله ، الا أن من كان معه من القراء ، قالوا : لايحل لنا ذلك حتى ندعوهم (٦) .

---

(١) الأنبار : عدة مواضع ـ المقصود منها هنا ـ مدينة على الفرات في غربي بغداد بينهما عشرة فراسخ ، فتحت على يد خالد بن الوليد (سنة ١٢هـ) في زمن الخليفة ابي بكر الصديق ، عمرها سابور بن هرمز ، ثم جددها أبو العباس السفاح . (ياقوت : معجم ، ٢٥٧/١-٢٥٨) .

(٢) عواد الأعظمي : مسلمة ، ص ١٨٩ . وقد أورد في الهامش تعليق فلهاوزن على طريق مسلمة بقوله : ولما كانت الانبار على الضفة الشرقية ، فلابد أن يكون مسلمة قد سار أولا من هناك من عند بلدة "القاراط" الى الغرب ، ثم قفل راجعا الى الضفة الشرقية ، كما فعل قحطبة بن شبيب الطائي (نقلا عن :فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ، ٣٠٧/١) ـ فتحي عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ص ١٠٩-١١٠ ابن الأثير : الكامل ، ١٧١/٤-١٧٢ ـ ابن أعثم : الفتوح م٢٥٠/٤ ـ مجهول : العيون ، ٧١/٣ ـ ابن خلدون : العبر ٧٨/٣ (وحرف كلمة الأنبار الى "الانهار") .

(٣) ابن اعثم : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) مجهول : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) الطبري : نفس المصدر والجزء ، ص ٥٩٨ .

(٦) مجهول : نفس المصدر والجزء والصفحة .

ثم دعا يزيد برؤوس اصحابه ، وبين لهم رايه فى ان يبعث مع محمد بن المهلب اثنى عشر الف رجل ، يبيتوا مسلمة وجيشه ، فيدفنون خندقهم ، ويقاتلوهم بقية ليلتهم ، بينما يزيد يمده بالرجال ، فاذا اصبح نهض اليهم بالناس ، فيناجزهم ، راجيا ان يكون فى ذلك النصر . فقال السميدع : قد دعوناهم الى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وقد زعموا قبوله ، فليس لنا ان نمكر ولانغدر ، ولانريدهم بسوء ، حتى يردوا علينا مازعموا قبوله منا . فايده ابو رؤبة المرجئى ، وحذرهم يزيد بان ذلك دهاء من مسلمة حتى يمكر بهم ، فابوه (١) . وقد امد عبد الحميد بن عبد الرحمن امير الكوفة مسلمة ببعث من اهل الكوفة عليهم سيف بن هانىء الهمدانى ، فاثنى عليهم لطاعتهم ، الا انه استقلهم ، فبعث اليه عبد الحميد ببعث اكبر عليهم سبرة بن عبد الرحمن بن مخنف الأزدى ، فضم اليه مسلمة من كان عنده من اهل الكوفة ، لطاعة اهل بيته وولائهم للبيت الأموى (٢) ، ونلحظ هنا ان قيادة البعثين من الكوفة يمنية ، مما يؤكد ان العصبية لم تكن المحرك الوحيد لمن انضم الى ابن المهلب ، او خالفه .

وفيما يبدو ان عدم سيطرة عبد الحميد بن عبد الرحمن على الكوفة ، بعجزه عن منع اهلها من الانضمام الى حركة

---

(١) عواد الأعظمى : مسلمة ، ص ١٩٣ (وقد علق على ذلك ان موقف الورعين زاد من ضعف جيش ابن المهلب ، وتصدع وحدته) ـ ابن اعثم : الفتوح ، م٤/٢٥١ (وقد اورد عدد الجند المقترح للخطة ثمانية آلاف) ـ ابن الأثير : الكامل ، ١٧٢/٤ .

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم ، ٥٩٢/٦-٥٩٣ ـ مجهول : العيون ، ٧٠/٣ (وقد ذكر امداده ببعث بدون ذكر اسم اميره) ـ ابن الأثير : نفس المصدر والجزء والصفحة (لم يشر الى بعث الهمدانى) ـ ابن خلدون : العبر ، ٧٨/٣ (اشار فقط الى بعث سبرة ، وحرفه بصبرة) .

ابـن المهلـب ، كمـا عجـز من قبل من القبض على ابن المهلب نفسـه عندما مر بالقرب من الكوفة ، وتسيير عدد لايتناسب مع عـدد الكـوفيين الى مسلمة ، قد دعا مسلمة الى عزله وتولية محـمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة ، ذو الشامة (١) ، اميرا على الكوفة (٢) .

أمـا الفريقـان فـي العقـر فقـد اقاما ثلاثة ايام (٣) ليس بينهـم حـرب ، ومسلمة بـن عبد الملك يدعو ابن المهلب الى حـقن الدمـاء ، والرجوع عما هو عليه ، عل ان يوليه واخوته اى بلـد شـاءوا ، ويزيـد يـأبى ذلـك (٤) . بل ان مسلمة سعى من ناحيـة اخرى ان يثير البلبلة والشك في صفوف خصمه ، بابطال بعـض ما ادعـاه ، فقـد كـتب مسلمة اليه : "انك والله ما انت بصاحب هذا الامر ، صاحب هذا الأمر مغمور موتور (٥) ، وانت مشهور غير موتور" . فقال له رجل من الازد قدم ابنك مخلد حتى يقتل فتصير موتورا (٦) .

والظاهر انه يعني ادعاءه انه القحطاني المنتظر ، هذا اذا مـاصح هذا النص ، الذي اذا ماثبت ، سيصدق تلك المقولة التـي شككنا فيها ، وان كنا لم نستبعد تفشيها بين الناس ، مـن قومه قحطان . لكن النص ذاته يحمل معلومة تشكك في صحته

---

(١) ذو الشامة : لم اعثر على ترجمته .
(٢) الطبرى : تاريخ الامم ، ٥٩٣/٦ ـ ابن الاثير : الكامل ، ١٧٢/٤ ـ ابن خلدون : العبر ، ٧٨/٣ (قال : ابن عمر) .
(٣) وردت عند الطبرى ثمانية ايام . (انظر : نفس المصدر ، ٥٩٥/٣) .
(٤) ابن اعثم : الفتوح ، م٤/٢٥١ .
(٥) الموتور : الذى قتل له قتيل فلم يدرك بدمه ، وفي قول محمد بن مسلمة : أنا الموتور الثائر ، اى صاحب الوتر الطالب بالثار . انظر : اللسان (وتر) .
(٦) الجاحظ : البيان والتبيين ، ط٤ ، ٢٤٠/١ .

اذ ان مخلدا كان قد توفي زمن عمر بن عبد العزيز ، بعد ماوفد عليه في اعقاب سجنه لأبيه (١) . وان كان ذلك لايبطل الخبر فيمكن ان يكون قد قيل بتقديم احد بنيه غير مخلد ، فذكر المؤرخ خطأ اسم مخلد لشهرته . وان كنا نتساءل ، كيف يستطيع ابن المهلب ان لايكون مشهورا ، اذا قدر ان يكون موتورا .

ومع ذلك فان هذا النص في حال صحته ، يكون تاكيدا من مسلمة على يمنية ابن المهلب ، ونفيا للتهمة القائلة بفارسيته (٢) . حيث ان بني امية احرص الناس على استغلال ذلك لو كان معروفا . ومسلمة مع كل هذا واثق من النصر ،يقول : ليت هذا المزوني لايكلفنا اتباعه في هذا البرد (٣) .

اما ابن المهلب الذي اضطرب عسكره عندما سمع بقدوم مسلمة والعباس في جيشهما الضخم من اهل الشام ، خصوصا عندما شارفاه ، ونزلا عليه في العقر ، فانه سعى الى التقليل من شان خصمه وتهوين امر قيادته ، ساخرا منهم ، مشيرا الى ولاء جزء كبير من الجيش الشامي له ، ليرفع من الروح المعنوية لجنده ، حاثا اياهم على الصدق والصبر ، مؤكدا عزمه على القتال حتى النصر او الموت ، وقد تمثل هذا في خطب القاها في جنده في العقر ، كما فعل من قبل في واسط (٤) .

---

(١) الطبري : تاريخ الامم ، ٥٥٧/٦ ـ ابن الاثير : الكامل ، ١٥٧/٤ .
(٢) انظر ماكتبناه من ذلك قبل : ص ١٢١-١٢٢ .
(٣) مجهول : العيون ، ٦٨/٣ .
(٤) من اجل ذلك ، انظر : نافع العبود :آل المهلب ، ص ٧٩ (قال بان خطبته كانت في واسط ، ولعله يعني خطبته الأولى في واسط،وقد تبعها اخر في العقر) ـ محمد نصر =

وبصرف النظر عن مدى صحة ماتضمنته اقواله من ازدراء وتشنيع واتهام ، فالهدف كان منها التحريف والتهوين وكفى . اذ لايصدق ماقال عن الجيش الشامي المتمرس ، وان كان قد ظن أن اليمنية الشامية ستكون معه ، فقد خاب ظنه ، اذ سنرى صدق ولائهم لحكومة الشام ، وان قَتْلَهُ سيكون على يد أحدهم ، والقضاء على اهل بيته بني المهلب ، وتصفيتهم في قندابيل على أيديهم .

واننا نستشف من اقواله حقيقة خلافه مع الأمويين ، كما ابرزت منطقه الطبقي العنصري في تلك الحركة (١) .

لكن يزيد ابن المهلب ذاته وفي قرارة نفسه لم يكن واثقا من النصر على الأمويين وازالة ملكهم ، فقد اتاه يزيد ابن الحكم بن ابي العاص الثقفي في واسط ، قبل نزوله العقر فقال :

ان بني مروان قد باد ملكهم

فان كنت لم تشعر بذلك فاشعر

قال يزيد : ماشعرت . فقال ابن الحكم الثقفي :

فعش ملكا او مت كريما وان تمت

وسيفك مشهور بكفك تعذر

قال يزيد بن المهلب : اما هذا فعسى (٢) . وماأظن الواقع خالف هذا ، ولكن رجلا كابن المهلب أبدى العداوة ، واظهر

= الله : تطور ، ص ٢٥٦ ـ عواد الاعظمي : مسلمة ، ص ١٩٢ ـ الطبري : تاريخ الأمم ، ٥٩٢/٦ ـ ابن اعثم : الفتوح ، م٤/٢٥٠-٢٥١ ـ المسعودي : المروج ، ٢١٠/٣-٢١١ ومابعدها (وانظر نص هذه الخطبة وشرح بعض الفاظها ، بعد : الفصل السادس ، المبحث الثاني ، ص ٧٢٠-٧٢١) .

(١) محمد نصر الله : نفس المرجع والصفحة .

(٢) الطبري : نفس المصدر والجزء والصفحة .

الخلاف ، تابى نفسه الكبيرة ، وتاريخه العسكرى الحافل ، وعزة قومه أن يستسلم او يجبن ، ولكنها الحرب ، على امل يسير من النصر او الموت بكرامة فى ساحة القتال .

معركة العقر :

اقام مسلمة بن عبد الملك يطاول يزيد بن المهلب فى العقر ثمانية ايام ، جرت بينهما ابان ذلك المراسلات والرسل لتحقق المصالحة بين الطرفين ورغبة فى حقن دماء المسلمين وانهاء الفتنة . فقد عرض مسلمة على ابن المهلب الأمان ، داعيا اياه للسلام ، كما وعده واخوته بالامارة على اى البلاد شاؤا ، فلم يجد اذنا صاغية وباءت محاولاته بالفشل ، وكان كل منهما اثناء ذلك يعد نفسه للحرب ، فحصنا مواقعهما ، وخندقا عليهما (١) ، واعد كل قائد جيشه معنويا وعسكريا، فلما يئس مسلمة من خصمه فى ان يعود الى الرشد ، ويجنب الناس ويلات الحرب وشر الفتنة ، خرج اليه ، يوم الجمعة لاربع عشرة ليلة خلت من صفر (سنة ١٠٢هـ) (٢) ، اى يوم الرابع عشر ، فكونها خلت اى اصبح الناس فى نهارها ، والعرب يقدمون الليل على النهار (٣) ، ولو لم يقل خلت ، لقلنا : يوم الثالث

---

(١) انظر ذلك فى الصفحات السابقة بعد نزول الفريقين ارض العقر .

(٢) ارخ ابن خياط لذلك ب : يوم الجمعة لاثنتى عشرة خلت من صفر (انظر : تاريخه ، ص ٣٢٥) ، كما ارخ لذلك ابن خلدون ب : الجمعة منتصف صفر (انظر :العبر ، ٧٨/٣) ، ولعل ورود التاريخ بالليالى هو ما اوقع البعض فى اللبس ، والتاريخ الذى اثبتناه فى المتن هو ما اجمعت عليه اكثر المصادر .

(٣) قال هورنشو : "وكانوا (اى العرب) يبنون التاريخ على الليالى دون الأيام بخلاف العجم ، فانهم كانوا يبنون على الأيام دون الليالى" . انظر : علم التاريخ ، ترجمة وعلق عليه واضاف اليه فصلا فى التاريخ عند =

عشـــر .

خـرج اليـه ليلتقيـا فى العقر (١) ، والخروج هنا اراه من خندقـه الـى ارض المعركة ، وكان مسلمة قد عبا جند الشام ، فجعل عـلى ميمنتـه جبلـة بـن مخرمة الكندى ، وعلى ميسرته الهذيل بن زفر بن الحارث العامرى ، وجعل العباس على ميمنة سيف بـن هـانىء الهمـدانى وعـلى ميسـرته سويد بن القعقاع التميمى ، ومسلمة على الناس . اما يزيد بن المهلب فقد جعل عـلى ميمنته حبيب بن المهلب وعلى ميسرته المفضل بن المهلب وكـان ممـا يـلى العبـاس بـن الوليد ،ورايته مع المهلب بن العلاء ، ومحمد بن المهلب ومعه اناس على حاميتهم .

وخـرج ابن المهلب وقد دعا بدرعه وملابسه ووضع له كرسى عـلى بـاب خندقه وكرسى آخر لمحمد بن المهلب ، وذلك انه قد اصـاب يزيـد بـن المهلـب قبـل ذلك حمى فضعف (٢) . وقيل بل كـان مبطونـا شـديد العلة (٣) ، فـامر النـاس بـالتقدم ، ولحق بهم اخوه محـمد . وزحـف أهل الشام ، فـاقتتلوا وجالت الخيلان ، وبدات

= العـرب ، عبد الحميد العبادى ، سلسلة المعارف العامة مطبعـة لجنـة التـاليف والترجمـة والنشـر ، الطبعـة الثانيـة ، ١٩٤٤م ، ص ٣٤ ـ السـيد عبد العزيز سالم : التـاريخ والمؤرخـون العـرب ، دار النهضـة العربيـة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨١م ، ص ٢٤-٢٥ .

(١) شـذ عـن هـذا القـول اليعقوبى ، الذى قال بالتقائهما "بمسكن" . انظر تاريخه ، ٣١١/٢ .
ومسـكن : مـوضع قـريب من اوانا على نهر وجيل عند دير الجثـالين بـه كـانت الوقعـة بين عبد الملك بن مروان ومصعـب بن الزبير (سنة ٧٢هـ) . وذكر الحازمى ان مسكن بدجـيل الاهـواز حيث كـانت وقعة الحجاج بابن الاشعث ، وهذا غلط . (انظر : ياقوت : معجم ، ١٢٧/٥-١٢٨) . وهذا يبيـن لنـا ان اليعقـوبى وقـع فى خلط بين الوقعتين ، وقعة عبدالملك ومصعب ، ويزيد وابن المهلب .

(٢) مجهول : العيون ، ٧١/٣-٧٢ .

(٣) اليعقوبى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

الحرب كالعادة بالمبارزة ، عندما تواجهت الجيوش ، فبارز حبيب رجلا من اهل الشام ، وبرز محمد بن المهلب لرجل من اهل الشام دعا الى المبازة ، اصاب محمد كفه ، قيل انه حيان النبطى ، فلما نشبت الحرب ولم يشتد القتال ، امر مسلمة بن عبد الملك الوضاح مولى عبد الملك ان يخرج بالوضاحية (١)، ويحرق جسر الصراة والسفن التى فى الصراة (٢). فاحرق الجسر وبعض السفن ، فلما راى اصحاب ابن المهلب الدخان قد علا ، وعلموا أن الجسر الذى جاءوا عليه قد احرق ، لاذوا بالفرار وانهزموا من ارض المعركة ، فلما راى يزيد بن المهلب فرار

---

(١) الوضاحية : لم يكن يعتمد عسكريا على موالى بنى امية حتى عهد مروان بن الحكم ، ثم ازداد هذا الاهتمام تدريجيا بهم منذ خلافة عبد الملك ، عندما شكلوا جزءا من الجيش الذى قضى به على ثورة الجراجمة فى جبل اللكام . وفى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك نرى ظهور فرقة عرفت بالوضاحية ، لعبت دورها فى القضاء على ثورة ابن المهلب ، حيث كانت جزءا من جيش الشام بقيادة رجل منها يسمى الوضاح ، وهو مولى لبنى امية من البربر . وقد اعتمد على قول جرير :

لقد جاهد الوضاح بالحق معلنا
فاورث مجدا باقيا آل بربرا

لذا يمكننا القول أن الوضاحية فرقة من الموالى ، لاسيما اننا نرى هذا البيت فى قصيدة لجرير (فاربوا هام الملوك) قالها فى أواخر حياة الخليفة يزيد بن عبد الملك ، حيث نراه يثنى على الموالى ، ويطيل فى ربط العرب بالعجم بابى الانبياء ابراهيم عليه السلام ، فيقول :

وابناء اسحق الليوث اذا ارتدوا
محامل ...... لابسين السنورا
لقد جاهد الوضاح بالحق معلنا
فاورث مجدا باقيا آل بربرا
ابونا ابو اسحق يجمع بيننا
أب كان مهديا نبيا مطهرا

وهو فى هذه القصيدة يتراجع عن نظرة الاشمئزار من الموالى ، لاشتراكهم مع جيوش الخليفة فى القضاء على ثورة ابن المهلب .

انظر : نجدة خماش : الشام فى صدر الاسلام ، ص ٢٩٩-٣٠٠

(٢) عند ابن الاثير : أمره ان يخرج بالسفن حتى يحرق الجسر ففعل . (انظر :الكامل ، ١٧٣/٤) .

اصحابه خرج في جمع من قومه ومواليه ، ليردهم ، فضربوا وجوه المنهزمين الذين استقبلوه مثل الجبال ، وتكاثروا عليه ، فلما يئس منهم امر بتركهم ، وثبت في عصابة من اصحابه ، تسلل بعضهم ، فبقي في شرذمة قليلة وقد استقبلته الهزيمة .

فقد فقئت عين المفضل ، وجاء محمد وقد ضربه الحرشي بعمود على جبهته . ويزيد يتنقل على كرسيه من مكان الى آخر وقد ثبت معه السميدع واصحابه ، وابو رؤبة المرجئي ومن معه . فلما جاءه الخبر بموت حبيب ، دعا بفرسه ولبس سلاحه ، وامر دارسا مولى حبيب بن المهلب ان يكون قريبا منه ، ثم طاف على رايات اهل الشام ، يسال عنها ويقول : ايقاتلني بقومي من لاقوم له . فاخذ يتقدم وهو يزدلف ، لايمر بخيل الا هزمهم ، واهل الشام يتجاوزون عنه يمنة ويسرة ، فاشار عليه ابو رؤبة وقيل رجل من بني عمه ان ينصرف الى واسط ويخندق عليه حتى ياتيه المدد ، فابى الفرار ، وقيل بل باشر الحرب قبل موت حبيب واظنه بعد انهزام الناس ، ودعا مسلمة للمبارزة ، فاحجم ، وقد اشار عليه بذلك رجل من اهل الشام ذاكرا له شجاعة ابن المهلب ، وانه فارس العراق قاطبة . فلما علم بموت حبيب كره الحياة ، وازداد غيظا وحنقا ، فقصد على فرس له اشهب نحو مسلمة ، لايريد غيره ، فحمل وحمل الناس معه ، واقتتلوا ، فجعل يقاتل قتال رجل يئس من الحياة ، حتى قتل من اهل الشام بشرا كثيرا ، فلما واجه مسلمة ، ادنى فرسه وركبه ، فعطف بخيل الشام عليه وعلى اصحابه ، وكان في اهل الشام رجل من كلب يدعى القحل بن

عياش ، لما نظر الى يزيد عرفه وقال : ياأهل الشام ، هذا والله يزيد ، والله لاقتلنه او ليقتلني ، ودعا من يكفيه اصحاب يزيد ليمل اليه ، فحمل عليه وحملوا معه ، واضطربوا ساعة ، انفرج بعدها الفريقان عن يزيد ابن المهلب قتيلا ، قتله القحل بن عياش(١) وقد صرعه يزيد فمات الى جانبه ، كل قتل صاحبه .

وقيل أن الذى قتله الهذيل بن زفر بن الحارث الكلابى(٢) ، ولم يجتز راسه انفة(٣) . ويصف الذهبى مقتله بقوله :"قتل عن تسع واربعين سنة ، ولقد قاتل قتالا عظيما ، وتفللت جموعه ، فما زال يحمل بنفسه فى الالوف ، لالجهاد ، بل شجاعة وحمية ، حتى ذاق حمامه ، نعوذ بالله من هذه القتلة الجاهلية"(٤) .

وقد جاء براسه الى مسلمة مولى لبنى مرة ، لم يقتله ، فلم يعرفه مسلمة ، فغسل وعمم ، فعرفه ، وكان قد اصاب ابن المهلب ماينيف على ثلاثين ضربة ، وقتل من الفريقين مايزيد على الثلاثة آلاف ، بينهم حبيب وحماد ومدرك ومحمد ابناء

---

(١) القحل بن عياش بن حسان بن سمير بن شراحيل بن عرين بن ابى جابر بن زهير بن خباب الكلبى . (المسعودى : التنبيه ، ص ٢٧٧-٢٧٨ ـ الطبرى : تاريخ الأمم ، ٥٩٧/٦)

(٢) الهذيل بن زفر بن الحارث بن عبد عمرو الكلابى ، من الرؤساء الشجعان الفصحاء ، فى العصر المروانى ، كان مع أبيه أيام قيامه فى الجزيرة الفراتية فى عهد مروان بن الحكم ، ومات ابوه سنة ٧٥هـ ، فعاد الى ولائه لبنى مروان ، وفى حرب مسلمة لابن المهلب ، كان على ميسرته فى معركة العقر . قال ابن حزم :"والهذيل هو قاتل يزيد بن المهلب يوم العقر وقد قيل غير ذلك" (الزركلى : الاعلام ، ٨٠/٨). وما اظن القول بقتل الهذيل الا دعوى قيسية ، للنيل من اليمنية واغاظتهم .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، ١٧٣/٤-١٧٤ ـ ابن خلدون : العبر ٧٨/٣-٧٩ (وقد اوردا اسم الحارث فى نسب الهذيل "الحرث" تحريفا) . انظر صحة الاسم فى الترجمة اعلاه .

(٤) سير ، ٥٠٦/٤ .

المهلب ، لذا يقول بعض آل المهلب :

سقى الله اجسادا ببابل كسروا

سيوفهم والاثرى المعضدا

حبيبا وحمادا وذو الباس والندا

يزيدا واسقى مدركا ومحمدا

كما قتل السميدع . وبقتل يزيد بن المهلب انهزم الناس الا المفضل فقد ظل يقاتل اهل الشام ، مايدرى بقتل يزيد ولابهزيمتهم ، وهو يغشى الناس ويكشفهم ، وقد اجتمع اهل الكوفة حول عامر بن العميثل الازدى ، فاجتمع اصحاب المفضل ليكروا مع ربيعة الكوفة بعد انكشافها على القوم ، اذ جاءه مقتل يزيد ومن قتل معه من اخوته ، فتفرق من معه ، واخذ طريقه الى واسط ، وقيل بل خدعه اخوه عبد الملك اذ اخبره (١) أن يزيد انحدر الى واسط ، خوفا من ان يستقتل ولايترك ارض المعركة ، فانهزم بمن بقى معه من الجنود وبنى اخوته الى واسط . وهذا ماأغضبه على عبد الملك ، فحلف الايكلمه أبدا ، فما كلمه حتى مات ، وكان يقول : فضحنى عبد الملك آخر الدهر ، الا صدقنى ، فقتلت كريما . وهذا القول هو الاقرب الى طبائع بنى المهلب .

وجاء اهل الشام على عسكر يزيد بن المهلب ، فقاتلهم ابو رؤبة المرجئى وجماعته ساعة من النهار حتى ذهب عظمهم ، فانصرفوا ، فاستحوذ مسلمة على مافى معسكر ابن المهلب ، واسر من اصحابه نحو ثلاثمائة بعث بهم الى الكوفة . ثم بعث

---

(١) مجهول : العيون ، ٧٣/٣-٧٤ – ابن الاثير : الكامل ، ١٧٤/٤ .

مسلمة براس ابن المهلب مع خالد بن الوليد بن عقبة بن ابى معيط ، الى الخليفة يزيد بن عبد الملك .(١)

وقد توفى يزيد بن المهلب وله من العمر تسعا واربعين سنة(٢) . كان فيها من النجباء الكرماء الفرسان ، سيدا ممدحا كثير الغزو والفتوح . وهذا ليس غريبا على سيد المهالبة ، الذين كانوا فى الدولة الأموية كالبرامكة فى دولة بنى العباس فى الكرم(٣) . لذا كان لمقتل يزيد بن المهلب وجل آل بيته صدى فى اقوال الناس كما سيكون فى احوالهم ، قال

---

(١) عن معركة العقر انظر المصادر التالية : الطبرى : تاريخ الامم ، ٦/٥٩٥-٥٩٨ - ابن اعثم : الفتوح ، م٤/٢٥١-٢٥٤ - مجهول : العيون ، ٣/٧١-٧٤ - ابن الأثير ؛ الكامل ؛ ٤/١٧٣-١٧٤ - المسعودى : مروج ، ٣/٢١٠-٢١١ (قال : فقتل يزيد ، وصبروا اخوته انفسهم فقتلوا جميعا . وهذا خطا ، فان من اخوته من انحدر الى واسط وكان القضاء على بقيتهم فى قندابيل) - ابن كثير : البداية ، ط١ ، ٩/٢٤٥-٢٤٧ - الذهبى : تاريخ الاسلام ، ٤/٨٦ - الذهبى : العبر فى خبر من غبر ، ١/١٢٤ - ابو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ١/٢٠١ - ابن خلدون: العبر ، ٣/٧٨-٧٩ - القلقشندى : مآثر الانافة ، ١/١٤٨ -ابن الوردى : تتمة المختصر فى تاريخ البشر ، تحقيق احمد رفعت البدراوى ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الاولى ، ١٣٨٩هـ/١٩٧٠م ، ١/٢٧٥ - السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٤٧ - الزركلى : الأعلام ، ٨/١٨٩-١٩٠ (قال : العقر بين واسط وبغداد والاصح : بين واسط والكوفة) . وغيرها من المصادر القديمة والمراجع الحديثة .

(٢) ابن خياط : تاريخ ابن خياط ، ص ٣١٧ - ابن خلكان : وفيات ، ٦/٣٠٩ - الزركلى : الأعلام ، ٨/١٨٩ (الا اننا نجده يقول فى هامش (١) ، ص ١٩٠ : "وفى اعمار الاعيان فى يزيد وزياد ومدرك بنو المهلب ابن ابى صفرة ، ولدوا فى سنة واحدة وقتلوا فى سنة واحدة ، وكلهم عاش ثمانيا واربعين سنة" . اى ان عمره اعتمادا على هذا الخبر (٤٨ سنة) ، ولكن وجود نصوص تخبرنا ان مولده كان (سنة ٥٣هـ) ، انظر ذلك قبل : ص ١٢٢) يؤيد الخبر الاول .

(٣) اليافعى : مرآة ، ١/٢٤١ - ابن خلكان : نفس المصدر والجزء والصفحة - ابن العماد : شذرات ، ١/١٢٤ .

محمد بن واسع لما جاء نعي يزيد : اشتهى باكية عمانية تندب لي قتلى آل المهلب . وقال عباد بن عباد : مكثنا نيفا وعشرين سنة بعد قتلى آل المهلب لاتولد فينا جارية ولايموت منا غلام (١). كما نجد الندم عند ازد خراسان على عدم نصرة يزيد ، وتمني شهود وقعته ، على لسان شاعرهم ثابت قطنة اذ يقول :

يالبيت اسرتك الذين تغيبوا

كانوا ليومك يايزيد شهودا

وقد نقل هذا القول لمسلمة ، فقال : وانا والله لوددت انهم كانوا شهودا يومئذ فسقيتهم بكاسه . فقيل : كان مسلمة احد من اجاب شعرا بنثر فغلبه (٢).

كما نجده يرثي يزيد في قصيدة اخرى ، معللا هزيمته ، بتخاذل جنده من اليمانية عنه واسلامه عدوه ، حين انفضوا من حوله ساعة الجد ، خائنين عهدهم وبيعتهم له ، فيقول :

شهدتك من يمن عصائب ضيعت

ونأى الذين بهم يصاب الثار

ولقد بسطت لهم يمينك بالندى

مثل الفرات تمده الانهار

حتى اذا شرق القنا وجعلتهم

نصب الاسنة اسلموك وطاروا

---

(١) ابن خلكان : وفيات ، ٦/٣٠٨ .
(٢) عواد الاعظمي : مسلمة ، ص ٦٢-٦٣ .

ان يقتلوك فان قتلك لم يكن

عار عليك وبعض قتل عار (١)

الا اننا نجد العكس فى موقف الشعراء من غير اليمنية ، فما ان بشر الخليفة يزيد بن عبد الملك بمقتل ابن المهلب ، حتى اخذ الشعراء يهجون آل المهلب ، ماعدا كثيرا ، الذى امتنع ليمنيته ، ومن ذلك قول جرير :

يارب قوم وقوم حاسدين لكم

مافيهم بدل منكم ولاخلف

آل المهلب جز الله دابرهم

امسوا رمادا فلا اصل ولاطرف

مانالت الأزد من دعوى مضلهم

الا المعاصم والاعناق تختطف (٢)

ونلحظ فى شعره ، دليلا على ادعاء ابن المهلب انه القحطانى ، وطموحه الى الخلافة ، انظر فى الابيات قوله : "مافيهم بدل منكم ولاخلف" و "دعوى مضلهم" . بل نجد فى شعره أيضا اطلاق صفة الكفر على الحركة اذ يقول :

لقد تركت فلا نعدمك اذ كفروا

لابن المهلب عظما غير مجبور

يابن المهلب ان الناس قد علموا

ان الخلافة للشم المغاوير (٣)

---

(١) الهادى الغزى : الشعر الأموى فى خراسان ، ص ١٧٢ .
(٢) المسعودى : مروج ، ٢١١/٣ .
(٣) عون الشريف قاسم : شعر البصرة فى العصر الأموى ، دراسة فى السياسة والاجتماع ، طبعة دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م ، ص ١٥٩ — المسعودى : مروج ، ٢١١/٣ .

ولنا في بيته الأخير حجة جديدة من لسان شاعر معاصر على نشود ابن المهلب الخلافة .

اما مسلمة بن عبد الملك فانه بعد ان اسر من اصحاب ابن المهلب ثلاثمائة ،بعث بهم الى واليه على الكوفة محمد ابن عمرو بن الوليد "ذى الشامة" وكتب الى الخليفة يزيد بن عبد الملك فيهم ، فجاء امره الى محمد بن عمرو بقتلهم ، فامر محمد صاحب شرطته العريان بن الهيثم بضرب اعناقهم ، فقتل ثلاثين رجلا من تميم طلبوا قتلهم قبل اصحابهم ، يقولون نحن انهزمنا بالناس . وكانهم قد ندموا ، اذ ظنوا ان سيثابون على فعلتهم ، فلما وجدوا غير ذلك ، تقدموا للقتل فعرض العريان امرهم على اميره فامر بهم فقتلوا ، وكان قد امر ان يقتل الاسارى عشرين عشرين ، وثلاثين ثلاثين . فما فرغ منهم العريان حتى جاء امر مسلمة بالنهى عن قتلهم (١) . وقيل بل اسر مسلمة في معركة العقر الفين وثمانمائة ، فبعث بهم الى ذى الشامة فقتلهم (٢) . واقبل مسلمة بعد انتصاره فى العقر على ابن المهلب حتى نزل الحيرة ، وقد اتى معه بخمسين اسيرا غير من بعث بهم الى الكوفة ، اراد قتلهم ،

---

(١) الطبرى : تاريخ الامم ، ٥٩٨/٦-٥٩٩ ـ ابن الاثير : الكامل ، ١٧٤/٤ ـ ابن كثير : البداية ، ط١ ، ٢٤٧/٩ ـ ابن خلدون : العبر ، ٧٩/٣ (اورد اسم ابى ذى الشامه محرفا بسقوط الواو قال : محمد بن عمر ، ثم قال : وبدا بثمانين ، واظنه خطا فى النقل فالاجماع على الثلاثين ، ثم ذكر ان امر اعفائهم جاء من يزيد وهذا خلط منه) .

(٢) مجهول : العيون ، ٧٤/٣ . لكن العدد الذى اشار اليه يعتبر نشازا بين اجماع المصادر ، وان كان ابن اعثم قال : انهم نيف على اربعمائة . فهو قريب من الاجماع ، كما اننا قد راينا امر مسلمة بالنهى عن قتلهم .(انظر الفتوح ، م٢٥٤/٤) .

فاستوهبهم الناس منه ، فوهبهم لهم .(١)

ويقول ابن اعثم : اسر يوم العقر نيف على اربعمائة رجل ، فاوقفوا بين يديه ، فعزل منهم ثلاثين رجلا من رؤسائهم ليحملهم الى يزيد بن عبد الملك ، وضرب اعناق الباقين . وقال الثلاثون : نحن الذين انهزمنا بالناس حتى ظفرتم بيزيد اهذا جزاؤنا ، فلم يلتفت مسلمة الى قولهم .(٢)

ونحن نجد فى هذه النصوص خلط واضطراب ،فنص يقول بقتل ثلاثين من تميم طلبوا تقديمهم على اصحابهم لانهم انهزموا بالناس ، فيقتلهم العريان ، وهنا نجدهم وقد عزلهم مسلمة ليرسلهم الى يزيد ، فيبدون له دورهم فى هزيمة ابن المهلب لعله يثيبهم ، فلايلتفت اليهم . ونص يقول بانه وهب خمسين من الأسرى لمن استوهبهم ، والنص الاخير يقول انه قتل بقية الأسارى .

والظاهر ان من قتل أولا كان من قبل امير الكوفة بامر الخليفة يزيد ، ثم اوقف الامر من قبل مسلمة حتى يرى رايه فيهم ، ثم اخرج ثلاثين من رؤسائهم ، ويظهر انهم غير الثلاثين الذين قتلوا وان كان قد جمع بينهم تساوى العدد وتسببهم فى هزيمة ابن المهلب ، فليس الذين قتلوا اولا كل من انهزم بالناس ، فقد يكون قتل منهم ثلاثين اولا ، فكما ورد كان الأمر ان يقتلوا عشرين عشرين ، وثلاثين ثلاثين .

---

(١) الطبرى : تاريخ الامم ، ٥٩٩/٦ ـ ابن اعثم : الفتوح ، م٢٥٥/٤ (واورد : انه امر بمن معه من الأسارى الى الشام) ـ ابن الاثير : الكامل ، ١٧٤/٤ (فقط ذكر نزوله الحيرة) ـ وكذلك ابن كثير : البداية ط١ ، ٢٤٧/٩ .

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٥٤ .

فلما قتل الثلاثون الأولون ، اوقف القتل ،وهكذا بقى لهم بقية هم من عزلهم مسلمة ، ولم يلتفت اليهم عندما حدثوه . اما قتله بقية الأسرى فاظن ذلك غير صحيح ، بل عفى عنهم كما وهب بعضهم ، واكتفى بمن ارسله من زعمائهم الى الخليفة يرى فيهم رايه . ثم جئ براس يزيد ورؤوس اخوته بين يدى مسلمة فقال : اترى هؤلاء القوم خرجوا علينا كانوا يظنون ان الخلافة فيهم ، لئن ظنوا ذلك فلقد ظنوا افكا وزورا . فانشد جرير :

آل المهلب جز الله دابرهم

اضحوا رفاتا فلا اصل ولاطرف

ان الخلافة لم تخلق ليملكها

عبد لأزدية فى خلقها عنف (١)

ونجد القول هنا على لسان مسلمة ، فى ظن المهالبة صيرورة الخلافة اليهم ، وقول جرير حول ذلك .

ثم امر مسلمة بصلب يزيد بن المهلب ، فصلب بجسر بابل على دقل (٢) سفينة منكسا وعلق معه خنزير الى جنبه سمكة وزق (٣) خمر وقد علقا على قلس (٤) من قلوس السفينة ، لذا يقول رجل من اهل الشام :

---

(١) ابن اعثم : الفتوح ، ٢٥٥/٤ .

(٢) دقل : الدقل والدوقل : خشبة طويلة تشد فى وسط السفينة يمد عليها الشراع ، وتسميه البحرية الصارى ، وقيل الدقل سهم السفينة . انظر : اللسان (دقل) .

(٣) الزق : الذى يسوى سقاء او وطبا او حميتا . والزق السقاء ، وجمع القلة ازقاق . وهو من الاهب ، كل وعاء اتخذ لشراب ونحوه ، وقيل : هو الذى ينقل فيه الخمر . انظر : اللسان (زقق) .

(٤) قلس : القلس : حبل ضخم من ليف او خوص . وقيل : حبل غليظ من حبال السفن . انظر : اللسان (قلس) .

لقد عجبت من الازدى جاء به

يقوده للمنايا حين معزور

حتى راه عباد الله فى دقل

منكس الراس مقرونا بخنزير (١)

ومع ذلك فان مسلمة كان يعرف قدر ابن المهلب ، فقد نال منه رجل عند مسلمة بقوله : ما استرحنا من حائك كنده حتى جاءنا هذا المزونى ! فقال مسلمة : اتقول هذا لرجل سار اليه قريعا قريش - يعنى نفسه والعباس - ان يزيد حاول عظيما ومات كريما (٢) .

وبعث براس يزيد ومن قتل معه من اهل بيته مع خالد بن الوليد بن عقبة بن ابى معيط ، الى الخليفة يزيد بن عبد الملك . فامر الخليفة ان يطاف برؤوسهم فى اجناد الشام (٣) . ثم اتى به بعد ذلك ، فنصب على باب توما بدمشق ، ونصبت رؤوس اخوته عن يمينه وشماله .

وفى ذلك يقول سالم بن وابصة الاسدى :

الم تر ان الله انزل نصره

علينا واعطانا به اعظم الاجر

---

(١) نافع العبود : آل المهلب ، ص ٩٠ ، (وعلق على الخبر بقوله : ان هذا الاسلوب من التشهير يراد به انه نجس كالخنزير ، مرتكب للمعاصي كشرب الخمر ، كما ان تعليقه على سفينة ومعه سمكة ، اشارة الى انه من ازد عمان الذين اشتهروا بركوب البحر)- ابن حبيب : المحبر رواية ابى سعيد الحسن بن الحسين السكرى ، عناية وتصحيح ايلزه ليختن شتيتر ، المكتب التجارى للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٣٦١هـ ، ص ٤٨٢ - ابن اعثم : الفتوح ، م٤/٢٥٥ .

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ، ط٥ ، ٢/٩٩ .

(٣) مجهول : العيون ، ٣/٧٤ - ابن كثير : البداية ، ط١ ، ٩/٢٤٧ - ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، دار المسيرة ، بيروت ، ص ١١٥ .

غداة بغى اهل العراق فشايعوا
لواء يزيد بن المهلب ذى الغدر
فجئنا به لايسمع الموت فى الثرى
ولايشتكى شكوى انين ولافقر
تعرف اهل الشام بالشام راسه
به بدت الأحداث من حادث الدهر

كما امر الخليفة بضرب رقاب الأسرى الذين بعث بهم مسلمة فما ابقى على احد .(١)

ومع هذا فان الخليفة كان يعرف لابن المهلب قدره ، وهذا ما اتضح من قوله لأحد جلسائه عندما نال منه حين جيء براسه ، اذ قال : مه ان يزيد طلب جسيما ، وركب عظيما ، ومات كريما .(٢)

وبعد ان اتينا على النصوص التاريخية المتعلقة بوقعة العقر بين جيش الخلافة بقيادة مسلمة بن عبد الملك ويزيد بن المهلب الخارج على الخلافة ، والتى تمثل ذروة الفتنة ومرحلة الحسم فى حركة استهدفت تقويض اركان البيت الأموى الحاكم ، فانه يتبين للممحص اسباب تلك الهزيمة السريعة والشنيعة التى منى بها ابن المهلب فى العقر ، بعدما توفر لحركته من عوامل النجاح ماكان من شانه تحقيق اهدافها .

ولعل السبب الأول فى نجاح جيش الخلافة ، ادراك الدولة ممثلة فى شخص الخليفة حجم الحركة وخطورة قائدها ، حيث

---

(١) ابن اعثم : الفتوح ، م٤/٢٥٥-٢٥٦ .
(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، تحقيق مفيد محمد قميحة دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م ، ٣٣٥/٢ – اليافعى : مرآة ، ٢٤١/١ – ابن خلكان : وفيات ، ٣٠٧/٦ .

اتخذ موقفا حازما وسريعا لاخمادها[1] ، فقد قام بعد خطواته الاولى ، بارسال جيش قوى اختيرت له القيادة الفذة[2] ، وهو مسلمة بن عبد الملك ، الذى كانت قيادته المحنكة للجيش[3] ، ولجوؤه الى الحيلة من عوامل النصر الاولى فى المعركة خصوصا امره باحراق الجسر وما اثمر عنه من ارباك لجيش ابن المهلب ، وفرار جله من ارض المعركة . كما اننا نجد الجيش الاموى دخل المعركة كجيشين ، فمسلمة له ميمنة وميسرة ، والعباس له ميمنة وميسرة[4] ، والظاهر ان وراء ذلك خطة كانت تهدف الى الاطباق على جيش ابن المهلب من جهتين ، وجعله بين كماشتى مسلمة والعباس . كما ان الطاعة التى عرف بها الجندى الشامى لقيادته مكنت مسلمة من تهيئة جيشه الكبير صفا واحدا وكلمة واحدة ، بل انه سعى الى المزيد فاستمد الرجال من الكوفة ، وعزل اميرها عبد الحميد عندما استقل من بعثهم اليه ، بل لعله رمى الى ابعد من ذلك وهو تامين ظهره وايجاد رجل موال له ، وحصن يلجا اليه ، اذا ماسارت المعركة على غير مايريد ، فعين على الكوفة محمد بن عمرو .

والعكس نجده عند الفريق الآخر ، فان القيادة المحنكة التى توفرت فى يزيد بن المهلب ، وجيشه الكبير ، لم يكتب لها النجاح ، لاختلاف الاهواء ، وتفرق الكلمة ، مما اضعف قوته وقلل من شانه . فابن المهلب الذى اراد ان يسبق مسلمة بالحيلة ، ويضيع عليه فرصة التمكن ، عندما اراد تبييته

---

(١) نافع العبود : آل المهلب ، ص ٩٣-٩٦ .
(٢) انظر قبل : ص ١٣٧-١٣٩،١٤٤-١٤٥ .
(٣) انظر قبل : ص ١٧٣-١٧٥ .
(٤) انظر قبل : ص ١٩٣ .

بعد نزوله العقر ، ومفاجئته بهجوم ليلى ، خالفه اصحابه من القراء واصحاب الفرق (١) . وبعد ان احتدم القتال سرعان مافتر حماس اصحابه ، ووجد ابن المهلب نفسه فى قلة امام جيش الشام ، حينما انفض من حوله جنده ، وبالاخص قبيلة ربيعة التى كانت تنزل حوله (٢) . وذلك عندما اشعل الوضاح بامر مسلمة النار فى الجسر ، فلاذ جل جند ابن المهلب بالفرار (٣) . ومما سبب الهزيمة قلة الخبرة فى جيش ابن المهلب ، وعدم الصدق فى القتال والولاء . وهذا ماتضح فى اقواله واقوال الحسن البصرى (٤) ، بينما هم امام جيش دولة يضرب بين المشارق والمغارب ، فتحا ودفاعا ، اكتسب من جراء ذلك فنون الحرب ، وحسن التدريب والخبرة .

واننا نلمس بين ثنايا الاخبار خيانة حدثت من قبيلة تميم فى معركة العقر ، اذ انهزموا بالناس ، يريدون المثوبة من الدولة (٥) ، فما كان جزاؤهم الا الاسر والقتل . ويظهر لنا عامل آخر ذلك هو مرض القائد يزيد بن المهلب نفسه (٦) ، مما اعجزه عن مباشرة القتال فى اول المعركة ، وساعد على تيسير قتله للقحل بن عياش . كل هذه العوامل كانت وراء هزيمة ابن المهلب فى العقر ، ولعل مما عجل بالنهاية السريعة لحركته ، رفضه الهزيمة وامتناعه عن ترك ارض المعركة ، استقتالامنه ، مع علمه ان النصر قد اصبح فى

---

(١) انظر قبل : ص ١٨٧ .
(٢) نافع العبود : آل المهلب ، ص ٩٤ .
(٣) انظر قبل : ص ١٩٤-١٩٥ .
(٤) انظر قبل : ص ١٨٦ .
(٥) انظر قبل : ص ٢٠١،٢٠٢ .
(٦) انظر قبل : ص ١٩٣ .

يد مسلمة ، حيث فضل الموت بكرامة على عار الفرار والهزيمة وهذا ماعقد العزم عليه قبل المعركة ، وابانه في خطبه واقواله (١) . وقد كان من الممكن ان يطول امد الفتنة ، في حالة التجائه الى مكان آخر والتحصن فيه ، حتى ياتيه المدد ويعد نفسه للحرب من جديد . الا ان نفسه الابية ابت الفرار والهزيمة ، لتنفذ المشيئة الالهية بانتهاء الفتنة ، واجتماع الكلمة .

تتبع آل المهلب بعد العقر وتصفيتهم :

كان يزيد بن المهلب قد استخلف ابنه معاوية على واسط وترك عنده الاموال والاسرى الذين اخذهم في حربه مع عدي بن ارطاة في البصرة (٢) ، ونساء آل المهلب وذراريهم فيما يبدو (٣) . فلما جاء الخبر الى معاوية بهزيمة ابيه ومقتله في العقر اخرج اثنين وثلاثين اسيرا (٤) كانوا في يده على راسهم عدي بن ارطاة وابنه وابنا مسمع وغيرهم ، فقتلهم ، الا ربيع بن زياد بن الربيع ، فانه عفا عنه ، لانه من اشراف قومه (٥) . بل

---

(١) عن خطبه واقواله ، انظر / الطبري : تاريخ الامم ، ٥٩٢/٦-٥٩٦ ـ ابن اعثم : الفتوح ، م٢٥١/٤ .
(٢) انظر قبل : ص ١٨٢ .
(٣) مجهول : العيون ، ٧٤/٣ .
(٤) أورد ابن اعثم عددهم "ثلاثة وثمانون" . انظر : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٥٤ ـ الا ان ابن كثير قال : نحوا من ثلاثين ، وابن خلدون قال : في ثلاثين . (انظر : البداية ، ط١ ، ٢٤٧/٩ ـ العبر ، ٧٩/٣) . وهذا يسند العدد الذي اوردناه في المتن ويقويه .
(٥) الطبري : نفس المصدر والجزء ، ص ٥٩٩-٦٠٠ ـ اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ، ٣١١/٢ ـ ابن الاثير : الكامل ،١٧٤/٤ ـ ابن كثير : نفس المصدر والجزء والصفحة . والثلاثة الاخيرون لم يذكروا استثناء ربيع بن زياد ـ وكذلك ابن خياط : تاريخ ابن خياط ، ص ٣٢٥-٣٢٦ ـ اليافعي : مرآة ٢٤٢/١ ـ الذهبي : دول الاسلام ، ٥٢/١-٥٣ (اخبر انه قتلهم بالبصرة ، والصحيح بالاجماع ، في واسط) .

انه اراد قتل نساء آل المهلب خشية ان يقعن فى الاسر ، فغلقن عليهن الابواب . (١) واحتمل معاوية بن يزيد الخزائن وسار بمن معه الى البصرة ، وقد اجتمع اليه عمه المفضل ومن انهزم معه من العقر من اخوته وبنى اخوته ، وممن بقى معهم من الجند . (٢) وكانوا يتخوفون العاقبة ، فاعدوا السفن وتجهزوا ، معدين انفسهم للهرب ، (٣) فجاءهم النذير بامر الخليفة فيهم ، وهو انه كتب الى مسلمة بطلب آل المهلب وقتلهم اينما كانوا . (٤)

خروج المهالبة الى قندابيل :

فركبوا سفنهم ، ومعهم الاموال والنساء والذرية ، محتملين الدواب والسلاح ، قاصدين قندابيل ، وكان يزيد ابن

---

(١) مجهول : العيون ، ٧٤/٣ (وقد اورد ان من جاء بالخبر الى معاوية هو : خالد بن يزيد بن المهلب . الا ان فى الخبر غرابة ، حيث ان خالد بن يزيد ، ذكر ان عبد الحميد بن عبد الرحمن ، امير الكوفة ، قبض عليه ، حين هروب ابيه من السجن ، وامر الخليفة لاميرى الكوفة والبصرة باستقباله ، والقبض على آله . فارسله عبدالحميد الى الخليفة يزيد فى الشام ، فسجن هناك حتى هلك . (انظر ذلك فى / الطبرى : تاريخ الامم ، ٥٨٥/٦ ـ ابن الاثير : الكامل ، ١٦٩/٤ .
ولعله اراد ابنا آخر ليزيد ، نجا من معركة العقر ، فذكر اسم خالد بدلا منه خطا .

(٢) الطبرى : نفس المصدر والجزء ، ص ٦٠٠ ـ ابن اعثم : الفتوح ، م٢٥٤/٤ ـ مجهول : نفس المصدر والجزء والصفحة (لم يذكر احتماله الاموال ، واجتماعه بالمفضل) ـ ابن الاثير : نفس المصدر والجزء ، ص ١٧٥ ـ ابن كثير : البداية ، ط١ ، ٢٤٧/٩ ـ ابن خلدون : العبر ، ٧٩/٣ .

(٣) الطبرى : نفس المصدر والجزء والصفحة ـ ابن الاثير : نفس المصدر والجزء والصفحة ـ ابن كثير : نفس المصدر والطبعة والجزء والصفحة .

(٤) ابن اعثم : نفس المصدر والمجلد ، ص ٢٥٦-٢٥٧ .

المهلب قد بعث عليها وداع بن حميد الازدى اميرا من قبله ، على ان يكون ملجا لاهله ان هُزِم ، يتحصنون عنده حتى ياخذوا لانفسهم الامان ، واخذ عليه الايمان بالنصح لهم .(١)

فركبوا البحر حتى مروا بهرم بن القرار العبدى ، وكان يزيد قد استعمله على البحرين ، فاشار عليهم بعدم النزول من السفن لئلا يتخطفهم الناس يتقربون بهم الى بنى مروان ، فمضوا حتى حاذوا جبال كرمان ، فخرجوا من سفنهم واحتملوا اهلهم واموالهم وعتادهم على الدواب . وقد اراد معاوية بن يزيد ان يتامر عليهم ، الا انهم اجتمعوا على المفضل ،(٢) فهو اكبرهم وسيدهم .(٣) واجتمعت اليهم بكرمان فلول كثيرة .

---

(١) الطبرى : تاريخ الامم ، ٦٠٠/٦ ـ ابن الاثير : الكامل ، ١٧٥/٤ ـ ابن اعثم : الفتوح ، م٢٥٤/٤ (لكنه لم يقل بالاتفاق الذى تم بين يزيد بن المهلب ووداع الازدى ، على الجاء اهله عنده ونصرتهم) .

(٢) المفضل بن المهلب بن ابى صفرة ، الازدى ، ابو غسان . وال من ابطال العرب ووجوههم فى عصره ، كانت اقامته فى البصرة ، ولاه الحجاج خراسان ، وولاه سليمان جند فلسطين ، شارك مع أخيه حربه بنى أمية ، سار بعد هزيمة أخيه فى العقر بمن معه الى واسط ثم البصرة ومنها الى قندابيل ، فادركه ابن احوز ، فقتل على ابوابها سنة ١٠٢هـ . (الزركلى : الاعلام ، ٢٨٠/٧) .

(٣) الطبرى : نفس المصدر ، ٦٠٠/٦-٦٠٢ ـ ابن الاثير : نفس المصدر والجزء والصفحة ـ اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى، ٣١١/٢ (قال : وركب اى معاوية الى قندابيل) وهذا يعنى ان تامير المفضل كان بعد نزولهم كرمان ،وقد كان الامر قبل ذلك لمعاوية بن يزيد ـ ابن اعثم : نفس المصدر، م٢٥٦/٤-٢٥٧ (لم يذكر مرورهم على العبدى ، وقال : وافوا ارض فارس ، فخرجوا منها الى كرمان ، ومن كرمان الى قندابيل) . والظاهر ان كلامه صحيح ، اذ اننا سنرى ان مدرك الكلبى سيلحق بهم فى عقبة وهى من ارض فارس ، ثم سيكون القضاء عليهم فى قندابيل ـ ابن كثير : البداية ، ط١ ، ٢٤٧/٩ (ولم يذكر مرورهم بالعبدى) ـ ابن خلدون : العبر ، ٧٩/٣ .

معركة عقبة :

وكان مسلمة قد بلغه خبر القوم ، فوجه في طلبهم ، وفي اثر الفل ، مدرك بن ضب الكلبي ، فادركهم بفارس ، فتبعهم حتى لقيهم في عقبة (١) ، فقاتلوه واشتدوا عليه ، وقد قتل ممن مع المفضل النعمان بن ابراهيم بن الاشتر ، ومحمد بن اسحق ابن محمد بن الاشعث ، وغيرهم ، واسر وفر آخرون ، ورجع اناس من اصحاب ابن المهلب وطلبوا الامان ، فؤمنوا ، منهم مالك ابن ابراهيم بن الاشتر ، والورد بن عبد الله بن حبيب السعدي ، وهو ممن شهد مع ابن الاشعث مواطنه وايامه ، وسار آل المهلب ومن معهم من الفل حتى وصلوا قندابيل (٢) .

مقتلة المهالبة في قندابيل :

بعث مسلمة الى مدرك بن ضب فرده ، وسرح هلال بن احوز (٣)

---

(١) عقبة : موضع بفارس . (ياقوت : معجم ، ١٣٤/٤) .

(٢) عواد الأعظمي : مسلمة ، ص ٣٠٤ (نقلا عن الطبري : تاريخ الأمم ، ١٥٨/٨ — ابن خلكان : وفيات ، ٣٠٧/٦) . لكنه قال بقتل المفضل وبعض خواصه في وقعة عقبة . وحيث أن الصحيح انه قتل في قندابيل . رجعنا الى مصدري الأعظمي فوجدناه اعتمد على ابن خلكان ، الذي ذكر ذلك ، وقد يكون خطا منه في فهم النص ، اذ برجوعنا الى مصدره الثاني . الطبري : نفس المصدر ، الطبعة الثالثة ، ٨٧هـ/٦٧م ، ٦٠٠/٦-٦٠٢ . وجدناه قد ذكر القتال في عقبة ثم لحاق المهالبة بقندابيل ، وقتل المفضل في قندابيل . وليس في عقبة كما قال الاعظمي — ابن الاثير: الكامل ، ١٧٥/٤ — ابن كثير :البداية ، ط١ ، ٢٤٧/٩ (التبس عليه امر القيادتين فقال : وجه مسلمة هلال بن احوز فامروا عليهم مدرك بن ضب . كما انه اشار الى قتالهم آل المهلب في جبال كرمان ، ولم يشر الى معركتي عقبة وقندابيل) .

(٣) هلال بن احوز بن اربد المازني المالكي التميمي ، قائد من الشجعان القساة ، عرفه ابن حزم : بقاتل آل المهلب في قندابيل ، توفي سنة ١٠٢هـ . الزركلي : الاعلام ، ٩٠/٨ .

التميمي للحاق بهم (١) ، فلحقهم بقندابيل . وكان آل المهلب قد ارادوا الدخول الى قندابيل ، الا ان اميرها وداع بن حميد اغلق ابوابها في وجوههم ، ومنعهم من دخولها . فكاتبه هلال ابن احوز ، الا انه لم يظهر مباينته لآل المهلب ، الا حين اصطفوا للقتال ، فقد كان وداع على ميمنة آل المهلب وعبد الملك بن هلال على ميسرتهم وكلاهما ازدي ، فلما وقفوا للقتال رفع ابن احوز راية الامان ، فمال اليه وداع وعبد الملك وانفض الناس من حول آل المهلب (٢) . فلما راوا ذلك اراد مروان بن المهلب قتل نسائهم لئلا يصلوا اليهن ، فمنعه المفضل ، وقاتلوا القوم ، قتال من يئس ، فقتلوا من اهل الشام مقتلة عظيمة ، حتى قتلوا عن آخرهم الا ابا عيينة بن المهلب وعثمان بن المفضل (٣) ، فانهما نجوا ولحقا بخاقان ورتبيل ، بعد ان لاذا بالهرب (٤) . وكان ممن قتل بقندابيل مدرك

---

(١) اورد البلاذري والمسعودي ان من سرح هلال بن احوز هو الخليفة يزيد ، ولعل في ذلك تفسيرا لبعث قيادتين لقتال المهالبة من قبل مسلمة كما اشارت الى ذلك بعض المصادر . اذ يبدو ان مسلمة بعث في اثر آل المهلب مدرك بن ضب الكلبي ، وكان الخليفة قد وجه من قبل هلال ابن احوز . فلما فشل مدرك الكلبي من القضاء عليهم في وقعة عقبه امر مسلمة برده ، ووجه اليهم القائد الذي بعثه الخليفة وهو هلال بن احوز . انظر : فتوح البلدان، ص ٤٢٩ – مروج ، ٢١١/٣-٢١٢ .

(٢) يظهر من النص ان وداع اعتل بعذرما لآل المهلب في عدم ادخالهم قندابيل ، وتظاهر بنصرهم ، حتى صفوا لقتال هلال ، فمال اليه .

(٣) اضاف ابن الاثير وابن خلدون الى الناجين "عمر بن يزيد ابن المهلب" . انظر : الكامل ، ١٧٥/٤ – العبر ، ٧٩/٣

(٤) الطبري : تاريخ الامم ، ٦٠٢/٦ – اليعقوبي : تاريخ ، ٣١١/٢ – ابن الاثير : نفس المصدر والجزء والصفحة – ابن اعثم : الفتوح ، م٤/٢٥٦-٢٥٧ (اورد عدد الجند الشامي المطارد "عشرة آلاف" . الا انه لم يميز بين الجيشين الذين بعثا لآل المهلب ، كما لم يشر الى وقعة عقبة واورد قتلاها ضمن من قتل في قندابيل مما يدل على =

ابن المهلب والمفضل (١) وعبد الملك وزياد ومروان ومعاوية بنى المهلب ، كما قتل معاوية بن يزيد وآخرين (٢) .

وبعد نصر هلال بن احوز على بنى المهلب فى قندابيل وقفائه عليهم ، بعث بالأثقال والأموال والنساء والذرية ، ورؤوس من قُتِل منهم ، الى مسلمة بن عبد الملك (٣) ، بالحيرة (٤) .

وكان هلال بن احوز قد قتل اناسا من آل المهلب ، فقد ذكر ان الخليفة امره ان يقتل من بلغ الحلم منهم ، فضرب عنق غلامين ادركا (٥) . الا انه عامل النساء معاملة حسنة ، فلم يفتشهن ولم يعرض لهن ، وكان عدد من أُسر منهن فى قندابيل خمسين امراة ، وتسعة من الفتية الاحداث (٦) .

= جهله بها) — ابن خلدون : العبر ، ٧٩/٣ .
(لكنه قال : بان آل المهلب بعد افتراق الناس عنهم ، استأمنوا ، فؤمنوا ، ثم قتلوا جميعا ، وهذا خبر شاذ لم اجده عند غيره من المؤرخين الذين اطلعت على مؤلفاتهم ، مما يدعونا الى ابطال الخبر) .

(١) هذا خطأ ، فمدرك بن المهلب قتل فى معركة العقر . انظر ذلك قبل : ص ١٩٦-١٩٧ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٤٢٩ — الزركلى : الاعلام ، ٩٠/٨ .

(٣) عند ابن خياط والمؤرخ المجهول ، ثم بعثها الى الخليفة يزيد . (انظر : تاريخ ابن خياط ، ص ٣٢٦ — العيون ، ٧٤/٣ . والاظهر الى مسلمة ومنه الى يزيد . وقد يكونا قد عنيا بالنهاية ايجازا .

(٤) الطبرى : نفس المصدر والجزء والصفحة — ابن اعثم : الفتوح ، م٤/٢٥٧ — ابن الأثير : الكامل ، ١٧٥/٤ ، ابن كثير : البداية ، ط١ ، ٢٤٧/٩ .

(٥) ابن خياط : نفس المصدر والصفحة ، ص ٣٢٦ — المسعودى مروج ، ٢١١/٣-٢١٢ — مجهول : نفس المصدر والجزء والصفحة — الذهبى : تاريخ الاسلام ، ٨٦/٤ .

(٦) عواد الاعظمى : مسلمة ، ص ٢٠٥-٢٠٦ — ابن خياط : نفس المصدر والصفحة — الذهبى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

موقف مسلمة والخليفة من اسرى قندابيل :

اما الرؤوس فقد بعثها مسلمة الى يزيد بن عبد الملك ، والأخير بعثها الى العباس فى حلب ، حيث نصب رؤوسهم هناك (١) ، وحلف مسلمة ان يبيع نساءهم وذراريهم ، فقام الجراح الحكمى واشتراهم بمائة الف درهم ، ليبر يمين مسلمة ، وليطلقهم فباعه ، ثم استحى مسلمة ان يبيع قوما احرارا ، فطلب من الجراح ان يقيله من بيعته ، فاقاله ، فخلى سبيلهم مسلمة ، والحقهم بقومهم بالبصرة (٢) ، وقيل لم يطلب الاقالة من الجراح، لكنه لم ياخذ منه شيئا ، وخلى سبيلهم الا تسعة فتية منهم احداث ، بعث بهم الى الخليفة (٣) .

اما الخليفة يزيد بن عبد الملك فقد ظهر أن اصرار ابن المهلب على استمرار الفتنة ، وعدم قبوله الأمان ودعوة السلام ، قد دعاه الى القسوة على آل المهلب خاصة بعد انتصار جيشه فى العقر ، فقد امر بقتل اسرى العقر ، وامر

---

(١) الطبرى : تاريخ الامم ، ٦٠٢/٦ — ابن الاثير : الكامل ، ١٧٥/٤ — ابن خلكان : وفيات ، ٣٠٧/٦ (خالف غيره بقوله انه بعثها الى يزيد وكان على حلب . والصحيح ماقدمناه يسنده الأخبار التى سترد عن موقف يزيد من الاسرى وقتلهم فى دمشق . اذ يتضح ان العباس ترك العراق بعد انتصارهم على ابن المهلب فى العقر ، واستقر فى حلب ، بينما بقى مسلمة فى الحيرة اميرا على العراق من قبل الخليفة ، وتولى أمر تتبع آل المهلب ، والقضاء عليهم) — ابن كثير : البداية ، ط١ ، ٢٤٧/٩ (قال : نصبت الرؤوس فى دمشق ، ثم ارسلها الخليفة يزيد الى حلب فنصبت هناك) وهذا يعزز ماذهبنا اليه قبل .

(٢) ابن اعثم : الفتوح ، م٢٥٧/٤ .

(٣) الطبرى : نفس المصدر والجزء ، ص ٦٠٢-٦٠٣ — ابن الاثير نفس المصدر والجزء والصفحة (الا انه قال : ان عدد الفتية ثلاثة عشر) — ابن كثير : نفس المصدر والطبعة والجزء والصفحة (أورد ان مسلمة بعث الفتية مع الرؤوس وكوننا عرفنا عن طريقه انها نصبت فى دمشق ثم حلب ، فهذا يدل على ان يزيد كان فى دمشق لاحلب) — ابن خلدون العبر ، ٧٩/٣ .

مسلمة بتتبع من انهزم من آل المهلب ومن معهم ، وتصفيتهم . لذا فان اسرى قندابيل لما قدموا عليه من عند مسلمة ، امر بقتلهم ، ولم تفلح قصيدة كثير عزة المتوسلة فى العفو عنهم فقتلوا وكانوا ثلاثة عشر من ولد يزيد والمفضل وقبيصة بنى المهلب (١) . وقيل بل كانوا نحوا من ثمانين ، دفعهم يزيد الى من كان له قبل آل المهلب دم ، فقتلوا جميعا (٢) . وذكر اليعقوبى منفردا (٣) ان النساء حملن الى الخليفة فحبسهن فى دمشق . والأرجح ماقدمناه ، من تخلية سبيلهن من قبل مسلمة وعودتهن الى البصرة بين قومهن . اما ابو عيينة بن المهلب وعثمان بن المفضل وعمر بن يزيد بن المهلب ، الذين نجوا من معركة قندابيل ، فان هند بنت المهلب ، قد استامنت لأبى عيينة من الخليفة ، فامنه وظل عثمان وعمر حتى ولى اسد ابن عبد الله القسرى خراسان (٤) ، فكَتَبَ اليه بامانهما ، فامنهما ، وقدما خراسان (٥) .

وقد ذكر اليعقوبى ان ابن هبيرة فى طريقه الى العراق عندما وليها من قبل الخليفة يزيد بن عبد الملك ، لقى

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، ١٧٥/٤-١٧٦ (وقد اورد اسماء احد عشر شخصا ، بينما ذكر انه قتل ثلاثة عشر) ـ اليعقوبى تاريخ اليعقوبى ، ٣١١/٢ (ذكر ان عثمان بن المفضل ممن قتلهم يزيد من اسرى قندابيل فى دمشق . وهذا خطا ، اذ انه كان قد نجا من معركة قندابيل ، والتجا برتبيل حتى استامن ، فؤمن) انظر قبل : ص ٢١٢ ـ ابن خلدون : العبر ، ٧٩/٣ (ولم يذكر موقف كثير) .

(٢) ابن خياط : تاريخ ابن خياط ، ص ٣٢٧ ـ الذهبى : تاريخ الاسلام ، ٨٦/٤ .

(٣) نفس المصدر والمجلد ، ص ٣١٢ .

(٤) كانت ولايته عليها (سنة ١٠٦هـ) . انظر : الطبرى : تاريخ الامم ، ٣٧/٧ ـ ابن الاثير : نفس المصدر والجزء ص ١٩٥ .

(٥) ابن الاثير : نفس المصدر والجزء ، ص ١٧٥-١٧٦ ـ ابن خلدون : نفس المصدر والجزء والصفحة .

جماعة من آل المهلب في الحديد ، قد وجه بهم مسلمة ، فردهم وكتب الى يزيد في العفو عنهم ، فانبه يزيد ، فعاود الكتابة اليه بان ذلك ممانعة لقومهم وتالفا لعشائرهم ، فوافقه الخليفة (١) . الا أن هذا الخبر فيه غرابة ، اذ ان امارة ابن هبيرة على العراق جاءت بعد وقت طويل من مواقع مسلمة مع المهالبة ، فلايصح ان يكونوا من اسرى العقر وقندابيل ، فخبر هؤلاء تقدم . فان صح الخبر ، فانه يعني ان مسلمة قام بعملية تصفية لافراد الاسرة المهلبية وان لم يكونوا ممن شاركوا يزيد في حركته . الا ان هذا الخبر مشكوك فيه ، فابن هبيرة كان قد لقي في طريقه مسلمة نفسه وهو متوجه الى الخليفة في الشام (٢) .

مصادرة اموال المهالبة :

ويبدو أن يزيد بن عبد الملك قد ادرك اثر الثراء المالي في المكانة التي وصلها اعداؤه المهالبة ، وانه من العوامل التي مكنتهم من جمع الناس حولهم ، ووقوفهم في وجه الدولة . فسعى بعد احراق منازلهم في البصرة عقب خروجهم الى قندابيل (٣) . في محاولة منه لاجتثاث جذورهم منها وهي موطنهم الرئيسي بين قومهم ازد عمان ، ومبالغة منه في التنكيل بهم ، سعى الى سلبهم عنصر القوة لديهم وهو المال فعمد الى مصادرة اموالهم واملاكهم ، اذ اصاب لهم اربعة آلاف

(١) تاريخ اليعقوبي ، ٣١٢/٢ (وفي ذلك اشارة الى رغبة الخليفة في تالف العشائر اليمانية) .
(٢) الطبري : تاريخ الامم ، ٦١٥/٦-٦١٦ .
(٣) مجهول : العيون ، ٧٤/٣ .

جاموسة نقلها مع جماعة من الزط الى المصيصة[(١)] ، وصادر اقطاعات يزيد ابن المهلب التى منحه اياها الخليفة سليمان ابن عبد الملك فى البطيحة ، واقطاعات خيرة بنت ضمرة القشيرية (زوج المهلب) التى اقطعها اياها الحجاج[(٢)] . فقد كان لابن المهلب اقطاعات فى بطائح العراق[(٣)] . اذ اقطعه سليمان ما اعتمل من البطيحة ، فاعتمل الشرقى ، والجبان ، والخست ، والريحيه ، ومغيرتان ، وغيرها ، فصارت حوزا[(٤)(٥)] . وفيما يبدو أن هذه المصادرة تمت على يد ابن هبيرة أمير العراق من قبل يزيد بن عبد الملك ، الذى كتب اليه : أن يستولى على أموال يزيد بن المهلب ، واخوته وولده[(٦)] . وهذا العمل ليس بدعا من الخليفة يزيد ، بل سبقه اليه غيره من الخلفاء والأمراء ، فقد عرف نظام المصادرة فى تاريخ صدر

---

(١) المصيصة : مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام ، بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس . والمصيصة أيضا قرية من قرى دمشق قرب بيت لهيا . (ياقوت : معجم ، ١٤٤/٥-١٤٥) .

(٢) نافع العبود : آل المهلب ، ص ٩٢ – البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٣٦٢ (قال : اقطعها الحجاج عباسان) .

(٣) البطيحة : أرض واسعة بين واسط والبصرة ، وكانت قديما قرى متصلة ، وأرضا عامرة ، فغاض دجلة والفرات ، فتبطح الماء فيها ، وطرد أهلها ، فلما نقص اصبحت مالحة للعمارة . (ياقوت : معجم ، ٤٥٠/١) .

(٤) الحوز : من الأرض أن يتخذها الرجل ويبين حدودها فيستحقها ، ولايكون لأحد فيها حق معه . والحوز : الجمع وكل من ضم شيئا الى نفسه من مال وغيره . انظر / اللسان (حوز) . والحوز : قرية من شرقى مدينة واسط قبالتها متصلة بالخرامين . (ياقوت : معجم ، ٣١٨/٢) .

(٥) فرج الهونى : النظم الادارية والمالية ، ص ٢٥٩ – عواد الأعظمى : مسلمة ، ص ٤٣ – البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٣٦٢ .

(٦) فرج الهونى : نفس المرجع والصفحة .

الاسلام قبله .(١)

اسباب فشل الحركة :

شاء الله لحركة ابن المهلب التى عاشت مايقارب الخمسة اشهر ، ان تنتهى بالفشل ، والاسباب التى ساعدت على النصر الاموى فى العقر على ابن المهلب ، يبرز فى مقدمتها(٢) كون هذه الحركة لم تقم على مبادىء سامية(٣) ، ولافكرة او مذهب ، بل جمع انصارها ، دوافع(٤) شخصية وقبلية ، وثارات قديمة . وعداء اقليمى تخالطه نزعة استقلالية(٥) ، وكره للبيت الاموى الحاكم كما افتقدت هذه الحركة مقومات التنظيم(٦) ، حيث لم يتوفر لصاحبها الوقت الكافى للاعداد الجيد ، وقد كان نفسه يقول : "لا اخرج حتى احج واحفظ القرآن ، وتموت امى"(٧) . يضاف الى ذلك ثبات القبائل اليمانية الشامية على ولائها لبنى امية ،

---

(١) لقد شرعت فى اعداد بحث عن المقاسمة والتغريم والمصادرة منذ قيام الدولة الاسلامية حتى نهاية العصر الأموى . وانظر بعض ذلك عند / الطبرى : تاريخ الأمم ، ٦٤/٦ - ابن الأثير : الكامل ، ٩٩/٤، ١٦٠ - يحيى بن الحسين : غاية الأمانى فى اخبار القطر اليمانى ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، مراجعة محمد مصطفى زيادة ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ، ٩٧/١ - نافع العبود : آل المهلب ، ص ٦٦-٦٩ - محمد امين صالح : العرب والاسلام ، ص ٢٦٦ وغيرها .

(٢) انظر قبل : ص ٢٠٥-٢٠٨ .

(٣) عن اسباب فشل ثورة ابن المهلب . انظر : نافع العبود: آل المهلب ، ص ٩٤ .

(٤) اذ شارك فيها بعض سلائل مالك الاشتر وابن الاشعث وغيرهم انظر قبل : ص ٨٥ -وفتحى عثمان : الحدود ، ص ١٠٩-١١٠.

(٥) ثابت الراوى : العراق ، ص ٢١٨ .

(٦) ابراهيم بيضون : ملامح التيارات السياسية ، ص ٣٣٢-٣٣٣. الا اننا لانوافقه بانها حركة اقطارية ، خصوصا بعد علمنا ان الخليفة اعطاه الأمان بعد هربه الى البصرة ، وفى العقر من مسلمة مرة اخرى . انظر قبل : ص ١٤٤، ١٨٩.

(٧) نافع العبود : نفس المرجع ، ص ٩٣ .

وعدم انحيازها الى ابن المهلب بدافع العصبية وآصرة النسب .(١)

كما ان غياب جزء كبير من قبيلته الأزد في خراسان ، وهؤلاء لم يتمكنوا من الانضمام للحركة ، ونصرة صاحبها ، ايثارا للعافية ، وخشية من فشل الحركة ، ولوقوف تميم في وجههم ، وهي التي اخذت موقفا مشابها في البصرة ، ذلك عندما اجتمعت مع قيس على قتال ابن المهلب . اذ كانوا يرون ان نجاح الحركة يعني انتقال الخلافة وهي عنوان سلطان مضر ، الى اليمانية وحلفائها من ربيعة . وكان خروجه من البصرة وواسط الى الكوفة خطا عسكريا ، اذ كان اهل الشام قد سبقوه اليها ، مما اضطره الى ان يعسكر في العقر بدون تحصينات .(٢)

كما ان حسد الحاسدين من قومه وحرصهم على المراكز التي تبوؤها ، قد اضعف موقفه ، وهذا ماتمثل في موقف امير خراسان عبد الرحمن بن نعيم ، الذي اغرى تميم بالوقوف في وجه مدرك بن المهلب عندما بعثه يزيد الى خراسان .(٣)

ان هذه الأسباب مجتمعة ، كانت وراء فشل الحركة المهلبية ، وعجلت بنهايتها .

---

(١) نافع العبود : آل المهلب ، ص ٩٥ .

(٢) نافع العبود : نفس المرجع ، ص ٩٤-٩٦ (الا اننا لانوافقه على ان معسكره في العقر كان اضطراريا ، فقد خرج من واسط ، بعد أن اختار العقر ميدانا للمعركة ، وقد كان تقدمه الى العقر ، ليقترب من الكوفة ، آملا في انضمام اهلها اليه . وان كان قد حاول ضمها اليه بعد نزوله العقر ، عن طريق حملات بعثها من هناك ، لكن محاولاته باءت بالفشل) . انظر ذلك قبل : ص ١٧٨،١٨١ .

(٣) ناجي حسن : القبائل ، ص ١٥٨ .

تفاعل فئات المجتمع مع الحركة ومواقفها منها :

استجاب معظم العراقيين والمناطق المجاورة ، لحركة يزيد بن المهلب ، بدافع من التنافس الاقليمي الذي يهيجه نزعة استقلالية وكره للبيت الأموي الحاكم وحسد لأهل الشام (١) على ماجنوه من مكتسبات الحكم تمكنا وثروة، بحكم ولائهم للحكم الأموي وقيامه بينهم . حتى أن البصرة التي غلبت عليها الصفة التجارية ، وقاومت كل حركة رمت الى عرقلة نشاطها الاقتصادي ، غدت مسرحا لحركة ابن المهلب (٢) ، واعتمد ابن المهلب في حركته على اهلها ، اما الأقاليم المجاورة للعراق ، فانضمت اليها بحكم ارتباطها بالعراق اداريا او قبليا او بدافع الجوار والمصلحة . كما كادت الحركة ان تكسب اقاليم كبيرة كخراسان ، التي ابدىء اهلها من الأزد وحلفاؤها ، تعاطفهم مع ابن المهلب ، لولا وقوف مضر في وجهها .

---

(١) ظل شعور العداء لبني امية عند العراقيين يتنامى منذ زمن معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنه ، حتى شمل ولاتهم واهل الشام ، وهو شعور لم يقتصر على فئة بعينها من اهل العراق بل الكل منهم حتى العلماء والزهاد . فقد قيل للحسن البصري وهو يخذل الناس عن ابن المهلب : (لكانك والله يااباسعيد راض عن اهل الشام ؟ قال : انا راض عنهم قبحهم الله ...) . لذا عبروا عنه بمحاولة التخلص من الحكم الأموي في كل مناسبة . انظر هذا الراي عند / ثابت الراوي : العراق ص ١٦٠-١٦١ .

(٢) ثابت الراوي : العراق ، ص ١٣٧ . لكنه اشار الى ان ثورة ابن المهلب ، كانت الثورة الوحيدة التي اشترك فيها اهل البصرة . وهذا قول غير دقيق ، فقد شاركت بايجابية في ثورة ابن الاشعث ، وبايعه جميع اهلها من قرائها وكهولها . انظر ذلك في / الطبري : تاريخ الأمم ، ٣٤١/٦ ومابعدها .

ومن العلامات المميزة لهذه الحركة تاييد بعض الفرق لها ، والانضمام اليها . وعلى راسها فرقة الخوارج ، وقد تمثل ذلك في انضمام السميدع الخارجي واصحابه الى ابن المهلب ، بل اننا نجد عوض خليفات يقدم اخبارا تفيد (١) بمشاركة بعض افراد فرقة الاباضية الخارجية (٢) ، في حركة ابن المهلب ، فيقول : ان جابر بن زيد الازدي امام الاباضية ، بحكم انتمائه الى قبيلة الازد ، استطاع ادخال عدد كبير من قبيلته الازد في فرقته ، وكان على راس هؤلاء بعض افراد الاسرة المهلبية ، اللذين اصبح بعضهم من دعاة الفرقة وحماتها البارزين ، كعاتكة بنت المهلب (٣) ، وعبد الملك بن المهلب (٤) الذي كان على اتصال دائم مع جابر من خراسان فقد اشارت المصادر الى مراسلات متبادلة بين الرجلين حول امر الدعوة (٥) . وقد ساعده على انخراط الازد في الحركة الاباضية ، كراهية الازد للحجاج بسبب سوء المعاملة التي وجدوها من

---

(١) انظر ذلك قبل : ص ١٤٩،١٥٢-١٥٣ .

(٢) الاباضية : أحد فرق الخوارج ، وهم اصحاب عبد الله بن اباض ، الذي خرج في ايام مروان بن محمد ، ولهم آراء ومعتقدات منها ،ان في مخالفيهم من اهل القبلة كفار غير مشركين ، ومناكحتهم جائزة ، وموارثتهم حلال ، وغنيمة السلاح والكراع عند الحرب حلال ، وحرام قتلهم وسلبهم غيلة ، الا بعد نصب القتال واقامة الحجة ، واجمعوا ان مرتكب الكبيرة كفر كفر النعمة لاكفر الملة ، وغيرها . وهم جماعة متفرقون في مذاهبهم . (الشهرستاني : الملل والنحل ، ص ١٣٤-١٣٥) .

(٣) نشأة الحركة الاباضية ، طبعة عمان ، ١٩٧٨م ، ص ٩٧-٩٨ (وقد اشار في هامش ٣٤ ، ص ١١١ ، الى عدم تطرق المصادر غير الاباضية للعلاقة بين المهالبة والازد وبين الحركة الاباضية ، معللا ذلك بجهل هذه المصادر بطبيعة العلاقة بين الطرفين ، وبالحركة الاباضية في تلك الفترة السرية من مراحل تطورها) .

(٤) عوض خليفات : نفس المرجع ، ص ١٠١-١٠٤ .

(٥) عوض خليفات : نفس المرجع ، ص ٩٨ .

عامله مجاعة المزنى فى اعقاب قضائه على حركة ازد عمان بقيادة ابنى الجلندى ، وموقفه من يزيد بن المهلب واخوته ، ومالحقهم على يديه من سجن وتعذيب وهوان (١) . ومع ان الاباضية عاشت فى سلام ابان عهد سليمان فى ظل حماية آل المهلب الذين كانوا على علاقة وثيقة بالخليفة (٢) ، الا ان التطورات السياسية بعده ، وما اسفرت عنه من قيام ابن المهلب بحركته ، وللارتباط بين الأسرة المهلبية وفرقة الاباضية لانتماء بعض افرادها اليها ، وكون جزء من اتباع الاباضية من الأزد ، قبيلة يزيد بن المهلب ، فان من المؤكد اشتراك افرادها فى الحركة ، بل ان عددا ممن لقى مصرعه على يدى الامويين من اتباع ابن المهلب ، كانوا من الاباضية ومن بينهم عبد الملك ابن المهلب (٣) . كما ادت المعاملة السيئة لبنى المهلب قادة الأزد وزعمائهم وتصفيتهم الى سخط الأزد على الحكم الاموى ، ونقمة الاباضية عليه ، مما جعل بعض مشايخهم يدعون الى الانتقام واعلان الحركة ، ومن بين هؤلاء : الشيخ الاباضى ابو نوح صالح الدهان ، لكن الامام ابا عبيدة كان يرى أن الوقت لم يحن لاعلان الحركة المسلحة ، واستطاع مقاومة آراء اتباعه المنادين بالعصيان . وبقى الاباضية طيلة حكم الخليفة يزيد ابن عبد الملك محافظين على سرية حركتهم (٤) . وهذا يعنى ان اشتراك الاباضية فى الحركة كان سريا ، لأن الحركة فى ذلك الوقت كانت تعيش مرحلتها السرية . كما ان انضمامهم اليها

---

(١) عوض خليفات : نشاة الحركة الاباضية ، ص ١٠١ .
(٢) عوض خليفات : نفس المرجع ، ص ١٠٤ .
(٣) قتل عبد الملك بن عبد الملك بن المهلب على ابواب قندابيل عندما ادركهم هلال بن أحوز . (انظر قبل : ص ٢٣٣) .
(٤) عوض خليفات : نفس المرجع ، ص ١١١ .

لكون بعض افرادها من المهالبة ، واستجابة لنزعة الكراهة والنصب .

والجدير بالذكر ايضا انضمام فرقة المرجئة الى حركة ابن المهلب (١) ، بعد ماكان الامويون يتخذونهم سلاحا ضد اعدائهم (٢) فقد ناهضوا بهم الخوارج ، حيث كانوا يرجئون الامويين الى يوم القيامة ، ويرون شرعية حكومتهم ، اذ انهم يرون ان الايمان هو المعرفة بالله ورسله واداء الفرائض والكف عن الكبائر ، فمن آمن بالله ورسله وترك الفرائض ، وارتكب شيئا من الكبائر ، كان مؤمنا عند المرجئة ، كافرا فى نظر الخوارج (٣) .

لقد ترك المرجئة تاييدهم لبنى امية ، وخرجوا مع ابن المهلب (٤) لقتال الامويين واهل الشام ، حيث يبدو ان جناحا منهم غير موقفه ، اذ لم يعد يحتمل كل ماجرى على يد الامويين ، ولعل عدم رضاهم عن يزيد بن عبد الملك دفعهم الى مناصرة الداعى الى الكتاب والسنة ، بل لعل موقفهم حتى تلك الفترة ، الذى كان موضع اتهام بالنسبة للمواقف الايجابية للفرق الاسلامية الاخرى ، قد جعلهم يجدون فى الحركة فرصة سانحة للدفاع عن مبادئهم ، فعمدوا الى القوة لتقويض ملك بنى امية (٥) .

---

(١) انظر ذلك قبل : ص ١٤٩ .
(٢) على حسنى الخربوطلى : الدولة العربية الاسلامية ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م ، ص ٢٨٨ .
(٣) على الخربوطلى : نفس المرجع ، ص ٢٦٥ .
(٤) سبق ان خرجت المرجئة على بنى امية قبل ابن المهلب ، بخروجها مع ابن الاشعث . (انظر / على الخربوطلى : نفس المرجع ، ص ٢٨٨) .
(٥) نافع العبود : آل المهلب ، ص ٨٨ .

كما دعم الفرس حركة يزيد بن المهلب (١) ، وان كنا نرى ذلك امرا طبيعيا ، خصوصا انه استطاع ضم فارس وكرمان وغيرها مما حولها الى حوزته (٢) ، مع وجود كثير من الموالى بين العرب فى العراق ، اعتادوا الخروج الى الحرب معهم .

الا اننا لانجد ذكرا فى المصادر لاشتراك اهل الذمة فى هذه الحركة ، او الحركات التى قامت فى العراق بشكل عام (٣) . بل اننا نجد المردة قد ساهموا فى اخضاع هذه الفتنة زمن الخليفة يزيد بن عبد الملك (٤) . كما كانت فرقة الوضاحية جزءا من الجيش الشامى الذى حقق النصر الاموى على ابن المهلب فى العقر (٥) .

نتائج وآثار حركة ابن المهلب :

توفر لحركة ابن المهلب من اسباب القوة ماأكسبها هالة وخطرا ، الا انها قامت على اسس لم تكن معها مؤهلة للنجاح ، ومع ذلك فقد كان لها خطير النتائج ، فلئن كان المهالبة قبل الحركة على خصام مع الحجاج ومن ناصره ، فهم بعدها ومن

---

(١) توفيق سلطان اليوزبكى : تاريخ اهل الذمة فى العراق ، ص ٣١٠ (نقلا عن المسعودى : مروج ، ١٣٤/٣ . الا اننا بالعودة اليه ، طبعة دار الفكر ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، ٢١٠/٣-٢١٢ لم نجده قد نص على مانقله اليوزبكى . لذا عللنا قوله فى المتن ، ونبهنا على مانقل) .
(٢) انظر قبل : ص ١٥٩ .
(٣) ثابت الراوى : العراق ، ص ١٣١-١٣٢ .
(٤) فيليب حتى : تاريخ سورية ، ٥٤/١ . اذ اشار الى انضمام جزء منهم الى الجيش السورى ، بعد ان تمكن مسلمة بن عبد الملك فى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك من القضاء على خطر المردة نهائيا ، بتدمير عاصمتهم الجرجومة ، فهلك بعضهم ، وهاجر البعض الى اناطوليا ، بينما انضم من بقى الى جيش الاسلام .
(٥) انظر دور الوضاحية قبل : ص ١٩٤ .

تبعهم من ازد عمان على حرب مع بنى امية عامة ، وكان لابد لليمانية ان تقف الى جانبهم . وهكذا فان بنى امية خلفوا ضدهم منذ حركة ابن المهلب عدوا يتربص بهم (١) . الا انه ليس من الدقة اطلاق هذا القول بلا حدود ، وتعميمه على القبائل اليمنية . كما انه ليس من الصحة بمكان، القول ان حرب الامويين للمهالبة بمثابة حرب على قبائل اليمن .

وقد حاول فتحى عثمان تصحيح هذا القول ، وتحديده ، بقوله (٢) : الا اننا نستطيع ان نقصر ذلك على العراق ، اذ انقلبت الحكومة الاموية فيه الى حزب يحكم باسم قيس ، اما فى الشام فان يزيد بن عبد الملك لم يحاب قيسا على قضاعة ، التى كانت نواة الجيش الذى انتصر فى العقر ، فقد كان الذى قتل ابن المهلب رجلا من كلب ، كما كان الكلبيون هم الذين تعقبوا المهالبة الهاربين واستاصلوا شافتهم . وفى قوله شىء من الصحة ، والاصح أن الحكومة لم تنقلب الى حزب يحكم باسم قيس فى العراق ، ولكنها اعتمدت على القيسية بشكل اكبر .

وهكذا فقدت القبائل اليمنية سيطرتها على العراق ، باستئصال وتنحية من يمت الى المهالبة بصلة القربى او الولاء من ادارة الدولة ، بل تعداهم الى بنى تميم ، الذين كانوا يتوقعون الاعتراف لهم بالجميل اثر انهزامهم وتيسير النصر لاهل الشام (٣) . لكن خيانتهم لابن المهلب لم تشفع لهم

---

(١) يوسف العش : الدولة الاموية ، ص ٢٨١ .
(٢) الحدود ، ص ١٠٩-١١٠ .
(٣) ناجى حسن : القبائل ، ص ١٥٩ .

عند بني امية ، بعد انضمام الكثير منهم الى الحركة اول الامر .

ولقد اورثت مقتلة بني المهلب على يد بني امية وماترتب عليه بالنسبة لليمنية ، عصبية ابن المهلب وقومه من الآثار ، وخصوصا ابعادهم عن ادارة المشرق في زمن يزيد ، ومالقيوه من عمال يزيد ، اورثت حقدا وضغينة في نفوس بعض اليمنيين لم تمحه الأيام ، حتى وجدوا الفرصة المناسبة لتفجيره ، والانتقام من اعدائهم بني امية ، بمساندة خصومهم من آل البيت وتقويض سلطان البيت المرواني . فقد كان التمرد الذي قام به الكرماني (١) على نصر بن سيار امير خراسان لغاية في نفسه عبر عنها بقوله : "كانت غايتي في طاعة بني مروان ان يقلد ولدي السيوف فاطلب بثار بني المهلب" (٢) .

وكان آل البيت حريين بان يستفيدوا من هذا العدو ، فاستغل ابو مسلم الخراساني ذلك النزاع (٣) ومال الى ابن الكرماني حين ارسل اليه (٤) يستنصره على نصر بن سيار . لذا نجد يوسف العش (٥) يقول : "فعلينا ان نؤرخ بداية الدعوة

---

(١) الكرماني : هو جديع بن علي الازدي المعني ، شيخ خراسان وفارسها في عصره ، واحد الدهاة الرؤساء . ولد بكرمان ، واليها نسبته ، اقام في خراسان الى ان وليها نصر بن سيار ، فخاف الكرماني ، فسجنه ، فغضبت له الازد ، وفر الكرماني فاجتمعوا عليه ، ثم خرج من جرجان وتغلب على مرو ، فصفت له ، وظهر ابو مسلم الخراساني ، فاتفق معه على قتال نصر ، فكتب نصر الى جديع يدعوه للصلح ، فرضي به ، وخرج في مئة فارس ليكتبا بينهما كتابا ، فوجه اليه نصر ثلاث مئة فارس قتلوه في الرحبة . (الزركلي : الاعلام ، ١١٤/٢) .

(٢) ثريا حافظ عرفة : الخراسانيون ، ص ٢٧-٢٨ .

(٣) عن الخلاف بين الكرماني ونصر (اليمانية والنزارية) في خراسان ، (انظر / الطبري : تاريخ الأمم ، ٢٨٥/٧ ومابعدها) .

(٤) ثريا حافظ عرفة : نفس المرجع والصفحة .

(٥) الدولة الأموية ، ص ٢٨١ .

العباسية من هذه الحركة - يعني حركة ابن المهلب - التي امدت اهل البيت بعصبية يمانية كبيرة ضد البيت الاموى . وان كنا لانوافقه في هذه المبالغة ، فالدعوة العباسية قامت على تنظيم تميز بالدقة والسرية وامد طويل لغرس الفكرة وتهيئة البيئة لاقامة الدولة ، صحيح انه بالامكان ان نؤرخ للدعوة بالثورة لان ابتداء الدعوة كان في نفس الفترة تقريبا نهاية الأول ومطلع الثاني (١) . لكن الدعوة لم تقم على جهد اليمنية ، واليمنية لم تساند الدعوة الا في مرحلتها الاخيرة ، بعد ظهور ابي مسلم الخراساني الذي تم على يديه اعلانها (٢) . بل ان اليمنية عاشت بعد حركة ابن المهلب اياما سعيدة ، وعلاقات وطيدة مع الحكم الأموى في بعض فتراته ، كعهد الخليفة هشام وبالذات ابان ولاية خالد القسرى على العراق (١٠٦ - ١٢٠هـ).

وان مما نستنتجه امتدادا لذلك ان الانتماء الاقليمي والمصالح القبلية اصبحت تطغى على التعصب القبلي والتحالفات القبلية القديمة . وهذا مالمسناه من تقديم يمن الشام ولاءهم لبني امية رمز التفوق الاقليمي الشامي والتميز مكانة ومالا ، على آصرة النسب التي تربطهم بابن المهلب الازدى اليمني ، وهذا ماينطبق على يمن خراسان ، الذين وان ابدوا تاييدهم للحركة ، الا انهم آثروا العافية وتقديم المصلحة وامن الاقليم . بل ان ربيعة العراق ، لم يكن الحلف دافعها الوحيد الى نصرة الحركة بل المصلحة ونزعة الاقليمية،

---

(١) قيل بعث محمد بن علي العباسي دعاته عام ١٠٠هـ . (اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ٣٠٨/٢).وقيل سنة ١٠١هـ (انظر / ابو حنيفة الدينوري : الأخبار الطوال ،دار السعادة ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٣٠هـ ، ٣١٨/١-٣١٩)

(٢) انظر ظهور الدعوة العباسية على يد ابي مسلم في : (الطبري : تاريخ الامم ، ٣٥٣/٧ ومابعدها) .

ولذلك وجدناها لم تصدق القتال وسرعان ماانفضت من حول يزيد (١) .

كما ان هذه الفتنة قد كلفت الدولة الكثير من الجهد والمال ، وعرضت الجبهة الداخلية للانقسام ، اذ انها اخطر حدث داخلي في زمن الخليفة يزيد بن عبد الملك ، الذي شغلته هذه الفتنة عن توجيه امكانيات الدولة الى ميادينها الحقيقية في جبهات القتال ، امام الأعداء المتربصين ، في الشرق والشمال والغرب ، وان كان قد نجح في القضاء عليها في وقت وجيز ، استطاع بعدها أن يعيد للجبهة الداخلية وحدتها وتماسكها .

ونحن لانستبعد ان انشغال الدولة بهذه الفتنة ، وانشغال العرب في خراسان باحداثها بعد ان احيت فيهم روح العصبية القبلية ونعراتها ، قد زاد من اشتعال الحركات في ماوراء النهر ، وتمادي العصاة في التمرد على سلطان المسلمين (٢) ، حتى تمكن اخيرا سعيد الحرشي من اعادة النفوذ الاسلامي على تلك المناطق (٣) . بل نعزو اليها ايضا الهجوم الذي شنته الشعوب التركية والقوقازية على الحدود الأرمينية ، والتي مني فيها الجيش الاسلامي بهزائم متكررة (٤) ، خصوصا بعد عزل الخليفة يزيد بن عبد الملك لعمر بن هبيرة عن ولاية

---

(١) انظر قبل : ص ٢٠٧ .
(٢) عماد الدين خليل : دراسة مقارنة (بحث) ، ص ٣٠٠ .
(٣) عن فتوح سعيد الحرشي وحروبه في ماوراء النهر ، (انظر الفصل الرابع ، ص ٣٢٧ ومابعدها) .
(٤) سهيل زكار : تاريخ العرب والاسلام ، منذ ماقبل المبعث وحتى سقوط بغداد ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، ص ٢١٨-٢١٩ .

الجزيرة وتاميره على العراق [1] ، فى اعقاب عزل مسلمة عنها ، وقد تمكن الخليفة يزيد من اعادة الهيبة الاسلامية هناك عندما بعث اليها الجراح الحكمى الذى اوقف تقدمهم وحقق النصر على جيوشهم .

لقد كانت حركة يزيد بن المهلب التى تمكن الخليفة يزيد بن عبد الملك من القضاء عليها (سنة ١٠٢هـ) على يد اخيه مسلمة بن عبد الملك ، فتنة لأمة محمد ، اهلك فيها ابن المهلب نفسه واهله ، وسفك الدماء ، وفرق الجماعة ، ونكث البيعة . وهى فى الحقيقة حلقة فى سلسلة من الحركات التى حدثت زمن يزيد بن عبد الملك ، والتى تمكن من اخمادها ، وحافظ طوال حكمه على سلامة البناء الداخلى للدولة ، وابقى على وحدة الأمة .

(١) كانت ولايته على العراق أواخر سنة ١٠٢هـ او اوائل سنة ١٠٣هـ . (انظر بعد / الفصل الخامس ، ص ٤٧٥-٤٧٦) .

المبحث الثانى

حركات الخوارج

(١) حركة شوذب

(٢) حركة مسعود العبدى

(٣) حركة مصعب الوالبى

(٤) حركة سعيد بن بحدل

(٥) حركة عقفان

المبحث الثاني

حركات الخوارج

(١) حركة شوذب والقضاء عليها :

ما ان تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة حتى تجددت حركة شوذب الخارجي (١)، الذي كان قد خرج (سنة ١٠٠هـ) في خلافة عمر ابن عبد العزيز (٢)، ومخرجه بجوخي من ارض العراق (٣)، وامير الكوفة يومئذ عبد الحميد بن عبد الرحمن. وقد بلغ اصحابه ثمانين فارسا (٤)، اكثرهم من ربيعة، وقيل : مائتين (٥). وقيل

(١) اسمه بسطام بن مرة من بني يشكر، ثائر جبار، خرج في ايام عمر بن عبد العزيز بمكان قريب من الكوفة اسمه "جوخا" وكان اصحابه ثمانين، تريث عمر في قتالهم الى ان مات، فلما ولي يزيد بن عبد الملك قاتلهم، وقد تم القضاء عليه عندما جهز مسلمة جيشا من عشرة آلاف بقيادة سعيد الحرشي، فاحاطوا بشوذب وقتلوه (سنة ١٠١هـ).
الطبري : تاريخ الامم، ٥٥٥/٦ — ابن الاثير : الكامل، ١٥٥/٤ — مجهول : العيون، ٤١/٣ — الزركلي : الاعلام، ٥١/٢.

(٢) جوخا : اسم نهر عليه كورة واسعة في سواد بغداد، وهو بين خانقين وخوزستان. (ياقوت : معجم، ١٧٩/٢).
وجوخي : هي الاراضي التي تحف بجانبي نهر المزار — وهو القسم الاسفل من مجرى دجلة الشرقي — وهي تمتد الى الشمال الغربي حتى كسكر، كورة واسط. (كي لسترنج : بلدان، ص ٦٣). وانظر عنها هامش (١) اعلاه.

(٣) ابن قتيبة : الامامة، ٩٩/٢-١٠٠ — المسعودي : مروج، ٢٠٠/٣-٢٠٢ (قال الدينوري : كان خروجه بالحيرة، وقال المسعودي : بالجزيرة). ويبدو ان هذا اللبس حدث، لان كثيرا من المؤرخين قالوا بخروج شوذب وحده على عمر، بينما خرجت الحرورية على عمر في اكثر من مكان، ولعل هذه المواطن اماكن للثورات الاخرى. وسنتعرض لذلك لاحقا عند الرد على من ظن ان عمر سالم الخوارج ولم يحاربهم. حيث ان عمر سالم من كفته الكلمة واقنعته الحجة كشوذب، وحارب من اعرض عن الحق وعاث فسادا.

(٤) الطبري : نفس المصدر والجزء والصفحة — ابن الاثير : نفس المصدر والجزء والصفحة — مجهول : نفس المصدر والجزء والصفحة — الاربلي : خلاصة، ص ٢٥ (ولم يحدد مكان قيامها).

(٥) ابن خلدون : العبر، ١٦٢/٣ (كما لم يقل من ربيعة، وحرف جوخي بـ "خوخي").

غير ذلك .(١)

فكتب عمر الى عبد الحميد الا يحاربهم الا ان يفسدوا فى الارض ، وان يبعث بازائهم رجلا صلبا فى قوة ، على ان يأتمر بما كتب اليه . فوجه اليهم عبد الحميد محمد بن جرير البجلى فى الفى رجل . كما بعث عمر من قبله هلال بن احوز فى الف مقاتل ، ووقف مع ابن جرير بازاء الخوارج لايقاتلونهم .(٢)
وسارت الرسل بين عمر والمحكمة ، فبعثوا اليه من يناظره ، فأخذا عليه : انه تولى بدون مشورة ، ودعوه الى التبرؤ من اهله ولعنهم ورد احكامهم ، واحتجوا على جعل الامر ليزيد من بعده ، فحاجهم فى اقوالهم ، وقال فى صيرورة الامر من بعده ليزيد ، بان الذى ولاه غيره ، والمسلمون اولى بمن كان فيهم بعده . فرضيا قوله ، ورجع واحد منهما عن راى الخوارج ، وعاد الآخر بقول عمر الى جماعته .(٣) وقيل : بل استنظرهما فى مسالة ترك الامر ليزيد بعده ثلاثة ايام ، فخاف بنو مروان ان يخلع يزيد ، فدسوا من سقاه سما ، فما لبث بعد خروجهما من عنده ثلاثة ايام حتى مات .(٤)

---

(١) مجهول : العيون ، ٤٧/٣ (قال : كان بسطام فى ثلاثمائة ويقال فى ستمائة) .
(٢) مجهول : نفس المرجع والجزء والصفحة .
(٣) مجهول : نفس المصدر والجزء ، ص ٤٣-٤٦ ـ ابن قتيبة : الامامة ، ٩٩/٢-١٠٠ ـ المسعودى : مروج ، ٢٠٠/٣-٢٠٢ (والاخيرين لما يشيرا الى اعترافهم على يزيد) .
(٤) الطبرى : تاريخ الامم ، ٥٥٥/٦-٥٥٦ ـ ابن الاثير : الكامل ، ١٥٥/٤ ـ ابن كثير : البداية ، ط١ ، ٢٠٩/٩-٢١٠ (لكنه فيما يظهر قد خلط بين ثورة شوذب وغيرها ، اذ اشار الى الثورة فى العراق ولم يحدد من قام بها ، ثم محاربة عبد الحميد لهم وهزيمة جيشه ، وقيام عمر بارسال جيش بقيادة مسلمة قضى عليهم ، ثم ذكر طلب عمر من بسطام مفاوضته . والذى يبدو لنا ان هذه حركة سبقت ثورة بسطام وقضى عليها عسكريا ، بعد ان دعوا فلم يجيبوا . يؤيد ماذهبنا اليه ورود النص بذلك عند : الطبرى ، نفس المصدر والجزء ، ص ٥٥٥ ـ ابن سعد الطبقات ، ٣٥٧/٥-٣٥٨ .

وعطفا على الرواية الأولى ، فان الرجل الذى ناظر عمرا اخبرهم بما جرى بينه وبين الخليفة ، فلما بلغهم حسن سيرته ورده المظالم ، اجتمعوا على عدم مقاتلته ، وقالوا : كفوا عنه ماتركِكم . فقال رسول عمر : وهو يكف عنكم مالم تفسدوا فنزل بسطام واصحابه حزة(١) من الموصل ، كما كتب عمر الى عبد الحميد ، بنتيجة المفاوضات ، وامره بالكف عنهم الا ان يقاتلوه(٢) . فظل محمد بن جرير البجلى وابن احوز بازائهم لم يقاتلوهم حتى مات عمر(٣) . ولنا ان نستبعد القول بتفكير عمر فى عزل يزيد ، وسم بنى امية له . فما كان عمر لينكث بيعة شملت يزيد معه بعهد سليمان ، بل نجده يوصى الى ولى عهده فى مرضه ، بالنصح للامة وتقوى الله ، وهذا يبطل من ادعى سمه . لكن الغالب انه قد نجح فى اقناع مناظريه من الخوارج وكانت سيرته وعدالته شفيعا له عند جماعتهم ، فى عدم قيام حجتهم عليه وبالتالى التوقف عن حربه ، فحمى الامة والدولة من شر فتنة مستطيرة ، ووفر كثيرا من الجهد والمال لجند الدولة وبيت مالها .

تجدد الحركة فى عهد يزيد بن عبد الملك :

نقف حائرين امام الخلاف حول ما انتهت اليه المناظرة بين رسولى شوذب والخليفة عمر بن عبد العزيز ، حيث ان

(١) حزة : بليدة قرب اربل من ارض الموصل ، وقد كانت قصبة كورة اربل قبل . وقد بناها اردشير بن بابك ، وقالوا حزة من ارض الموصل . (ياقوت : معجم ، ٢٥٦/٢) .

(٢) ابن الجوزى : سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ٦٧ ـ مجهول العيون ، ٤٦/٣-٤٧ ـ الاربلى : خلاصة ، ص ٢٠ .

(٣) مجهول : نفس المصدر والجزء ، ص ٤٧ .

الخلاف سيستمر بين الطبرى والمؤرخ المجهول فى سبب تجدد الحركة زمن الخليفة يزيد وكيفيته (١) . فالطبرى كمؤرخ له ميزة الاقدمية اتبعه آخرون كابن الاثير وابن خلدون ويظهر انهما نقلا عنه . لذا على روايته بعض المآخذ ، كقوله ان عمر طلب من مناظريه ان يمهلاه ثلاثة ايام ، ليبت فى صيرورة الامر من بعده ليزيد . وقد استبعدنا عزم عمر على تحويلها عن يزيد (٢) . كما اشار الى سم بنى امية لعمر ، وهذا مالانقره فهناك روايات اثبتت مرضه ، كما ان بنى امية لم يكن ليعجزهم ذلك قبل اذا ماعزموا عليه . وسنرى الطبرى كما سيتبين بعد يقول بمسارعة عبد الحميد بن عبد الرحمن الى قتال شوذب تقربا الى يزيد ، وهذا القول بعيد عن شخصية عبد الحميد التى عرفناها من مواقفه تجاه حركة ابن المهلب . والتى ظهر من خلالها تجنبه الفتنة وكرهه للقتال . وقد دعانا كل هذا الى العودة الى ترجمة معمر بن المثنى ابو عبيدة التيمى راوى هذا الخبر عند الطبرى ، فوجدناه مع سعة علمه خاصة فى الادب والنسب والاخبار ، قد رمى برأى الخوارج (٣) . وهذا يفسر جنوح الرواية الى جانب الخوارج ، بتوقف عمر عند رأيهم فى يزيد ، ومباداة عبد الحميد لهم فى القتال بعد وفاة عمر .

ومن هنا فاننا نقدم رواية المؤرخ المجهول ، وان تأخر زمنيا عن الطبرى ، لقربها من المنطق وتناسبها مع الاحداث .

---

(١) انظر الخلاف بين الطبرى والمؤرخ المجهول حول ذلك فى الصفحة السابقة .
(٢) انظر الصفحةقبل السابقة .
(٣) انظر ترجمته عند : ابن حجر : تهذيب ، ١٠/٢٢١-٢٢٢ — ابن حجر : تقريب التهذيب ، ص ٥٤١ .

فقد روى انه "لما مات عمر بن عبد العزيز وولى يزيد ابن عبد الملك عادت الخوارج الذين كانوا مع بسطام فتجمعوا وطلبوا الفتنة ، وكان يزيد بن عبد الملك قد اقر عبد الحميد على الكوفة فوجه عبد الحميد تميم بن الحباب فى الفين الى بسطام" (١) . وفيما يبدو انه قد تعرض لهم قبل ذلك محمد بن جرير وهلال بن احوز ، فهزما ، مما دعى الخليفة يزيد بن عبد الملك الى التدخل بنفسه فى الامر ، فاقر عبد الحميد على الكوفة وبعث من قبله (٢) تميم بن الحباب فى الفين للقضاء على شوذب ، فحاربهم ، فكان نصيبه القتل وهزم جيشه فلجا بعضهم الى الكوفة ورجع الآخرون الى يزيد ، فوجه جيشا آخرا بقيادة نجدة بن الحكم الأزدى فقتلوه ، وهزم اصحابه . ثم بعث اليهم الشحاج بن وداع فى الفين ، فلم يكن حظه اوفر ممن سبقه ، حيث كان نصيبه القتل ، وان كان قد قتل من اصحاب شوذب فى حربه بعض كبار اصحابه (٣) . وفى هذا القول مايوضح ماوصلت اليه قوة شوذب ، يصلبها صدق قتال الخوارج وان قل عددهم .

---

(١) العيون ، ٣/٦٤.لكن الطبرى : تاريخ الامم ، ٦/٥٧٥-٥٧٦ فيما ذهب اليه ، اشار الى مباداة ابن جرير لهم بالقتال ، بامر عبد الحميد ، فاقتتلوا ، وكان النصر للخوارج على جند ابن جرير الذى عاد الى الكوفة منهزما ، وقد اصيب هو نفسه ، كما قتل الكثير من جنده وكان شوذب واصحابه قد طاردوهم حتى الكوفة ، ثم عاد الى موضعه . وانظر ذلك ايضا عند / ابن الاثير : الكامل ، ٤/١٦٦ ـ ابن خلدون : العبر ، ٣/١٦٣ . لكنه لم يذكر سبب حرب عبد الحميد لهم .

(٢) ذكر المؤرخ المجهول ان الجيوش قد وجهت من قبل عبد الحميد ، كما انه لم يذكر حملة نجدة الازدى . انظر : العيون ، ٣/٦٤-٦٥ .

(٣) الطبرى : نفس المصدر والجزء والصفحات ـ ابن الاثير : نفس المصدر والجزء ، ص ١٦٦-١٦٧ ـ ابن خلدون : نفس المصدر والجزء والصفحة .

القضاء على شوذب :

تم القضاء على شوذب واصحابه على يد مسلمة بن عبد الملك اثناء مسيره للقضاء على حركة ابن المهلب . فانه لما دخل الكوفة شكا اليه اهلها مالقيوه من شوذب ، وخوفهم منه (١) فجهز جيشا من عشرة آلاف جعل قيادته لسعيد بن عمرو الحرشي ، (٢) ووجهه اليهم ، فدارت سنة ١٠١هـ الوقعة بين بسطام وجند (٣) الخلافة ، استبسل فيها الخوارج وكشفوا جند الشام ، فخشي الحرشي الفضيحة ، واستحث جيشه ، وحمل بهم على شوذب واصحابه ، فالحق الهزيمة بهم ، حيث قتل شوذب ، وكل اصحابه . (٤)

---

(١) لم نجد مسلمة قد دخل الكوفة اثناء مسيره الى ابن المهلب ، وانما عسكر في النخيلة من ارضها . (انظر ذلك قبل في مسيره اثناء عرضنا لاحداث ثورة ابن المهلب) .

(٢) سعيد بن عمرو الحرشي ، يعود نسبه الى الحريش بن كعب ابن ربيعة ، قائد من الولاه الشجعان ، كان تقيا بطلا، وصفه ابن هبيرة بفارس قيس . من أهل الشام ، هو الذى قتل شوذب الخارجي ، وفتك بمن معه سنة ١٠١هـ ، وولاه ابن هبيرة خراسان سنة ١٠٣هـ ، ثم عزله وسجنه ، لعلمه بمكاتبته للخليفة وانه لايعترف بامارته ، ثم عاد الى الشام بعد أن اخرجه خالد القسرى ، فولاه هشام سنة ١١٢هـ غزو الخزر ، ثم امره بالعودة من أرمينية ، وله ولد بها . (الزركلى : الأعلام ، ٩٩/٣) .

(٣) اورد يحيى بن الحسين خاطئا ان القضاء على شوذب كان سنة ١٠٤هـ . (انظر : غاية الامانى ، ص ١١٩) .

(٤) ابن الاثير : الكامل ، ١٦٧/٤ - مجهول : العيون ، ٦٥/٣ قال : (ان يزيد ارسل مسلمة واليا على العراق ، فوجه سعيدا الى الخوارج) - ابن كثير : البداية ، ط١ ، ٢٤٤/٩ - ابن خلدون : العبر ، ١٦٣/٣ (وقد حرف نسبه من الحرشي الى "الحريشي") - ثابت الراوى : العراق ، ص ٢٣٩ (الا انه قال : ان القضاء عليها كان بعد قتل يزيد بن المهلب ، كما انه ذكر اسم قائد الجيش محرفا "عمرو بن حريث" ولم يذكر مصدره) .

وبهذا النصر اراح مسلمة الدولة من ثائر كلفها الكثير من الجهد والمال والرجال ، وامن اهل الكوفة ، وتخلص من عدو متربص ، يخشى خطره ، فلم يكن بوسع مسلمة ان يتجه الى ابن المهلب ويترك الخوارج وراء ظهره ، حتى لايجد نفسه امام جبهتين قتاليتين في آن واحد . فقد يشغله هؤلاء عن مهمته الرئيسية ، ويستولي خطرهم على اهتمام جنده الكوفيين (١) .

---

(١) عواد الاعظمي : مسلمة ، ص ١٧٢-١٧٣ ..

(٢) حركة مسعود العبدي في البحرين واليمامة :

لم تكن حركة شوذب هي الحركة الوحيدة للخوارج في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ، فقد حفل عهده بعدد من الحركات ، من اهمها حركة مسعود بن ابي زينب العبدي(١) في البحرين واليمامة .

اذ خرج مسعود بالبحرين على الاشعث بن عبد الله بن الجارود ، فترك الاشعث البحرين وضبطها مسعود ، ثم سار الى اليمامة ، وكان أميرها سفيان بن عمرو العقيلي ، ولاه اياها عمر بن هبيرة . فخرج اليه سفيان في بني حنيفة بالخضرمة ، حيث دارت بينهما معركة شديدة ، انتهت بقتل مسعود بن ابي زينب . فتولى امر الخوارج بعده هلال بن مدلج فقاتل سفيان بقية يومه ، فقتل اناس من الخوارج منهم زينب اخت مسعود العبدي . وفي الليل تفرق عن هلال اصحابه وبقي في عدد قليل فتحصن بأحد القصور ، فنصبوا عليه السلالم وصعدوا اليه فقتلوه ، واستامن اصحابه ، فؤمنوا ، وقيل ان مسعود غلب على البحرين واليمامة تسع عشرة سنة حتى قتله سفيان بن عمرو العقيلي(٢) .

---

(١) مسعود بن ابي زينب العبدي ، من بني عبد القيس ، ثائر حروري ، من الأمراء الشجعان ، وثب في البحرين على الأشعث بن عبد الله بن الجارود ، فخرج الأشعث منها ، وسار مسعود الى اليمامة فامتلكها ، ثم قتله سفيان العقيلي ، وقيل غلب عليهما تسع عشرة سنة .(الزركلي : الأعلام ، ٢١٧/٧) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ١٩٠/٤ – ابن خياط : تاريخ ابن خياط ، ص ٣٣٩ – عبد الرحمن عبد الكريم النجم : البحرين في صدر الاسلام واثرها في حركة الخوارج ، رسالة ماجستير ، غير مطبوعة ، مقدمة لكلية الآداب ، جامعة بغداد ، ١٩٧١م ، ص ١٧٨ (نقلا عن / ابن خياط : تاريخ ابن خياط ، ص ٣٤٤ – انساب الاشراف ، ج٧ ، ورقة ١٢٥ – الكامل ، ١١٨/٥-١١٩ – ياقوت : معجم ، ٥٧٠/١-٥٧١ – ديوان الفرزدق ، ١١٩/١-٢٢٦ قال : وفي الديوان قيل : مولى لعبد القيس "يعني مسعود") – عماد الدين خليل : دراسة مقارنة (بحث) ، ص ٢٩٧-٢٩٨ .

وعلى قول من خبر ان القضاء عليها قد تم سنة ١٠٥هـ ، فهذا يعني نشؤها (سنة ٨٦هـ) . وقد كان أمير البحرين آنذاك قطن بن زياد بن الربيع الحارثي ، وليس الاشعث .(١)

ويبدو ان مقتلة الخوارج كانت في مكان يعرف "ببرقان"(٢) نستدل على ذلك من قول الفرزدق في هذا اليوم مادحا بني حنيفة :

ارين الحروريين يوم لقائهم
ببرقان يوما يجعل الموت اشقرا(٣)

لكن مع اتفاق هذه المصادر على نهاية هذه الحركة على يد سفيان بن عمرو العقيلي ، امير اليمامة ، المولى من قبل ابن هبيرة كما زعم ، الا اننا نجد اختلافا على بداية الحركة فابن خياط الذي نجده(٤) يقول بخروجه في ولاية ابن هبيرة - كانت ولايته على العراق من قبل يزيد سنة ١٠٢هـ حتى سنة ١٠٦هـ عندما عزل بخالد القسرى من قبل هشام - نجده في مكان آخر من نفس المصدر(٥) ، يقول بخروج مسعود في البحرين على الأشعث بن عبد الله بن الجارود سنة ٩٦هـ عندما ولاه اياها يزيد بن المهلب امير العراق من قبل سليمان . وحيث أن مصدرنا الرئيسي في تفصيلات القتال هو ابن الاثير ، الذى لم يحدد زمن خروجه ،ولكنه قال على الأشعث،وقد عرفنا تاريخ ولاية

---

(١) من اجل ذلك : انظر / ابن خياط : تاريخ ابن خياط ، ص ٣١٠ .
(٢) برقان اليوم في جنوب الكويت ، وهو من حقول الزيت المهمة . (انظر / عبد الرحمن النجم : البحرين ، هامش ص ١٧٨) . وقال ياقوت : برقان موضع بالبحرين قتل فيه مسعود بن أبي زينب . (معجم ، ٣٨٧/١) .
(٣) ابن الاثير : الكامل ، ١٩٠/٤ .
(٤) نفس المصدر ، ص ٣٣٦ .
(٥) ص ٣١٣ .

الأشعث وهي سنة ٩٦هـ . وهو لم يكن بعد ذلك أميرا للبحرين في خلافة يزيد بن عبد الملك (١) . فانا نستبعد على ضوء هذا القول استمرار حركته تسع عشرة سنة اعتمادا على انها بدات سنة ٨٦هـ ، لاجماع المصدرين الرئيسيين على حدوثها في امارة الأشعث سنة ٩٦هـ ، وهي على هذا الأساس يكون عمرها مايقارب عشر سنوات فقط اذا ماصح القول بالقضاء عليها أواخر عهد يزيد . غير اننا لانتوقع سكوت بني أمية على حركة خارجية هذه المدة الطويلة من الزمن ، وهي فترة كان صدرها زمن سليمان ثم عمر ، وقد امتازت بقوة الدولة وتمكنها من اخماد حركة كهذه بيسر . وعليه فاننا نجد في رواية المؤرخ المجهول (٢) مخرجا من هذا الاضطراب . اذ قال : ان الذي خرج بالبحرين هو اخو مسعود بعد قتل اخيه . ويبدو من قوله أن مسعود هو الذي خرج على الأشعث سنة ٩٦هـ ، بل اننا وجدنا ان سليمان قد ولى اليمامة سفيان العقيلي (٣) ، ويظهر أنه تولى مهمة القضاء على حركة مسعود عندما تقدم نحو اليمامة ، وأن هذا قد تم زمن سليمان بن عبد الملك لايزيد ، وهو الأولى .

حيث اننا وجدنا ان يزيد بن عبد الملك قد رد على ولاية البحرين واليمامة ابراهيم بن العربي (٤) ، اى بعد القضاء على حركة ابن المهلب التي شملت سيادتها هذه المناطق وكان ابن المهلب قد ولى البحرين ابان حركته هرم بن القرار

---

(١) انظر ولاة البحرين في خلافة يزيد بن عبد الملك ، بعد : الفصل الخامس ، المبحث الأول ، ص ٤٩٤-٤٩٥ .

(٢) العيون ، ٧٥/٣ .

(٣) ابن خياط : تاريخ ابن خياط ، ص ٣١٩ .

(٤) ابن خياط : نفس المصدر ، ص ٣٣٣. كان أميرها منذ خلافة عبد الملك ، فلما مات اقره عليها الوليد . (انظر : ابن خياط : نفس المصدر ، ص ٢٩٨-٣١١) .

العبدى (١) . وهذا يعنى أن الأشعث بن عبد الله الذى قامت عليه الحركة ، وسفيان العقيلى الذى قضى عليها ، كانا أميرى البحرين واليمامة زمن سليمان ، مما يؤكد قيامها والقضاء عليها فى عهده ، لازمن يزيد بن عبد الملك . الذى فيما يظهر ان الحركة التى قامت زمنه كانت بقيادة أخ مسعود ، فخلط بينهما المؤرخون ، ووسموا الأخيرة بسمات الأولى وأحداثها . الا أن المصدر الوحيد الذى وجدناه قد أشار الى حركة أخى مسعود لم يقدم لنا معلومات عن أحداثها وكيف تم القضاء عليها (٢) .

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم ، ٦٠٠/٦ .
(٢) المصدر الوحيد الذى وجدناه أشار اليها هو : العيون والحدائق ، للمؤرخ المجهول ، ٧٥/٣ .

(٣) حركة مصعب الوالبى :

نجد عند ابن الأثير (١) والمؤرخ المجهول (٢) ذكرا لحركة حرورية جديدة ، تزعمها رجل من رؤساء الخوارج ، هو : مصعب ابن محمد الوالبى (٣) ، فى العراق ، على عمر بن هبيرة أمير العراق من قبل يزيد بن عبد الملك ، والذى تسبب فى قيامها كما يبدو لنا ، ان مصعبا كان من رؤساء الخوارج فطلبه ابن هبيرة وطلب معه مالك بن الصعب ، وجابر بن سعد ، فخرجوا واجتمعوا بالخورنق (٤) ، وأمروا عليهم مصعب ومعه أخته آمنه ، فساروا عن ابن هبيرة ، فلما استعمل خالد القسرى على العراق من قبل هشام بعد ابن هبيرة ، بعث اليهم جيشا ، كانت قيادته لسيف بن هانىء ، وكانوا قد صاروا بحزة من أعمال الموصل فالتقوا ، واقتتلوا ، فهزم الخوارج وقتل زعيمهم مصعب الوالبى ، وقيل : كان قتلهم آخر أيام يزيد بن عبد الملك ، لكننا لم نجد لهم خبرا فى ولاية القسرى ، مما يرجح القضاء عليهم زمن يزيد ، اذ كيف يتركهم ابن هبيرة وقد خرجوا على الامام ، وكان قد طلبهم قبل الخروج واعلان الحركة .

---

(١) الكامل ، ١٩٠/٤ .
(٢) العيون ، ٧٥/٣ .
(٣) مصعب بن محمد الوالبى ، أمير ثائر ، كان له شان فى العصر المروانى ، خرج على ابن هبيرة فطلبه ، وسار بمن معه الى حزه بالموصل ، حتى بعث خالد القسرى ، جيشا ، تمكن من القضاء على حركته وقتله . (الزركلى : الأعلام ، ٢٤٧/٧-٢٤٨) .
(٤) الخورنق : موضع بالكوفة ، وقيل هو نهر ، والذى عليه أهل الأخبار والأثر انه قصر كان بظاهر الحيرة . (ياقوت معجم ، ٤٠١/٢) .

(٥) حركة عقفان :

خرج عقفان الحروري[1] على يزيد بن عبد الملك ، بناحية دمشق ، وكان عدد أصحابه ثمانين رجلا من الخوارج[2] .

ولقد كانت حركته تجربة ونهجا جديدا اتبعه الخليفة يزيد في مواجهة الخوارج والتعامل مع حركاتهم . حيث سلك الطريق السلمي في اخماد هذه الحركة .

فعندما اراد يزيد القضاء عليه عسكريا ، اشير عليه أن يبعث الى كل رجل من اصحاب عقفان رجلا من قومه يرده عن رأى الخوارج ، على أن يؤمنهم الخليفة . فقد قالوا للخليفة : ان قتل بهذه البلاد اتخذها الخوارج دار هجرة[3] . فوافقهم الخليفة على رأيهم . وسار اليهم أهلوهم ، وقالوا لهم انا نخاف أن نؤخذ بكم ، وامنوهم ، فرجعوا عن رأيهم وانفضوا من حول زعيمهم عقفان ، فبقى وحده ، فأرسل اليه يزيد أخاه فاستعطفه وامنه ، فرده وقد ترك رأى الخوارج ، بل انه خدم الدولة فتولى زمن هشام أمر العصاة ، ثم استعمل على الصدقة

---

(١) عقفان الحروري : لم أعثر له على ترجمة .

(٢) مجهول : العيون ، ٧٥/٣ - ابن الأثير : الكامل ، ١٨٩/٤-١٩٠ - عماد الدين خليل : دراسة مقارنة (بحث) ، ص ٥٩٨ .

(٣) لم تكن الشام مسرحا لثورات الخوارج ، حيث كان العراق مركزها ، لذا خشى الشاميون أن يسقى الدم البذرة الخارجية فى أرض الشام فتنمو بها ، وتورث الأحقاد صراعا حروريا سنيا لاينتهى هناك . فان الخوارج اذا ماقامت لهم ثورة فى مكان ما ، اعتبروه دار هجرة وجب على من على رأيهم الهجرة اليه ، بل أن الأزارقة ، كفروا القعدة ولو كانوا على دينهم . (انظر : الشهرستاني : الملل ، هامش ص ١١٨-١١٩،١٢١ - على الغرابي : تاريخ الفرق الاسلامية ، ص ٢٢٧) .

حتى توفى هشام[(١)] .

ولقد نجح هذا النهج ، وأخمدت هذه الفتنة ، دون عناء ويعلق عماد الدين خليل على نجاح سياسة يزيد السلمية ازاء عقفان بقوله : ان بمقدور يزيد أن يتأسى بسياسة سلفه ازاء هذه الكتلة بدل العنف واراقة الدماء ومايجره ذلك على الدولة من خسائر فى الأرواح والأموال ، وتفتت الوحدة وتغلغل الحقد فى النفوس . خصوصا بعد نجاح تجربته مع عقفان ، مما يعنى أنه ليست أساليب عمر وحدها التى نجحت فى هذا المجال[(٢)] . وهو هنا يرمز الى أسلوب عمر السلمى فى معالجة حركة شوذب الخارجى[(٣)] . لكننا وان وافقناه على نجاح عمر سلميا فى تعطيل حركة شوذب ، ويزيد فى انهاء حركة عقفان ، وأن الحل السلمى خير على الدولة والأمة . الا أننا نخالفه فيما يرمى اليه من وراء قوله ، وهو أنه كان على يزيد أن يعالج الحركات الخارجية التى ظهرت فى عهده سلميا كما فعل عمر ونجح هو مع عقفان . فعمر لم ينجح فى التعامل مع كل الحركات الخارجية التى قامت فى عهده سلميا ، بل اضطر الى اخماد بعضها عسكريا عندما لم تستجب الحرورية الى توجيهاته[(٤)] . وماكان

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ١٨٩/٤-١٩٠ ـ مجهول : العيون ، ٧٥/٣ ـ عماد الدين خليل : دراسة مقارنة (بحث) ص ٢٩٨ .

(٢) نفس المرجع والصفحة .

(٣) انظر قبل : ص ٢٣٢-٢٣٣ .

(٤) خرجت الحرورية على عبد الحميد بن عبد الرحمن أمير الكوفة ، زمن عمر ، فلما دعاهم بأمر عمر ، ولم يستجيبوا أمره عمر بقتالهم ، فحاربهم وهزم جيشه ، فبعث عمر اليهم جيشا من قبله بقيادة مسلمة بن عبد الملك فهزمهم . ويبدو أن هذه الخارجة سبقت شوذب فى القيام على عبد الحميد فى العراق . (انظر عن ذلك / ابن سعد : الطبقات ، ٣٥٧/٥-٣٥٨ ـ الطبرى : تاريخ الأمم ، ٥٥٥/٦) . كما خرجت خارجة أخرى فى الموصل على=

يزيد ليسعى الى الحرب مع امكانية دك الفتنة سلميا ، خصوصا وقد رايناه قد عمل بذلك مع عقفان ، ودعى ابن المهلب من قبل الى السلم ، ومساظن جنده قد قاتلوا خارجيا قبل أن يدعوه الى الجماعة وترك الفرقة والخلاف . وهل ردت الدعوات السلمية من على رضى الله عنه قبل فرقة المحكمية عن غيها .

اننا نرى يزيد بن عبد الملك قد تمكن من تتبع الخوارج واخماد حركاتهم المتعددة ، فى شيء من السرعة واليقظة والقوة . ولقد أدت هزائمهم المتلاحقة فى عهده ، الى ضعف أمر الخوارج لسنوات لاحقة (١) .

= يحيى الغسانى عامل عمر بن عبد العزيز على الموصل ، فدعوا ولم يجيبوا ، اذ لم تفلح معهم الطرق السلمية ، ولم تقنعهم الحجة ، وأبوا الا القتال (انظر حركتهم عند / ابن الجوزى : سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ٩٤-٩٦) .

(١) نايف محمد معروف : الخوارج فى العصر الأموى ، ص ١٧٥ .

(*) هذا وقد اورد المؤرخ المجهول صاحب العيون والحدائق ، ٧٥/٣ ، أنه فى عهد يزيد بن عبد الملك حدثت حركة اخرى من حركات الخوارج ، ينسبها الى سعيد بن بحدل . ولكن برجوعنا الى المصادر السابقة والموثوق بها ، اتضح لنا أن هذه الحركة انما حدثت فى عهد يزيد بن الوليد ابن عبد الملك (الناقص) سنة ١٢٦هـ . عن ذلك انظر / ابن خياط : تاريخ ابن خياط ، ص ٣٧١ ومابعدها - الطبرى : تاريخ الأمم ، ٣١٦/٧ ومابعدها - ابن الاثير : الكامل ، ٢٨٩/٤-٢٩٠ ، ٢٩٥-٢٩٦ . وقد ورد اسم هذا الخارج فى المصدرين الأخيرين (سعيد بن بهدل) ، ولعل ذلك تحريف لاسمه .

المبحث الثالث

حركة شيريم اليهودى

نعم اهل الذمة برعاية الدولة الاسلامية والأمن فى حماها وحسن المعاملة من المسلمين فى ظل سماحة مبادىء الاسلام وانسانية تعاليمه ، كما تمتعوا بحريتهم الدينية التى تبيحها شريعة الاسلام لرعايا دولته . وهكذا تم التعايش السلمى بين الديانات تحت مظلة الدولة الاسلامية وشريعتها السمحة ، الا أن بقاء بعض الأفكار والمعتقدات عند غير المسلمين والتفكير فى احيائها ، ولو كان ذلك مخالفا لشرائع الاسلام أو سيادة دولته ، أدى الى قيام بعض الحركات التمردية ، والصدام بين تلك الفئات غير المسلمة مع سلطان الدولة الاسلامية .

فان الكنيس اليهودى (١) لم يحل فى قلوب اليهود محل

---

(١) الكنيس اليهودى : مكان يجتمع فيه اليهود للعبادة منذ أيام موسى عليه السلام ، واستعملت الكلمة للدلالة على جماعة من اليهود يتلاقون لغرض دينى ، وبعد هدم الهيكل لأول مرة ، ازدادت أهمية الكنيس ، وأصبح فى القرون الوسطى المركز الاجتماعى والثقافى للحياة اليهودية ، وكانت اقامة الطقوس والعبادات فيه بسيطة لاتحتاج الى كاهن معين (رسمى) ، أما الآن فيعين لكل كنيس كاهن يقوم بالشعائر الدينية فيه . (الموسوعة العربية الميسرة : تاليف مجموعة من الأساتذة المتخصصين برئاسة الاستاذ/محمد شفيق غربال ، دار نهضة لبنان للطبع والنشر ، بيروت ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، ١٤٨٦/٢-١٤٨٧) . وهو غير (الكنيست) ، وهى كلمة عبرية تعنى حرفيا (مكان الاجتماع) ، ويسمى المعبد اليهودى "بيت هاكنيست" أى المكان الذى يجتمع فيه اليهود ، وتستخدم هذه الكلمة الآن فى اسرائيل للاشارة لمجلس البرلمان الاسرائيلى ، وقد تم تكوينه لأول مرة فى فبراير ١٩٤٩م ، ويتكون من (١٢٠) عضوا . (انظر / عبد الوهاب المسيرى : موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٧٤م ، ص ٣١٤) .

الهيكـل[(١)] بكـل معـانى الحلول ، فقد ظل أمل اليهودى ان يقدم القربـان ليهوة[(٢)] ، فى يوم من الأيام أمام قدس الأقداس على تل صهيـون[(٣)] ، مما عرضه لخداع من ادعى أنه "المسيح المنتظر"[(٤)] فى

---

(١) الهيكـل : هـو أهـم مبنى للعبادة اليهودية فى فلسطين شـيده سـليمان عليه السلام ، وهدمه البابليون عام ٥٨٦ ق.م ، ثـم اعيد بناؤه عام ٢١٥ ق.م ، وادخل المكابيون والحشمونيون بعض التعديلات والتجديدات عليه ، ثم قام هـيرود بتوسيعه ، وبنى حوله سورا عاليا ولكن الرومان حطموا الهيكل عام ٧٠م على اثر ثورة قام بها اليهود . (عبد الوهـاب المسـيرى : موسوعة المفاهيم ، ص ٤٢٥) . وانظـر بتوسع : حسن ظاظا : ابحاث فى الفكر اليهودى ، الطبعة الأولى ، مطبوعات دار القلم ، دمشق ، ١٤٠٧هـ ، ص ٤٥،٥٢،٥٣ .

(٢) يهـوه : اسم لله ورد فى سفر الخروج ، وهو لفظ عبرى ، معنـاه الموجود او الكائن ، او الذى كان ، وقد اطلقت التـوراة اسم يهوه على الله فى المواضع التى اعتبرته فيهـا الـه اليهـود وحدهم ، وهو الذى أعلن نفسه بهذا الاسم لموسـى النبـى ـ عليـه السلام ـ وكلفه أن يبلغه لليهـود كى يعرفوه بهذا الاسم ، اذ جاء فى سفر الخروج "فقال موسى لله هاانا آتى الى بنى اسرائيل واقول لهم الـه آبـائكم أرسلنى اليكم ، فاذا قالوا لى ما اسمه ، فمـاذا اقـول لهـم ؟ فقـال الله لموسى ... هكذا تقول لبنـى اسـرائيل ، يهـوه الـه آبـائكم ، الـه ابراهيم والـه اسحق واله يعقوب أرسلنى اليكم ، هذا اسمى الى الأبـد (الخروج ٣/١٣-١٥) . انظر / زكى شنودة : اليهود نشـاتهم وعقيـدتهم ومجـتمعهم ، من واقع نصوص التوراة كتـابهم المقدس ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، الطبعـة الأولـى ، ١٩٧٠م ، ص ٢٩٢-٢٩٣ . واشار الى ذلك (محمد خليفـة التونسـى (مترجـم) : الخـطر اليهـودى (بروتوكولات حكماء صهيون) ، الطبعة الرابعة ، ص ٢٦،٦١)

(٣) صهيون : قيل هى : الروم ، وقيل : البيت المقدس ، قلت موضع معروف بالبيت المقدس ، محلة فيها كنيسة صهيون . (ياقوت : معجم ٣/٤٣٦) . وقالت ابكار السقاف : هو آخر حـصون كنعـان ، وقـد امتلكـه داود . انظـر كتابهـا : اسـرائيل وعقيـدة الأرض الموعـودة ، عـالم الكـتب ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٧م ، ص ٣٦٦ .

(٤) المسـيح المنتظـر : ينتظـر اليهـود مسـيحا يخلصهم من الخـضوع للأمميـين على شرط الا يكون فى صورة قديس ، كما ظهـر عيسـى بـن مـريم ـ عليـه السلام ـ كى يخلصهم من الخطايـا الخلقيـة ، لذلك انكروه ، لكنهم يشترطون أن يكـون فـى صورة ملـك مـن نسل داود يعيـد الملك الى اسرائيل ، ويخضع الممالك كلها لليهود ،وذلك بالقضاء =

كل الأوقات . (١)

وهذا ما استغله بعض الدجالين اليهود ، فقامت على ايديهم بعض الحركات اليهودية ، من ذلك ماحدث عام (١٠١ – ١٠٢هـ/٧٢٠م) حين أعلن شيريم (Sereme) (٢) وهو يهودي سوري أنه المسيح المنتظر ، والمنقذ لليهود ، وسير حملة لانتزاع فلسطين من المسلمين . فغادر يهود بابل واسبانيا مواطنهم ليشتركوا في هذه المغامرة (٣) . بل قيل : انه لما سمع بخبره عرب الأندلس ، وكان بعضهم من أهل الشام ، صدقوا مقالته ، فعادوا الى سوريا وقد تركوا الغنائم التي غنموها ، والمساكن التي ارتضوها ، فضبط عنبسة بن سحيم الكلبي (أمير الأندلس ١٠٣ – ١٠٧هـ) ، الأملاك التي تركوها ، وحولها لبيت

= على السلطة في كل الأقطار الأممية ، اذ يعتبرون السلطة على شعوب العالم من اختصاص اليهود ، حسب وعد الله وتقديره . (محمد التونسي : نفس المرجع ، ص ٥٨) . وأضافت ابكار السقاف : أن هذه الفكرة باستعادة الدولة الزائلة في الأرض الموعودة ، على اعتبار أن فلسطين منحة من الرب يهوه لبني اسرائيل منذ عهد ابراهيم ، تولدت عند اليهود في غضون الأسر البابلي ، فتحولت الى عقيدة . (انظر : نفس المرجع ، ص ٣٦٨-٣٧٤).

(١) ديورانت : قصة الحضارة ، ٧٦/١٤ .

(٢) أورده شكيب أرسلان اسم هذا الدعي "زوناريا" . حيث قال "خرج في سورية نبي كذاب اسمه زوناريا" . انظر : غزوات العرب ، ص ١١٢-١١٣) .

(٣) ديورانت : قصة الحضارة ، ٧٦/١٤-٧٧ – توفيق اليوزبكي : تاريخ اهل الذمة في العراق ، ص ٣٠٩ (نقلا عن : ديورانت : قصة الحضارة ، ٧٧/١٤-٧٨) الا انه حرف النص فقال : ان شيريم اعلن انه سيسير باليهود ويحملهم على انتزاع فلسطين من المسلمين . ولم يقل سَيّر حملة .... كما انه أشار الى ان يهود فارس تبعوه ويهود العراق والأندلس . واخيرا ، قال : بان القائم بها قبض عليه ولم يقل أسر ، كما نص على ذلك ديورانت . وهذا يعني انه اراد ان يقول ان شيريم اعلن عن عزمه ، لكنه قبض عليه قبل تسيير الحملة . وهذا يخالف مانص عليه ديورانت ، الذي أخبر بتسيير الحملة ، وأسر صاحبها . وهذا ماجعلنا نقف عند قول اليوزبكي اذ أن مصدره الوحيد ديورانت ، فلم نجد مبررا لتحريفه ، واضافته).

المـــال .[1]

الا ان القـــائم بهـــا أسر ، وعرضه الخليفة يزيد بن عبد الملك على النـاس على أنه مهرج دجال[2] ، ثم أمر به فقتل[3] .

ويغلـــب عـــلى الظـــن ان هذه الحركة ، لم تصل الى مرحلة التنفيـــذ ، فيبـــدو انـــه قد تم اكتشاف أمر شيريم وهو لايزال يدعو الى حركته ، ويعد نفسه للقيام بحملته . واليهود أجدر النـــاس بـــابرام المؤامرات وتدبـــير الدســائس فى سرية تامة وتنظيـم دقيـــق . نقول هذا مع أن ديورانت[4] قد نص على تسييره الحملـــة لانتزاع فلسطين ، ووقوع القائم بها فى الأسر . وهذا يعنـــى مواجهـــة الدولـــة فى عهد الخليفة يزيد لهذه الحركة ، واخمادهـــا . لكـــن اغفـــال المصـــادر الاسلامية لهـــذه الحركـــة اليهوديـــة ، دعانـــا الـــى القول باحتمال انكشاف أمر القـــائم عليهـــا ، وأن حركته لازالت فى مرحلتها السرية ، وأن قيامها ـ ان صح ذلـــك ـ كـــان نتيجـــة لعقـــائد يهوديـــة باطلة ، رجى أصحابها أن تتحقق ، فكانوا ضحية الأدعياء منهم .

---

(١) شكيب أرسلان : غزوات العرب ، ص ١١٢-١١٣ .
(٢) هـــو فـــى الحقيقـــة دجال ، لأنه ادعى ماليس حقا ، ففكرة المسيح المنتظر ، دعوى يهودية باطلة . (انظر / قبل : هامش ٤ ص ٢٤٩-٢٥٠) .
(٣) ديورانت : قصة الحضارة ، ١٤/٧٦-٧٧ .
(٤) نفس المرجع والجزء والصفحة .

المبحث الرابع

حركة بلاى

لم يعد المشرق الاسلامى وحده موطنا للحركات التمردية ، فان توسع رقعة الدولة الاسلامية ، وما انضوى تحت لوائها من اجناس وقوى ، لم تدخل فى دين الاسلام ، ولم يجد الولاء لحكومته طريقا الى نفوس بعض اهلها، جعلها حربا على الاسلام ودولته . ومن تلك القوى ، بقايا القوط فى الأندلس ، الذين التفوا حول رجل منهم يدعى بلاى ، خرج بهم على سلطان المسلمين فى الأندلس ، وقاد حركة المقاومة النصرانية هناك .

منشا الحركة :

تختلف المصادر العربية وغير العربية على منشا حركة بلاى من حيث التاريخ والكيفية ، بل وتقدم لنا روايات متضاربة عن احداث هذه الحركة ، نموها وموقف المسلمين منها، حتى تعذر على المؤرخ الوصول الى الحقيقة التى لاشك فيها ، بل وقلما يتفق مؤرخان على شىء منها ، وان حدث فالاختلاف وارد على غيره .

فتختلف المراجع على بلاى وكيفية قيامه بالامر ، فمنها مايذهب الى انه كان حامل سيف لذريق (آخر حكام القوط الذى تم الفتح فى زمنه،بعد ان قضى عليه المسلمون سنة ٩٢هـ) وانه هرب مع الفل الى جليقيه ، فجمع الناس حوله ، وحارب بهم المسلمين . ومنها مايشير الى انه كان منفيا من طليطلة

بسبب خلاف حدث بينه وبين غيطشة وقيل مع لذريق ، ففر الى كنتبرية أو اشتريس فلما لجا الفل الى هذه النواحى دعاهم الى حرب الفاتحين ، فولوه أمرهم .

وبعض المصادر ، كالمقرى (١) يشير الى أن بلاى من اهل اشتوريش من جليقية ، كان رهينة عن طاعة أهل بلده ، فهرب من قرطبة ايام الحر بن عبد عبد الرحمن (سنة ٩٨هـ) ، وثار النصارى معه ، على نائب الحر ، فطردوه ، وملكوا البلاد (٢) .

وبلاى كما يذكر حسين مؤنس (٣) ابنا لفافيلا دوق كنتبرية ، وأن فافيلا كان قد استقر فى تودة عاصمة كنتبرية فى ذلك الحين ، بعيدا عن البلاط القوطى فى طليطلة ، على اثر نزاع قام بينه وبين الملك "أجبكا" ، وقد تجدد النزاع بعده مع خلفه الملك غيطشة ، لطمع غيطشة فى زوجه "أم بلاى" أو لسبب آخر ، ففر مرة اخرى الى كنتبريه ، حيث مات هناك مخلفا ابنه بلاى ، الذى انضم الى لذريق (٤) وأعانه عندما وثب على غيطشة ، فلما ادرك العرش ، كافا بلاى بان جعله "حامل سيفه" واستمر على هذا حتى فتح المسلمين لشبه الجزيرة الايبيرية .

---

(١) نفح الطيب فى غمن الأندلس الرطيب ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، نشر دار الكتاب العربى ، بيروت ، والمجلد الاول ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر بيروت ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ، ٣٥٠/٤ .

(٢) جمع هذه الروايات المتناقضة حسين مؤنس فى كتابه : فجر الأندلس ، ص ٣١٤،٣١٨-٣٢٠ . وقد حاول التوفيق بينها والوصول الى تسلسل منطقى للأحداث . انظر : نفس المرجع ، ص ٣٣٣-٣٣٥ . ورايه اجتهادا منه خالفه فيه او فى بعضه ، بعض المؤرخين كخليل السامرائى . (انظر كتابه : الثغر الأعلى ، ص ١٠٨) .

(٣) نفس المرجع ، ص ٣٣٣-٣٣٤ - وخليل السامرائى : نفس المرجع ، ص ١٠٢-١٠٣ .

(٤) هناك رواية تذكر انه كان على خلاف مع لذريق فنفاه عن طليطلة ، فاقام نفسه أميرا على اشتريس . انظر ذلك عند / حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ٣١٨ .

وأيا كان بلاى وقصته حتى تزعم المقاومة ضد المسلمين ، فانه ظهر كمناوىء للسيادة الاسلامية على اسبانيا فى ولاية الحر بن عبد الرحمن على الأندلس (١) ، اذ يخبرنا المقرى : أن أول من جمع فل النصارى بالأندلس بعد غلبة العرب لهم شخص يدعى بلاى من أهل اشتوريش من جليقية ، كان رهينة عن طاعة أهل بلده ، فهرب من قرطبة أيام الحر بن عبد الرحمن ، سنة ٩٨هـ ، وخرج معه النصارى على نائب الحر فطردوه ، وملكوا البلاد (٢) . كما نجد شكيب أرسلان يشير الى قيامه على الحكم الاسلامى زمن الحر وانه أول ملك للأسبان بعد دخول العرب للأندلس (٣) . لكن الأمر على مايبدو لم يصل الى اخراج حاكم الاقليم المسلم من خيخون مركز الناحية . وانما كان اعلانا للتمرد ، أدى فى الغالب الى مناوشات بين نائب الحر والمتمردين ، الا أن عزل الحر وتولية السمح الأندلس ، لم يمكن السلف من مباشرة الأمر بنفسه ، وتولى السمح هذه المهمة ، فبعد أن اطمأن على استقرار الأمور داخليا ، وأعد

---

(١) الحر بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان الثقفى ، أمير الأندلس لسليمان بن عبد الملك ، وليها بعد مقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير ، وكانت الأندلس فى أيامه تابعة لوالى افريقية . (الزركلى : الأعلام ، ١٧٢/٢) . لكنه أخطأ عندما قال باستمراره الى سنة ١٠٦هـ وعزل بعنبسة بن سحيم . اذ الصحيح أنه عزل من قبل عمر بن عبد العزيز بالسمح بن مالك سنة ١٠٠هـ . (انظر /ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ج.س.كولان ، ا.ليفى بروفنسال ، ج١ دار الثقافة بيروت ، ج٢ ليدن هولندا ، مطبوعات ا.ج.بريل ١٩٥١م ، ٢٦/٢ - محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام فى الأندلس ، من الفتح الى بداية عهد الناصر - العصر الأول - القسم الأول ، الطبعة الرابعة ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٣٨٩هـ ، ص ٧٤ .

(٢) نفح الطيب ، ٣٥٠/٤ - خليل السامرائى : الثغر الأعلى ، ص ١٠٣ .

(٣) غزوات العرب ، ص ٦٧ .

جيشه لخوض غمار الحروب ، توجه الى المناطق الشمالية من الاندلس ، فحارب عصاة المسيحيين ، وهزمهم ، واجبرهم على اللجوء الى المعاقل الجبلية في الاستريا س (١) . غير أن هزيمة المسلمين واستشهاد قائدهم السمح بن مالك فى معركة طولوشة فى بلاد الغال ، قد اوجد الفرصة للمتمردين بقيادة بلاى من معاودة نشاطهم ضد المسلمين (٢) . لكن عبد الرحمن الغافقى ــ الذى ارتد بالجند بعد الانكسار فى معركة طولوشة الى الاندلس فولاه اهلها امرهم حتى قدوم الوالى الجديد ــ تمكن من اخماد بوادر الخروج التى ظهرت فى الولايات الجبلية الشمالية (٣) .

قيام بلاى ابان ولاية عنبسة الكلبى :

اخذت حركة بلاى فى ولاية عنبسة بن سحيم (١٠٣ ــ ١٠٧هـ) بعدا اكبر ، اذ تشير مجموعة من المصادر والمراجع الى أن بلاى قام بجليقية فى ولاية عنبسة ــ امير الاندلس زمن يزيد بن عبد الملك ــ فحرض أهل البلاد ، ودعاهم الى حرب المسلمين ،

---

(١) محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والاندلس ، دار الوفاء للطباعة ، القاهرة ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ص ١٩٧ .

(٢) عبد الرحمن بن عبد الله بن بشر بن الصارم الغافقى ، امير الاندلس ، من كبار القادة الغزاة الشجعان ، أصله من غافق من قبيلة عك باليمن ، رحل الى افريقية ، كثرت جموعه بعد مقتل السمح سنة ١٠٢هـ ، فانتقل الى اربونة ، فانتخب أميرا من المسلمين ، وأقره والى افريقية ، فنشا خلاف بينه وبين عنبسة بن سحيم (احد القادة) فعزل عبد الرحمن وولى عنبسة مكانه ، ثم ولاه هشام امارة الاندلس سنة ١١٢هـ ، فخرج لفتح بلاد الغال وتوغل فيها ، الا أنه استشهد فى معركة بلاط الشهداء سنة ١١٤هـ . وذكر فى حاشيته أن من المؤرخين من أرخ لوفاته سنة ١١٥هـ و١٢٢هـ والاصح ماقدمناه . (الزركلى : الأعلام ، ٣/٣١٢-٣١٣) . وترجم له فى ايجاز ابن حجر . (انظر : تهذيب ، ٦/١٩٧) .

(٣) محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام ، ص ٨١-٨٢ .

ودافع عن ارضه ، فاخذ نصارى الأندلس فى مدافعة المسلمين عما[1] بقى بيديهم من أرضهم ، وكانوا لايطمعون فى ذلك[2] . ويفهم من هذا القول أن بلاى يعتبر منشىء حركة المقاومة النصرانية ، ومجدد دولة النصرانية فى الأندلس ، وأن نهوضه بها كان الحجر الأول فى بنائها الجديد[3] . وأن زمن عنبسة كان بدايتها عندما استجاب أهل جليقية لبلاى وعملوا على حرب المسلمين ومدافعتهم عن ارضهم ، وان كان نجاحهم قد تحقق بعد ذلك .

وبطبيعة الحال تصدت لهذه الحركة القوة الاسلامية المتواجدة فى المنطقة الشمالية ، فقد سكن المسلمون تلك المناطق ، وتركوا بعد الفتح حامية فى خيخون ، ونائب يحكم المنطقة تحت امرة الوالى ، الا انه ليس لدينا تفصيلات عن القوات التى تولت اخماد الحركة . غير أن القول بمدافعته عن ارضه ومدافعة النصارى المسلمين عما بأيديهم ، يعنى مقاومة الجيش الاسلامى الذى حاول القضاء على الحركة[4] . ويشير منطق الأحداث الى فشل الحامية الاسلامية وحاكم الاقليم فى التصدى للمتمردين ، واخماد حركتهم ، فصارت الأمور فى صالح بلاى[5] ، الذى بادر الى اخراج المسلمين . اذ نجد حسين مؤنس يشير الى قيام بلاى على الحاكم المسلم ، الذى يملك اطراف جهته ، فنفاهم عنها . اى أخرج المسلمين عنها ، ونحن نعلم

---

(١) فى هذا القول اشارة الى ان بلاى كان مستقلا بناحيته ، وله أرضه التى فيما يبدو أنها الصخرة وماحولها .
(٢) حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ٣٢٤-٣٢٥،٣٢٧ ـ المقرى : نفح الطيب ، ١٧/٣ ، ١٥/٤-١٦ ، ٣٥٠-٣٥١ ـ خليل السامرائى : الثغر الأعلى ، ص ١٠٥ .
(٣) حسين مؤنس : نفس المرجع ، ص ٣٢٤ .
(٤) خليل السامرائى : نفس المرجع ، ص ١٠٥ .
(٥) نفس المرجع ، ص ٣٢٧ .

ان حاكم الاقليم كان مركزه خيخون ، وهذا يعني اخراج بلاى للمسلمين من خيخون واستيلائه عليها . يعزز ماذهبنا اليه ، رواية تقول ان العرب استولوا على خيخون مدة قصيرة من (سنة ٩٥هـ/٧١٥م - ١٠٣هـ/٧٢٢م) لان الأمير بلاى اول امير اسبانى مستقل بعد مجيء العرب ، استرجعها وصارت مركزا لملوك اشتوريش (١) . وهذه السنة التي استعاد فيها بلاى خيخون كما تشير الرواية ، هي اول حكم عنبسة في الاندلس (سنة ١٠٣هـ) . مما يعني انه استولى عليها فعلا عندما قام على نائب عنبسة وهذا مادفع عنبسة الكلبي ان يقوم بنفسه الى بلاى لاخماد حركته واعادة السيادة الاسلامية على تلك الانحاء ، اذ يُذكر

ان عنبسة توجه على رأس قوة عسكرية الى منطقة جليقية ، فقام بتوطيد سلطة الدولة وقضى على مظاهر المقاومة فيها ، عدا بلاى ومن التف حوله ، فقد لجأوا الى الجبال وابوا ان يلقوا السلاح ، فتركهم المسلمون (٢) . وهذا يعني دحر بلاى ومن معه الى المناطق الجبلية ، واستعادة خيخون وفرض السيطرة الاسلامية على جليقية من جديد، مع بقاء المقاومة تتربص بالمسلمين ، منتظرة الوقت المناسب للانقضاض عليهم .

---

(١) شكيب ارسلان : الحلل السندسية في الاخبار والآثار الاندلسية ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٣٥٥هـ ، ٥٨/٢ .

(٢) خالد الصوفي : تاريخ العرب في الاندلس ، الفتح وعصر الولاة (٩٢-١٣٨هـ/٧١١-٧٥٦م) ، منشورات الجامعة الليبية ، كلية الآداب ، بنغازي ، ١٣٩١هـ/١٩٧١م ، دار النجاح ، بيروت ، ص ٢٢٠-٢٢١ .

الحركة بعد عهد يزيد بن عبد الملك :

ظل بلاى فيما يبدو يرقب الأوضاع ، فعندما رأى اضطراب المسلمين بعد انكسارهم فى بلاط الشهداء سنة ١١٤هـ ، قوى أمره مرة أخرى ، لكن عقبة بن الحجاج السلولى والى الأندلس (١١٦ - ١٢٣هـ) تمكن من رد بلاى الى الصخرة ، وعمت فتوحاته جليقية كلها (١) . الا انه فى أعقاب فترة هذا الوالى ، واضطراب أمر الأندلس ، بفتنة ابى الخطار وثوابه (٢) ، وحركات البربر فى شمال افريقية (٣) ، استفاد بلاى من هذه الظروف ، فأخرج المسلمين من اشتريس ، ويبدو أن أهل استورقه من المسلمين حاربوه ، لكنه هزمهم ، اذ تشير المصادر الى معركة تسمى "كوفا دونجا" (٤) لقى فيها المسلمون الهزيمة ، واستطاع بلاى على أثرها اخراج المسلمين من جليقية كلها ، وتنصر كل مذبذب فى دينه (٥) . ويرجح حسين مؤنس ان هذه المعركة حدثت سنة ١٣٣هـ أو مابعدها . وأن وفاة بلاى كانت بعد ذلك بقليل من

---

(١) خليل السامرائى : الثغر الأعلى ، ص ١٠٨ .

(٢) انظر اخبار هذه الفتنة التى قامت على أساس العصبية بين المضرية واليمنية ، عند / أحمد مختار العبادى : تاريخ المغرب والأندلس ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الاسكندرية ، ص ٩٤-٩٥ .

(٣) عن ثورات البربر العامة سنة ١٢٢هـ ، بزعامة ميسرة المطغرى ، ومن خلفه . (انظر / أحمد العبادى : نفس المرجع ، ص ٩٠-٩٣) .

(٤) انظر أخبارها عند / حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ٣٢١-٣٢٢ - خليل السامرائى : نفس المرجع ، ص ١٠٥-١٠٦ .

(٥) حسين مؤنس : نفس المرجع ، ص ٣٢٦ - خليل السامرائى : نفس المرجع ، ص ١٠٩ .

نفس السنة . لقد كانت هذه الوقعة حاسمة (١) ، فقد مهدت لدولة اشتريس ، فثبتت قواعدها ، على نحو لم يستطع المسلمون ازالتها بعد ذلك ، وبذلك كانت حركة بلاى حادثا فاملا فى التاريخ الاسبانى اذ انها كانت البداية الحقيقية لحركة المقاومة النصرانية ضد المسلمين فى الأندلس (٢) .

---

(١) فجر الأندلس ، ص ٣٣٠-٣٣١ ـ وقد وافقه خليل السامرائى الثغر الأعلى ، ص ١٠٩ . حيث أن بعض المؤرخين ذهبوا الى أن هذه المعركة حدثت فى أيام عنبسة الكلبى . (انظر هذا القول عند / حسين مؤنس : نفس المرجع ، ص ٣٢٩) . لكننا نذهب الى ماوصل اليه حسين مؤنس فى التاريخ لهذه المعركة ، وأن بلاى وان قام على عنبسة ، الا أن معركة كوفادونجا لم تحدث فى زمنه ، لأنها كانت تعنى نجاح حركة المقاومة ، وتأسيس دولتها النصرانية وهذا لم يحدث الا بعد عهد عنبسة الكلبى .

(٢) حسين مؤنس : نفس المرجع ، ص ٣٣٦-٣٣٧ ـ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ص ١٦٩ .

المبحث الخامس

حركة أخيلا

خروجه على السمح بن مالك فى الأندلس والقضاء على حركته :

لم يكن بلاى الرجل الوحيد الذى سعى الى اعادة الحكم القوطى فى اسبانيا ، بل أن هناك من شاركه هذا لأمر ، وهو أخيلا بن غيطشة [(١)] ، الذى تعاون مع المسلمين الفاتحين ظنا منه انهم سيكتفون بالغنائم ، ويتركون له البلاد ، فلما تبين له هدفهم ، وان الفتح للفتح والدعوة للاسلام ، مما يعنى البقاء والاستقرار ، تمرد عليهم ، وخرج على سلطانهم .

وقد كان أخيلا يقيم فى مدينة طركونة [(٢)] الأندلسية ، عندما

---

(١) كان غيطشة ملكا على اسبانيا من سنة (٨١-٩٠هـ/٧٠٠-٧٠٩م) وقد قام ببعض الأعمال التى أثارت عليه نقمة أهل البلاد ، حيث عمل على تولية ابنه الطفل "أخيلا" حاكما على ولايتى أربونة وطركونة ، تحت وصاية عمه رخشندش ، فلما توفى غيطشة ، تولت زوجته تدبير ملكه فى طليطلة فتغلب عليها لذريق ، فلجأ آل غيطشة الى جليقية ، وحاولوا استرداد عرشهم ، لكنهم هزموا أمام لذريق ، ويبدو أن أخيلا هرب الى افريقيا وأقام عند يوليان حاكم سبتة ، ودعا المسلمين الى فتح اسبانيا . وكان ابناء غيطشة يأملون من وراء تعاونهم مع المسلمين أن يعود اليهم ملك أبيهم ، وأن المسلمين سيكتفون بالغنائم ويتركون البلاد لهم . وقد كان لأخوى أخيلا وهما بالمندو وأرطباس دور فى هزيمة لذريق أمام المسلمين فى معركة وادى بكة (سنة ٩٢هـ) ، اذ كانا معه فخذلاه وتعاونا مع المسلمين . (خليل السامرائى : الثغر الأعلى ، ص ٣٨٢-٣٨٥) .

(٢) طركونة : بلدة بالأندلس ، متصلة بأعمال طرطوشة ، وهى مدينة قديمة على شاطىء البحر ، وهى بين طرطوشة وبرشلونة ، بينها وبين كل واحدة منهما سبعة عشر فرسخا . (ياقوت : معجم ، ٣٢/٤) .

استولى عليها المسلمون على يد الحر بن عبدالرحمن الثقفي[(١)] ، ضمن النواحي التي استكمل المسلمون فتحها بعد حركة الفتح الأولى للاندلس[(٢)] . وقد ظن اخيلا ان المسلمين سيتركون ناحية طركونة له ، كما ظن غيره من آل غيطشة ان المسلمين يتركون البلاد لهم ، فلما وجد اخيلا المسلمين مقيمين في البلاد وانه لن يصل الى العرش على ايديهم ، خرج عليهم في طركونة ، فسار اليه السمح بن مالك الخولاني[(٣)] (١٠٠ - ١٠٢هـ) ، واخضع البلد واخمد التمرد[(٤)] . ومن المحتمل ان السمح قضى على هذه الحركة وهو في طريقه الى بلاد الغال (فرنسا) غازيا (سنة ١٠١هـ) ومواصلا فتوحات المسلمين فيها[(٥)] .

---

(١) كانت ولاية الحر بن عبد الرحمن على الاندلس بين عامي (٩٧-١٠٠هـ) . (انظر / احمد العبادي : تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٨٦) .

(٢) عن فتح الاندلس . (انظر /احمد العبادي : نفس المرجع ، ص ٥١-٧٨) .

(٣) السمح بن مالك الخولاني ، أمير من بني خولان من قضاعة، استعمله عمر بن عبد العزيز على الاندلس ،وأمره أن يميز أرضها ، ويخرج ماكان فتحه عنوة فيأخذ منه الخمس، وأن يكتب اليه بصفة الأندلس ، فقدمها سنة ١٠٠هـ ، وفعل ما أمره به عمر ، واستشهد غازيا بأرض الفرنجة ، وكانت قرطبة عاصمته ، وهو الذي بني قنطرتها (ت ١٠٢هـ) . (الزركلي : الأعلام ، ١٣٩/٣) .

(٤) حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ٥٠٦-٥٠٧ (نقلا عن/ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٥ - سيمونيت ، ص ١٧٠-١٧١) . لكنه اشار الى انزال السمح شيئامن التخريب بطركونة ، كما سنجده بعد ذلك يقول بنهب عنبسة لها عند حديثه عن قضائه على نفس الحركة بعد تجددها في ولايته . وهذا القول ، لايتناسب مع شخصية السمح التي عرفت بحسن السيرة والتدين ، بل انه يظهر ان المؤلف استقاها من المراجع الاجنبية والتي ما انفكت تسعى الى تشويه التاريخ الاسلامي ، واعمال قادته وفتوحاتهم المجيدة ، وهم براء من ذلك ، فقد اتهمت بعض المراجع الغربية السمح بالقسوة وتهديم الأديرة والكنائس في الغال كذلك ، وهذا ماسنناقشه لاحقا اثناء الحديث عن فتوحاته - خليل السامرائي : الثغر الأعلى ، ص ٣٨٥-٥٨٦ . ولم يشر الى مايسيء لطبيعة الفتح من تخريب ونهب .

(٥) خليل السامرائي : نفس المرجع والصفحة .

وهـذا يدفعنا الى التاريخ لعمل السمح هذا باواخر عهد عمر بـن عبـد العزيـز ، او مطلع زمن الخليفة يزيد بن عبد الملك ، وهذا مانقدمه ، لارتباط هذا العمل بخروج السمح الى بلاد الغـال . والذى فيمـا يبدو انه حدث مطلع زمن الخليفة يزيد بن عبد الملك .(١)

وبـالنظر فـى هـذه الاقوال يتضح ان هذه الحركة لم تقم لاخـراج المسلمين من الأندلس ، فقد تبين لأبنـاء غيطشة ، عزم المسلمين علـى الاستقرار ، وانهم لم ياتوا ليعيدوا اليهم ملـك ابيهـم ، وقـد اتضـح هذا بجلاء فى أعقاب الفتح الأول ، عندمـا اسرع طارق بن زياد الى طليطلة ، ليمنع محاولة اخيلا نفسـه الـذى مـا ان تحقق النصر للمسلمين على لذريق فى معركة وادى البربـاط (سـنة ٩٢هـــ) ، حتى عجل الى طليطلة لاسترجاع ملـك ابيه ، فوصلها طارق قبل أن يوافق مجمع طليطلة الدينى على قرار تعيينه ملكا على اسبانية ، ليتاكد اخيلا واخوته ، ان هـدف المسـلمين هـو البقـاء ، والعمل على نشر الاسلام فى اسـبانية وماوراءهـا ، فرضـوا عـلى مضض بالضياع التى كانت لأبيهـم وحـملوا على عهد بذلك من المسلمين .(٢) لكن اخيلا فيما يبـدو كان يطمع ان يترك له المسلمون له ناحيته وهى طركونة فلمـا وجـدهم جاءوا لفتحها واستولوا عليها ، تمرد عليهم ، سـاعده على ذلك مكانته بين أهلها منذ عهد ابيه(٣) ، بل وربما يكون لوجود كنيسة جامعة على راسها مطران(٤) ، فى هذه المدينة

---

(١) سنبين ذلك اثناء حديثنا عن حملة السمح على بلاد الغال محاولين الوصول الى التاريخ الصحيح لخروج الحملة .
(٢) خليل السامرائى : الثغر الأعلى ، ص ٣٨٢-٣٨٥ .
(٣) انظر قبل : ص ٢٦٠ ، هامش (١) .
(٤) حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ٥٠٦-٥٠٧ .

اثر فى دفع أهلها الى هذه الحركة وتحريضهم على المسلمين . ويبدو أن القضاء على هذه الحركة لم يكلف السمح كبير عناء اذ كان يقود حملة أعدت لما هو اعظم من هذا التمرد ، فلم يزد على اخمادها ، بل ظهر تسامحه مع الخارجين ، اذ عفا عن أخيلا ، وتركه على حاله فيها ، وهذا ماسيؤدى الى تجدد حركته بعد ذلك .

تجدد الحركة في ولاية عنبسة بن سحيم وقضائه عليها :

يبدو أن أخيلا بن غيطشة حاول استغلال هزيمة المسلمين فى بلاد الغال فى معركة طولوشة سنة ١٠٢هـ (١) ، واضطراب امر الولاية بعد استشهاد أميرها السمح بن مالك فى هذه المعركة فاعلن التمرد من جديد (٢) ، وانتقض اهالى طركونة على عنبسة بن سحيم الكلبى (٣) ، لكن الأمير الجديد لم يكن اقل همة من سلفه فقد سارع الى اخماد حركتهم ، حيث زحف اليهم ، فدك حصونهم واقتص من زعمائهم ، وقد استسلم أخيلا ، وانتقل الى طليطلة

---

(١) انظر عن هذه المعركة : أحمد مختار العبادى : تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٨٧ . وسنعرض لهذه الموقعة بالتفصيل فى الفصل الرابع من هذا البحث ، فى ثنايا الحديث عن فتوحات المسلمين فى بلاد الغال .

(٢) حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ٥٠٦-٥٠٧ - خليل السامرائى : الثغر الأعلى ، ص ٣٨٥-٣٨٦ .

(٣) عنبسة بن سحيم الكلبى ، فاتح من الغزاة الشجعان ، كان عامل على الأندلس ، وليها سنة ١٠٣هـ ، وأوغل فى غزو الفرنج ، يرى ايزيدور اسقف باجه فى ذلك العصر ، ان فتوحات عنبسة كانت فتوحات حذق ومهارة اكثر منها فتوحات بطش وقوة ، وتضاعف خراج بلاد الغال فى أيامه ، وقد افتتح قرقشونة صلحا ، وأوغل فى بلاد فرنسا فعبر نهر الرون الى الشرق ، أصيب فى بعض الوقائع فمات شهيدا سنة ١٠٧هـ . (الزركلى : الأعلام ، ٩١/٥) . لكنه قال : كان عاملا على الأندلس من قبل هشام ، والأصح تولاها من قبل يزيد ، ثم اقر زمن هشام حتى استشهد . (انظر / احمد العبادى : نفس المرجع والصفحة) .

فاقام فيها ، ولم يحاول الخروج على المسلمين بعد ذلك (١) .
ويظهر ان عنبسة اخرجه من طركونة لالتفاف اهلها حوله ، فازال رأس الفتنة لئلا تظهر من جديد ، كما فرض على أهل طركونة غرامة مضاعفة (٢) . واظنه يقصد الجزية او ماصولحوا عليه ، فاستقرت بذلك البلاد داخليا واستتب الأمن فيها ، وساد النظام والعدل ربوعها (٣) .

اما اخيلا ، فقد استعرب ابناؤه من بعده ، اذ نجد في أحد النصوص اسم احد أحفاده وهو حفص بن البر قاضي العجم (٤) .

ان تجاوز المسلمين جبال البرتات الى بلاد الغال ، وقد خلفوا وراءهم بعض الخصوم ، أوجد مجالا لهؤلاء المتربصين ، في تنظيم حركاتهم ، والخروج على سلطان الفاتحين ، فان المسلمين وان تمكنوا من القضاء على حركات بعض هؤلاء ، كتمرد اهل طركونة بقيادة أخيلا ، الا أن غيرها تمكن من الثبات في ظل غياب قوة المسلمين ، واحتقار شان المتمردين وقد تمثل هذا في حركة بلاى ، التي استغلت كثيرا من العوامل لتصبح نواة المقاومة المسيحية للوجود الاسلامي في الأندلس .

---

(١) حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ٥٠٦-٥٠٧ ـ خليل السامرائي : الثغر الأعلى ، ص ٣٨٥-٣٨٦ ـ شكيب ارسلان : غزوات العرب ، ص ٨٥ ـ محمد محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس ، دار الوفاء للطباعة ، القاهرة ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ص ٢٠٠ .
(٢) شكيب أرسلان : نفس المرجع والصفحة .
(٣) محمد زيتون : نفس المرجع والصفحة .
(٤) حسين مؤنس : نفس المرجع والصفحة .

الفصل الثالث

مرسوم الخليفة يزيد بن عبد الملك
بتكسير الأصنام والتماثيل والصلبان وإزالة الصور وهدم الكنائس المستحدثة

الفصل الثالث

مرسوم الخليفة يزيد بن عبد الملك

بتكسير الأصنام والتماثيل والصلبان
وازالة الصور وهدم الكنائس المستحدثة

كان للخليفة يزيد بن عبد الملك سياسته الادارية والمالية تجاه أهل الذمة ، والتى اتسمت بشىء من التشدد والعسف فى النواحى المالية (١) . وان كانت تلك السمة لم تقتصر على أهل الذمة بل شملت جميع رعايا دولته .

ومن أهم تلك الاجراءات التى اتخذها الخليفة يزيد حيال النصارى ، المرسوم أو القرار الذى أصدره بخصوص النصارى ومعابدهم وبعض مظاهر عبادتهم . والذى يؤسف له انه لم يصل الينا نصه ، لافى المصادر العربية ولاغير العربية من يونانية ، ولاتينية ، وسريانية ، وارمينية .

لكننا عرفنا بهذا المرسوم مما ذكر عنه فى عدد من المصادر العربية الخاصة بمصر الاسلامية ، أربعة منها مصادر اسلامية ، ومصدر واحد قبطى كتب باللغة العربية ، وهى :

ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ) : فتوح مصر ، والكندى (ت ٣٥٠هـ) : كتاب الولاه وكتاب القضاة ، والمقريزى (ت ٨٤٥هـ) : الخطط المقريزية ، وابن تغرى بردى (ت ٨٧٤هـ) النجوم الزاهرة ، والمصدر القبطى ل : ساويرس بن المقفع (عاش فى القرن الرابع الهجرى) : سير الآباء البطاركة (٢) .

---

(١) أوردنا سياسته الادارية والمالية ، نحو أهل الذمة فى ثنايا حديثنا عن مجمل سياسته الادارية والمالية ، (انظر : الفصل الخامس) .

(٢) تجدر الاشارة الى اقتصار ذكر هذا المرسوم فى المصادر العربية اسلامية ومسيحية على المصادر الخمسة المشار اليها اعلاه ، والخاصة بمصر الاسلامية . الى جانب ماذكر=

ونستعرض الآن ماأورده كل مؤرخ من هؤلاء المؤرخين الخمسة حول هذا المرسوم ، لنصل الى صيغة ذلك القرار وماتضمنه ، ولنناقشه في ضوء ماذكر عنه في المصادر والمراجع الأجنبية القديمة والحديثة .

أولا : نص ابن عبد الحكم (١) ، قال خلال حديثه عن حمام زبان : "وكان فيه صنم من رخام على خلقة المرأة عجب من العجب حتى كسر في السنة التي أمر يزيد بن عبد الملك فيها بكسر الأصنام ، وكان أمر بكسرها في سنة اثنين ومائة (٢) " .

ثانيا : نص الكندي (٣) ، قال : "وكتب يزيد بن عبد الملك في سنة أربع ومائة يامر بكسر الأصنام فكسرت كلها ، ومحيت التماثيل ، وكسر فيها صنم حمام زبان بن عبد العزيز الذي يقال له حمام ابي مرة وله يقول كريب بن مخلد الجيشاني :

من كان في نفسه للبيض منزلة

فليأت أبيض في حمام زبان

عبل (٤) لطيف هضيم الكشح (٥) معتدل

على ترائبه (٦) في الصدر شديان"

= عنه في المصادر الأجنبية التي تبين مداه وأهميته فيها اكثر من المصادر العربية . والحق اننا لم نعثر له على ذكر في مصادر التاريخ الاسلامي العام أو غيرها من المصادر العربية ، ولانعلم لذلك سببا .

(١) فتوح مصر ، طبعة ليدن ، ١٩٢٠م ، ص ١١٣-١١٤ .

(٢) ماأورده ابن عبد الحكم عن هذا المرسوم جاء عرضا ، عند ذكره لحمام زبان ، فلم يقدم معلومات وافية عنه .

(٣) كتاب الولاة وكتاب القضاة ، تهذيب وتصحيح رفن كست ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٩٠٨م ، ص ٧١-٧٢ .

(٤) عبل : ضخم ، وامرأة عبلة ، أي تامة الخلق ، والأعبل حجارة بيض . انظر : اللسان (عبل) .

(٥) الكشح : مابين الخاصرة الى الضلع الخلفي ، وهو من لدن السرة الى المتن ، وقيل جانبا البطن ، وقيل الخصر . وهضيم الكشح أي دقيق الخصرين . انظر : اللسان ، (كشح) .

(٦) الترائب : موضع القلادة من الصدر ، وقيل مابين الترقوة الى الثندوة ، وقيل عظام الصدر ، وقيل ماولي الترقوتين منه ، وقيل مابين الثديين والترقوتين . انظر : اللسان (ترب) .

ثالثا : نص المقريزى فقوله[(١)] : "ثم هدمت الكنائس وكسرت الصلبان ومحيت التماثيل وكسرت الأصنام باجمعها وكانت كثيرة فى سنة أربع ومائة والخليفة يومئذ يزيد بن عبد الملك" .

رابعا : نص ابن تغرى بردى[(٢)] الذى قال : وخرج - يعنى حنظلة بن صفوان عامل يزيد بن عبد الملك على مصر (١٠٢ - ١٠٥هـ)-سنة ثلاث ومئة الى الاسكندرية واستخلف على مصر عقبة ابن مسلم التجيبى ، "ثم ورد عليه كتاب الخليفة يزيد بن عبد الملك بن مروان بكسر الأصنام والتماثيل ، فكسرت كلها ومحيت التماثيل من ديار مصر وغيرها فى ايامه " .

خامسا : المصدر القبطى للمؤرخ ساويرس بن المقفع[(٣)] فنصه "ثم تولى بعده - يعنى بعد عمر بن عبد العزيز - يزيد ومانحسن بشرح ماجرى فى أيامه ولانذكره من السوء والبلاء لأنه سلك طريق الشيطان وحاد عن طريق الله ، وأول ماأخذ المملكة أعاد الخراج الذى كان عمر قد رفعه عن البيع والأساقفة سنة واحدة وحمل على الناس ثقلا عظيما حتى فاق كل من فى بلاده ، ولم يكتف بهذا فقط حتى أمر بكسر الصلبان فى كل مكان وكشط الصور الذى فى البيع لأنه كان قد أمر بذلك ، لكن السيد المسيح أهلكه لأجل ذلك وأخذ نفسه بعد أن ناله قبل موته بلايا كثيرة وكان مدة مقامه فى الملك سنتين وأربعة شهور" .

---

(١) كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المعروف بالخطط المقريزية ، مؤسسة الحلبى وشركاه للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ٤٩٣/٢ .

(٢) النجوم ، ٢٥٠/١ .

(٣) كتاب سير الآباء البطاركة ، باريس ، ١٩٠٣م ، ١٥٣/١ . (وتجدر الاشارة الى خطأ مدة خلافة يزيد التى ذكرها، والصحيح انها أربع سنوات وشهر) .

ومن هذه النصوص نستخلص أن المرسوم تناول المسائل الآتية الخاصة بالنصارى وعبادتهم :

اولا : الأمر بتكسير الأصنام ، ذكر ذلك ابن عبد الحكم والكندى والمقريزى وابن تغرى بردى . ولم يذكره ساويرس ابن المقفع . ويتضح من هذا أن البلاد المفتوحة كان بها بقايا من آثار الوثنية القديمة ، ممثلة فى بقاء نماذج من الأصنام كصنم حمام زبان الذى ورد فى نص ابن عبد الحكم والكندى،وهو عبارة عن تمثال لجسد امرأة حسناء (١) . ويتبين أن الخليفة يزيد اراد بذلك تطهير الدولة الاسلامية من بقايا الوثنية ومظاهرها ، وصبغ مظاهر الحياة فى دولته بالسمة الاسلامية .

ثانيا : وتضمن المرسوم محو التماثيل (٢) ، أورد ذلك الكندى والمقريزى وابن تغرى بردى .

ويرجح أن المقصود بمحو التماثيل ، هو محو الصور (٣)

---

(١) انظر وصف هذا التمثال شعرا فى نص الكندى ، قبل : ص ٢٦٧ .

(٢) محا : محا الشيء يمحوه ويمحاه محوا ومحياء أذهب أثره، والمحو لكل شيء يذهب اثره . ومحا لوحه يمحوه محوا ، فهو محو ، والماحى من أسماء الرسول صلى الله عليه وسلم محا الله به الكفر وآثاره . انظر : اللسان (محا) .

(٣) ورد لفظ التماثيل بمعنى الصور فى عدد من الأحاديث النبوية المحرمة للتصوير ، منها : ماروى عن عائشة رضى الله عنها قالت : دخل على النبى صلى الله عليه وسلم وقد سترت سهوة لى بقرام فيه تماثيل ، فلما رآه هتكه وتلون وجهه وقال : "ياعائشة أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله " قالت عائشة فقطعناه فجعلنا منه وسادة أو وسادتين . رواه مسلم . (انظر هذا الحديث واحاديث أخرى أوردت لفظ التماثيل بمعنى الصور عند / الشيخ عبد العزيز بن باز، الجواب المفيد فى حكم التصوير ، الرئاسة العامة لادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد ، ادارة الطبع والترجمة ، المطابع الأهلية للأوفست ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، ١٤٠٦هـ ، ص ٥ ومابعدها) .

وازالة التماثيل الدينية ، وبخاصة ماوجد منها داخل الكنائس . وليس المقصود من ذلك فيما يبدو تكسير الأصنام ، لأن النصوص فصلت في ذلك وقالت بكسر الاصنام ومحو التماثيل ، كما ان ساويرس بن المقفع افصح عن المقصود بذلك ، فلم يقل بمحو التماثيل ، وقال : "وكشط الصور" (١) .

والصور المستهدفة بهذا المرسوم هي عموم الصور لكل ذى روح ، يتضح ذلك من عمومية اللفظ في النصوص الواردة حول المرسوم ، وماأوردته المصادر من ان تنفيذ المرسوم شمل فيه التحطيم عموم الصور بناء على أمر الخليفة (٢) . وقد جاء هذا التعميم لأن الاسلام يحرم التصوير وصور وتماثيل كل ذى روح ، وان كان بعض المؤرخين الأجانب اشاروا الى أسباب أخرى وراء اصدار المرسوم بمحو الصور والتماثيل (٣) .

وقد جاء تحريم الصور والتماثيل في ديننا الحنيف لحكمة بالغة ، هي البعد عن مظاهر الوثنية وحماية العقيدة من الشرك وعبادة الأصنام ، فنهى القرآن عن عبادة الأصنام وشنع على من كان يعكف عليها وندد بمن يتخذ الاصنام والأوثان آلهة ، من ذلك قوله تعالى : {قال اتعبدون ماتنحتون . والله خلقكم وماتعملون} (٤) . وقال : {ياايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون} (٥) . وايضا قوله تعالى : {وقالوا

---

(١) انظر كامل النص في الصفحة قبل السابقة .
(٢) انظر ماسنكتبه عن تنفيذ مرسوم يزيد ، وماتم على اثر تنفيذه ، بعد : ص ٢٨٥، ٢٨٧، ٢٩١، ٢٩٣ .
(٣) سنشير الى المصادر الأجنبية التى اشارت الى هذا المرسوم وماأوردته من أسباب اصداره ، انظر بعد : ص ٢٨٦ ومابعدها .
(٤) الصافات : ٩٥، ٩٦
(٥) المائدة : ٩٠

لاتذرن آلهتكم ولاتذرن ودا ولاسواعا ولايغوث ويعوق ونسرا . وقد اضلوا كثيرا ولاتزد الظالمين الا ضلالا } (١) . وقوله : { انما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون افكا ... } (٢) .

كما نهت السنة النبوية المطهرة عن اتخاذ الصور والتنفير منها (٣) . ومعلوم أن عبادة غير الله شرك ، وعبادة الاصنام والتماثيل والصور شرك ، وقد بين عز وجل حكم من أشرك به فقال : { إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا } (٤) .

اما فيما يخص حكم التصوير والصور وماهى فيه ، فيقول الشيخ عبد العزيز بن باز (٥) : "جاءت الأحاديث الكثيرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الصحاح والمسانيد والسنن دالة على تحريم تصوير كل ذى روح آدميا كان أو غيره ، وهتك الستور التى فيها الصور ، والأمر بطمس الصور ولعن المصورين وبيان انهم اشد الناس عذابا يوم القيامة " . ثم ذكر جملة من الأحاديث الصحيحة الواردة فى هذا الباب ، سنوردها نحن بألفاظ النصوص التى خرجناها ، ومنها : مارواه البخارى بسنده عن الأعمش عن مسلم قال : "كنا مع مسروق فى دار يسار ابن نمير ، فرأى فى صُفّته تماثيل فقال : سمعت عبد الله قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : ان اشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة المصورون" (٦) .

---

(١) نوح : ٢٣،٢٤

(٢) العنكبوت : ١٧

(٣) حسنين ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، دار وهدان للطباعة والنشر ، ص ١١٠-١١١ وهامش (١٦) منها .

(٤) النساء : ١١٦

(٥) الجواب المفيد فى حكم التصوير ، ص ٣ .

(٦) البخارى مع فتح البارى ، ٣٩٦/١٠،٤٠٠ ـ صحيح مسلم ، ١٦٧٠/٣ ـ مسند الامام احمد ، ٣٧٥/١،٤٢٦ ، ٢٦/٢،٥٥ .

ومارواه البخارى بسنده عن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم انها اشترت نمرقة فيها تصاوير ، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قام على الباب فلم يدخل ، فعرفت فى وجهه الكراهة ، فقالت يارسول الله أتوب الى الله والى رسوله ، ماذا اذنبت ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مابال هذه النمرقة ؟ قالت فقلت اشتريتها لك لتقعد عليها وتوسدها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ان اصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، ويقال لهم أحيوا ماخلقتم ، وقال : ان البيت الذى فيه الصور لاتدخله الملائكة " (١) .

ومارواه مسلم عن سعيد بن أبى الحسن قال : جاء رجل الى ابن عباس فقال : انى رجل أصور هذه الصور ، فافتنى فيها ، فقال له : ادن منى ، فدنا منه ، ثم قال ادن منى فدنا حتى وضع يده على راسه . فقال : انبئك بما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "كل مصور فى النار ويجعل له بكل صورة صورها نفسا فتعذبه فى جهنم " (٢) .

ومارواه أبو داود بسنده عن جابر رضى الله عنه : "ان النبى صلى الله عليه وسلم أمر عمر بن الخطاب زمن الفتح وهو بالبطحاء أن ياتى الكعبة فيمحو كل صورة فيها ، فلم يدخلها النبى صلى الله عليه وسلم حتى محيت كل صورة فيها " (٣) .

---

(١) البخارى مع فتح البارى ، ٣٥٩/٦ ، ١٥٧/٩ ، ٣٩٦/١٠، ٤٠٢، ٤٠٦ ـ صحيح مسلم ، ١٦٦٩/٣ .

(٢) صحيح مسلم ، ١٦٧٠/٣ ـ مسند الامام أحمد ، ٣٠٨/١ .

(٣) سنن أبى داود بشرح عون المعبود ، ٢١٢/١١ ـ مسند الامام أحمد ، ٣٣٥/٣، ٣٣٦، ٣٨٣، ٣٩٦ .

وماروا ه مسلم بسنده الى أبى الهياج الأسدى قال : "قال لى على بن أبى طالب : ألا أبعثك على مابعثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن لاتدع تمثالا الا طمسته ، ولاقبرا مشرفا الا سويته" . وروى عن أبى بكر بالاسناد المتقدم بلفظ "ولاصورة الا طمستها" (١) .

ومن ذلك أيضا ، ماروا ه البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنه يقول : سمعت أبا طلحة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لاتدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولاصورة تماثيل" (٢) . وغيرها من الأحاديث الكثيرة فى هذا الباب (٣) .

---

(١) صحيح مسلم ، ٦٦٦/٢ ـ النسائى ، ٨٨/٤ ـ مسند الامام أحمد ، ١٣٨،٨٧/١ ـ سنن البيهقى ، ٣/٤ بدون لفظ "ولاصورة الا طمستها" ـ جامع الترمذى ، ١٥٠/٤ وقال حديث على حديث حسن والعمل على هذا عند بعض أهل العلم . وقال الألبانى فى هذا الاسناد علة وهى عنعنة حبيب فقد كان مدلسا ولم يصرح بالتحديث فى شىء من هذه الطرق اليه ، لكن الحديث صحيح فان له طرقا أخرى يتقوى بها (ارواء الغليل ، ٢٠٩/٣) .

(٢) البخارى مع فتح البارى ، ٤٤٦،٤١٤،٣٥٩/٦ ، ٣٦٧/٧ ، ١٥٧/٩ ـ صحيح مسلم ، ١٦٦٥/٣-١٦٦٦ ـ سنن أبى داود بشرح عون المعبود ، ٢١٠،٢٠٧/١١ ـ جامع الترمذى بشرح تحفة الأحوذى ، ٨٨/٨-٨٩،١٠٧،١٣٩،١٤٦،١٤٨،١٥٠،٢٧٧ ، ٩٠/٣ ، ٢٨/٤،٢٩،٣٠ ، ١٤٣/٦،٢٤٦،٣٣٠ .

(٣) لمزيد من هذه الأحاديث فى هذا الباب ، انظر كتب الحديث باب الصور والتصوير ، وكذلك : عبد العزيز بن باز : الجواب المفيد فى حكم التصوير ، ص ٤-١٠ ـ وكذلك كتابه الفتاوى ، كتاب الدعوة ، سلسلة نصف سنوية تصدر عن مؤسسة الدعوة الاسلامية الصحفية ، المملكة العربية السعودية ، الرياض ، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ ، ١٩/١-٢٠ . وهناك أحاديث أخرى عنده ، وانظر أيضا / أحمد تيمور : التصوير عند العرب ، أخرجه وزاد عليه الدراسات الفنية والتعليقات ، زكى محمد حسن ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٢م ، ص ١١٩ .

وعلى أساس هذه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نجد أن الاسلام حرم التصوير والصور والتماثيل ، وتبين أن التحريم للتصوير جاء على العموم لكل ذى روح ، وأن ذلك من كبائر الذنوب المتوعد عليها بالنار،وهى حرمة عامة لأنواع التصوير ، سواء كان للصورة ظل أم لا ، وسواء أكان التصوير فى حائط او ستر أو قميص أو قرطاس أو مرآة او غير ذلك ، واستعمال ماهى فيه ودخول البيت الذى هى فيه ، الا اذا كانت فيما يمتهن او قطع رأس المصوَّر ، ولايجوز تعليقها أو نصبها فى أى مكان ، لأن ذلك وسيلة للشرك بالله ولأن فى ذلك مضاهاة لخلق الله وتشبها بأعداء الله (١) .

ونقل الشيخ عبد العزيز بن باز (٢) قول النووى فى شرح مسلم فى باب تحريم التصوير قوله : قال أصحابنا وغيرهم من العلماء : تصوير صورة الحيوان حرام شديد التحريم ، وهو من الكبائر لأنه متوعد عليه بهذا الوعيد الشديد المذكور فى الأحاديث ، وسواء صنعه بما يمتهن أو بغيره ، فصنعته حرام بكل حال ، لأن فيه مضاهاة لخلق الله تعالى فى أى شىء كان ، وأما تصوير ماليس فيه روح كالشجر فليس بحرام . هذا حكم التصوير ، أما اتخاذ المُصَوَّر فيه صورة حيوان فانه ان كان معلقا على حائط أو ثوبا ملبوسا أو عمامة أو نحو ذلك ، مما

---

(١) عما كتبناه أعلاه وتفاصيل اوفى واشمل : انظر : الشيخ عبد العزيز بن باز : الجواب المفيد فى حكم التصوير ، ص ١٠-١٣ ـ وله أيضا : الفتاوى ، ١/١٨-٢٠ ـ أحمد تيمور : التصوير عند العرب ، ص ١٢٠ ـ زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ١٦٣-١٦٤ .

(٢) الجواب المفيد فى حكم التصوير ، ص ١٣-١٤ ، ولمزيد من الفائدة حول هذا الموضوع انظر كامل الكتيب .

لايعــد ممتهنــا ، فهــو حــرام ، وان كان فى بساط يداس ومخدة ونحوهما مما يمتهن فليس بحرام ، ولافرق فى هذا بين ماله ظل ومــالاظل لــه . وقــال : ان هــذا تلخيص مذهبنا وبمعناه قال جمهور العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، وهو مذهب الثورى ومالك وأبى حنيفة وغيرهم (١).

وليس ثمــة شــك فــى أن تحريم الاسلام للصور والتماثيل - بنــاء عــلى ماورد بشأنه فى القرآن والسنة - كان هو الدافع وراء قــرار الخليفة يزيد بن عبد الملك بتكسير الأصنام ومحو الصور والتماثيل (٢).

ثالثا : وتضمن المرسوم أيضا الأمر بهدم الكنائس . وقد انفــرد بذكر ذلك من المصادر العربية المقريزى (٣). والبين أن المقصــود بقولــه هدم الكنائس أى الكنائس المستحدثة ، التى

---

(١) تجدر الاشارة الى أن من الدارسين المحدثين من يرى أنه لايراد تعميم تحريم التصوير فى كل زمان ومكان ، خصوصا اذا أمــن جــانب العبــادة والتعظيــم ، وذلــك لمــا فــى التصويــر مــن فوائــد ، ويــرى بعضهــم أن حــكم التصوير الكراهــة فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم لا التحريم ومــن المستشرقين مــن قال : ان القرآن لم ينه عن عمل الصــور والتماثيل ، وان النبى صلى الله عليه وسلم لم ينــه عــن ذلك ، وأن هذه الكراهة نشأت بين الفقهاء فى القــرن الثانى الهجرى ، وأن الأحاديث المنسوبة للرسول صلى الله عليه وسلم حول ذلك موضوعة .
ونحــن نشير الى هذه الآراء ، للعلم والاحاطة لا تصديقا لهــا أو تسليما بهــا ، بــل ندفعهــا وندحضها ، لثبوت تحــريم التصويــر والتماثيل ، بما ورد من آيات قرآنية وأحــاديث نبويــة صحيحــة ثابتــة ، ذكرنا بعضا منها فى الصفحات السابقة .
من أجل هذه الآراء الآنفة الذكر ، (انظر / أحمد تيمور : التصويــر عنــد العــرب ، ص ١١٩، ١٢١-١٢٢، ١٢٨-١٢٩ - زكى محــمد حسن : فنون الاسلام ، ص ١٦٣-١٦٤، ٦٧٠-٦٧١ . وانظر أيضا فى هذا الصدد بحث كريزول :
Creswell, K.A.C : The Law Fulness of Painting in Early Islam, in Ars Islamica, XI-XII, 1946).

(٢) حسـنين ربيـع : دراسـات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١١١ .

(٣) انظر النص الذى أورده قبل : ص ٢٦٨ .

بناها المسيحيون بعد الفتح الاسلامى . حيث أن الصلح جرى بين المسلمين واهل الذمة على ان لاتهدم بيعهم ولاكنائسهم ، والا يحدثوا بناء بيعة ولاكنيسة ، فان فعلوا شيئا من ذلك عوقبوا واخذ منهم .(١)

ونستعرض الآن مقتطفات من عهود الصلح التى أبرمها المسلمون مع اهالى البلاد المفتوحة فيما يخص اعطاءهم الأمان على مابأيديهم من الكنائس وعدم استحداث غيرها .

فقد ذكر أبو يوسف أن خالد بن الوليد صالح أهل الحيرة على أن لايهدم لهم بيعة ولاكنيسة ، وبقراءة الكتاب الذى كتب بينهم ـ وكان قد أورده ـ وجدناه لم ينص على ذلك ، كما صالح اهل عانات وقرقيساء وغيرها على ذلك .(٢) ومن نصوص الصلح التى حفظتها لنا المصادر ، كتاب الأمان الذى أعطاه عمر بن الخطاب رضى الله عنه أهل اللد وسائر كورها وقد جاء فيه : "بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ماأعطى عبد الله أمير المؤمنين اهل لد ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين ، أعطاهم امانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم ، أنه لاتسكن كنائسهم ولاتهدم ، ولاينتقص منها ولامن خيرها ، ولاملئها ، ولامن صلبهم ، ولا ..." .(٣)

وورد فى صلح اهل مدينة دمشق : "بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ماأعطى خالد بن الوليد أهل دمشق اذا دخلها ،

---

(١) ابو يوسف : الخراج ، تحقيق محمد ابراهيم البنا ، دار الاصلاح للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ص ٢٨١-٢٨٢ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٢٨٩،٢٩٣-٢٩٤ .
(٣) الطبرى : تاريخ الأمم ، ٦٠٩/٣ .

امانا على انفسهم واموالهم ، وكنائسهم وسور مدينتهم لايهدم ولايسكن شيء من دورهم ، ...." .(١)

كما ورد في كتاب الأمان الذى اعطى لنصارى أهل الشام مانصه : "بسم الله الرحمن الرحيم ،....، وعلى الا نمنع احدا من المسلمين أن ينزل كنائسنا في الليل والنهار ، ونضيفهم فيها ثلاثا ، ونطعمهم من الطعام ، ونوسع لهم ابوابها ، ولانضرب فيها بالنواقيس الا ضربا خفيا ، ولانرفع أصواتنا بالقراءة ، ولانؤوى فيها ولافي شيء من منازلنا جاسوسا لعدوكم ، ولانحدث كنيسة ، ولاصومعة ، ولاقلاية ، ولانجدد ماخرب منها ، ولانقصد الاجتماع فيما كان منها من خطط المسلمين وبين ظهرانيهم ، ولانظهر شركا ، ولاندعو اليه ، ولانظهر صليبا على كنائسنا ، ولافي شيء من طرق المسلمين واسواقهم ، ولا ..... ، شرطنا ذلك على انفسنا واهل ملتنا ، فان خالفناه ، فلاذمة لنا ولاعهد ، وقد حل لكم منا مايحل لكم من اهل الشقاق والمعاندة " .(٢)

وقد ورد في كتاب صلح أهل ايلياء الذى يعتبر الأساس في كتب الصلح والأمان لأهل الشام مانصه : "بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما اعطى عبد الله أمير المؤمنين اهل ايلياء من الأمان ، اعطاهم امانا لأنفسهم واموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، انه لاتسكن

---

(١) ثريا حافظ عرفة : الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأموى ، رسالة دكتوراه ، مقدمة لقسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية ، بكلية الشريعة ، جامعة أم القرى ، بمكة ، المملكة العربية السعودية ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ، غير مطبوعة ، ص ٥٥ .

(٢) ثريا عرفة : نفس المرجع ، ص ٥٦-٥٧ .

كنائسهم ولاتهدم ، ولاينتقص منها ، ولامن حيزها ، ولامن صليبهم ، ..." (١) .

اما صلح أهل مصر فقد ورد فيه : "بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ماأعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الامان على انفسهم وملتهم واموالهم وكنائسهم وصلبهم ، وبرهم وبحرهم ، لايدخل عليهم شيء من ذلك ولاينتقص ، ..." (٢) .

ويتبين ان من اهم بنود عهود الصلح التى ابرمها المسلمون مع أهل الذمة ، أن يحترموا الشعائر الدينية للمسلمين ، ولايظهروا من طقوسهم مايؤذى مشاعر المسلمين ، وأن يؤمنوا أهل الذمة على كنائسهم التى جرى عليها الصلح ، والا يحدثوا اى كنائس او دور عبادة غيرها (٣) .

وعلى هذا الأساس تركت البيع والكنائس القديمة ، فلم تهدم ، ولذلك قال ابو يوسف (٤) : "ولست أرى أن يهدم شيء مما جرى عليه الصلح ، ولايحول ، ويمضى الأمر على ماامضاه ابو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم (٥) ، فانهم لم يهدموا شيئا مما كان الصلح جرى عليه ، فأما ماأحدث من بناء بيعة او كنيسة فان ذلك يهدم" (٦) .

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم ، ٦٠٩/٣ .
(٢) الطبرى : نفس المصدر ، ١٠٩/٤ .
(٣) ثريا عرفة : الحياة الاقتصادية فى بلاد الشام ، ص ٥٩ .
(٤) الخراج ، ص ٢٩٤-٢٩٥ .
(٥) جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل خلفائه ذمته لنصارى نجران على بيعهم . (انظر : توفيق اليوزبكى : تاريخ اهل الذمة فى العراق ، ص ١٠٠) .
(٦) وانظر ايضا عن اعطاء المسلمين العهد لاهل الذمة بالابقاء على بيعهم وكنائسهم ، على الا يستحدثوا غيرها وماقيل حول ذلك / الماوردى : الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، دار الفكر ، مصر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م ، ص ١٢٧ ـ المقريزى : خطط ، ٤٩٢/٢ ـ توفيق اليوزبكى : نفس المرجع ، ص ١٠٠-١٠٣ ـ ترتون : اهل الذمة فى الاسلام ، ص ٤١،٣٩،٩ .

ونقل ابو يوسف أن ابن عباس سئل عن العجم الهم أن يحدثوا بيعة او كنيسة فى أمصار المسلمين ؟ فقال : "أما مصر مصرته العرب فليس لهم أن يحدثوا فيه بيعة أو كنيسة ، ولايضربوا ناقوسا ، ولايتخذوا فيه خنزيرا ، وكل مصر كانت العجم مصرته ففتحه الله على العرب ، فنزلوا على حكمهم ، فللعجم مافى عهدهم ، وعلى العرب أن يفوا لهم بذلك" .(١)

الا أن بعض الأمراء الأمويين تسامحوا مع أهل الذمة ، فتركوا لهم الفرصة فى استحداثها ، والسماح بتجديد بعض ماخرب منها ، والاعانة على ذلك أحيانا واقراره(٢) ، من ذلك أمر معاوية رضى الله عنه بتجديد بيعة الرها الكبرى عقب زلزال هدم بعض أجزائها . وموافقة عبد العزيز بن مروان حين بنى مدينة حلوان بمصر ، على استحداث كنيسة لخادمين ملكانيين عرفت بكنيسة الفراشين . ولكاتبه اثناسيوس ، ببناء كنيسة فى قصر الشمع ، فلم يكتف اثناسيوس بواحدة ، بل شيد اثنتين هما كنيسة مار جرجس ، وكنيسة أبى قير داخل قصر الشمع ، وأقام ثالثة بالرها . وماذكر من قيام خالد

---

(١) الخراج ، ص ٢٩٦-٢٩٧ .

(٢) عن تسامح بنى أمية مع أهل الذمة فى تجديد الكنائس واستحداثها . (انظر / صالح الحمارنة : المسيحية فى أرض الشام فى أوائل الحكم الاسلامى ، بحث ضمن مجموعة أعمال المؤتمر الدولى الأول لتاريخ بلاد الشام (من القرن ٦-١٧م) ، المنعقد فى الجامعة الأردنية ، نشر الدار المتحدة للنشر ، بيروت ، ١٩٧٤م ، ص ٥٥٦ - سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٠م ، ص ١٩٠-١٩١ - ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ٤٤-٤٥ ، ٥٣-٥٤ - توماس أرنولد : الدعوة الى الاسلام ، ترجمة وتعليق حسن ابراهيم حسن ، وعبد المجيد عابدين ، واسماعيل النجراوى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٠م ، ص ٨٤-٨٥) .

القسرى أمير العراق فى عهد هشام ببناء كنيسة لأمه ـ وكانت نصرانية ـ فى ظهر المسجد الجامع بالكوفة ، وانه سمح للنصارى بوجه عام ببناء كنائس اخرى .(١)

ويبدو أن المسيحيين ، بالغوا فى استغلال هذا التسامح وتمادوا فى استحداث كثير من الكنائس والبيع . لذلك نجد سلف يزيد وهو الخليفة عمر بن عبد العزيز يأمر بهدم الكنائس المستحدثة ، كما اكد على الا يحدث كنيسة ولابيت نار بينما أمر بألا تهدم دور العبادة من بيع وكنائس وبيوت نار التى كان قد صولح عليها أهلها .(٢)

ومن هنا فيما يبدو جاء مرسوم الخليفة يزيد بن عبد الملك متضمنا الأمر بهدم الكنائس المستحدثة . بل يتضح أنه اخذ سياسة متشددة نحو اهل الذمة فى هذا الشأن ، فلقد ذكر انه أمر باعادة بعض الكنائس التى اقطعها بعض اسلافه من الخلفاء الأمويين لاشراف من العرب ، الى من اقطعت لهم بعد ان ردها عمر بن عبد العزيز الى النصارى .(٣)

---

(١) ثريا عرفة : الحياة الاقتصادية فى بلاد الشام ، ص ٦٧-٦٨ .

(٢) من اجل سياسة عمر بن عبد العزيز تجاه هذا التجاوز وتطبيق ماتضمنته مواثيق الصلح . (انظر / ابو يوسف : الخراج ، ص ٢٦٢ ـ نجدة خماش : الشام فى صدر الاسلام ، ص ٩٩ ـ نادية صقر : سياسة عمر بن عبد العزيز تجاه اهل الذمة ، ص ٧١-٧٢ ـ ثريا عرفة : نفس المرجع ، ص ٦٧ ـ فيليب حتى : تاريخ العرب (مطول) ، تحقيق ادورد جرجى وجبرائيل جبور ، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦١م ، ٣٠٢/١-٣٠٣) .

(٣) عن تلك الكنائس التى اعادها يزيد الى من اقطعت لهم . (انظر ماذكرناه عنها بعد : الفصل الخامس ، المبحث الثانى ، ص ٦٠٨) .

رابعا : الأمر بكسر الملبان ، نص على ذلك المقريزى وساويرس بن المقفع .

وكان المسلمون قد منعوا أهل الذمة واشترطوا عليهم فى الملح معهم من اخراج ملبانهم الا فى يوم عيدهم الأكبر (١)، خارج المدينة بلارايات ولابنود ، والا يظهروا ملبانهم داخل بيوت المسلمين ومساجدهم (٢) . يقول أبو يوسف (٣) : "حدثنى بعض أهل العلم عن مكحول الشامى : أن أبا عبيدة بن الجراح صالحهم بالشام واشترط عليهم حين دخلها على أن يترك كنائسهم وبيعهم ، على أن لايحدثوا بناء بيعة ولاكنيسة ،.... ولايرفعوا فى نادى أهل الاسلام صليبا ،.... ولايخرجوا الرايات فى يوم عيد ،.... فان فعلوا شيئا من ذلك عوقبوا وأخذ منهم " .

وقال فى موضع آخر ينقل أمر عمر بن الخطاب الى أبى عبيدة رضى الله عنهما ورأيه فيما أعطاه أهل الذمة من العهد : "وأما اخراج الملبان فى يوم عيدهم فلاتمنعهم من ذلك خارج المدينة بلارايات ولابنود على ماطلبوا منك يوما فى السنة ، فأما داخل بيوت المسلمين ومساجدهم فلاتظهر الملبان" . فأذن لهم أبو عبيدة فى يوم من السنة ، هو يوم

---

(١) عيدهم الأكبر : عيد الفصح ، وهو يوم الفطر من صومهم الأكبر وفيه ـ كما يزعمون ـ قام المسيح بنفسه بعد الملبوت بثلاثة أيام ، وخلص آدم من الجحيم وأقام فى الأرض أربعين يوما آخرها يوم الخميس ثم صعد الى السماء ، وفى الفصح يوقدون المشاعل ، ويدعون أيضا الفصح بالقيامة ، لتذكار قيامة المسيح من الموت يوم الفصح . (توفيق اليوزبكى : تاريخ أهل الذمة فى العراق ص ٢٩٠-٢٩١) .

(٢) من أجل ذلك انظر / أبو يوسف : الخراج ، ص ٢٨١-٢٨٢، ٢٨٥-٢٨٦، ٢٨٩، ٢٩٤ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٨١-٢٨٢ .

عيدهم الذى فيه صومهم ، وأما غير ذلك فلم يكونوا يخرجون صلبانهم (١) .

وقد نص على عدم اظهارهم للصلبان أمان المسلمين لنصارى الشام حيث ورد فيه مانصه : "..... ولانظهر صليبا على كنائسنا ، ولافى شىء من طرق المسلمين وأسواقهم ،...." (٢) .

وهناك مايدل على تجاوز المسيحيين لشروط الصلح واظهارهم لصلبانهم ، فيذكر ترتون (٣) : أن عبد العزيز بن مروان أمير مصر (٦٥ - ٨٦هـ) ، أمر بتحطيم جميع الصلبان الموجودة بمصر (٤) . كما ذكر ابو يوسف أن الخليفة عمر بن عبد العزيز كتب الى أحد عماله يأمره بقوله : "أما بعد ، فلاتدعن صليبا ظاهرا الا كسر ومحق ..." . مما يشير الى وجود تجاوز أدى الى فعل عبد العزيز وأمر ابنه عمر .

ولعل هذا مادعى الخليفة يزيد بن عبد الملك الى أن يضمن مرسومه الأمر بكسر تلك الصلبان (٥) .

---

(١) ابو يوسف : الخراج ، ص ٢٨٥-٢٨٦ .
(٢) ثريا عرفة : الحياة الاقتصادية فى بلاد الشام ، ص ٥٧ .
(٣) أهل الذمة فى الاسلام ، ص ١٠٩ .
(٤) الخراج ، ص ٢٦٢ .
(٥) مما تجدر الاشارة اليه ، وقوع الاختلاف بين عهود الأمان التى أعطيت لأهل الذمة فى الأقطار المختلفة ، اجمالا وتفصيلا ، فنجد من الشروط فى عهد بلد مالانجده فى عهد آخر . وانى لأرى أن ذلك راجع لشخص القائد وظروف الفتح والتفاوض . مع التسليم بأن هناك أشياء تعتبر من الثوابت والمسلمات ، لايعنى عدم ذكرها فى شروط الصلح عدم تطبيقها على أهله ، خصوصا فيما يتعلق باحترام أهل الذمة للمسلمين وشعائرهم الدينية ، وحدود الحرية الدينية لأهل الذمة . فعلى سبيل المثال ، اذا لم يذكر فى شروط صلح ما النص على عدم استحداث الكنائس أو رفع الصلبان ، فان ذلك لايعنى الاباحة لهم ، باعتبار ذلك منهج اسلامى يطبق على الكل وان لم يذكر . اما مايسلم به من الاختلاف والالتزام بحرفيته فقد يكون ذلك فى النواحي المالية التى راعى فيها الفاتحون اختلاف ظروف البلاد وأهلها .

خامسا : عموم أمر الخليفة وسريان تنفيذه على سائر الأقطار الاسلامية ، مصر وغيرها ، أشار الى ذلك بوضوح ابن تغرى بردى فى نصه حيث قال : "... فكسرت كلها - أى الأصنام - ومحيت التماثيل من ديار مصر وغيرها فى أيامه (١) " .

وكذلك ساويريس بن المقفع الذى أورد فى نصه : "... ، ولم يكتف بهذا فقط حتى أمر بكسر الصلبان فى كل مكان ...(٢)".

كما أشارت الى عمومية مرسوم الخليفة وتنفيذه فى جميع الولايات الاسلامية ، عدد من المصادر والمراجع المسيحية القديمة والحديثة (٣) .

سادسا : ان تاريخ صدور هذا المرسوم كما ورد فى المصادر العربية ، مختلف فيه ، فابن عبد الحكم يؤرخ له ب (سنة ١٠٢هـ/١٢ يوليه ٧٢٠م - ٢ يونيه ٧٢١م) . بينما يؤرخ له كل من الكندى والمقريزى ب (سنة ١٠٤هـ/٢١ يونيه ٧٢٢م - ١٢ مايو ٧٢٣م) . أما ابن تغرى بردى فقد قال : ان كتاب الخليفة يزيد وصل الى عامله على مصر بعد خروجه الى الاسكندرية (سنة ١٠٣هـ/١ يوليه ٧٢١م - ٢٢ مايو ٧٢٢م) . الا أن ساويرس بن المقفع أرخ له بأوائل خلافة يزيد التى بدأت فى (رجب سنة ١٠١هـ/١٧ يناير ٧٢٠م) . لكنه لم يحدد . ويفهم من قوله أن صدور هذا المرسوم تم فى أواخر سنة ١٠١هـ أو سنة ١٠٢هـ/١ يوليه ٧٢١م . فيكون بذلك تاريخ ابن عبد الحكم

---

(١) انظر كامل النص قبل : ص ٢٦٨ .
(٢) انظر كامل النص قبل : ص ٢٦٨ .
(٣) سنستعرض ماورد فى تلك المصادر والمراجع حول هذا المرسوم فى الصفحات التالية ، وسيكون لنا تعليق على عمومية أمره ، واتضاحه وتبين أثره فى بعض البلدان الاسلامية دون الأخرى .

وساويرس بن المقفع للمرسوم متقاربا ان لم يكن متوافقا ، اذا كان ساويرس عنى بأول خلافته ، صدر خلافته ، لا أول شهر منها أو نحوه على وجه الدقة ، واللفظ يحتمل ان يكون أولها في حدود العام من البداية ، خصوصا اذا كنا نعلم أن يزيد شغل منذ تولى الخلافة بحركة ابن المهلب والتى لم تنته الا في صفر سنة ١٠٢هـ ، فيكون المرجح انه أصدر أمره بعد فراغه من تلك الحركة ، يسند ذلك ان هناك روايات اشارت الى اشراف اخيه مسلمة بن عبد الملك على تنفيذ مرسومه في العراق ، ومسلمة هو الذى تولى اخماد حركة ابن المهلب ، مما يعنى أن صدور المرسوم كان بعد القضاء على ابن المهلب ، أى فيما بعد (صفر سنة ١٠٢هـ) . كما أرى أن تاريخ ابن تغرى بردى للمرسوم لايخالف تاريخ ابن عبد الحكم وساويرس ، بل أراه موافقهما ، اذ انه اخبر أن أمر يزيد ورد على عامله بمصر (سنة ١٠٣هـ) ، ولم يقل أصدر أمره (سنة ١٠٣هـ) ، فلاخلاف صريح بينهما ، فلعل يزيد أصدر أمره اواخر سنة ١٠٢هـ كما اخبر ابن عبد الحكم ، وورد أمره على عامل مصر اوائل (سنة ١٠٣هـ) .(1)

وحيث انا سنستعرض روايات أجنبية أرخت لهذا المرسوم ، فانا نترك أمر الوصول الى التاريخ المرجح الى مابعد ذكرها .(2)

هكذا كان مرسوم الخليفة يزيد في مصادر مصر الاسلامية والقبطية ، وقد قام على تنفيذ مرسومه في مصر عامل الخراج

---

(١) انظر هذه الروايات بعد : ص ٢٨٥، ٢٩٠، ٢٩١ .
(٢) انظر ماكتب عن هذا المرسوم في المصادر الأجنبية ، بعد ص ٢٨٦ ومابعدها .

عليها في زمنه اسامة بن زيد الذى قام بمهاجمة الاديرة ، وهدم الكنائس ، وكسر الاصنام والصلبان والتماثيل ومحو الصور ، ولم تنج خلال هذه الحركة بعض الآثار الفرعونية القديمة من الهدم والتخريب .(١)

كما قام مسلمة بن عبد الملك امير العراق (سنة ١٠٢هـ) من قبل الخليفة يزيد ، بتنفيذ مرسومه فأمر بمحو الصور جميعها سواء ماكان منها في الكنائس ، او على الجدران او في البيوت والكتب ، كما قام بتحطيم جميع الاصنام والتماثيل سواء اكانت من الحجر أم العاج .(٢)

ومن الواضح ان المنية ادركت الخليفة يزيد بن عبد الملك ، والذى لم تطل مدة خلافته قبل أن يتم تنفيذ أمره .(٣)

---

(١) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ، ص ١٨٠-١٨١ – ترتون : اهل الذمة في الاسلام ، ص ٤٥-٤٦،١١١ .

(٢) ترتون : نفس المرجع ، ص ١١١ (نقلا عن Anonymous : Syrenc chronicle, 1p 308) .
لكن الجدير بالاشارة أن اصدار مرسوم الخليفة يزيد قد جاء بعد عزل مسلمة عن امارة العراق (آخر سنة ١٠٢ أو أوائل سنة ١٠٣هـ) ، اذا كان اعتمادنا على تاريخ صدور المرسوم عند المؤرخين المسلمين الذين أرخوا له بسنة ١٠٤هـ . اما مارجحه المؤرخ فازيليف من التواريخ المختلفة لصدور هذا القرار ، وهو (شهر يوليو سنة ٧٢١م أى الموافق المحرم من سنة ١٠٣هـ) فيمكن أن يكون موافقا لأواخر ولاية مسلمة على العراق ، فاشرف على تنفيذ المرسوم هناك في الشهور الاخيرة من ولايته ، هذا اذا كان عزله تم في سنة ١٠٣هـ ، وذلك لوجود الاختلاف في سنة عزله ،ولعدم تحديد الشهر الذى عزل فيه . (عن تاريخ عزل مسلمة انظر بعد : الفصل الخامس ، المبحث الأول ، ص ٤٧٤-٤٧٥) .
وفي قول ترتون ان صح قرينة على صحة أو مقاربة الصحة في التاريخ الذى توصل اليه فازيليف لهذا المرسوم . (انظر ماتوصل اليه بعد : ص ٢٩٤) . وسنناقش هذا التاريخ نحن ، وسيكون لنا فيه رأيا . (انظره بعد : ص ٢٩٥) .

(٣) انظر : ترتون : نفس المرجع ، ص ٤٥-٤٦ .

ويخص المؤرخ (فازيليف A. A. Vasiliev)[(١)] مرسوم الخليفة يزيد ببحث جمع فيه ماأوردته المصادر المصرية الاسلامية والقبطية والأجنبية حول هذا المرسوم ، أسبابا ، وتاريخا ، ومضمونا ، ونتائج . وسنعرض الآن لأهم ماورد فيه :

لقد ذكر اولا اربعة من المصادر العربية التى تحدثت عن المرسوم وهى الكندى ، المقريزى ، ابن تغرى بردى ، ساويرس ابن المقفع؛اى ثلاثة اسلامية ، وواحد قبطى ، والتى ناقشنا نصوصها فى الصفحات السابقة ، بينما لم يشر الى ماأورده ابن عبد الحكم عن هذا المرسوم .[(٢)]

ثم ذكر ان أول اشارة الى هذا المرسوم وردت فى المصادر الاغريقية ،وجاء ذلك فى الخطاب الذى القاه بطريرك القدس حنا ، والذى كان من قبل بطريركا لأنطاكية ، وكان يمثل بطارقة الروم ، فى مجمع نيقية المسكونى المنعقد (١٧٠هـ - رجب ١٧١هـ/٧٨٧م) وذلك بقصد ايضاح تأثر الامبراطور البيزنطى ليو الايسورى فى سياسته الخاصة بتحريم الصور بما[(٣)]

---

(1) The Iconoclastic Edict of the Caliph Yazid II, A.D. 721 .

(٢) أوردنا ماذكره ابن عبد الحكم عن هذا المرسوم وناقشناه مع ماورد فى المصادر العربية الأخرى . (انظر قبل : ص ٢٦٧ ومابعدها) .

(٣) عقد مجمع نيقية المسكونى ، سنة (١٧٠-١٧١هـ/٧٨٧م) بأمر الامبراطورة ايرينى ، وأصدر أعضاؤه القرار بتقديس صور المسيح والقديسين وتعليقها فى كل مكان ، لالعبادتها . وقد جاء هذا المجمع ردا على المجمع الذى انعقد (١٣٦-١٣٧هـ/٧٥٤م) بأمر الامبراطور قسطنطين الخامس وقرر تحريم اتخاذ الصور والتماثيل فى العبادة (انظر / محمد أبو زهرة : محاضرات فى النصرانية ، تبحث فى الأدوار التى مرت عليها عقائد النصارى وفى كتبهم وفى مجامعهم المقدسة وفرقهم ، طبع ونشر الرئاسة العامة لادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٤هـ ، ص ١٧٦-١٧٧) .

حدث في الدولة الاسلامية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك [(١)] .

وفي هذا الخطاب أشار حنا الى أن يزيد بن عبد الملك كان مدفوعا في سياسته تلك بساحر يهودي كان يعيش في طبرية [(٢)] اسمه (Tessarakontapechys) [(٣)] ، كان من الد أعداء المسيحية ، وكان الخليفة يزيد قد قربه اليه بعد أن تنبأ له ، بانه ان استمع الى نصيحته سيحكم ثلاثين سنة ، ونصيحته ان اراد الخليفة أن يحكم هذه المدة الطويلة ان يصدر مرسوما ينفذ في جميع بلاد الدولة الاسلامية ويقضي بتدمير وازالة كل التصاوير سواء أكانت على الموائد أو من الفسيفساء على الجدران ، او على الأواني المعدنية ، أو مطرزة على الاغطية التي تغطي الهيكل المقدس ، وعلى كل مثل هذه الاشياء التي توجد عادة في الكنائس المسيحية . وقد استمع الخليفة الى نصيحته وارسل مبعوثين من قبله الى كافة الولايات الاسلامية قاموا بتحطيم الصور التي كانت في الكنائس واحرقوها .

---

(١) اورد وسام عبد العزيز فرج نص الوثيقة التي قدمت الى مجمع نيقية المسكوني المنعقد سنة (١٧٠-١٧١هـ/٧٨٧م) حول مرسوم الخليفة يزيد ، لكنه لم ينص على انها خطاب حنا بطريرك القدس ، أو غيره ، وقد وافقت هذه الوثيقة تقريبا ماجاء في خطاب حنا الذي ذكر مضمونه فازيليف ، لذا يظن ان تكون هذه الوثيقة هي نص خطابه في هذا الشأن . (انظر نص الوثيقة في كتابه : دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية ، (١) الامبراطورية البيزنطية من (٣٢٤-١٠٢٥م) ، مطبعة مصنع اسكندرية الكراس ، ١٩٨٢م ، ص ١٨٠-١٨١) .

(٢) طبرية : بليدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية ، يطل عليها جبل الطور ، تقع في طرف الغور ، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام . (ياقوت : معجم ، ١٧/٤).

(٣) قال وسام فرج أنه احد زعماء اليهود السحرة ، وانه كان يسمى ذو الأربعين ذراعا (طولا) . (نفس المرجع ، ص ١٧٩) .

واضاف : ولم يعمر الخليفة يزيد بعد أن أمر بذلك الا سنتين ونصف . كما ذكر ان ابن الخليفة يزيد وهو الخليفة الوليد ابن يزيد بن عبد الملك ، أمر بقتل هذا الساحر اليهودى الذى سيطر على أبيه ودفعه الى هذه السياسة ، ولم تتحقق تنبؤاته .(١)

واشار الى هذا المرسوم أيضا بطريرك القسطنطينية نقفور (١٨٩ - ٢٠١هـ/٨٠٥ - ٨١٦م) ذاكرا تاثير ذلك اليهودى على يزيد بن عبد الملك ، وانه استطاع التاثير عليه ، لأن الخليفة كان يعانى من المرض ، فأعطاه الأمل بانه ان نفذ وصيته سيشفى من مرضه وينعم بحياته ويعيش سعيدا ، وردد كلام بطريرك القدس حنا - الذى اشرنا اليه فى الصفحتين السابقتين - لكنه اضاف ، انتقال عدوى هذه السياسة الخاصة بتحريم الصور الى الامبراطورية البيزنطية ، وتأثر الامبراطور ليو بهذه السياسة . وقد ذكر نقفور ان الخليفة يزيد توفى بعد سنتين وخمسة أشهر من اصدار هذا المرسوم .(٢)

كما اشار الى هذا المرسوم فى المصادر الاغريقية أيضا المؤرخ (جيورجيوس مرناخوس Georgius Mrnachus) ، وردد كامل التفاصيل .(٣)

---

(١) A. A. Vasiliev : op. cit, p 28-30 .
ويضيف وسام فرج : دراسات فى تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٨٠-١٨١ أن الولاة والأمراء اذاعوا ونشروا مرسوم الخليفة يزيد ، فقام العرب واليهود باحراق الأيقونات المقدسة ، وطلاء حيطان بعض الكنائس بينما كشطوا حيطان البعض الآخر ، كما اشار الى مشاركة بعض المسيحيين فى تنفيذ امر الخليفة عندما سمعوا به كاسقف ناكوليا Nacolea واتباعه ، ويبدو انهم ممن يحرم عبادة الصور وتقديسها .

(2) A. A. Vasiliev : op. cit, p 31-33 .

(3) A. A. Vasiliev : op. cit, p 31 .

ووردت الاشارة كذلك الى هذا المرسوم فى الخطاب الذى القاه فى نفس الانعقاد السابق لمجمع نيقية (سنة ١٧٠ - ١٧١هـ/٧٨٧م) أسقف مدينة ميسيتا والذى قال فيه : كنت طفلا فى الشام عندما أمر خليفة المسلمين بتحطيم الصور .(١)

وممن اشار الى مرسوم الخليفة يزيد بن عبد الملك المؤرخ ثيوفانوس الذى كتب تاريخه فى بداية القرن التاسع الميلادى/الثالث الهجرى ، لكنه ذكر أن ذلك الساحر من (اللاذقية/لاوديكيا Laodicea)(٢) ، وانه امل الخليفة يزيد بالحكم اربعين سنة .

كما ذكر أن الخليفة يزيد بن عبد الملك صمم أن يفعل مانصحه به الساحر اليهودى من تحطيم للصور المقدسة ، لكنه توفى فى نفس العام . وقد عرفت الناس بعزمه(٣) ، كما عرف بذلك الامبراطور البيزنطى ليو الاسورى عن طريق أحد المسيحيين ويدعى (باسر Baseor) ، والذى كان يعيش فى ذلك الوقت فى سورية ، وكان - على حد زعمه(٤) - قد أرغم على اعتناق الاسلام ، الا انه نجح فى الفرار الى القسطنطينية ، وفى القسطنطينية نجح باسر الذى عاد الى المسيحية ان يكسب ود الامبراطور ليو

---

(1) A. A. Vasiliev : op. cit, p 30 .

(٢) اللاذقية : ميناء مشهور على ساحل بلاد الشام . (ياقوت معجم ، ٥/٥) .

(٣) اجمعت المصادر والمراجع على أن يزيد أصدر مرسومه ونفذ ذلك المرسوم ،واشارت بعض المصادر والمراجع الى مازيل وحطم بمقتضاه وبقاء آثاره الى عهد قريب . يتبين ذلك من مجمل الروايات العربية والاجنبية التى ذكرناها ، مما يثبت تنفيذه لاالعزم عليه كما يقول المؤرخ ثيوفانس اعلاه .

(٤) لم يعرف التاريخ ارغام المسلمين للناس على الاسلام ، اعتمادا على قوله تعالى : {لااكراه فى الدين} . البقرة : ٢٥٦ .

الايسورى ، فنقل اليه ماشاع فى سورية عن تحريم عبادة الصور وعيل فازيليف الى أن باسر هذا هو اليهودى الذى ورد اسمه فى خطاب البطريرك حنا .(١)

كما تكررت الاشارة الى مرسوم الخليفة يزيد بن عبد الملك فى المصادر الاغريقية ، فى الخطاب الذى وجهه البطارقة الثلاثة الملكانيين الى الامبراطور ثيوفيل (٢٢١ - ٢٢٢هـ/٨٣٦م) ، والخاص بعبادة الصور ، والذى نشر أولا فى القرن السابع عشر الميلادى ثم أعيد نشره فيما بعد سنة ١٩١٢ - ١٩١٣م ، ورددوا نفس الأقوال الخاصة بهذا اليهودى وتأثيره على الخليفة يزيد ، وأن يزيد مات بعد سنة من اصدار هذا المرسوم .(٢)

كما أشارت المصادر السريانية الى مرسوم الخليفة يزيد ابن عبد الملك ، وذكرت ان الخليفة عهد الى أخيه مسلمة بتنفيذ مرسومه الخاص بازالة الصور من الكنائس وغيرها . كما أشارت الى أن الامبراطور ليو الايسورى فى حملته ضد عبادة الصور كان متأثرا فى ذلك بسياسة يزيد بن عبد الملك فى هذا الصدد .

وتفصح الرواية السريانية المعروفة باسم (بسيودو ديونيوس Pseudo Dionys) انه فى (سنة ١٠٣٥ من العصر السلوقى / الموافق ١٠٤ - ١٠٥هـ أى ٧٢٣ - ٧٢٤م) أمر الخليفة يزيد بازالة جميع الصور اينما وجدت سواء فى

(1) A. A. Vasiliev : op. cit, p 30-31 .
(2) A. A. Vasiliev : op. cit, p 34-35 .

الكنائس ، أو المعابد ، أو فى المنازل (١) .

كما ذكر ذلك المرسوم فى القرن الثانى عشر الميلادى/السادس الهجرى ميخائيل السريانى ، وأوضح أنه نص فيه على ازالة صور الكائنات الحية ، من المعابد والكنائس والمبانى والجدران والحجارة ،بل وازالة الصور الموجودة فى الكتب كما ربط بين سياسة يزيد والامبراطور ليو الثالث الايسورى فى ذلك (٢) .

كما ذكره فى القرن الثالث عشر الميلادى/السابع الهجرى المؤرخ السورى اليعقوبى جريجورى ابو الفرج ، وابان تأثر الامبراطور ليو الثالث بيزيد فى هذا الصدد (٣) .

كما كتب مؤرخ مجهول كان يعيش فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى/السابع الهجرى ، والذى كتب تاريخ الخليقة والمسيحية حتى (سنة ١٢٣٤م) ، أنه فى (سنة ١٠٢هـ/ ٧٢٠ - ٧٢١م) قام مسلمة بن عبد الملك بتكليف من اخيه يزيد بازالة الصور حيثما وجدت سواء فى المعابد اوعلى الجدران ، أو فى المنازل ، وكذلك الصور التى فى الكتب ، كما قام بتكسير التماثيل ، سواء أكانت على الخشب أو العاج ، أو الأبنوس (٤) .

هذه الروايات السريانية والمسيحية لم تحدد أى البلاد كلف مسلمة بن عبد الملك من قبل أخيه الخليفة بتنفيذ المرسوم فيها ، وكنا قد أوردنا خبرا عن ترتون (٥) ، يذكر فيه

---

(1) A. A. Vasiliev : op. cit, p 37 .
(2) A. A. Vasiliev : op. cit, p 38 .
(3) A. A. Vasiliev : op. cit, p 38 .
(4) A. A. Vasiliev : op. cit, p 38-39 .
(٥) انظر قوله قبل : ص ٢٨٥ .

ان مسلمة اشرف على تنفيذه فى العراق والمشرق ، فلعل هذه الروايات السريانية والمسيحية تقصد اشرافه على تنفيذ هذا المرسوم فى العراق .

اما المصادر اللاتينية ،فانها تنقل ماذكرته المصادر الاغريقية عن مرسوم الخليفة يزيد بن عبد الملك ، مثال ذلك ان (انستاسيوس بيلوثيكاريوس Anastasius Binliothecarius) والذى كان يعيش فى القرن التاسع الميلادى/الثالث الهجرى ينقل ماذكره المؤرخ الاغريقى ثيوفانوس .

كما نقل عن ثيوفانس فى هذا الصدد ايضا ، المؤرخ الرومانى (لاندولفوس ساجاكس Landulfus Sagax) الذى كان معاصرا للامبراطور البيزنطى باسيل الثانى (٣٦٥ - ٤١٥هـ/ ٩٧٦ - ١٠٢٥م) والامبراطور البيزنطى قنسطنطين الثامن (٤١٥ - ٤١٨هـ/١٠٢٥ - ١٠٢٨م) وقد ورد ذلك فى تاريخه المعروف باسم تاريخ ميسلا Historid Miscella .(١)

كما كان اعتماد المجمع الدينى الذى عقد فى باريس فى نوفمبر (٢٠٩ - ٢١٠هـ/٨٢٥م) لبحث قضية تقديس الصور فى مناقشته هذه القضية منذ اثارها الامبراطور البيزنطى ليو الايسورى ، على التقرير الذى قدمه بطريرك القدس حنا الى مجمع نيقيه المسكونى الذى انعقد (١٧٠ - ١٧١هـ/٧٨٧م) ، والذى اشار فيه الى مرسوم الخليفة يزيد .(٢)

كما اشارت المصادر الارمينية لمرسوم الخليفة يزيد ، اشار الى ذلك المؤرخ الارمنى (جيفوند Ghevond) فى كتابه

---

(1) A. A. Vasiliev : op. cit, p 35 .
(2) A. A. Vasiliev : op. cit, p 36-37 .

"تاريخ حروب وفتوح العرب في أرمينية " . وقد عاش في النصف الثاني من القرن الثاني الهجرى/الثامن الميلادى ، وأوائل القرن التاسع الميلادى/الثالث الهجرى ، فروى ما أمر به يزيد في هذا الشأن ، ذاكرا ان يزيد حكم ست سنوات (١) ، وانه كان ميالا لسفك الدماء (٢) .

أما بخصوص ماورد عن هذا المرسوم في المراجع الحديثة فان فازيليف ينقل عن المستشرقين (فلهوزن Wellhausen) في كتابه الدولة العربية أنه يشك في وجود مرسوم ليزيد بن عبد الملك في هذا الصدد (٣) .

لكن فازيليف ينقل لنا عن مؤرخين محدثين مايدحض قول فلهوزن فينقل عن المؤرخ (كروفوت I. Crowfoot) الذى كتب في (سنة ١٩٣٨م) في كتابه عن (الكنائس المسيحية في جرش) The Christian Churches at Gerasa, ed . 1938 . أن آثار مرسوم يزيد شوهدت في أماكن كثيرة ، في فلسطين ، وشرق الاردن ، ومصر . وان هذا المرسوم طبق في جرش (شرق الأردن) في قسوة شديدة . فالنقوش ، والزخارف ، والصور التي كانت توجد في الكنائس والمنازل نزعت ، بل ان كل مايتعلق بصور الكائنات الحية قد حطمت وازيلت وان آثار ذلك التحطيم كانت لاتزال معالمها واضحة حتى صدور كتابه هذا عنها في الكنائس المسيحية في جرش (٤) .

(١) الصحيح أن مدته خلافته أربع سنوات وشهر واحد .
(2) A. A. Vasiliev : op. cit, p 43-44 .
(3) A. A. Vasiliev : op. cit, p 45 .
(4) A. A. Vasiliev : op. cit, p 45 .

كما ينقل فازيليف عن الاثرى (كريزويل J. E. Quibell) الذى قام بحفائر (سنة ١٩٠٨ - ١٩١٠م) فى دير الانبا جريمياس Jeremias فى سقارة فى مصر ، ماشاهده فى هذا الدير من تشويه ماكان به من صور ، وماذكره من انه يعزو ذلك الى مرسوم الخليفة يزيد بن عبد الملك .(١)

واخيرا استعرض فازيليف التاريخ الذى اورده المؤرخون لهذا المرسوم ، فرأى ان اصحها (محرم ١٠٣هـ/يوليو ٧٢١م) . اعتمادا على ماذكره بطريرك القدس حنا عن مرسوم يزيد وتاريخه فى التقرير الذى قدمه لمجمع نيقية (١٧٠ - ١٧١هـ/ ٧٨٧م) ، اى بعد صدور المرسوم ب (٦٦ عاما) . وقد قال حنا : ان الخليفة لم يعمر بعد امره بذلك الا سنتين ونصف . الى جانب بعض الروايات المدعمة له ، خصوصا رواية نقفور بطريرك القسطنطينية (١٨٩ - ٢٠١هـ/٨٠٥ - ٨١٦م) الذى قال : ان يزيد توفى بعد سنتين وخمسة اشهر من اصدار هذا المرسوم . لأن هاتين الروايتين اليونانيتين هما اقدم ماذكر فى هذا الشان واعتمادا فى ذلك ايضا على ما اورده المؤرخ القبطى ساويرس ابن المقفع ، وقد ارخ له بأوائل خلافة يزيد ، والمؤرخ السريانى المجهول الذى أرخ له ب (١٠٢هـ/٧٢٠ - ٧٢١م)(٢) . وهو بذلك يستبعد تاريخ كل من الكندى والمقريزى اللذين ارخا له ب (سنة ١٠٤هـ/٧٢٢ - ٧٢٣م) .

فنرى أن المؤرخ فازيليف قد قارب الصواب ان لم يكن اصابه . فقد ارخ له ب (يوليه ٧٢١م/الموافق محرم ١٠٣هـ) .

---

(1) A. A. Vasiliev : op. cit, p 45 .
(2) A. A. Vasiliev : op. cit, p 46 .

ونحن ، اعتمادا على تاريخ ابن عبد الحكم وهو اقدم مؤرخ مسلم تحدث عن هذا المرسوم (ت ٢٥٧هـ/٨٧٠ - ٨٧١م) ، وساويرس ابن المقفع ، وابن تغرى بردى ، وكذلك رواية المؤرخ السريانى المجهول الذى أرخ لهذا المرسوم ب (١٠٢هـ/٧٢٠ - ٧٢١م) ، نرجح ان يكون الخليفة يزيد قد أصدر أمره فيما بعد (شهر صفر سنة ١٠٢هـ) ، والتى تنتهى بذى الحجة ، الموافق ٢ يونيه ٧٢١م ، أى الشهر الذى يسبق الشهر الذى حدده فازيليف لصدور هذا المرسوم وهو يوليه ٧٢١م/محرم ١٠٣هـ .

وكان فازيليف قد التزم بحرفية رواية بطريرك القدس حنا الذى قال : ان يزيد قد توفى بعد اصدار المرسوم بسنتين ونصف .

وحيث انا لاحظنا أن فازيليف لم يشر الى تاريخ ابن عبد الحكم لهذا المرسوم ، الذى خفى عليه فيما يبدو ، وهو اقدم المؤرخين المسلمين ، فلعله كان يغير ماتوصل اليه فى حالة اطلاعه على خبره .

وبناء على ماتقدم يكون الخليفة يزيد بن عبد الملك قد أصدر مرسومه هذا فى (أواخر سنة ١٠٢هـ/٧٢١م) ، على أساس ماتوصلنا اليه ، او (المحرم سنة ١٠٣هـ/٧٢١م) على مارجحه فازيليف ، والفرق بينهما كما هو واضح قد يكون أياما ، وعلى الاكثر شهورا لاتتعدى أصابع اليد الواحدة ، وعلى كل حال ، فانه ليس لدينا مايتوقف الحكم عليه بتحديد التاريخ لمرسوم الخليفة يزيد ، ولكن فى هذه المناقشة شىء من جدية البحث ، وعدم التسليم بما عند الغير ، ورغبة فى الوصول الى الحقيقة ، ولعل قادم الأيام يخرج من الأحداث مايترتب

على هذا التاريخ .

ونخلص من هذه الروايات التى أوردها فازيليف فى بحثه أن الخليفة يزيد بن عبد الملك كما ذكرت المصادر الاغريقية واللاتينية كان مدفوعا فى هذا القرار من قبل ساحر يهودى (١)، زين له ازالة الصور والتماثيل عموما بشتى أنواعها وأينما وجدت ، وعلى أى شىء صورت ، الا أن بعض الروايات قالت أن الأمر اختص بازالة صور الكائنات الحية (٢) . وقد شمل هذا القرار كافة أقاليم الدولة الاسلامية ، ولم يقتصر على مصر ، الذى اقتصر ذكر المرسوم على مصادرها ، ودل على ذلك عمومية الأمر كما اشارت اليه بعض المصادر الاسلامية والقبطية (٣) ، وكذلك الأجنبية ، حيث ورد ذلك على لسان بطريرك القدس حنا فى خطابه الذى القاه فى مجمع نيقيه السابق ، فقد أخبر أن الخليفة يزيد ، أصدر أمره ، وأرسل مبعوثين من قبله الى كافة الولايات الاسلامية ، قاموا بتحطيم الصور فى الكنائس وأحرقوها (٤) . وكذلك ما أوردته المصادر السريانية حول اشراف مسلمة بن عبد الملك على تنفيذ مرسوم أخيه الخليفة فى العراق والمشرق (٥) ، وما أثبتته الدراسات الأثرية والحفائر ، من وجود آثار هذا المرسوم بوضوح فى فلسطين وشرق الأردن ومصر ، وبخاصة فى جرش بالأردن ، وسقارة بمصر (٦) .

---

(١) لم يرد القول بهذا السبب فى الروايات الاسلامية والقبطية والسريانية والأرمنية ،(انظر ذلك فى الصفحات السابقة) .
(٢) انظر : A. A. Vasiliev : op. cit, p 38
(٣) انظر ماكتبناه عن ذلك ، قبل : ص ٢٨٣ .
(٤) انظر روايته قبل : ص ٢٨٧ .
(٥) انظر ما أوردته حول ذلك ، قبل : ص ٢٨٥ .
(٦) انظر نتائج تلك الدراسات ، قبل : ص ٢٩٣-٢٩٤ .

واتضح من خلال هذه الروايات أن الصور والتماثيل التى بالكنائس قد تعرضت للازالة والتحطيم ، محوا أو كشطا أو احراقا أو طلاء ، ومن هنا جاء قول بعضهم ، أن المقصود من هذا المرسوم هو ازالة الصور والتماثيل المقدسة التى فى الكنائس ، وأن تعميم المرسوم على كافة أنواع الصور ماجاء الا بنصيحة من الساحر اليهودى ، مكيدة خبيثة منه لئلا يشك الخليفة فى نواياه الحقيقية كعدو للمسيحيين (١) .

والحق أن فى الروايات الواردة فى هذا الصدد مايشكك فيها ، فهى تختلف على اسم الساحر اليهودى ، كما أنها تختلف على المدينة التى كان يسكن بها ، كما اختلفت فى المدة التى منى الساحر اليهودى الخليفة يزيد أن يحكمها ، اذا فعل مانصحه به ، من اصدار هذا القرار ، وبعد ذلك فان الخليفة لم يحكم تلك المدة وتوفى بعد صدور قراره بمدة وجيزة (٢) .

أما القول ، بأن المرسوم خص به صور الكائنات الحية ، فلعل ذلك أن المسلمين فى تنفيذه عنوا بازالة صور الكائنات الحية أكثر من غيرها ، لأن الصور المحرمة فى الاسلام ، هى صور ذات الأرواح دون غيرها (٣) .

أما القول بأن المرسوم استهدف الصور المقدسة عند

---

(١) وسام فرج : دراسات فى تاريخ وحضارة الدولة البيزنطية ص ١٧٩-١٨١ .

(٢) انظر ذلك فى ثنايا الروايات التى عرضناها فى الصفحات السابقة ، وكذلك : وسام فرج : نفس المرجع ، ص ١٨١-١٨٢ .

(٣) انظر عن ذلك : قبل : ص ٢٧٠ . وكذلك : أحمد تيمور : التصوير عند العرب ، ص ١٠٠-١٠١ . وقد أورد حديثا عن ابن عباس ينهى ويحذر من تصوير ذوات الأرواح ، لكنه يبيح تصوير ماليس فيه روح .

النصارى ، فان التعرض لها لم يكن الا لأن المرسوم كان يتضمن ازالة الصور كلها واينما وجدت ، كما أن الصور المقدسة عند النصارى كانت هى الصور الشائعة عندهم سواء فى كنائسهم وأديرتهم وبيعهم وبيوتهم .

وثمة سبب آخر ، وهو الأهم ، وهو أن الصور المقدسة عند المسيحيين لم تكن مجرد صور تقام أو تعلق للزينة أو الذكرى وانما اصبحت تعبد وتقدس ، وهو ماعرف عندهم بعبادة الايقونات ، أى عبادة الصور (١) . وذلك مظهر من مظاهر الوثنية

---

(١) لم تكن عبادة الايقونات جديدة على النصارى ، فترجع بدايتها الى القرن الرابع الميلادى عندما تم الاعتراف بالمسيحية وبدأ المسيحيون يزينون الكنائس بصور المسيح والعذراء والقديسين والتماثيل الدينية ، مما يدل على ذلك أن المجلس الذى عقد فى مدينة الفيرا باسبانيا فى بداية القرن الرابع الميلادى حرم اقامة الصور فى الكنائس ، وانها بدعة . والأصل أن المسيحية تنهى عن الصور والتماثيل ، لكن انتصار المسيحية فى عهد قسطنطين وماكان للبيئة والتقاليد اليونانية من اثر أدى الى دخول بعض المظاهر الوثنية القديمة على الكنيسة ، فزينوا كنائسهم بالصور والتماثيل ، وقد اعتبر بعضهم ذلك مظهرا من مظاهر الوثنية ، فنقده بعض المؤرخين وبعض القديسين ، كما قامت حركة فى انطاكية فى القرن السادس الميلادى ضد عبادة الصور ، الى جانب بعض حوادث الهجوم على الصور وتحطيمها فى القرن السابع الميلادى ، ومع ذلك فقد اعترف بشرعية الاستخدام الصحيح للايقونات فى مجمع عقد فى القرن السابع الميلادى ، ثم حرمت فى مجمع عقد فى العقد الأخير من ذلك القرن كما حرم اتخاذ الصور والتماثيل فى العبادة فى مجمع عقد بأمر قسطنطين الخامس (سنة ٧٥٤م) ، لكن الملكة ايرينى امرت بعقد مجمع نيقيه (سنة ٧٨٧م) الذى قرر تقديس صور المسيح والقديسين لاعبادتها . ومع ذلك انتشرت الصور المقدسة فى كل مكان ، وتحول الأمر ، من تعليقها للزينة والذكرى ، الى عبادة تلك الصور والسجود لها والتماس البركة وتحقيق المعجزات منها . حتى اتكل عليها فى دفع الأخطار ، وغدت الصورة انجيل الأمى يفهم منها مالايقرأه من الكتاب المقدس . =

ليس لـه أصـل فى المسيحية . ولعل هذا ماحدا بالخليفة يزيد ابن عبد الملك الى اصدار مرسومه لأن الاسلام يحرم التصوير ، وصور ذات الارواح ، كما يحرم اى مظهر من مظاهر الوثنية والشرك .

وعبادة الصور والتماثيل شرك بالله ، وقد نصت بعض عهود الصلح بعدم اظهار أهل الذمة للشرك والدعوة اليه ، والا برئت منهم الذمة ، وحل عليهم مايحل على أهل الشقاق والمعاندة . من ذلك مانص عليه صلح نصارى أهل الشام (١) .

ويتضح من خلال الروايات الأجنبية التى عرضت لهذا المرسوم انه تم على أثره محو الصور من الكنائس ، والمنازل وكل مكان ، ماكان منها على جدار أو قماش أو الواح أو آنية أو كتب ، فى جميع أقطار الدولة الاسلامية ، وفى هذا دلالة واضحة على تفشى التصوير وانتشار الصور وخاصة المقدسة . وحيث أن النصارى يعيشون رعايا أهل ذمة بين المسلمين وفى ديارهم فقد خشى الخليفة يزيد بن عبد الملك افتتان المسلمين بذلك ومحاكاة النصارى فى عمل الصور واتخاذها

= وفى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين أدرك المسيحيون حاجة الكنيسة الى الاصلاح والتطهير ، فعملوا على تحريم عبادة الايقونات .
عن ذلك انظر : حسنين ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١٠٩ ـ هسى : العالم البيزنطى ، ترجمة وتعليق رافت عبد الحميد ، مكتبة سعيد رافت ، مؤسسة الوفاء للطباعة ، القاهرة ، ص ١٣٣-١٣٤ ، وهامش (١) ص ١٣٣ ـ محمد أبو زهرة : محاضرات فى النصرانية ، ص ١٧٦-١٧٧ ـ وانظر عن الايقونات أيضا : أسد رستم : كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى ، منشورات المكتبة البولسية ، لبنان ، بيروت ، طبعة ١٩٨٨م ، ٢/٧٩-٩٧ .
وقد تحدث خلال حديثه عن الايقونات ، عن مرسوم الخليفة يزيد تجاهها ، وأن ليو الثالث ماثلة فى ذلك ، ولم يضف جديدا .

(١) انظر نص ذلك الصلح قبل : ص ٢٧٧، ٢٨١ .

وتقديسها خصوصا انهم كانوا قريبى عهد بالجاهلية ومظاهر وثنيتها ، فلعله رأى من الحكمة استئصال ذلك الداء قبل استفحاله .

كما نخلص من دراسة هذه الروايات الى أمر غاية فى الاهمية ، وهو القول بأن الامبراطور ليو الثالث الايسورى تأثر بسياسة الخليفة يزيد بن عبد الملك فى ازالة الصور المحرمة[(١)] .

فقد أصدر الامبراطور ليو الثالث الايسورى سنة (١٠٧ – ١٠٨هـ/٧٢٦م)[(٢)] ، وبموافقة الأساقفة ، وأعضاء مجلس الشيوخ ، مرسوما يقضى بازالة جميع الصور والتماثيل الدينية من الكنائس ، وأمر أن يغطى بالجص ماعلى جدران الكنائس من صور وذلك فى كافة ولايات الدولة البيزنطية .

وقد اتخذ ليو الثالث الايسوى سياسته هذه بشىء من الحذر والتمس لها الأسباب ، وسعى لتنفيذها بشكل تدريجى ، لكن ثورة الجماهير والرهبان فى وجه سياسته ،ومنع جنوده من تنفيذها ، بل وقتلهم القائد المكلف بتنفيذها وبعض معاونيه، كان مما دعا الامبراطور الى الاستعانة بالقوة العسكرية فى تنفيذ أمره ، والقيام بسلسلة من أعمال القتل والنفى ضد المعارضين لسياسته . ويقال ان أوامره فى هذا الصدد لم

---

(١) قال بهذا التأثر ايضا / سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٨٠-١٨١ – حسنين ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١١٠ – هسى : العالم البيزنطى ، ص ١٣٥ – أحمد تيمور : التصوير عند العرب ، ص ١٣٠ – ابراهيم العدوى : الأمويون والبيزنطيون ، ص ٢٩٣-٢٩٤ – السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٢م ، ص ٢٠١ .

(٢) اى بعد مرسوم الخليفة يزيد بن عبد الملك بنحو خمس سنوات .

تقتصر على ازالة الايقونات المعلقة فى الكنائس بل شملت كافة انواع الصور سواء المرسومة على جدران الكنائس ، أو تلك المطرزة على النسيج الذى يغطى الهياكل المقدسة ، كما احرقت آثار القديسين ، وازيلت جميع التماثيل والصور المقامة خارج الكنائس (١).

ولعل هذا ما ادى الى تساؤل وسام فرج (٢) ، لماذا تبنى الامبراطور البيزنطى الحركة اللايقونية (اى تحريم عبادة الصور) فى القرن الثامن الميلادى بالذات ، بينما كان التيار المعادى لعبادة الايقونات موجودا منذ عدة قرون ؟

وجوابه على ذلك هو تاثر الامبراطور ليو الثالث الايسورى والامبراطورية البيزنطية بقرار الخليفة يزيد بن عبد الملك ، وبمؤثرات اخرى .

وهنا يظهر سؤال جديد ، كيف تاثر الامبراطور ، وماهى المؤثرات الأخرى ؟

يقال ان اصل ليو الثالث من اسباب تأثره بسياسة الخليفة يزيد تجاه الصور ، فيذكر فى هذا الصدد أن ليو من

---

(١) عن امر ليو الثالث بتحريم الصور وازالتها . (انظر / عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، فرع الاسكندرية ، ١٩٧٧م ، ص ١١٣-١١٤ ـ أومان : الامبراطورية البيزنطية ، تعريب مصطفى طه بدر ، الناشر دار الفكر العربى ، ١٩٥٣م ، ص ١٥٢ (لكنه أرخ لأمر ليو هذا بسنة ٧٢٥م/١٠٦-١٠٧هـ) ـ وسام فرج : دراسات فى تاريخ وحضارة الدولة البيزنطية ، ص ١٨٤-١٨٥ ـ هسى : العالم البيزنطى ، ص ١٣٥ ، وهامش (١) منها ـ محمود سعيد عمران : معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٠م ، ص ١٠١-١٠٢ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٧٦ .

مواليد مرعش (١) ، وان أصله في الواقع من ايسوريا (٢) ، في اقليم قليقية ، ولد من أبوين أرمنيين ، ثم انتقل مع ابيه الى تراقيه (٣) ، ثم انخرط في سلك العسكرية حتى أصبح قائد فيلق الأناضول (٤) .وقيل ان أصله سوري وكان مولى للخليفة ـ ولم يحدد المرجع اي خليفة ـ يجيد التحدث بالعربية واليونانية (٥) . بل قيل ان الخليفة يزيد ادخله الاسلام سرا (٦) . وقيل ايضا ان سياسته اللايقونية لم تكن الا تزلفا للمسلمين ومجاملة لهم وان كان ذلك لايعقل ومواقفه العسكرية وحروبه ضد المسلمين تدل على عكس ذلك (٧) .

والحق ان من اهم المؤثرات التي أدت الى احتكاك ليو بالمسلمين والتاثر بفكرهم ، ماثبت من مرافقته لهم واختلاطه بهم ابان حملتهم الشهيرة على القسطنطينية (سنة ٩٨هـ) في خلافة سليمان بن عبد الملك . فقد ورد في عدد من المصادر والمراجع ، ان ليو الايسوري ، الذي كان قائدا لفيلق الأناضول ، سار مع الجيش الاسلامي بقيادة مسلمة بن عبد الملك ليكون دليلا يهديهم الطريق الى القسطنطينية ، حتى وصلوا

(١) مرعش : مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم . (ياقوت : معجم ، ١٠٧/٥) .

(٢) ايسوريا : أو (ايزوريه) ، امارة في داخل آسيا الصغرى على حدود منطقة الثغور اليونانية القديمة . (كي لسترنج : بلدان ، ص ١٧٦) .

(٣) تراقية أو تراقيا : ولاية بيزنطية تطل على بحر مرمرة من جهة اوروبا .

(٤) محمود سعيد عمران : معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ص ٩٣ ـ عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١٠٤ .

(٥) عمر كمال توفيق : نفس المرجع والصفحة ـ فيليب حتى : تاريخ سورية ، ٥٠/٢ .

(٦) اومان : الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٥٢ .

(٧) عمر كمال توفيق : نفس المرجع ، ص ١١١-١١٢ ـ فيليب حتى : نفس المرجع والجزء ، ص ١١٧ .

اليهـا . مشيرة الـى قيامـه بالتفـاوض مع مسلمة على أساس تسهيل دخـول المسلمين اليها وتسليمها صلحا ، وانه نجح فى مخادعة مسلمة واستغل الثورة التى قامت فى القسطنطينية وقت حصار المسلمين لها ، وتمكن من أن يسيطر على الموقف ، ثم بعد أن نصبه البيزنطيون امبراطورا عليهم ،تصدى للمسلمين وصمد امام حصارهم ، حتى تكالبت عليهم الظروف ، وأمر عمر ابن عبد العزيز خليفة سليمان بفك الحصار وانسحاب المسلمين سنة ٩٩هـ (١) . وبلاشك فان اختلاط ليو بالمسلمين خلال مسيرهم الى القسطنطينية ، كان فرصة لاطلاعه على الفكر الاسلامى ، ومبادىء الدين الحنيف ، وبخاصة صفاء العقيدة ، ومحاربة الشركيات . ولعل ذلك من أهم أسباب تأثره بمرسوم الخليفة يزيد . ومن هنا جاء القول بأن ليو الايسورى كان ذا عقلية اسلامية (٢) .

ويذكر وسام فرج فى هذا الصدد أيضا أن الامبراطور ليو (٣) تأثر بجماعة من رجال الدين فى الأقاليم الشرقية ، منهم قسطنطين أسقف ناكوليا فى فيرجيا بآسيا الصغرى ، وهذا الاسقف تأثر بفكر المسلمين ، واليهود (٤) ، ثم نقل ذلك الى

---

(١) عن قيام ليو الايسورى بدور الدليل لهذه الحملة وتفاوضه مع المسلمين ، ووصوله الى كرسى الامبراطورية وتصديه لمسلمة وجيشه ، (انظر / نبيه عاقل : تاريخ خلافة بنى أمية ، ص ٢٤٧-٢٥٠ ـ يوسف العش : الدولة الأموية ، ص ٢٥٦-٢٥٧ ـ محمود سعيد عمران : معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ص ٩٤-٩٨) .

(٢) حسنين ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١١٢ .

(٣) دراسات فى تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٧١-١٧٢، ١٧٧، ١٨١ ، وهوامشها .

(٤) نقل وسام فرج عن وثيقة رسمية قدمت للمجمع المسكونى المنعقد (سنة ٧٨٧م) : أن أسقف ناكوليا عندما سمع بمرسوم الخليفة يزيد ، قام هو واتباعه ، بازالة الصور والتماثيل من الكنائس ، شأنهم شأن المسلمين واليهود الذين شاركوا أيضا فى هذه المهمة بالدولة الاسلامية . (انظر : نفس المرجع ، ص ١٨١) .

الامبراطورية البيزنطية ، وقام بدور الدعوة الى تحريم الصور داخلها ، وكذلك توماس اسقف كلاوديوبولس ، وكانا قد اقاما لبعض الوقت في العاصمة البيزنطية (١٠٧ - ١٠٨هـ/ ٧٢٦م) ، وان كان هناك من يرى أن ليو هو العقل والمفكر الرئيسي وراء سياسته .

ولعل قيام الامبراطور ليو بذلك كان هدفه اصلاح الكنيسة وفي نفس الوقت لايمكننا اغفال الأسباب السياسية التي دعته الى ذلك ، فليس لنا أن نتجاهل مراعاة مصلحة الامبراطورية من وراء هذا القرار ، فقد أدى انتشار الاديرة الى نقصان موارد الدولة ، لاعفائها من الضرائب ، وجذبها لأعداد كبيرة من الناس كان من الممكن أن يقوموا بدور كبير في خدمة الدولة ، الى جانب تزايد نفوذ الرهبان حتى أصبحوا مصدر خطر على السلطة ، فقد كان ذلك بلا شك من الأسباب التي كانت وراء الحركة اللايقونية .(١)

ويبدو أن التأثر بسياسة الخليفة يزيد لم يقتصر على الامبراطور ليو الثالث ، فقد أدى اتصال أهالي الولايات الآسيوية في الامبراطورية البيزنطية بالاسلام وأهله ، لعدد من العقود قبل تلك الحركة الى معرفة موقف الاسلام من تحريم الصور والتماثيل . اذ لم يحمل المسلمون معهم الى آسيا الصغرى اثناء فتوحهم ابان تلك الفترة فكرة الجهاد فقط، بل نقلوا عقائدهم وثقافتهم وحضارتهم ، ومنها تحريم الصور والتماثيل وبالأخص ماقدس منها . فلم يكن التحدي الاسلامي

---

(١) عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١١١-١١٢ .

البيزنطى عسكريا فحسب ، وانما فكريا وحضاريا ، اثر فى العقيدة نفسها ، واثار ازمة حول الصور المقدسة عند المسيحيين (١) .

وفى هذا الصدد يشير أومان (٢) ، الى أن المثقفين العلمانيين البيزنطيين كانوا ينكرون عبادة الصور وازدادت كراهيتهم لذلك بتاثير الدين الاسلامى على عقولهم ، فحدث رد فعل قوى على تلك العقائد الفاسدة بين هذه الفئة ، كما جاء التاثر بالعقيدة الاسلامية والحضارة الاسلامية فى آسيا الصغرى بحكم قربها من بلاد الاسلام ، اكثر منه فى أوروبا ، فازدادت الحركة ضد عبادة الصور هناك . ففى آسيا الصغرى نشأ البيزنطيون اللايقونيون ، فكان ليو من آسيا الصغرى، وكان معظم جنده من هذه المنطقة التى تاثرت بعقيدة الاسلام وبحضارته ، لذلك ناصر هذا الجيش سياسة ليو اللايقونية ، بينما تمثلت قوة المعارضة لهذه السياسة فى الأساقفة ورجال الخدمة المدنية فى أوروبا (٣) .

وقد عزا بعض المؤرخين سياسة ليو اللايقونية الى مؤثرات يهودية الى جانب المؤثرات الاسلامية ، فقالوا : انهم شروا موافقته على تحطيم التماثيل بالمال ، وانه حاول

---

(١) أومان : الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٥١ ـ حسنين ربيع: دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١١١-١١٢ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٥١-١٥٢ .

(٣) عن التأثر بالاسلام وتأثير ذلك على الحركة اللايقونية فى الدولة البيزنطية ، (انظر / مجهول : الامبراطورية البيزنطية ، تعريب حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ص ١١٤ ـ عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١١١ ـ السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ٢٠١ ـ أحمد تيمور : التصوير عند العرب ، ص ١٣٠) .

ارضاءهم ، ولعل هذا القول قد جاء لأن اليهودية تحرم عبادة الصور .(١)

ونحن لانستبعد أن يكون لليهودية دور فى ذلك ، بل أن المسيحية نفسها تحرم الصور ، لكن الواقع يقول ان عبادة الصور قد عاشت مع وجود هذه المؤثرات ، وهذا مايدفعنا لاعادة القول ، لماذا قامت حركة تحريم عبادة الصور على يد الامبراطور فى القرن الثامن بالذات ؟ انه بلا شك المؤثر المباشر الذى حدث فى هذا القرن ، الا وهو مرسوم الخليفة يزيد .

ان الاهمية الكبرى لاتكمن فى اصدار الامبراطور ليو قراره بتحريم عبادة الصور تأسيا بالخليفة يزيد بن عبد الملك ، بل فيما نتج عن هذا التاثر ، فقد عاشت الدولة البيزنطية حروبا داخلية خطيرة بسبب الحركة اللايقونية بين المؤيدين والمعارضين مدة تزيد على قرن من الزمان ،(٢) فعمت بلاد اليونان وايطاليا عدد من الثورات التى تمدت لسياسة الامبراطور ، ووضع البابوات انفسهم على رأس المعارضة ، لذلك حالفوا اللمبارد ، وطلبوا العون من الحكام الفرنجة ،

---

(١) عن القول بتأثير اليهودية أيضا على الحركة اللايقونية ، (انظر / عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١١١-١١٢ ـ أومان : الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٥٢ ـ حسنين ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١١٠ ـ هسى : العالم البيزنطى ، ص ١٣٥) .

(٢) السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ١٩٩-٢٠٠ ، ومما يستحب الاشارة اليه هنا أن الحركة اللايقونية قد أوقفت تماما ، وأعيدت عبادة الصور فى المجمع المسكونى الذى عقد سنة ٨٤٣م بدعوة من الامبراطورة تيودورا التى تولت بعد زوجها تيوفيلوس (توفيل) ، الذى أصدر قراراته باعادة قوانين مجمع نيقية (سنة ٧٨٧م) ، القاضى بتقديس الصور . (عن هذا ، انظر / هسى : نفس المرجع ، ص ١٣٦ وهامش (٢) منها ـ =

فانتقم ليو بفصل مناطق جنوب ايطاليا عن السيادة البابوية ، وقد ساعد ذلك حكام الفرنجة على التدخل ، وجعل شارل العظيم نفسه حاميا للأرثوذكسية ، فبدات دولة الفرنجة في الظهور كامبراطورية منافسة لبيزنطة ، فترتب على هذه الاحداث ، انسحاب روما من الشرق ، وخروج بيزنطة من الغرب اللاتيني ، فانهارت بذلك فكرة الوحدة التي تمسكت بها كل من الامبراطورية البيزنطية والبابوية .(١)

تلك كانت الحركة المعادية لعبادة الصور في بيزنطة بتاثير مرسوم الخليفة يزيد بن عبد الملك الا انه بالرغم من أن أول قرار ضد عبادة الصور لم يصدر في القسطنطينية بل في دمشق عاصمة الخلافة في خلافة يزيد بن عبد الملك ، فان المسلمين في تنفيذهم لمرسوم الخليفة يزيد ،اقتصروا على ازالة الصور والتماثيل وتحطيمها أو محوها،بينما الامبراطور ليو وابنه قسطنطين ورجاله تعدوا ذلك الى اضطهاد الرهبان وقتلهم وتعذيبهم .(٢)

ومن علامات سياسة المسلمين الحكيمة في هذا الصدد اعطاؤهم حرية الرأى للرعايا المسيحيين في التعبير عن رايهم في هذه الحركة ، تمثل ذلك في افساح المجال للقديس يوحنا الدمشقي في الدفاع عن استخدام الصور كوسيلة للعبادة،

= ـ أومان : الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٦٥ ـ فازيليف : العرب والروم ، ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة ، مراجعة فؤاد حسنين على ، دار الفكر العربى ، ص ٣٦٥-٣٦٨) .

(١) عن هذه النتائج الخطيرة للحركة اللايقونية في الدولة البيزنطية ، (انظر / أومان : نفس المرجع ، ص ١٥٢-١٥٣ -هسى : العالم البيزنطى ، ص ١٣٥-١٣٦،١٣٨ ـ السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ٢٠٨ .

(٢) نجدة خماش : الشام في صدر الاسلام ، ص ٩٥ .

حيث قدم عددا من الرسائل الشهيرة صاغ منها الأدلة اللاهوتية لاستخدام الصور ، فغدت سلاحا ماضيا بيد مؤيدى عبادتها ، كما قام بجولة واسعة فى سورية داعيا الى مقاومة مبطلى الايقونات ، فاعتبر الزعيم الأساسي المدافع عن الايقونات . كل ذلك فعله وهو داخل الدولة الاسلامية ، التى لاتقر عبادة الصور وأمرت بازالتها من اراضيها .(١)

وقد ذكر فيليب حتى(٢) ، ان يوحنا هذا ، قد خلف اباه سرجون فى استلام الادارة المالية فى الدولة الاسلامية ، ولم يزل مشرفا عليها حتى أوائل خلافة هشام ، حينما اعتزل الادارة وانصرف الى حياة الزهد والتعبد واقام فى دير القديس سابا بالقرب من بيت المقدس حيث قضى نحبه . ولعل تركه العمل فى ادارة الدولة الاسلامية ، وانصرافه للتعبد والزهد ، ان صحت هذه الرواية ، بسبب مرسوم الخليفة يزيد ، لما علمنا عن الدور الذى قام به فى الدفاع عن عبادة الصور والتصدى للحركة اللايقونية التى تزعمها الامبراطور ليو .

الا ان من الواجب الاشارة هنا ، اننا لم نجد ليوحنا بن سرجون بن منصور الرومى دورا فى الادارة المالية فى الفترة السابقة لهشام ، منذ أن عربت الدواوين فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان . كما أن عبد الملك عزل سرجون والد منصور ولم يول ابنه يوحنا بن سرجون ، بل ولاها سليمان بن سعد

---

(١) عن يوحنا الدمشقى ، وتصديه لسياسة ليو الثالث اللايقونية ، ودفاعه عن الايقونات من داخل الدولة الاسلامية ، (انظر / أسد رستم : كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى ، ص ٦٣-٧٨ - ابراهيم العدوى : الأمويون والبيزنطيون ، ص ٢٩٣-٢٩٤ - فيليب حتى : تاريخ سورية ، ١١٧/٢ - هسى : العالم البيزنطى ،ص١٣٧)

(٢) تاريخ العرب (م) ، ٣١٤/١ - وتاريخ سورية ، ١١٦/٢ .

الخشني ، وقيل بل ظل سرجون على الدواوين حتى عزله عمر بن عبد العزيز عندما وجد عليه شيئا (١) .

ويتبين أن سياسة تحريم عبادة الصور والأمر بازالتها يخالف معتقد مسيحيي الشام ، وتجلى هذا فى موقف يوحنا الدمشقى الذى أشرنا اليه ، وكذلك فى موقف مسيحيي مصر ، حيث قام بطريرك اليعاقبة فى مصر المدعو قسيما بمناظرة الامبراطور تيوفيل (٢١٤هـ/٨٢٩م - ٢٢٨هـ/٨٤٢م) فى سياسته المعادية لعبادة الصور (٢) .

ومعنى هذا أن مرسوم الخليفة يزيد وماترتب عليه ، قد ساء المسيحيين ، من رعايا الدولة الاسلامية ، لكنهم فيما يبدو لم يستطيعوا عمل شيء يذكر للتصدى لسياسة الخليفة يزيد داخل الدولة الاسلامية فى عهده .

---

(١) عن تولية سرجون بن منصور ، وعزله على أثر تعريب الدواوين . (انظر / فرج الهونى : النظم الادارية ، ص ١٩٦، ٢٠٥، ٢٠٩ - ابن خياط : تاريخ ابن خياط ، ص ٢٢٨، ٢٩٩، والصفحات التى أورد فيها ذكر عمال الخلفاء بعده .
ويؤيد أسد رستم خبر عزل يوحنا الدمشقى عن العمل فى ادارة الدولة الاسلامية ، من قبل عمر بن عبد العزيز بعد أن كشف خيانته ، وقد ذكر أن ذلك كان بفعل حيلة لجأ اليها الامبراطور البيزنطى ليو الثالث ، أظهر فيها للخليفة عمر خيانة يوحنا للمسلمين وأنه كتب اليه يشكو مايلاقيه النصارى من ذل فى دولة الاسلام ، ويبين للامبراطور مواطن الضعف فى الدولة الأموية . مشيرا أن هدفه من هذه الحيلة اغضاب الخليفة عليه ، للتخلص منه بعد أن تصدى لسياسته اللايقونية فى الدولة البيزنطية (كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ص ٧٠-٧١) . وهذا الخبر من أساسه يكون باطلا ، لأن ليو الثالث لم يتخذ سياسته اللايقونية الا سنة (٧٢٦م/١٠٧-١٠٨هـ) ، وعلى أثر مرسوم الخليفة يزيد ، أى أن ذلك تم بعد عهد عمر بل وبعد عهد خليفته يزيد . فكيف يكيد الامبراطور ليو الثالث عند عمر ليوحنا لكونه تصدى لسياسته اللايقونية ، وهو لم يشرع فى هذه السياسة بعد .

(٢) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٨٠-١٨١ - المقريزى : خطط ، ٢/٤٩٤ .

ومع ذلك فمن المرجح أن مرسوم يزيد الى جانب سياساته المالية المتشددة مع أهل الذمة (١)، وخاصة بمصر، كان من الأسباب التي ادت الى ثورة أقباط مصر على الحكم الاسلامي (سنة ١٠٧هـ) في أوائل خلافة أخيه هشام بن عبد الملك،

(١) لم يكن يزيد متشددا مع اهل الذمة في كل شيء، فيذكر أن يزيد بن عبد الملك أذن في أول سنة من حكمه، للبطريرك الملكاني مار الياس، بدخول انطاكية، في موكب حافل من الرهبان والاتباع، بعد مضي مائتين وثلاث سنوات، من خروج ساويرس رأس المسيحيين الملكانيين الأرثوذكس في أنطاكية، والتي لم يسمح لهم فيها بتنصيب بطريرك منهم. وصارت البطريركية في هذه المدة لليعاقبة (البلديين)، فنالوا الحظوة عند حكام المسلمين.
(انظر : نجدة خماش : الشام في صدر الاسلام، ص ٩٦-٩٧).
ومثل هذا اذن الخليفة هشام سنة ١٠٧هـ، باقامة بطرك ملكاني على الاسكندرية، بعث من قبل ملك الروم، وذلك بعد أن نزعت البطركية من الملكانيين في مصر وصارت لليعاقبة منذ زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فبقيت في أيديهم سبعا وسبعين عاما. (انظر / المقريزي : خطط ٤٩٣/٢).
ولعل هذا حدث بعد أن امن الخلفاء الأمويون، تحزب الملكانيين للبيزنطيين، خصوصا بعد الحركة اللايقونية وانقسامهم على انفسهم. (نجدة خماش : نفس المرجع، ص ٩٥).
ويبدو لي أن هناك سببا آخر دعا هشام بن عبد الملك الى ذلك، وهو غضبه على اقباط مصر، اذ قاموا (١٠٧هـ ٧٢٦م) بثورات ضد الحكم الاسلامي. فكان نزع بطريركية الاسكندرية منهم، واعطاؤها للملكانيين، عقابا على موقفهم. ولعله كذلك نوعا من التقارب مع الحكومة البيزنطية، التي اتخذ امبراطورها في السنة نفسها السياسة اللايقونية، كما تم في عهد الخليفة يزيد بالدولة الاسلامية قبل ذلك. لكننا لانعرف سببا محددا لسماح الخليفة يزيد بدخول البطريرك الملكاني انطاكية في أول سنة من حكمه وربما يكون قد فعل ذلك عقابا لليعاقبة بعد أن لمس منهم منذ أن تولى الخلافة مايدعو للغضب عليهم، فاذن للبطريرك الملكاني بدخول انطاكية ثم أصدر مرسومه، ولعل ماتضمنه المرسوم، كان ظواهر استشرت بين المسيحيين اليعاقبة، فاستثارت غضب الخليفة، ودعته لهذه السياسة، اذ رآهم خرجوا عن حدود ماكان لهم في عهود ملحهم.

والتي تعددت واستمرت حتى أخمدت نهائيا (سنة ٢١٦هـ) في خلافة المأمون العباسي (١).

(١) عن ثورات القبط في مصر ، (انظر / المقريزي : خطط، ٢/٤٩٣-٤٩٤ ـ الكندي : الولاه والقضاة ص ٧٣-٧٤، ١٩٠-١٩٢- ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة ، ١/١٥٤-١٥٥).

الفصل الرابع

الفتوحات الإسلامية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك

المبحث الأول : الفتوح في بلاد ماوراء النهر .
المبحث الثاني : الفتوح في أرمينيه .
المبحث الثالث : الفتوح في أرض الروم .
المبحث الرابع : الفتوح في بلاد الغال .

الفصل الرابع

الفتوحات الاسلامية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك

نشطت الفتوحات الاسلامية فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ، بعد حالة الفتور التى عاشتها ايام سلفه الخليفة عمر بن عبد العزيز ، والذى لجا لذلك فى شىء من التوازن من أجل التفرغ لحركة الاصلاح الكبرى التى شهدها عهده .

وقد عاود الجيش الاسلامى نشاطه العسكرى فى زمن الخليفة يزيد ، مدفوعا بثلاثة عوامل : اما لاخماد بعض الحركات التمردية فى اقاليم الأطراف ، واعادة نفوذ الدولة على تلك الاقاليم ، ويتمثل ذلك فى الجهود العسكرية التى وجهت لاخماد تمرد الصغد فى بلاد ماوراء النهر .

واما لصد العدوان الخارجي على الممالك الاسلامية ، كالتصدى لهجوم الخزر على أرمينية . أو للابقاء على زمام المبادرة العسكرية بايدى المسلمين ، خصوصا مع عدوهم اللدود ، وخصمهم العنيد ، الدولة البيزنطية ، وذلك بالاستمرار فى غزو اراضيها برا وبحرا .

أو استمرارا فى حركة الفتوحات ، ومواصلة الجهاد ، ونشر الدعوة فى البلاد التى لم تطأها اقدام الفاتحين من قبل ، كحملاتهم فى بلاد الغال .

وسنعرض فى هذا الفصل للجهود العسكرية زمن يزيد فى الجبهات الأربع التى اشرنا اليها ، وما اسفرت عنه تلك الجهود .

المبحث الاول

الفتوح فى بلاد ماوراء النهر

توقفت الفتوحات الاسلامية الكبرى فى بلاد ماوراء النهر(١) بمقتل قتيبة بن مسلم الباهلى (سنة ٩٦هـ) ، على يد جنده من القبائل العربية ، عندما اراد مخالفة الخليفة سليمان بن عبد الملك . ذلك القائد الذى يعود له الفضل فى اتمام(٢) الفتح الاسلامى لذلك الاقليم ، وفرض السيادة الاسلامية عليه ، وضمه الى دولة الاسلام(٣) .

لكن شكرى فيصل يقول(٤) : ان مقتله لم يكن مجرد توقف للفتوح الاسلامية فى آسيا الوسطى حتى ولاية نصر بن سيار – مابين ١٢٠ و١٣١هـ – بل كان بداية انحسار وتراجع للنفوذ

---

(١) ماوراء النهر : اسم أطلقه العرب على المنطقة المتحضرة الواقعة فى حوض نهرى أموديا (جيحون) وسيردريا (سيحون) . (بارتولد : تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم ، اشرف على طبعه قسم التراث العربى بالمجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص ١٤٥) . ويعتبر نهر جيحون الحد الفاصل بين الاقوام المتحدثة بالفارسية والمتحدثة بالتركية ، كما أنه الحد الفاصل بين مناطق ايران وتوران ، والعرب اول من سمى المناطق الواقعة وراءه "بما وراء النهر" أو بلاد الهياطلة . (ناجى حسن : القبائل ، ص ٢٠٧ – وانظر ايضا : كى لسترنج : بلدان ، ص ٤٧٦) .

(٢) عن مقتله ، انظر / نبيه عاقل : تاريخ خلافة بنى أمية، ص ٢٤٠ – راضى عبد الله عبد الحليم : تاريخ خراسان ، ص ٤٣-٤٤ .

(٣) انظر قبل : التمهيد ، ص ٣٧ .

(٤) حركة الفتح ، ص ٢١٨ (وسيكون لنصر بن سيار دور مميز ، انظر اشارتنا له بعد : ص ٣٤٦) .

الاسلامى هناك .(١)

اذ يبدو أن الولاه الذين جاءوا بعده ، لم يكونوا على استعداد للاضطلاع بمهمة الفتح ومااخذ به نفسه ، ففقدوا سيطرتهم على ولايات حوض سيحون فى العام التالى لمصرعه ، وتحولوا من دور الهجوم الى دور الدفاع .(٢)

واذا ماتجاوزنا عهد سليمان بن عبد الملك(٣) ، لنرقب الموقف الحربى فى ماوراء النهر زمن عمر بن عبد العزيز ، سلف الخليفة يزيد ، لتبين أن سياسة عمر بن عبد العزيز الحربية(٤) ، وبخاصة فيما وراء النهر ، حينما أمر بايقاف الغزو والاكتفاء بما فتح ، بل ومحاولته اجلاء المسلمين من تلك البلاد الى خراسان ، كما نص على ذلك الطبرى(٥) ، بقوله : "وكتب عمر الى عبد الرحمن بن نعيم – عامله على خراسان – يأمره باقفال من وراء النهر من المسلمين بذراريهم . قال : فأبوا وقالوا : لايسعنا مرو(٦) . فكتب الى عمر بذلك ، فكتب اليه عمر : اللهم انى قضيت الذى على ، فلا تغز بالمسلمين ، فحسبهم الذى فتح الله عليهم " .

---

(١) سنعرف من خلال هذا البحث فى الصفحات التالية ، دورا بارزا لسعيد الحرشي عامل الخليفة يزيد بن عبد الملك على خراسان ، فى اعادة الفتح والسيادة الاسلامية على بلاد ماوراء النهر .

(٢) بارتولد :تركستان ، ص ٣٠٤ – الهادى الغزى : الشعر الأموى فى خراسان ، ص ٣٣ .

(٣) تجاوزناه لأن عامله على خراسان يزيد بن المهلب ، كان قد وجه فتوحاته الى جرجان وطبرستان ودهستان . (انظر راضى عبد الله عبد الحليم : تاريخ خراسان ، ص ٤٥-٤٩)

(٤) انظر حديثنا عن مجمل سياسته الحربية قبل : التمهيد ، ص ٦٤-٦٧ .

(٥) تاريخ الامم ، ٥٦٨/٦ .

(٦) مرو : وهى مرو الشاهجان ، أو مرو العظمى ، اشهر مدن خراسان وعاصمتها . (ياقوت : معجم ، ١١٢/٥-١١٦) .

وان كان مبعث هذه السياسة هو الخشية على المسلمين ، من راع يرى مسئوليته عن رعيته ، الى جانب تغليب طريق نشر الاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، على الجهاد الحربى ، وذلك عن طريق دعوة ملوك ماوراء النهر الى الاسلام (١) ، والصبر على أهل الفتن ، ومعالجة الامور بالعدل ، ثقة فى ظاهر اسلامهم ، وتالفا لهم ، وهذا مادفعه الى عزل الجراح الحكمى عامله على خراسان ، الذى اراد استخدام أسلوب العنف والشدة للضرب على يد اهل الفتن ، واختبار صحة اسلام من أظهر اعتناق الاسلام ، وتولية عبد الرحمن بن نعيم ، لما عرف عنه من لين وايثار للعافية (٢) . ومع مالهذه السياسة من ايجابيات ، كاسلام بعض ملوك واهالى هذه المناطق ، لتبين انها اطمعت آخرين فى المسلمين ، وحفزتهم الى التمرد وشق عصا الطاعة (٣) .

فقد تمرد الصغد (٤) على سلطان المسلمين ، وهاجم الترك

---

(١) انظر حديثنا عن ذلك قبل : التمهيد ، ص ٦٥-٦٦ .

(٢) انظر ذلك فى / الطبرى : تاريخ الأمم ، ٥٥٨/٦-٥٦٢ ـ ابن خياط : تاريخ ابن خياط ، ص ٣٢٠ ـ البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٤١٥ ـ ابن الأثير : الكامل ، ١٥٧/٤-١٥٩ .

(٣) شكرى فيصل : حركة الفتح الاسلامى ، ص ٢١٨ .

(٤) الصغد : كورة قصبتها سمرقند ، وهما صغدان ، صغد سمرقند وصغد بخارى . ذكر أن مساحته ستة وثلاثين فرسخا فى ستة واربعين ، ومنبرها الأجل سمرقند ثم كش ثم نسف ثم كشانية ، وقيل قصبته اشتيخن ، والبعض يجعل بخارى من الصغد . (ياقوت : معجم ، ٤٠٩/٣-٤١٠) .
ويذكر كى لسترنج : أن الصغد (صغديانا القديمة) كان يشمل الأراضى الواقعة بين سيحون وجيحون ، والتى يسقيها نهرى زرفشان ، وعليه تقوم بخارى وسمرقند ، والنهر حيال مدينتى كش ونسف . الا أنه قال : من الأوجه أن يعد الصغد اسما للرساتيق المحيطة بسمرقند . فان بخارى وكش ونسف ، كانت كل واحدة منها تعد كورة بذاتها . (انظر/بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٥٠٣) .
والصغد أهل هذه البلاد .

تلك البلاد وعاونوا الصغد في حربهم المسلمين ، خلال ولاية عبد الرحمن بن نعيم الغامدى[(١)] (١٠٠ - ١٠٢هـ) وظلت مستعرة الأوار حتى ولاية سعيد بن عبد العزيز[(٢)] (١٠٢ - ١٠٣هـ) ، الذى تولى خراسان بعده[(٣)] من قبل الخليفة يزيد بن عبد الملك ، الذى كان عليه اخماد ذلك التمرد .

سعيد بن عبد العزيز وسياسة المسالمة تجاه الصغد :

استمرت ولاية عبد الرحمن بن نعيم على خراسان منذ سنة ١٠٠هـ فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، حتى سنة ١٠٢هـ زمن يزيد بن عبد الملك ، حيث دامت نحو ستة عشر شهرا[(٤)] . واستمرت مع ولايته الاضطرابات التى عمت مناطق الصغد منذ ايام عمر ، ولم يكن مقدم أمير خراسان الجديد زمن يزيد بن عبد الملك ، وهو سعيد بن عبد العزيز (١٠٢ - ١٠٣هـ) ، نهاية لتلك الاضطرابات ، بل ظل الصغد بالتعاون مع الترك على تمردهم ومخالفة المسلمين ، رغم مابذله الوالى الجديد من جهد فى استمالة دهاقنتها وتسكين أهلها ،واتباع سياسة المسالمة تجاههم ، لدرجة وسم معها بالضعف وثقل على الناس[(٥)] .

---

(١) لم أعثر على ترجمة له .

(٢) سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبى العاص الأموى ، ختن مسلمة بن عبد الملك . (الطبرى : تاريخ الأمم ، ٦/٦٠٥) . ولم أعثر على ترجمة له .

(٣) بارتولد : تركستان ، ص ٣٠٨ - وانظر ماسنكتبه عن تمرد الصغد منذ زمن عمر ، والقضاء على ذلك زمن يزيد فى الصفحات التالية .

(٤) الطبرى : نفس المصدر ، ٥/٥٦٢ .

(٥) الطبرى : نفس المصدر والجزء ، ص ٦١٢-٦١٤ - بارتولد : نفس المصدر ، ص ٣١٨ (وقد أشار الى ضعف سعيد بن عبد العزيز ، وقال من أجل ذلك لقبوا سعيد ب "خذينة" . والصحيح انما لقب بذلك كما يقول الطبرى : انه كان رجلا لينا سهلا منعما ، دخل عليه ملك أبغر عندما قدم =

لقد تمسك اهل المدن الكبرى فى ماوراء النهر بموقفهم وهو عدم دفع الضرائب ، والامتناع عن تنفيذ أوامر الحكومة الاسلامية ، ومقاومة جيوشها (١) . ويبدو أن من هذه الضرائب ، الجزية التى أعاد الخليفة يزيد فرضها على من أسلم بعد أن أسقطها عنهم عمر بن عبد العزيز (٢) . وعمل عماله على جبايتها بالعنف والقوة ، فأدى ذلك الى نقض اغلب ممالك ماوراء النهر كالصغد وفرغانة وكش ونسف عهدها مع المسلمين ، بل وارتد كثير من الأهالى عن الاسلام .

ولعل مما ساعد على استفحال الفتنة ، انشغال المسلمين بحركة ابن المهلب ، وماأورثته من نزاع قبلى ، واضطراب داخلى . الى جانب اضطراب سياسة بنى امية وترددها بين

= خراسان ، فوجده فى ثياب مصبغة ،وحوله مرافق مصبغة ، فلما خرج ،سالوه عن الأمير ؟ فقال : خذينة لمته سكينية ، فلقب خذينة . وتعنى عندهم الدهقانة ، ربة البيت . (انظر : تاريخ الأمم ، ٦/٦٠٥)، ويشير البلاذرى أن سعيد بن عبد العزيز دافع عن نفسه ، وبين أسباب هذا اللقب ، بقوله : سميت خذينة لأنى لم أطاوع على قتل اليمانية ، فضعفونى . (انظر : أنساب الاشراف ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٩٣٦م ، ٥/١٦١-١٦٢) . وفى قوله هذا اشارة الى سياسة الدولة نحو القبائل اليمنية ، وعدم ملاحقتهم بعد القضاء على حركة ابن المهلب اليمنى ، وتلك رغبة القبائل المضرية هناك ، كما يبدو ، وان صح هذا الخبر ، فان الذى أطلق عليه اللقب هم العرب لاملك ابغر .

(١) عبد الله مهدى الخطيب : الحكم الأموى فى خراسان ، رسالة جامعية مطبوعة ، منشورات مؤسسة الاعلمى ، بيروت دار التربية ، بغداد ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ص ١٢٤ . لكنه أشار الى انضمام المزارعين العرب الى أهل البلاد فى مقاومة الحكومة ، وهذا ماتخطئه دلائل الأحداث ، اذ نجد الترك وأهل الصغد قد حصروا العرب فى قصر الباهلى (انظر / الطبرى : نفس المصدر ، ٦/٦٠٨) وهذا يعنى حربهم للمسلمين الذين لديهم ، لامقاومة جيوش الخلافة فحسب مما ينفى هذا التحالف .

(٢) عماد الدين خليل : دراسة مقارنة (بحث) ، ص ٣٠٠-٣١١ (نقلا عن : فلهاوزن : الدولة العربية ، ص ٣١٢ ـ ماجدة : التاريخ السياسى ، ٢/٢٧٨ ـ الطبرى : تاريخ ، ٦/٦٠٥-٦٠٧ ـ ابن الاثير : الكامل ، ٥/٩٢) ، وسنناقش القول باعادة يزيد فرض الجزية على من أسلم . انظر ذلك بعد : الفصل الخامس ، المبحث الثانى ، ص ٥٥٢ .

اللين والقوة (١) .

لكن فيما يبدو ان بارتولد التبس عليه الأمر (٢) ، حين قال باستمرار التمرد فى ماوراء النهر منذ قيامه خلال ولاية عبد الرحمن بن نعيم ، حتى ولاية خلفه سعيد بن عبد العزيز أمير خراسان ، من قبل الخليفة يزيد بن عبدالملك ، اذ تشير بعض المصادر (٣) الى أن أهل الصغد عادوا الى الصلح فى ولاية عبد الرحمن الغامدى بعد انتقاضهم عليه . والاظهر ، انهم انتقضوا مرة أخرى فى ولاية سعيد بن عبد العزيز ، وتحالفوا مع الترك على حرب المسلمين (٤) ، اذ يشير الطبرى أن دهاقين الصغد بايعوا الترك على حرب المسلمين ماعدا ملك قى .

ونجد أن علاقة خذينة مع الصغد كانت فى بدايتها فى منتهى الوفاق ، فقد ولى شعبة بن ظهير عاملا عليهم بمشورة الدهاقين ، لكون أبيه أحد أصدقاء الصغد القدامى ، فاستطاع معالجة الموقف هناك (٥) . غير أن أمير الصغد شعبة ، شكى ضمن مجموعة من الأمراء ، لاتهامهم بممالاة أهل البلاد ، فعزل عنها وولى عثمان بن عبد الله بن مطرف بن الشخير مكانه (٦) . ويتبادر الى الذهن أن الوالى الجديد سعى الى تنفيذ سياسات الخليفة يزيد بن عبد الملك وخاصة المالية منها . وكان الناس قد ضعفوا سعيد بن عبد العزيز ، فطمع فيه الترك ،

---

(١) عماد الدين خليل : نفس المرجع ، ص ٣٣ – الهادى الغزى : الشعر الأموى فى خراسان ، ص ٣٣ .
(٢) انظر قوله فى الصفحة قبل السابقة .
(٣) الطبرى : تاريخ الأمم ، ٦٠٥/٦-٦٠٦ – ابن الاثير : الكامل ، ١٧٧/٤ – ابن خلدون : العبر ، ٨٠/٣ .
(٤) نفس المصدر والجزء ، ص ٦٠٨ .
(٥) محمد شعبان : الثورة ، ص ١٧٠-١٧١ .
(٦) الطبرى : نفس المصدر والجزء ، ص ٦٠٧ .

وجمع خاقانهم جيشا ، وجهه الى الممالك الاسلامية فيما وراء النهر بقيادة كورصول ، فانضم اليهم الصغد وبايعوهم على حرب المسلمين ، فسار بهم حتى نزل على قصر الباهلى وحاصر المسلمين فيه .(١)

موقعة قصر الباهلى (سنة ١٠٢هـ) :

كنا قد ذكرنا بان الترك والصغد قد حاصروا المسلمين فى قصر الباهلى ، وقد اشارت بعض المصادر(٢) الى سبب آخر غير استغلال الترك لضعف امير خراسان وعزل عامله على الصغد شعبة ابن ظهير . وهو ان احد الدهاقين اراد ان يتزوج امراة من باهلة ، كانت فى قصر الباهلى ، فابت ، فاستجاش الترك ، راجيا ان يسبوا من فى القصر ، فيأخذ المراة وان كنا لانستطيع ان نعمد الى هذا السبب ، فليس من المنطق ان يبعث خاقان الترك جيشا لحرب المسلمين من اجل ان ينال دهقان من الصغد امراة مسلمة ، وان صح هذا السبب فيكون على الاكثر عاملا مساعدا دفع الى تحالف هذا الدهقان وقومه مع الترك . اما بقية اهل الصغد وتمردهم فان وراءه من الاسباب السياسية والمالية ماكنا قد اشرنا اليه .(٣)

وكان فى قصر الباهلى مائة اهل بيت من المسلمين بذراريهم ، وامير سمرقند آنذاك عثمان بن عبد الله ، ويظهر

---

(١) الطبرى : تاريخ الامم ، ٦٠٧/٦-٦٠٨ - ابن الاثير : الكامل ، ١٧٨/٤ - ابن كثير : البداية ، ط١ ، ٢٤٨/٩ - ابن خلدون :العبر ، ٨٠/٣ .

(٢) الطبرى : نفس المصدر والجزء ، ص٦٠٧-٦١٠ - ابن الاثير: نفس المصدر والجزء ، ص ١٧٨-١٧٩ .

(٣) انظر ذلك فى الصفحتين السابقتين .

أن المسافة بين القصر وسمرقند كانت بعيدة ، فخشى المحصورون أن يبطىء عليهم المدد ، فصالحوا الترك على اربعين الف ، واعطوهم سبعة عشر رجلا رهينة حتى ياخذوا ملحهم ، فبعث اليهم أمير سمرقند المسيب بن بشر الرياحى ، فى أربعة آلاف لمساعدة من بقصر الباهلى من المسلمين وانقاذهم ، فانصرف عنه اثناء الطريق جل الجند حتى لم يبق منهم معه وقد اصبح على بعد فرسخين من قصر الباهلى ، الا سبعمائة ، اذ كان يخطبهم كلما نزل منزلا ، ينوه فيهم بشأن العدو قوة وكثرة ، وكأنه لايريد أن يسير معه الا من عزم على الغزو وصدق النية والصبر . وقد لقيه فى الطريق ترك خاقان ملك قى فى ثلاثمائة من قومه ، فاخبره بانتقاض كافة الصغد ماعداه ومبايعتهم الترك ، وأن الترك المحاصرين قد قتلوا الرهائن عندما علموا بمقدمه من قبل أمير سمرقند . فبعث المسيب رجلان يستطلعان خبر القوم ، فوجد الترك قد اجروا المياه حول القصر لتمنع الوصول اليه ، وتمكنا من محادثة احد المسلمين المحصورين ، فوجداهم قد اعتزموا الخروج من الغد ، وتقديم النساء للموت قبلهم حتى لايبقى منهم احد ، فاخبراهم بمقدم النجدة ، وحث القوم على الصبر حتى وصولها .

أما المسيب فقد اعتزم المسير وبايعه من معه على الموت ، وكانت خطته أن يبيت القوم ، فحث رجاله على الصدق والصبر ، وجعل على ميمنته كثير بن الدبوسى ، وعلى ميسرته ثابت قطنة ، وهاجم القوم ، فصبر لهم الترك ، وانهزم المسلمون الى المسيب ، فترجل اناس من المسلمين وثبتوا ،

فانهزم المشركين ولاذوا بالفرار ، فامر المسيب رجاله بقصد القصر ، وحمل المال (١) ، ومن لايقدر على المشى من الشيوخ والنساء والصبيان ، اما حسبة أو بأجر (٢) ، واحتمال أهل العهد (٣) فاحتملوهم ، وانزلوهم قصر ترك خاقان ملك قي الذى بقى على ولائه للمسلمين . وعاد البعث الى سمرقند ، فرجع الترك من الغد ، فلم يجدوا فى القصر أحدا ، ولم يعثروا على أثر للمسلمين (٤) .

ويتجلى لنا من هذا الخبر عن وقعة قصر الباهلى تعرض الديار الاسلامية للغزو الخارجى من قبل الترك وتمرد أهل الصغد فى الداخل ، وتحالفهم مع العدو ضد المسلمين . ومع تحقيق المسلمين للنصر فى الميدان العسكرى فى هذه الوقعة ، الا انها مع ذلك قد أسفرت عن جلاء المسلمين عن قصر الباهلى (٥) ، اذ ان القوة الاسلامية كانت نجدة انقذت المسلمين كافراد ، ثم ارتدت الى مركزها سمرقند . بل ان عودة الترك فى اليوم الثانى يعنى بقاء القوة المعادية فى الديار الاسلامية والاستيلاء على بعضها مما أوجب على المسلمين وأمير خراسان خاصة ، طرد الأعداء وحماية الثغور ، واعادة السيادة

---

(١) قال ابن الأثير : "حمل الماء" والاصح ماقدمناه ، فليس أكثر من مياه الصغد وانهارها . انظر : الكامل ، ١٧٨/٤-١٧٩ .

(٢) حدد الأجر : أربعون الف درهم . انظر : الطبرى : تاريخ الأمم ، ٦١٠/٦ - ابن الأثير : نفس المصدر والجزء والصفحات .

(٣) هنا اشارة الى وفاء المسلمين بعهدهم لأهله ، ووجوب منعهم لقاء الجزية ، والمساواة فى احلك الظروف .

(٤) عن وقعة قصر الباهلى : (انظر / الطبرى : نفس المصدر والجزء ، ص ٦٠٧-٦١٠ - ابن الأثير : نفس المصدر والجزء والصفحة - ابن كثير : البداية ، ط١ ، ٢٤٨/٩ (فى شيء من الاختصار) - ابن خلدون : العبر ، ٨٠/٣ .

(٥) الهادى الغزى : الشعر الأموى فى خراسان ، ص ٢٨ .

الاسلامية على الصغد والقضاء على تمرد أهله .

غزو سعيد بن عبد العزيز الصغد وحربه الترك :

عبر سعيد بن عبد العزيز (سنة ١٠٢هـ) ، نهر جيحون غازيا الصغد ، ومحاربا الترك ، فقد غزا الترك بلاد الصغد وفرغانة ، وتكررت هجماتهم ، وقد أعانهم الصغد في حربهم للمسلمين (١) ، ويذكر أن سعيد بن عبد العزيز عبر النهر مرتين، كانت الثانية منها سنة ١٠٣هـ (٢) ، لكنه في كلتيهما لم يتعد مدينة سمرقند (٣) . واكتفى بالنصر الذى حققه على الترك في معاركه ، ولم يتكلف تتبعهم واخراجهم من البلاد ، واعادة سلطان المسلمين عليها .

والمصادر لاتميز بوضوح بين غزوتيه ، وان كانت قد اتفقت على آخر نقطة وصل اليها (وهي سمرقند) ونتائج غزوه ، فيصف لنا الطبرى وغيره احدى غزوتيه فيقول : ان الناس استحثت سعيد بن عبد العزيز على الغزو بعد أن رأوا غزو الترك لبلادهم فيما وراء النهر واعانة أهل الصغد لهم ، فقطع النهر الى الصغد ، وهناك التقى مع الترك وطائفة من أهل الصغد ، فهزمهم المسلمون ، الا أن سعيدا منع المسلمين من تتبعهم ، محتجا بأن الصغد بستان أمير المؤمنين ، وانه لايريدبوارهم ،فلما رأت الترك مسير المسلمين عنهم ،كروا عليهم

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم ، ٦/٦١٢-٦١٤ .
(٢) ابن خياط : تاريخ ابن خياط ، ص ٣٢٧ .
(٣) الهادى الغزى : الشعر الأموى في خراسان ، ص ٢٨ (لكن قوله ليس من الدقة بمكان فكما سنرى أنه سيصل الى اشتيخن شمال سمرقند ، ويبعث سرية الى ورغسر شرق سمرقند أيضا . انظر الصفحات التالية) .

وقد جعلوا لهم كمينا ، فقاتلوهم ، وانحازوا حتى جازوا الكمين فخرج على المسلمين ، فانهزموا ، وتبعهم الترك ، فثبت المسلمون ، حتى انكشف عنهم العدو ، فلم يتبعوهم ايضا وقد انهزموا ، ومن الغد خرجت مسلحة (١) للمسلمين عليها شعبة ابن ظهير ، فخرج عليهم الترك فجاة ، فهزم المسلمون وقتل منهم نحو خمسين على راسهم شعبة بن ظهير ، فخرجت لاغاثة المسلحة جماعة من تميم بقيادة الخليل بن اوس العبشمي ، فكفوا الترك عن الناس ، حتى جاء الأمير ، فانهزم العدو (٢) .

والخبر السابق ينقصه مكان القتال وعلى ماذا تقاتل الغريقان وهذا مانجده عند البلاذري (٣) الذي وان خالف لفظ الطبري ، فانه اتم هذا النقص ، ووافقه في سمة الحادثة العامة . اذ يخبرنا : ان سعيد لما عزم على الغزو قدم سورة ابن الحر الحنظلي (٤) ، فتوجه الى ماوراء النهر ، فنزل اشتيخن (٥)

---

(١) مسلحة : مسلحة الجند خطاطيف لهم بين أيديهم ، ينفضون لهم الطريق ويتجسسون خبر العدو ، ويعلمون لهم علمهم ، لئلا يهجم عليهم ، ولايدعون أحدا من العدو يدخل بلاد المسلمين ، وينذرون المسلمين بتقدم الجيوش نحوهم . (ياقوت : معجم ، ١٢٨/٥-١٢٩) .

(٢) تاريخ الأمم ، ٦١٢/٦-٦١٣ ــ ابن الأثير : الكامل ، ١٧٩/٤-١٨٠ ــ ابن خلدون : العبر ، ٨١/٣ .

(٣) فتوح البلدان ، ص ٤١٦ ــ انساب الأشراف ، ص ١٦١-١٦٢ .

(٤) اورد البلاذري اسمه في فتوح البلدان : سورة بن الحر ، وفي الأنساب : سورة بن أبجر . ووجدناه عند الزركلي : كما جاء في فتوح البلدان ، وقد قال عنه ايضا : أمير سمرقند واحد رؤساء تميم ، انتدبه الجنيد لنجدته وهو يقاتل الترك ، فجاءه من سمرقند باثني عشر الف ، فاعترضه الترك ، فقاتلهم حتى كشفهم وكانوا قد اوقدوا نارا خلفهم ، فلما اغار سوره واصحابه سقطوا في اللهيب ، فقتل مع اكثرهم . (انظر : الأعلام ، ١٤٥/٣) .

(٥) اشتيخن : مدينة تقع على بعد سبعة فراسخ شمال سمرقند نعتها الاصطخري بقلب السغد لخصبها . (كي لسترنج : بلدان ، ص ٥٠٩) .

وقد صارت الترك اليها فحاربهم ، وهزمهم ، ومنع الناس من طلبهم ، خشية ان تكون منهم كره ثم لقى الترك بعد ذلك ، فهزموه ، واكثروا القتل فى اصحابه ، واظنه قصد بذلك الهزيمة التى لحقت بالمسلحة التى اشار اليها الطبرى قبل .

اما الغزوة الثانية ، فان المصادر لاتميزها ، لكننا نجد عند الطبرى اشارة اليها (١) ، اذ يخبر أن سعيدا نزل بازاء العدو ، فقيل له : ناجز اهل الصغد فأبى ، فرأى دخانا سأل عنه ، فاخبر انهم متمردى الصغد ومعهم بعض الترك ، فقاتلهم حتى النصر ، الا انه منع طلبهم وتتبعهم .

وفى العام التالى لغزوة سعيد الأولى ، بعث سرية من بنى تميم الى ورغسر (٢) ، وكانوا يأملون لقاء العدو ، ليطاردوه ، اذ كان سعيد بن عبد العزيز يمنعهم من تتبعه ، واذا ماوجد السرية قد اصابت وغنمت وسبت ، رد ذرارى السبى وعاقب السرية (٣) .

ومن عرضنا لجهود سعيد بن عبد العزيز العسكرية فى بلاد الصغد ، تبين انه عمل على طرد الترك مما وراء النهر ، واتباعه سياسة اللين والتودد مع الصغد ، آملا عودتهم للطاعة دون تعريضهم للبوار والابادة ، كما حرص على تجنيب بلادهم الحرب ، لئلا تكون ميدان قتال ، فيلحق بها الخراب والتدمير (٤) . اذ يشير عبد الله الخطيب الى وجود منشآت

---

(١) تاريخ الامم ، ٦١٣/٦-٦١٤ .
(٢) ورغسر : قرية كبيرة ، خصبة تسقيها انهار تأخذ من نهر الصغد ، وتقع بين مدينتى سمرقند وبنجيكث،الواقعة على بعد تسعة فراسخ شرق سمرقند . (كى لسترنج : بلدان ص ٥٠٨-٥٠٩) .
(٣) الطبرى : نفس المصدر والجزء ، ص ٦١٤ – ابن الاثير : الكامل ، ١٨٠/٤ – ابن خلدون : العبر ، ٨١/٣ .
(٤) الحكم الأموى فى خراسان ، ص ١٢٢-١٢٣ .

اروائية ، تتمثل فى قنوات مائية يروى منها الفلاحون الصغار مزارعهم وتعود ملكيتها للحكومة أو الاقطاعى الكبير أو الى المشاعة ، وقد كان الفلاحون يعملون مجانا فى أوقات معينة من السنة لصيانة هذه المنشآت ، وان الأمير سعيد كان الى جانب خوفه على الأراضى الزراعية العائدة للخليفة (١) أو لأمراء العرب وأشرافهم (٢) ، يسعى الى تجنب توتر العلاقات مع الخانات الحاكمين .

ونخلص أن سياسة اللين التى اتبعها سعيد بن عبد العزيز مع الصغد وغزواته التى كانت تهدف الى محاولة كسبهم وارجاعهم الى حظيرة الاسلام ، لم تفلح فى اعادة الصغد الى الطاعة ، حيث ظلوا على حلفهم مع الترك ، واستمر عصيانهم على المسلمين ، كما ازداد الوجود التركى فى الاقليم ، وضاعت هيبة المسلمين ، بانتصار العدو أحيانا ، واحجام المسلمين عن طرده ، فقد أجلوا المسلمين عن قصر الباهلى ، وتقدموا نحو اشتيخن ، فى محاولة منهم لاخراج المسلمين وتقليص النفوذ الاسلامى وراء النهر ، ويظهر أن تمرد الصغد والوجود التركى كان واضحا شرق وشمال شرق ماوراء النهر ،

---

(١) لم تشر المصادر الى وجود ملكيات خاصة للخلفاء فيما وراء النهر ، ويبدو أنه يقصد الأراضى العائدة للحكومة وهى أرض الخراج والصوافى .

(٢) نجح بعض الأثرياء فى شراء بعض الأراضى الخراجية فى العصر الأموى ، وتحولت الى عشرية ، حتى منع ذلك الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وسار على نهجه خليفته يزيد ثم هشام ، وان كان الأمر لم يتوقف نهائيا ، ففرض الخراج على الأرض الخراجية وان ابتاعها المسلم . (انظر/ عبد العزيز الدورى : العرب والأرض فى بلاد الشام فى صدر الاسلام ، بحث مقدم للمؤتمر الدولى الأول لتاريخ بلاد الشام ، من القرن السادس الى القرن السابع عشر ، المنعقد فى الجامعة الأردنية ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت ، ١٩٧٤م ، ص ٢٩) .

لذا أجل أمر التخلص منه . أما المحصورين في الحصن ، فقد طلبوا الصلح بعد مسير الديواشني عنهم ، عارضين على ابن ابي السرى تسليم المدينة بما فيها ، شريطة أن لايعرض المسلمون للأهالي ، فوافقهم على الصلح ، وبعث الى الحرشي بذلك ليرسل من يقوم بقبض مافي الحصن ، فقبض مافيه ، وبيع مزايدة ، فأخرج منه الخمس ، وقسم الباقي بين الجند ، هكذا تم الاستيلاء على حصن ابغر صلحا ، وقضى على فتنة من لجأ اليه ، أما زعيمهم الديواشني ، فقد أورد الطبري ، أن سعيدا الحرشي بعد أن صالح كس ، وخرج الى ربنجن (١) ، أمر بقتله ، وصلبه ، وبعث برأسه الى العراق (٢) . ولعل ذلك كان بعد تسليم قومه الذين بحصن ابغر ، ومصالحتهم لسليمان بن ابي السرى .

مصالحة كس :

توجه الحرشي بجيشه الى كس ، بعد المراسلات التي دارت بينه وبين قائده ابن ابي السرى المحاصر لأبغر ، والتي عرف من خلالها تمكن المسلمين هناك من عدوهم . ويبدو أن الضربة

---

(١) ربنجن : مدينة كبيرة بين سمرقند وبخارى ، تقع على مرحلة بريد من شرق الدبوسية . (كي لسترنج : بلدان ، ص ٥١١-٥١٢) . وانظر قول الطبري عن مقتل الديوانشي في كتابه : تاريخ الأمم ، ١١/٧ ، الا أن ابن الأثير خالفه في ذلك وقال : قتله في زرنج . انظر : الكامل ، ١٨٦/٤ وبالرجوع الى كتاب بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٣٧٣ ، لكي لسترنج ، وجدنا أن زرنج ، قاعدة اقليم سجستان . وحيث أن ميدان الأعمال العسكرية التي قام بها الحرشي هو اقليم ماوراء النهر لاسجستان ، فان كون مدينة ربنجن هي مكان مقتل الديواشني ، هو الأصح . فهي في ميدان غزوه والأقرب الى مدينة كش التي خرج منها الحرشي ، والواقعة أيضا فيما وراء النهر . (انظر : الهامش السابق) .

(٢) انظر عن اخضاع ابغر ، والقضاء على الديواشني : الطبري : نفس المصدر والجزء والصفحة — ابن الأثير : نفس المصدر والجزء والصفحة — ابن خلدون : العبر ، ٨٣/٣ .

القاصمة للصغد فيخجندة قد أورثت الجزع في قلوب أهل الاقليم حتى أن دهقان كس خرج الى الحرشي يدعوه للصلح ، على أن يعطوه عشرة آلاف رأس ، وقيل : ستة آلاف رأس ، يقدمونها خلال أربعين يوما . فقبل منهم ذلك ،وولى نصر بن سيار قبض صلحهم (١) . ثم سار من هناك نحو ربنجن (٢) .

غزو طخارستان :

ويغلب على الظن أن الحرشي سير قائده سليمان بن أبي السري بعد انتهائه من ابغر الى طخارستان (٣) ، اذ يشير الطبري (٤) أن الحرشي عندما قتل الديواشني في ربنجن بعث بيده اليسرى الى سليمان بن أبي السري في طخارستان . وكنا قد تركناه محاصرا لحصن ابغر ، وليس هناك مكان للقول ، بأن وجوده هناك كان كوال . اذ يشير الطبري نفسه الى استعمال الحرشي لابن أبي السري على كس ونسف (٥) . وقد تم هذا غالبا بعد غزو طخارستان ، الذي لاتسعفنا المصادر بأكثر من ذلك عنه .

---

(١) لاأعلم من أي شيء ، فقد يكون من الناس ، ليكونوا في خدمة الجيش الاسلامي ، أو من البهائم ، ان كانوا رعاة .

(٢) انظر مصالحته لأهل كس في / الطبري : تاريخ الأمم ، ١١/٧ — ابن الأثير : الكامل ، ١٨٦/٤ . الا أنه قال : وسار منها الى زرنج ، والأصح ماذكره الطبري ، اذ أن زرنج في سجستان ، وهو في ماوراء النهر . انظر هامش (١) الصفحة السابقة .

(٣) طخارستان : ناحية عظيمة في شرق بلخ ، تمتد بحذاء الضفة الجنوبية لنهر جيحون حتى حدود بدخشان ، تحتوى على عدد من المدن . (كي لسترنج : بلدان ، ص ٤٦٩) .

(٤) نفس المصدر ، والجزء والصفحة .

(٥) نفس المصدر ، والجزء والصفحة .

مصالحة خزار :

كانت خزار (١) من المنعة بمكان ، وهذا مادفع الحرشي الى قبول نصيحة من أشار عليه بأن يوجه اليها المسربل بن الخريت بن راشد الناجي ، لما كان بينه وبين ملكها سبغرى من الصداقة ، عسى ان ينجح في فتحها صلحا وبلاكبير عناء . فسار الى فتحها ، وفاوض الملك سبغرى ، ذاكرا له فعل الحرشي بأهل خجندة ، وخوفه عاقبة العصيان ، فصالح المسلمين ، واعطى امانا له ولبلاده (٢) .

ويتضح أن الحرشي سعى الى ضمان الولاء ، وعدم رجوع الصغد الى العصيان ، فسير عظماءهم في جيوشه ، واصطحب بعضهم (٣) . لذلك نجده قد اخذ سبغرى معه ، فلما نزل أسنان ، قتل سبغرى وصلبه ومعه امانه ، ويقال : كان هذا دهقان ابن ماجر قدم على ابن هبيرة ، فاخذ امانا لأهل الصغد ، فحبسه الحرشي في قهندز مرو ، فلما قدم مرو ، دعا به ، وقتله وصلبه في الميدان (٤) .

---

(١) خزار : موضع بغرب دخش من نواحي بلخ ، وقيل : خزار موضع بقرب نسف بما وراء النهر . ياقوت : معجم ، ٣٦٤/٢ . والقول الأخير الأقرب ، لقربه من المكان الذى وصله الحرشي في طريق غزوه ، اذ كان خارجا من كس (القريبة من نسف) الى ربنجن .

(٢) الطبرى : تاريخ الامم ، ٧/١١-١٢ - ابن الاثير : الكامل، ١٨٦/٤ - ابن خلدون : العبر ، ٨٣/٣ (وقد اشار الى ذلك بدون تفصيل) .

(٣) أسنان : من قرى هراة . (ياقوت : معجم ، ١٨٩/١) .

(٤) الطبرى : نفس المصدر والجزء ، ص ١٢ - ابن الاثير : نفس المصدر والجزء والصفحة (اشار الى مقتله ، ولم يحدد مكان ذلك) - ابن خلدون : نفس المصدر والجزء والصفحة (أورد اسمه قشقرى ، وقال قتله في مرو ، ولم يشر الى ابن ماجر) .

وقد استغل هذا الخبر عبد الله الخطيب فقال (١) : "كان الحرشي سيء السمعة في اقليم خراسان ، وكان لايلتزم بشروط المعاهدات ولايحترم الالتزامات التي كان يعقدها مع دهاقين الترك خلافا للأخلاق الاسلامية وقوانين الحرب التي كان العرب الأوائل يتبعونها في فتوحاتهم الأولى في الشرق أو في الغرب كان الحرشي يقتل من يعقد معه معاهدة او امان او بعد أن يعطي الأمان الشخصي لهم كما فعل - بملك خزار - وكان اسمه سبقري ، صلبه ومعه أمانه" . فكان لزاما علينا تجاه هذا القول ان نعيد النظر في موقف الحرشي من الصغد ، للتحقق من صحة القول ، او اجحافه . فالحرشي عندما امر بقتل الصغد في خجندة بعد عقد الصلح والأمان ، لم يكن غدرا منه ، كما قال بارتولد (٢) ، الذي اتبعه الخطيب في النيل من قادة المسلمين وسمو تعاملهم . فالصغد هم الذين نقضوا الصلح ولم يلتزموا بشروطه ، عندما قتلوا امرأة عربية غيلة ، ودفنوها تحت أحد الحيطان ، فاكتفى الحرشي بقتل القاتل ، وكان قد جاز له حرب الصغد جميعا بعد نقضهم ماصولحوا عليه ، ثم غدر الصغد بالمسلمين وهاجموا عسكرهم ، وقتلوا من بأيديهم من الأسرى ، تماديا في الباطل ونقضا للعهد . فحاربهم دفاعا عن النفس ، وردعا للناكثين ، ومع ذلك نجد من يعتبر قتاله للغادرين غدرا . أما قتله الديواشني وهذا كان حربا على المسلمين ، فنزل على حكم الحرشي ، وكان حكمه فيه القتل ، وليس في ذلك

---

(١) الحكم الأموي في خراسان ، ص ١٢٦ (نقلا عن / الشيباني : شرح كتاب السير الكبير ، ٣٥٨/١ - الطبري : تاريخ الأمم ، ١٢/٧ - ابن الأثير : الكامل ، ١١٠/٥) .

(٢) تركستان ، ص ٣٠٨ (نقلا عن / الطبري : القسم الثاني ، ص ١٤٣٩-١٤٤٩ - البلاذري : فتوح ، ص ٢٢٧) .

مخالفة . أما المثال الذى ضربه الخطيب لغدر الحرشي ، وهو مقتل سبغرى ، فقد وجدنا الطبرى وهو المصدر الأقدم (١) قد أشار الى ذلك بخبر يكتنفه الشك اذ قال مانصه : "ورجع الحرشي الى مرو ومعه سبقرى ، فلما نزل أسنان وقدم مهاجر بن يزيد الحرشي ، وأمره أن يوافيه ببرذون بن كشاينشاه قتل سبقرى وصلبه ومعه أمانه ، ويقال : كان هذا دهقان ابن ماجر قدم على ابن هبيرة فاخذ أمانا لأهل الصغد ، فحبسه الحرشي فى قهندز مرو ، فلما قدم مرو دعا به ، وقتله وصلبه فى الميدان" .

فليس من المؤكد اذا قتل سبقرى . وعطفا على ماذكرناه من سلامة سيرة الحرشي ، فان الأظهر أن يكون المقتول ابن ماجر وليس سبقرى ، واذا ماقال قائل : والأخير أيضا كان لديه أمان من ابن هبيرة ، نقول : الأمير فى خراسان هو الحرشي ، والأعلم بما يستحقه أهل خراسان ، فقد يكون ابن هبيرة أعطى ابن ماجر الأمان قبل ارتحال الصغد عن بلادهم عميانا (٢) . فلما وصل خراسان ، كان الصغد قد خرجوا الى خجندة وابغر ، بعد أن رفضوا دعوة الحرشي لهم بالبقاء ، والعودة الى الطاعة (٣) ، فرأى وجوب حربهم .

ولنا أن نتساءل عند من كان الحرشي سيء السمعة ، وقد قال من معه فيه : "كان يذكر بشجاعة وديانة ، فلما صار

---

(١) تاريخ الأمم ، ١٢/٧ .
(٢) انظر عن محاولة ابن هبيرة ، ثنى الصغد عن الخروج ، قبل : ص ٣٢٨ .
(٣) انظر قبل : ص ٣٢٨ .

بالعراق ماق" (١). وماقالوا ذلك عنه الا لانه لم يكن مسارعا (٢) لحرب الصغد ، فجبنوه .

وقبل أن نصل الى عودة الحرشي الى مرو ، نجد خبرا ينفرد به فامبرى (٣) ، اذ يشير الى أن فرغانة نقضت عنها حكم العرب ، ابان الاضطرابات التى اعقبت مقتل قتيبة بن مسلم (سنة ٩٦هـ) وعزل يزيد بن المهلب (سنة ٩٩هـ) ، فلما كانت ولاية الحرشي سير الجند لحرب اميرها خلج ، وظلت الحرب سجالا بعض الوقت حتى قضوا عليه اخيرا ، ثم عادوا الى بخارى بغنائم وفيرة . ونحن لانعلم من أين استقى فامبرى معلوماته هذه اذ أن المصادر الاسلامية التى اعتمدنا عليها فى فتوحات سعيد الحرشي فى ماوراء النهر ، اظهرت تعاون ملك فرغانة مع المسلمين ، وامتناعه عن مساعدة الصغد عندما لجاوا اليه ، بل ظهر واضحا ان خجندة كانت آخر نقطة وصل اليها الحرشي ثم عاد الى مناطق الصغد وراءه لاخضاعها من جديد . وهذه قرائن كافية لاثبات ولاء اهل فرغانة وبقائهم على الطاعة . وان كنا نجد ابن اعثم (٤) يذهب الى محاربة الحرشي لملك فرغانة فى خجندة ، لكن ذلك من باب اللبس فهويشير الى حادثة ايقاع الحرشي بالصغد ، ولكنه جعلها مع ملك فرغانة خطا .

ورجع الحرشي الى مرو ، وقد افتتح عامة حصون الصغد (٥)، واعادهم الى الطاعة صلحا او عنوة . بعد سلسلة من المعارك

---

(١) فى الطبرى "بخراسان" . (انظر : تاريخ الامم ، ٨/٧) .
(٢) ابن الاثير : الكامل ، ١٨٥/٤ (قال : وماق . اى تاخر) .
(٣) تاريخ بخارى ، ص ٧٥ .
(٤) الفتوح ،٤ج،٢٥٨-٢٥٩ .
(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٤١٦ ـ قدامة بن جعفر : الخراج وصناعة الكتابة ، ص ٤١٠ .

التى خاضها ابان حملته على ماوراء النهر مابين عامى (١٠٣-١٠٤هـ) وبذلك اعاد المسلمون سيطرتهم التامة على تلك المنطقة من جديد .(١) وقضى الحرشى على اعنف انتفاضة قامت بها شعوب ماوراء النهر ، مكنه من ذلك سياسة الخليفة يزيد بن عبد الملك المسندة من ملاك الارض الكبار والعسكريين العرب ، والدهاقين .(٢) فقد شارك الموالى فى جيش الحرشى بقيادة سليمان بن ابى السرى ، كما نجد ذكرا للمجندين من أهل بخارى وخوارزم وشومان(٣) الى جانب تأييد غورك أمير سمرقند بصورة ظاهرة .(٤)

ونحن ان كان لنا من كلمة اخيرة عن حملة الحرشى فاننا نؤكد ان النصر الذى حققه المسلمون ، كان بفضل من الله ثم توفر القيادة الجادة والقديرة ممثلة فى شخص سعيد الحرشى ، وجنده من المسلمين الذين استشعروا خطر هذه الانتفاضة ، وآلمهم ضياع مكتسبات الفاتحين السابقين ، ليعيد الحرشى حكم العرب على ماوراء النهر ، ويبسط السيادة الاسلامية على تلك المنطقة ، مخلدا اسمه بين مشاهير الفاتحين فى هذا الميدان .

التحول من دور الهجوم الى الدفاع :

لم يدم للمسلمين ماحققه سعيد الحرشى من تمكن وسيادة

---

(١) محمد شعبان : الثورة ، ص ١٧٣ - بارتولد : تركستان ، ص ٣٠٨ .
(٢) عبد الله الخطيب : الحكم الأموى فى خراسان ، ص ١٢٥ .
(٣) محمد شعبان : نفس المرجع والصفحة .
(٤) محمد شعبان : نفس المرجع ، ص ١٧٠-١٧١ . (اظنه يعنى اميرهم الوطنى ، لاامير سمرقند من قبل المسلمين) .

فـي مـاوراء النهر ، فقد تحول المسلمون من دور الهجوم الى الدفـاع فـي ولاية خلفـه علـى امـارة خراسان مسلم بن سعيد الكلابي (١٠٤ – ١٠٦هـ) . فقد غزا الاخير الترك فيما وراء النهر (سنة ١٠٥هـ) ، فلم يفتح شيئا ، وعاد ادراجه ، بل ان الترك تعقبوه ، فلحقوا به وهو يعبر نهر جيحون بجنده ، فاتم ذلك في حماية الساقة (١) .

وقد كانت هذه الحملة آخر الغزو في عهد الخليفة يزيد ابن عبد الملك ، وهي في ظاهرها حملة ناجحة ، وان لم تحقق مكتسبات جديدة ، الا أن لحاق الترك بمسلم وتعقبه ، كان فيه دلالة على طمع الترك به ، وبداية لضعف سيطرة المسلمين على ماوراء النهر ، وعودة الاضطراب اليها . الا انه قام في آخر العام نفسه ، صدر خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ – ١٢٥هـ) بغزوة ناجحة على افشين (٢) (٣) ، لكن الأمر تطور بسرعة نحو الأسوأ ، عندما فشلت حملة قام بها مسلم بن سعيد (سنة ١٠٦هـ) على ماوراء النهر ، عرفت بيوم العطش ، حيث بلغ فرغانة ، وفي طريق عودته نال منه الترك ، فانصرف متقهقرا الى سمرقند (٤) .

---

(١) عماد الدين خليل : دراسة مقارنة (بحث) ، ص ٣٠١ – ابن الاثير : الكامل ، ١٩٣/٤ .

(٢) افشين : ثاني اكبر مدينتين في غرجستان قريبا من الضفة الشرقية لاعلى نهر مرغاب ، وعلى اربع مراحل فوق مرو الروذ . (كي لسترنج : بلدان ، ص ٤٥٨) .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم ، ٢١/٧ – ابن الاثير : نفس المصدر والجزء والصفحة – ابن كثير : البداية ، ط١ ، ٢٥٩/٩ .

(٤) محمد شعبان : الثورة ، ص ١٧٩ – بارتولد : تركستان ، ص ٣٠٨ – اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ٣١٢/٢ .

وقد كانت هذه المعركة آخر معركة توسعية فيما وراء النهر خلال الخمسة عشر عاما التالية (١) ، وتحول المسلمون الى دور الدفاع ، وظلوا يتراجعون فيما وراء النهر ، ويخسرون مكتسبات فتوحاتهم المجيدة . فلم يبق فى ايديهم سنة ١١١هـ/٧٢٩م من بلاد ماوراء النهر ، سوى سمرقند وبخارى وماحولها (٢) وظل الوضع على هذا الحال حتى تولى نصر بن سيار خراسان (١٢٠ - ١٣١هـ) ، وبذل جهدا كبيرا فى اعادة النفوذ الاسلامى الى هذه البلاد (٣) .

(١) محمد شعبان : الثورة ، ص ١٧٩ .
(٢) بارتولد : تركستان ، ص ٣٠٩-٣١٠ .
(٣) عن جهود نصر بن سيار فى اعادة النفوذ الاسلامى فى بلاد ماوراء النهر وأهم أعماله هناك ، انظر : الطبرى : تاريخ الامم ، ١٥٤/٧ ومابعدها - ابن الأثير : الكامل ، ٣٨/٤ ومابعدها - رافى عبد الله عبد الحليم : دراسات فى تاريخ خراسان ، ص ٧٨-٩٣ .

المبحث الثانى

الفتوح فى أرمينية

كُنَّا قد أشرنا الى سمة الفتح الاسلامى (١) فى أرمينية (٢) ، والتى ظلت طوال العصر الأموى ميدان قتال من جراء ثورات الأرمن وتمردهم المستمر على الحكم الاسلامى ، وكذلك تدخل البيزنطيين والخزر (٣) فى شئون ذلك الاقليم ، اما بغزوه ، أو بالتحالف مع أهله ضد المسلمين ، أو بتحالف البيزنطيين والخزر ضد المسلمين أو الأرمن (٤) . وكان آخر أمثلة ذلك الصراع

---

(١) انظر قبل : التمهيد ، ص ٣٧-٣٨ .

(٢) يقصد باقليم أرمينية ، المنطقة الجبلية الوسطى العالية فى غرب آسيا ، ويحد هذه المنطقة من الغرب آسيا الصغرى وهضبة أذربيجان والشاطئ الجنوبى لبحر قزوين من الشرق والجنوب الشرقى ، وساحل البحر الأسود والقوقاز من الشمال والشمال الشرقى ، ومن الجنوب الركن الشمالى الغربى من أرض الجزيرة . (ابراهيم العدوى : الأمويون والبيزنطيون ، ص ١٢١-٢٢) .
ويقول كى لسترنج : كانت أرمينية الكبرى تنقسم الى أرمينية الداخلة وارمينية الخارجة ، وكانت قصبة أرمينية الاسلامية فى الأزمنة الأولى "دبيل" وتسمى أيضا دوين أو توين . (انظر : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢١٦)
ويذكر صابر دياب : أن أول حملات المسلمين على أرمينية كانت بقيادة عياض بن غنم سنة ١٩هـ ، وأن أشهر الحملات الاسلامية التى فتح على اثرها أهم مدن ومناطق ذلك الاقليم ، هى حملة سليمان بن ربيعة الباهلى وحبيب بن مسلمة الفهرى (٢٤-٢٥هـ) . مشيرا الى اختلاف المصادر الاسلامية والأرمنية على سير الفتح وحملاته وزمنه . (انظر: ارمينية من الفتح الاسلامى الى مستهل القرن الخامس الهجرى ، ص ١٩-٣٦) .

(٣) الخزر : من أصل جرمانى (هونى) . فيليب حتى : تاريخ سورية ، ٦٩/٢ . ويضيف هاشم اسماعيل الجاسم : أنهم قوم استقروا فى منطقة القوقاز تقريبا ، لكن نفوذهم يتسع وينكمش حسب التطورات السياسية ، وقد عرفوا بتحالفهم مع البيزنطيين ، فاستخدمتهم الدولة البيزنطية أثناء حروبها مع الأمويين . (انظر : دراسة تاريخية عسكرية عن الثغور البيزنطية العربية ، هامش (١) ، ص ٩٦ ـ وانظر أيضا : كى لسترنج : نفس المرجع ، ص ٢١٥) .

(٤) عن ارمينية فى العصر الأموى ، انظر : صابر دياب : نفس المرجع ، ص ٤٠-٦٠ .

تعرض ارمينية وآذربيجان[(١)] (٩٩هـ) ، لغزو الخزر ، الذين هاجموا المسلمين على غرة ، وأصابوا جماعة منهم ، لكن أمير ارمينية عبد العزيز بن حاتم الباهلي[(٢)] ، تصدى لذلك الغزو والحق بالخز ر هزيمة منكرة ، حتى لم ينج منهم الا القليل وقدم على الخليفة عمر بن عبد العزيز بخمسين أسيرا منهم[(٣)] .

ويظهر أن الضربة التى تلقاها الخزر على يد عبد العزيز بن حاتم ، كفّتهم عن العودة الى مهاجمة هذه المناطق طوال عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز ، والشطر الأول من خلافة يزيد بن عبد الملك .

---

(١) اذربيجان : عرف قديما باسم "اتروباتين" ، ويحده من اعلاه نهر ارس ، ومن أسفله النهر الابيض ، وكلاهما يصب فى بحر قزوين ، وابرز العوارض الطبيعية فى هذا الاقليم بحيرة ارمية الملحة ، وبقربها تبريز ومراغة قاعدتا الاقليم ، والى شرقها اردبيل ، وهى من كبار مدنه واقربها الى بحر قزوين . قيل : أن به سبعين لسانا ، يتكلم بها اهله ، وليس بين مدنه مدينة عظيمة الكبر . (كي لسترنج : نفس المرجع ، ص ١٨، ١٩٣-١٩٤ . وقال ياقوت : أن قصبته أردبيل ثم تبريز . معجم ، ١/١٢٨-١٢٩) .

(٢) عبد العزيز بن حاتم بن النعمان الباهلى ، قائد من الامراء ، كان عامل عمر بن عبد العزيز على الجزيرة ، (ت ١٠٣هـ) ، (الزركلى : الأعلام ، ٤/١٦) . وكان على أرمينية زمن الوليد بن عبد الملك ، وهو الذى بنى مدينة برذعة بارمينية ، أو أبيه ، زمن عبد الملك بن مروان . (انظر : صابر دياب : ارمينية من الفتح الاسلامى الى مستهل القرن الخامس الهجرى ، ص ٤٢، ٤٩) .

(٣) عن هجوم الخزر هذا ، وتصدى عبد العزيز بن حاتم له . انظر / ابن خياط : تاريخ ابن خياط ، ص ٣٢٠ - اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، ٠٢/٣٠٢ - الطبرى : تاريخ الأمم ، ٦/٥٥٣-٣٥٤ - الذهبى : تاريخ الاسلام ، ٣/٣٣٣ .

نظام الصوائف والشواتي في عهد الخليفة يزيد بن عبدالملك :

استؤنفت الحملات العسكرية المنظمة الى الثغور (١)، وهو ما عرف بنظام الصوائف والشواتي (٢)، بعد وفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز (٣)، فقد ظل نظاما معمولا به طوال العصر الأموى. الا أن تغييرا في ذلك التنظيم قد حدث، اذ نجد ظهور نوعين من الصوائف، هما : الصائفة اليمنى، والصائفة اليسرى، واستقلال كل واحدة منهما في الغزو والقتال (٤).

فقد كانت هذه الحملات توجه من ثغور الشام ومن ثغور

---

(١) الثغر : كل مكان قريب من أرض العدو من ناحية البر أو البحر، سواء كان مدينة أوحصنا، واتخذ كقاعدة عسكرية، وضيفتها التصدى لهجمات العدو، والدفاع عن المدن الداخلية، وانطلاق الهجمات الاسلامية منها الى ديار الأعداء، برا كان ذلك أو بحرا. (هاشم الجاسم : دراسات تاريخية عسكرية، ص ٧٤-٧٥.

(٢) الصوائف والشواتي : اسم للجيش الاسلامي الذي يجمع مرة في الصيف ومرة في الشتاء، ويجهز، ويخرج للاغارة على مواقع العدو، ومقاتلته في أرضه. وتخرج الحملة الربيعية لعشر أيام تخلو من أيار "مايو" بعد أن يكون الناس قد ربعوا دوابهم، وحسنت أحوال خيلهم، فيقيمون ثلاثين يوما، ثم يقفلون، فيقيمون خمسة وعشرين، حتى يقوى ويسمن الظهر، ويجتمع الناس لغزو الصائفة، ثم يغزون لعشر من تموز "يولية" فيقيمون لوقت قفولهم ستين يوما، ولايقدم عليها الا وقت الضرورة. (انظر : هاشم الجاسم : نفس المرجع، ص ١٠٢ عمر سليمان العقيلي : خلافة معاوية بن أبي سفيان، جامعة الملك سعود، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص ٩٧-٩٨).

(٣) وفيق الدقدوقي : الجندية في عهد الدولة الأموية، ص ٢٠٩.

(٤) عواد الأعظمي : مسلمة، ص ٢٣١ (وقد أورد في هامش (٣)، (٤) من نفس الصفحة، تفسيرا للصائفة اليمنى واليسرى فقال : أصبحت الصائفة اليمنى تعني الغزو من نحو الثغور الجزرية باتجاه نواحي ارمينية وأذربيجان والخزر. واليسرى : تعني الغزو من نحو الثغور الشامية، باتجاه أرض الروم).

الجزيرة ، وأصبح لكل جبهة نشاطها المستقل ، فتركز نشاط الثغور الجزرية حول البند الأرمني ، لمراقبة الحدود الغربية الأرمينية ، وجرى على هذا التنظيم الخليفة يزيد بن عبد الملك وخليفته هشام بن عبد الملك (١). لقد شغلت أرمينية الأمويين المتأخرين ، لمحاولة الروم الاستفادة من غارات الخزر ، والمنافسات الداخلية بين الأسر الأرمينية ، فقد كان منها مايوالى المسلمين مثل (Bamikonian) ، ولهؤلاء خصوم يحقدون عليهم ويتعرضون لاضطهادهم ، مثل : (Mamikonian) (٢). لذا حاول ليو الايسورى (امبراطور الروم) ان يفيد من هذه الأوضاع ، مستغلا حسن علاقته بجيرانه من الخزر ، فسعى الى تعزيزها ، بتزويج ابنه قسطنطين الخامس من ابنة خان الخزر (٣) فكان لزاما على الخليفة يزيد بن عبد الملك ان يحول دون استغلال بيزنطة لمتاعب المسلمين الداخلية فى أرمينية ، فكان هدفه ازعاج البند الأرمنى ومراقبته بتيقظ (٤). بل أن تغيير نظام اخراج الحملات الثغرية الموسمية (الصوائف والشواتى) . كان فيما يبدو لاشغال كل من الروم والخزر ، وتفويت فرصة التحالف بينهما والتعاون فى حرب المسلمين ، وسنرى من العرض التاريخى للجهود العسكرية فى عهد الخليفة يزيد ، تمكنه من صد الخزر ، واستمرارية الغزو والبقاء فى آسيا الصغرى .

---

(١) فتحى عثمان : الحدود ، ص ٩٨ .
(٢) فتحى عثمان : نفس المرجع ، ص ٩٩ .
(٣) هسى : العالم البيزنطى ، ص ١٣٠ .
(٤) فتحى عثمان : نفس المرجع والصفحة .

غزو معلق بن صفار الخزر سنة ١٠٣هـ :

يشير الطبرى وغيره (١) الى اغارة قام بها الترك (٢) (سنة ١٠٣هـ) ، على اللان (٣) ، ومنها يتبين عودة الخزر الى التحرش بالمسلمين ومهاجمة ممالكهم فى أرمينية . وهذا مادفع أمير ارمينية آنذاك معلق بن صفار البهرانى (٤) الى القيام بحملة على الخزر ، فلقيهم بمرج الحجارة ، فى شهر رمضان من نفس العام ، وقد كلب الشتاء . فدارت المعركة ، وهزم المسلمون وقتل جماعة منهم ، واستولى الخزر على عسكرهم وغنموا مافيه (٥) لكن ابن اعثم (٦) ، يورد اسم القائد ثبيت النهرانى (٧) ، من أهل حمص ، ويوافقه على هذا الاسم ابن الاثير (٨) ، الذى أرخ للمعركة ب (سنة ١٠٤هـ) (٩) واشار الى تحالف حدث بين الخزر والقفجاق ،

---

(١) تاريخ الامم ، ٦١٩/٦ - اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، ٣١٥/٢ - ابن الاثير : الكامل ، ١٨٤/٤ .
(٢) يبدوانه يعنى الخزر (انظر التعريف بهم قبل : ص ٣٤٧.
(٣) اللان : بلاد واسعة فى طرف ارمينية قرب باب الأبواب مجاورة للخزر . (ياقوت : معجم ، ٨/٥) . ويقول عنها كى لسترنج : انها احد الولايتين اللتين تكونا بلاد الخزر ، اذ تتألف بلاد الخزر من أبخاز واللان . (انظر : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢١٣) .
(٤) معلق بن صفار بن فلحص بن جنب الجمار بن موقد النار البهرانى ، من أهل حمص ، ولاه يزيد بن عبد الملك ارمينية سنة ١٠٣هـ ثم عزله سنة ١٠٤هـ . (ابن خياط : تاريخ ابن خياط ، ص ٣٣٣) .
(٥) ابن خياط : نفس المصدر ، ص ٣٢٨ .
(٦) الفتوح ، م٤/٢٦٠،٢٥٨ (وقد ذكر أن عدد الخزر فى هذه المعركة ثلاثين الفا ، ولم يشر الى تحالفهم مع الترك)
(٧) ثبيت النهرانى :لم اعثر على ترجمة له . كما لم يرد ذكره بين عمال يزيد بن عبد الملك على أرمينية وأذربيجان والجزيرة (انظر بعد : الفصل الخامس ، المبحث الأول ، ص ٤٩٦ ومابعدها) ، حيث وجدنا أن عامل يزيد (سنة ١٠٣هـ) هو معلق بن صفار البهرانى الحمصى ، وهذا مايقوى اعتقادنا بوروده عند ابن أعثم وابن الأثير محرفا ، والصحيح ماقدمناه .
(٨) نفس المصدر والجزء ، ص ١٨٦ .
(٩) القفجاق : هم سكان قوقاسية .(انظر / سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ، ترجمة عفيف البعلبكى ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨١م ، ص ١٣٣-١٣٤) ، فى المنطقة التى تقع بين شمال بحر قزوين والبحر الاسود ، وهم من الترك .

وغيرهم من انواع الترك ، ضد المسلمين . ويتضح أن ابن الاثير ذكر هذا الاسم نقلا عن ابن أعثم المتقدم عليه ، حيث يتفقان في تقديم معلومات عما آل اليه أمر المسلمين بعد انكسارهم امام الخزر وحلفائهم ، فيذكران ان المنهزمين لاذوا بالشام ، وعلى رأسهم قائدهم ، فلما مثلوا بين يدى الخليفة لامهم ووبخهم على انهزامهم ، فكان عذر قائدهم ، ياأمير المؤمنين ماجبنت ولانكبت عن لقاء العدو،ولقد لصقت الخيل بالخيل والرجل بالرجل،ولقد طاعنت حتى انقصف رمحى ، وضاربت حتى انقطع سيفي،غير أن الله تبارك وتعالى يفعل مايريد .

اذا فما اسباب هذه الهزيمة ، وقد علمنا صدق المسلمين في القتال ؟

ان المتفحص لخبر هذه الغزوة قد يجد في ثناياه بعض العوامل التي لم تكن في صالح المسلمين ، وعلى رأسها يأتي تحالف الخزر مع القفجاق وغيرهم من الأقوام التركية ، الى جانب حدوث المعركة في فصل الشتاء ، وبرده القارس الذي يصعب على العرب تحمله والقتال فيه ، كما أن حدوثها في شهر رمضان ، ودخول بعض الجند او الكل المعركة وهم صيام ، قد اثر على قدرتهم القتالية ، لذلك كنا نجد الكثير من القادة ينصحون جنودهم بالافطار ابان الحرب .

أما الاختلاف على قائد هذه الحملة ، فأمر أورثه اختلاف المصادر على ولاة ارمينية (١) ، وهو اختلاف انحصر في قائد

---

(١) سنعرض لهذا الاختلاف حول ولاة أرمينية ابان خلافة يزيد ابن عبد الملك ، عند دراستنا لسياسة الخليفة يزيد بن عبد الملك الادارية في الفصل الخامس .

الحملة وسنة حدوثها ، اما الغزوة واحداثها فقد اتفقت عليها تلك المصادر ، فيما عدا بعض التفاصيل . وقد اخذنا بقول اقدمها .

غزوة الحارث بن عمرو الطائي :

ينفرد البلاذري بالاشارة (١) الى غزوة قام بها الحارث بن عمرو الطائي ، والي ارمينية (٢) بعد معلق بن مفار على حد قوله فيذكر : انه غزا اهل اللكز (٣) ففتح رستاق حسمدان (٤) .

ويتجلى لنا محدودية هذه الحملة ، واثر قيادتها ، ولعل ذلك مادفع الخليفة يزيد بن عبد الملك الى عزله واسناد ولاية ارمينية وامر الخزر الى رجل ذي قدرة وتجربة . لكن ولاية الحارث ارمينية من قبل يزيد بن عبد الملك ، وقيامه بهذه الجهود الحربية ، موضع شك للاختلاف على ولايته ارمينية زمن يزيد ، ولقول ابن خياط ، ان ذلك قد حدث زمن هشام بن عبد الملك (٥) ، فان صح ذلك ، كان قوله ارجح ، لتقدمه

---

(١) فتوح البلدان ، ص ٢٠٨ .
(٢) الحارث بن عمرو الطائي ، وال من القادة ، ولي امرة البلقاء لعمر بن عبد العزيز ، وارمينية سنة ١٠٧هـ ، واذربيجان سنة ١٠٨هـ ، وصد الترك سنة ١١١هـ وهزمهم واستباح عسكرهم ، وقد كان حيا سنة ١١٢هـ . (الزركلي : الاعلام ، ١٥٦/٢) . وهو في هذه الترجمة لم يشر الى ولايته ارمينية زمن يزيد بن عبد الملك ، وعند النظر في هامشه وجدناه لم يعتمد على المصدر الذي اعتمدنا عليه في هذا الخبر ، وقد اشرنا الى تفرده بذلك من خلال ما اطلعنا عليه من مصادر .
(٣) لكز : بليدة خلف الدربند تتاخم خزران ، سميت باسم بانيها ، وقيل : لكز والكز والخزر وصقلب وبلنجر بنو يافث بن نوح عليه السلام ، عمر كل واحد منهم مكانا عرف باسمه . (ياقوت : معجم ، ٢٢/٥) .
(٤) رستاق حسمدان : لم اجد له تعريفا .
(٥) انظر ماكتبناه عن هذا الاختلاف ، وما اورده ابن خياط ، بعد : الفصل الخامس ، المبحث الأول ، ص ٤٩٦ .

على البلاذرى .

فتوحات الجراح الحكمى فى أرمينية :

اطمعت الهزيمة التى تلقاها المسلمون سنة ١٠٣هـ على يد الخزر فى ارمينية ، الاقوام القوقازية والتركية فى المسلمين ، فاندفعوا نحو الحدود الأرمينية ، وشنوا غاراتهم وتوغلوا فى البلاد (١) . مما دعى الخليفة يزيد بن عبد الملك الى استعمال الجراح بن عبد الله الحكمى (٢) ، على أرمينية واذربيجان (سنة ١٠٤هـ) (٣) ، واسند اليه مهمة صد الخزر وامر حربهم ، وامده بجيش كبير ، وامره بحرب الاعداء ، وقصد بلادهم (٤) . وفى ذلك دلالة على جدية الخليفة فى مواجهة الموقف بالجبهة الارمينية ، فقد اختار القيادة القديرة ، وزودها بالجيش الكافى لتحقيق الأهداف ، ولم يكن همه تطهير البلاد

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، ١٨٦/٤-١٨٧ ـ سهيل زكار : تاريخ العرب والاسلام ، ص ٢١٨-٢١٩ .

(٢) الجراح بن عبد الله الحكمى ، دمشقى الأصل ، من الأشراف الشجعان ، ولى البصرة للحجاج ، ثم خراسان وسجستان لعمر بن عبد العزيز ، ثم ولاه يزيد بن عبد الملك ارمينية واذربيجان ، غزا الخزر وافتتح بعض حصونهم ، اقره هشام ، ثم عزله (سنة ١٠٨هـ) ، وأعاده (سنة ١١١هـ) ، فاستشهد فاتحا فى حروبه مع الخزر (سنة ١١٢هـ) قال الواقدى : كان البلاء بمقتل الجراح على المسلمين عظيما فبكوا عليه فى كل جند . (الزركلى : الاعلام ، ١١٥/٢) .

(٣) جعل المؤرخ المجهول ، غزو الجراح (سنة ١٠٢هـ) ، واشار الى فتوحه باجمال موجز فحسب . (انظر : العيون ، ص ٧٥) . الا أن هذا التاريخ لايتناسب مع منطق الأحداث التى قدمنا ذكرها ، ويخالف اجماع المصادر الاسلامية على كون (سنة ١٠٤هـ) ، هى عام ولاية الجراح ، وغزوة الخزر .

(٤) ابن الاثير : نفس المصدر والجزء والصفحة ـ ابن اعثم : الفتوح ، م٢٦٠/٤ ـ ابن خلدون : العبر ، ٨٣/٣ ـ صابر دياب : ارمينية من الفتح الاسلامى حتى مستهل القرن الخامس الهجرى ، ص ٥٠ .

الاسلامية من وجود الغزاة ، بل مهاجمتهم في بلادهم ، ردعا لهم ، واحياء لهيبة المسلمين في نفوسهم ، حتى لايعودوا لحربهم مرة اخرى . فسار الجراح بجيشه حتى وصل ارمينية ، فنزل بردعة (١) ، ليعطي جنده قليلا من الراحة ، بعد عناء السفر من دمشق الشامية حتى بردعة في الديار الأرمينية ، وليعد نفسه وينظم صفوفه ، لمواجهة الخزر . الذين ما ان سمعوا بمقدم الجراح في جيشه ذاك (٢) ، حتى ارتدوا عن البلاد الاسلامية التي كانوا قد استولوا عليها ، وانسحبوا عائدين حتى نزلوا مدينة الباب والأبواب (٣) (٤) .

وبعد ان اخذ الجراح وجنده قسطا من الراحة ، توجه نحو الخزر في عامه ذاك (١٠٤هـ) ، فعبر نهر الكر (٥) ، واجتاز

(١) بردعة :قصبة (مركز) اقليم الران ، الواقع بين نهري الكر والرس عند التقائهما ، وتقع على بعد ثلاثة فراسخ من نهر الكر ، قائمة على احد روافده ، وكان بيت المال زمن بني امية في هذه المدينة . (كي لسترنج : بلدان ، ص ٢١١-٢١٢) ، وقد كانت بردعة دار الامارة والجند في ولايتي ارمينية واذربيجان . (اديب السيد : ارمينية في التاريخ العربي ، المطبعة الحديثة ، حلب الطبعة الأولى ، ١٩٧٢م ، ص ٩٥) .

(٢) لم تشر المصادر الى عدد الجيش الذي سيره الخليفة يزيد بقيادة الجراح ، لكن ابن اعثم ، يورد ان عدد جند الجراح في معركة الران مع الخزر كان (٢٥) الفا . وهذا يعني ان من سار بهم من دمشق كان اقل من هذا العدد ، باعتبار انه قد انضم اليه من كان قبله في ارمينية . (انظر : الفتوح ، م٤/٢٦٠) .

(٣) باب الأبواب : مدينة في اقصى الشمال لبلاد شروان ، وهي اجل موانئ بحر قزوين ، يقول كي لسترنج : ان هذه التسمية من العرب لمدينة دربند ، مدينة كبيرة حصينة من ثغور الاسلام . (انظر : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢١٤-٢١٥) .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ٤/١٨٦-١٨٧ - ابن اعثم : نفس المصدر والمجلد ، ص ٢٦٠-٢٦٢ - ابن خلدون : العبر ، ٣/٨٣ - كما اشار ابن قدامة الى نزوله بردعة .(انظر : الخراج وصناعة الكتابة ، ص ٣٣٠) .

(٥) نهر الكر : مخرجه من الجبال غرب تفليس ببلاد جورجيا ، اي بلاد الخزر ، يمر بتفليس وشمكور ، ثم يلتقي بنهر الرس اسفل من بردعة بقليل ، بعدها يصب في بحر قزوين بولاية كشتاسفي . (كي لسترنج : نفس المرجع ، ص ٢١٣) .

اقليم شروان (١) ، حتى قطع نهر السمور (٢) متجها موب مدينة باب الأبواب (٣) .

ويبدو ان الجراح الحكمي لم يجد مقاومة تذكر من اهالى اقليمي الران وشروان ، بعد انسحاب الخزر وارتدادهم الى باب الابواب على بحر قزوين ، ومع ذلك فان الجراح عمل على تسيير بعض اهل الجبال في جيشه ، للتثبت من ولائهم ، وتامينا لنفسه من أن يقطعوا الطريق عليه ، تعاونا مع الخزر او من تلقاء انفسهم . حيث أن غالبية أهل تلك المناطق بقيوا على نصرانيتهم ، بعد الفتح الاسلامي ، وفي ظل سيادة الدولة الاسلامية ، الى أعقاب الفتح المغولي واستقرار الترك هناك ، فصار الدين السائد هو الاسلام . وهذا في الغالب ماسهل للخزر أمر التوغل في البلاد ابان غياب القوة الاسلامية . وابن الاثير يخبرنا (٤) بان واحدا من أهل الجبال ، الذين ساروا في ركاب الجراح قد كاتب ملك الخزر بمسير الجراح اليه ، مما اضطر القائد الى التوقف بعد عبوره نهر الكر ، اذ انه كان يامل ان يلقى العدو على غره ، فخدع ذلك الرجل وكاتب الخزر بتوقف الجراح واقامته ، فما لبث الجراح

---

(١) شروان : اقليم يلى نهر الكر على بحر قزوين ، فيه تنتهي جبال القفقاس ، قصبته الشماخية (شماخى) . (كي لسترنج : بلدان ، ص ٢١٤) .

(٢) نهر السمور : نهر يصب في بحر قزوين على شيء يسير جنوب دربند ، ويسمى ايضا (نهر الملك) . (كي لسترنج : نفس المرجع ، ص ٢١٥) .

(٣) ابن قدامة : الخراج وصناعة الكتابة ، ص ٣٣٠ — البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٠٨ — ابن اعثم : الفتوح م٤/٢٦٠ — ابن الاثير : الكامل ، ١٨٧/٤ .

(٤) نفس المصدر والجزء ، ص ١٨٦-١٨٧ — ابن اعثم : نفس المصدر والجزء ، م٤/٢٦١ (اخبر ان الذى كتب هو ملك بلاد الكر ويسمى اربيس بن بسباس) .

ان عاود المسير من ليله ذاك ، وسار مجدا الى باب الأبواب . فوجدها خالية ، بعد ان تركها الخزر (١) ، الذين علموا بمقدمه فيما يبدو . فلحقوا ببلادهم (٢) . وخرج الجراح من مدينة باب الابواب وعسكر عند عين باب الجهاد (٣) ، على بعد نصف فرسخ منها (٤) فبث الجراح سراياه على مايجاوره من البلاد ، فنصروا وغنموا ويحدد ابن أعثم (٥) وجهة احد هذه السرايا ، وهي أرض حيداق (٦) حيث يذكر ان الجراح وجه احد قادته على رأس ثلاثة آلاف فارس اليها ، فكان غنمها كبيرا .

معركة الران :

وكان الجراح قد ارتحل في عشرين الفا من جنده ، بعد أن بعث سراياه ، فنزل على نهر الران على ستة فراسخ من مدينة باب الأبواب ، واجتمع اليه جند السرايا بعد أن ادوا الهدف الذي وجهوا من أجله . فاصبح في خمسة وعشرين الفا من المسلمين (٧).

---

(١) ابن اعثم : الفتوح ، م٤/٢٦٠-٢٦١ – ابن الاثير : الكامل ، ١٨٧/٤ – لكن صابر دياب الذي أشار الى غزو الجراح في ايجاز ، قال : "ودخل على الخزر ليلا – يعني في مدينة باب الأبواب – وهزمهم ، وقتل منهم الكثير بسيوف المسلمين" وذكر أن عدد المسلمين نحو بضع وثلاثين الفا . (انظر : ارمينية من الفتح الاسلامي حتى مستهل القرن الخامس الهجري ، ص ٥٠) .

(٢) ابن أعثم : نفس المصدر والمجلد والصفحات .

(٣) ابن أعثم : نفس المصدر والمجلد ، ص ٢٦١ .

(٤) ابن الاثير : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) نفس المصدر والمجلد ، ص ٢٦١ .

(٦) لم نجد لها ذكر بهذا الاسم عند ياقوت وكي لسترنج . ولكننا وجدنا "حيزان" : من مدن ارمينية قريبة من شروان . (انظر : ياقوت : معجم ، ٣٣١/٢) ، فنظنها هي لوجودها في نفس المنطقة . وقد يكون حدوث الاختلاف تحريفا ، أو خطأ في النقل .

(٧) ابن أعثم : نفس المصدر والمجلد ، ص ٢٦١ .

ويظهر أن تلك الأغارات الاسلامية وماحققته من نصر ومغانم قد اثارت الخزر ، ولعل ذلك ماكان يبغيه قائد المسلمين ، فتوجهوا اليه في أربعين الفا بقيادة ابن ملكهم ويدعى نارستيك بن خاقان . ونزلوا معه على نهر الران (١) (٢) . فدارت بين الفريقين (سنة ١٠٤هـ) معركة عظيمة نصر الله فيها المسلمين وهزم الخزر ، وقتل الكثير منهم واسر ، وغنم المسلمون جميع مامعهم . بل قيل : وغرق الترك وعامة ذراريهم في الماء (٣) . ويفهم من هذا القول أن الخزر عبروا النهر الى المسلمين ، فلما هزموا لم يتمكنوا من العبور اما لقطع الجسر ، أو لحيلولة المسلمين بينهم وبين الفرار ، فسقط الكثير منهم في النهر ، هروبا من هول الهزيمة وخشية القتل ، وتبع المسلمون من فر .

فتوح الجراح بعد معركة الران :

سهل النصر الذى حققه المسلمون في معركة الران ، مهمة

---

(١) لم نجد تعريفا بنهر الران عند ياقوت وكى لسترنج .

(٢) ابن أعثم : الفتوح ، م٢٦١/٤ - ابن الاثير : الكامل ، ١٨٧/٤ .

(٣) عن معركة الران انظر : ابن أعثم : نفس المصدر والمجلد ، ص ٢٦١-٢٦٢ - ابن خياط : تاريخ ابن خياط ، ص ٣٢٩ - ابن الاثير : نفس المصدر والجزء والصفحة - البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢٠٨ (لم يحدد مكان المعركة) - اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، ٣١٣/٢ - الطبرى : تاريخ الأمم ، ١٤/٧-١٥ (ذكر اللقاء ولم يذكر مكانه) - ابن كثير : البداية ، ط١ ، ٢٥٧/٩ - الذهبى العبر في خبر من غبر ، ١٢٦/١ (لكنه أسمى المعركة "بهرازن" وجعلها مع الخاقان) - الذهبى : تاريخ الاسلام، ٨٧/٤ - ابن خلدون : العبر ، ٨٣/٣ - ابن العماد : شذرات ، ١٢٦/١ - الذهبى : دول الاسلام ، ٥٢/١ (جعلها في رمضان سنة ١٠٥هـ ، ويبدو أنه خلط بينها وبين نصر المسلمين عليهم سنة ١٠٥هـ ، عندما هاجموا أرمينية بقيادة الخاقان . انظر ذلك بعد : ص ٣٦٦-٣٦٧) .

الجراح ، في اخضاع تلك المناطق لحكم المسلمين وسيادتهم ، وذلك في أعقاب التخلص من القوة الرئيسية للخزر ، التي لم تعد قادرة على مواجهة المسلمين ذلك الحين على الأقل . فجرد الجراح جيشه لفتح مدن وحصون الخزر هناك . الا أن المصادر الاسلامية تقدم لنا معلومات مضطربة عن تلك الجهود ، ترتيبا وزيادة ونقصا ، ولعل ما اصاب الأسماء من تحريف وتصحيف هو ما اورثنا ذلك الخلل .

وقد لجأ الجراح في حروبه مع الخزر الى سياسة التهجير لأهل تلك المناطق والحصون ، ردعا لهم ، واضعافا لقوتهم بتحويلهم عن مكامن القوة والاعتصام في بلادهم ، الى مناطق اخرى ، ليضمن دوام ولائهم وطاعتهم ، فيقول الطبري : ففتح - يعني الجراح - الحصون التي تلي بلنجر وجلا عامة أهلها (١) . وهذا أسلوب دفاعي لجأ اليه الجراح الحكمي ، سنلاحظه في ثنايا حديثنا عن فتوحاته المقبلة . فبعد انتصار المسلمين في الران تتبعوا المنهزمين ، حتى وصلوا الى حصن يعرف ب "الحصين" (٢) نزل أهله على الأمان مقابل مال يؤدونه ، فأعطاهم ذلك ، ونقلهم عنها الى حيزان (٣) .

الا اننا نجد شيئا من اللبس عندما يورد ابن قدامة (٤) نصا يوافقه فيه البلاذري (٥) ، يشير الى مقاتلة الجراح لأهل بلاد

---

(١) تاريخ الأمم ، ٧/١٤-١٥ - ابن كثير : البداية ، ط١ ، ٢٥٧/٩ .
(٢) لم أجد له تعريفا .
(٣) ابن اعثم : الفتوح ، م٢٦٢/٤ - ابن الاثير : الكامل ، ١٨٧/٤ (لكنه لم يحدد المكان الذي نقلهم اليه) - ابن خلدون : العبر ، ٨٣/٣ (وهو كذلك لم يذكر المكان الذي نقلوا اليه) .
(٤) الخراج وصناعة الكتابة ، ص ٣٣٠-٣٣١ .
(٥) فتوح البلدان ، ص ٢٠٨ .

حمزين[1] ، ومصالحتهم على أن ينقلهم الى رستاق خيزان[2] ، حيث جعل لهم منه قريتين . وحيث أننا لم نعثر على تعريفات بهذه المواضع سوى حيزان ، فيغلب على الظن أن الحصين هو حمزين وخيزان هو حيزان ، فيكون الخبر الذى أورده ابن أعثم وابن الاثير وابن خلدون[3] ، هو الذى ورد عند من سبقهم كابن قدامة والبلاذرى ، وجاء ذلك التحريف فى الأسماء اثر النقل أو سوء الخط .

الا أن خليفة بن خياط فى سياق حديثه عن فتح حصن بلنجر يورد أن أهله حولوا الى رستاق حيزان[4] ، وقد يؤدى هذا الى الشك فى أن حصن حمزين هو حصن بلنجر الذى سنتحدث بعد قليل عن فتحه ، الا أن اختلاف الأحداث فى فتح كلا الحصنين ، وماترتب عليها من نتائج ، حيث أن أهل حمزين (الحصين) انتهى الأمر معهم صلحا ، بينما تم فتح بلنجر عنوة ، يدل على لبس وقع فيه مؤرخنا ابن خياط . اذ أن أهل بلنجر لم يحولوا عن حصنهم ، وهذا ماسنراه اثناء تحدثنا عن فتحه .

فتح رستاق يزعوا :

بعد مصالحة أهل حمزين (الحصين) ، سار الجراح الحكمى الى رستاق "يزعوا"[5] ، فحاصر مدينة يزعوا ستة أيام ، فلما وجد أهلها جدية الحكمى فى قتاله ، طلبوا الصلح ، فأعطاهم

---

(١) لم أعثر لها على تعريف .
(٢) لم أعثر على تعريف له بهذا اللفظ ، وقلنا أن الظاهر انه يعنى حيزان ، فجاء بزيادة نقطة على الحاء .
(٣) انظر الخبر فى الصفحة السابقة .
(٤) ابن خياط : تاريخ ابن خياط ، ص ٣٢٩ .
(٥) لم نعثر له على تعريف .

ذلك وأمنهم ، على أن يحولهم الى رستاق "قبلة"(١) ، فتسلم حصنهم ، وانزلهم بقرية الغانية فى رستاق قبلة(٢) . ونحن فى هذا الخبر نقف حائرين أمام مشكلة التصحيف فابن خياط المؤرخ الأقدم يورد اسم الرستاق يزعوا ، بالزاى ، بينما نجد الاسم مصحفا عند ابن الاثير حيث يورده "يرغوا" بالراء . لكن ابن أعثم يقدمه لنا "برعوفا" . وحيث أنا لم نعثر على تعريف لأى من تلك الالفاظ ، لم يكن لنا بد من تقديم اللفظ الذى ورد عند ابن خياط ، المؤرخ الأسبق . أما المكان الذى نقلوا اليه ، فأخذنا بلفظ ابن أعثم وهو "قبلة" لوجود تعريف لهذا اللفظ عما عداه ، مما يعنى صحته . وليس هنا مكان للقول انها الفاظ لأماكن متعددة ، فصفة الحدث ونتائجه لاتختلف فى كل هذه المصادر .

فتح حصن بلنجر (سنة ١٠٤هـ) :

تجعل بعض المصادر فتح حصن بلنجر(٣) قبل معركة الران(٤) ،

---

(١) قبلة : قلعة فى الجبال القريبة من دربند من أرض شروان . (كى لسترنج : بلدان ، ص ٢١٥) ، ويبدو أن القلعة قصبة الرستاق ، فلايصح أن ينقل الجراح هؤلاء المحاربين الى حصن يعتصمون به ، ويفسر ابن أعثم فى خبره ماذهبنا اليه ، اذ يقول : انزلهم بقرية تسمى الغانية فى رستاق قبلة .

(٢) انظر عن فتح يزعوا / ابن خياط : تاريخ ابن خياط ، ص ٣٢٩ (وقد ورد اسم الرستاق عنده "يزعوا") - ابن اعثم : الفتوح، م٤/٢٦٢ (وورد اسم المدينة عنده برعوفا) - ابن الاثير : الكامل ، ١٥٧/٤ (ورد عنده اسم المدينة يرغوا) .

(٣) ورد ذلك عند / اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، ٣١٣/٢ - الطبرى : تاريخ الامم ، ١٤/٧-١٥ - ابن كثير : البداية ط١ ، ٢٥٧/٩ .

(٤) بلنجر : مدينة ببلاد الخزر خلف باب الابواب ، قيل : كان فتحها على يد عبد الرحمن بن ربيعة ، وقيل : سلمان بن ربيعة الباهلى . (ياقوت : معجم ، ٤٨٩/١). =

الا أن غالبيتها ،تسوق ذلك بعد تلك المعركة ، كما اوردناه نحن فى سياق الفتوح التى قام بها الجراح بن عبد الله .

فبعد أن خلص الجراح من فتح يزعوا ، توجه بجنده الى حصن بلنجر ، وكان مشهورا بين حصونهم ، فحاصره ، الا أن جيش الجراح الذى كان عدده بضعة وثلاثين الفا ، صعب عليه فتح ذلك الحصن ، حيث لجأ أهله الى طريقة دفاعية تمثلت فى شد ثلاثمائة عجلة ، بعضها الى بعض ، واحاطوا بها حصنهم ، لتمنع المسلمين من الوصول اليه ، فازداد حصنهم بها حصانة وازدادوا بها منعة .

فما كان من المسلمين ،الا أن وهب جماعة منهم انفسهم لله ، وتبايعوا على الموت ، وكسروا جفون سيوفهم ، فحملوا على الحصن ، ولم يثنهم عن الوصول الى ذلك العجل ، وحله ، ماقذفوا به من السهام ومالقيوه من القتال ، فتمكنوا من الوصول اليه ، وقطعوا الحبل الذى شد به العجل ، وجذبوها ، فانحدرت جميعا ، وهنا دار القتال ، والتحم الفريقان فى معركة عظم فيها الأمر على الجميع ، حتى كان النصر حليف المسلمين على أعدائهم الخزر ، فاستولى المسلمون على حصنهم عنوة ، وغنموا مافيه . وكانت غنائم عظيمة ، أصاب الفارس منها ثلاثمائة دينار ، وكان ذلك الفتح يوم الأحد الثالث من ربيع الأول سنة ١٠٤هـ .

اما صاحب بلنجر ، فقد تمكن من الفرار فى خمسين من

= وهذا يعني ان تلك المناطق كان قد تم فتحها من قبل ، لكن السلطة الاسلامية لم تكن ثابتة فيها ، وتعرضت للزوال ، بفعل انتقاض اهلها كل ماآنسوا من المسلمين ضعفا .

قومه ، فشرى الجراح زوجته وأولاده وخدمه ، وبعث اليه بالأمان ، فرد اليه حصنه وأهله وأمواله ، ليكون صنيعة للمسلمين وعينا لهم على أعدائهم .(١)

فكان فتح البلنجر ، فتحا مبينا ، كما كان موقف الجراح الحكمي من صاحبه ، بعد نظر سنرى نتائجه الخيرة في سياق الأحداث التالية ، وذلك عندما يخبر المسلمين باتفاق الخزر واجتماعهم على قطع الطريق على المسلمين ، فينقذ المسلمين بذلك من كارثة كادت أن تحل بهم .

مصالحة أهل حصن الوبندر (سنة ١٠٤هـ) :

واصل الجراح الحكمي فتوحاته ، فبعد أن فرغ من أمر بلنجر ، توجه الى حصن الوبندر ،(٢) وكان به نحو أربعين ألف بيت من الترك ، وقال ابن خياط : أربعين بيتا .(٣) فحاصرهم ، حتى عظم الأمر عليهم ، فسألوه الصلح ، على مال يؤدونه فقبل منهم .(٤) وقيل : بل صالحوه على أن يكونوا معه على الخزر .(٥) فعزم بعد ذلك على المسير الى سمندر .(٦)

---

(١) عن فتح الجراح الحكمي لحصن بلنجر ، انظر : ابن خياط: تاريخ ابن خياط ، ص ٣٢٩-٣٣٠ – ابن أعثم : الفتوح ، م٤/٢٦٢-٢٦٣ – ابن الأثير : الكامل ، ١٨٧/٤ – ابن خلدون : العبر ، ٨٤/٣ (ذكر ذلك بشيء من الايجاز) .

(٢) لم أعثر له على تعريف .

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٣٠ (لكنه لم يصرح باسم الحصن) .

(٤) عن فتح الوبندر . (انظر / ابن أعثم : نفس المصدر والمجلد ، ص ٢٦٣ – ابن الأثير : نفس المصدر والجزء والصفحة – ابن خلدون : نفس المصدر والجزء والصفحة (لكنه حرف الاسم فأورده "الوبيد") .

(٥) ابن خياط : نفس المصدر والصفحة .

(٦) ابن أعثم : نفس المصدر والمجلد والصفحة .

ارتداد المسلمين الى شكى :

كان الجراح قد اعتزم التوجه الى سمندر (١) بعد فتح حصن الوبندر ، الا ان صاحب بلنجر ، قد كتب اليه يخبره باجتماع الخزر لحربه ، وانتقاض أهل البلاد التى سار عنها ، وعزمهم على قطع الطريق على المسلمين ، وينصحه بالاسراع فى العودة قبل أن يتم لهم الامر ، فعاد الجراح مجدا بجنده ، الا انه فيما يبدو قد أوقع فى طريقه باهل منطقة تسمى "غوميك" (٢) ، فنصر وغنم وسبى (٣) . وواصل ارتداده حتى نزل شكى (٤) ، وكان الشتاء قد حل ، فاقام المسلمون بها (٥) . وقيل (٦) : بل قفل الى شكى ، وشتى جنده ببرذعة والبيلقان (٧) . وهذا الارتداد ، لايعنى للمؤرخ ، الا أن المسلمين خسروا ماوطئته أقدامهم من البلاد

---

(١) سمندر : مدينة خلف باب الأبواب ، بأرض الخزر ، تبعد عن الباب مسيرة ثمانية أيام ، كانت دار مملكة الخزر فانتقلت مملكتهم الى "اتل" بعد فتح المسلمين لها أول مرة ، التى تقع على مسيرة ثمانية أيام وقيل سبعة ، بعد سمندر . (ياقوت : معجم ، ٢٥٣/٣) .

(٢) لم أعثر على تعريف لها .

(٣) ابن قدامة : الخراج وصناعة الكتابة ، ص ٣٣٠-٣٣١ ــ البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٠٨ . وقد أشار الطبرى الى فتح الحصون التى تلى بلنجر واجلاء أهلها . (انظر : تاريخ الأمم ، ١٥/٧) .

(٤) شكى : ولاية بارمينية ، على نهر الكر قرب تفليس . ياقوت : معجم ، ٣٥٧/٣ .

(٥) ابن أعثم : الفتوح ، م٢٦٣/٤-٢٦٤ ــ ابن الاثير : الكامل ، ١٨٧/٤ (وقد أورد اسمها "ملى" . فلم نجد له تعريفا) ــ ابن خلدون : العبر ، ٨٤/٣ (أورد الاسم "سبى" تحريفا) .

(٦) ابن قدامة : نفس المصدر والصفحة ــ البلاذرى : نفس المصدر والصفحة ــ وينفرد ابن خياط بالقول : أن الجراح عاد الى ورثان . (انظر : تاريخ ابن خياط ، ص ٣٣٠) .

(٧) البيلقان : قصبة اقليم الران بعد خراب برذعة ، تقع الى جنوب برذعة وشمال نهر الرس . وهى مدينة عظيمة ، طيبة . (كى لسترنج : بلدان ، ص ٢١٢) .

وراء مدينة شكى ، ولعل المكسب الوحيد هو الغنم الذى أصابوه . وان كنا لانعدو الحقيقة ان قلنا ان انتصارات الجراح قد أحيت الهيبة الاسلامية فى نفوس الخزر وحلفائهم من الاقوام التركية غرب بحر قزوين ، كما انها مهدت الطريق لفتوحات وانتصارات أخرى .

ولايغيب عن عين المتفحص ، أن هذه النتيجة تبين بجلاء ، ان الفتوحات الاسلامية فى هذه الجبهة ، كانت تعنى حربا مع عالم كبير ، واقوام لم تقبل دين الاسلام ، ولم يضبطها حكم المسلمين . فقد ظل جل أهلها على دياناتهم القديمة ، ولم يكن خضوعهم للسلطان الاسلامى الا ظاهريا ومؤقتا ، فطالما انتكثوا على المسلمين ، ونقضوا ولاءهم ، بل وهاجموا الممالك الاسلامية ، وحاولوا طرد الفاتحين منها ، كلما تيسر لهم ذلك ، وهكذا بقيت هذه الجبهة الأرمينية ومثيلتها بلاد ماوراء النهر ، منطقة حرب لاتنقطع وصراع لاينتهى ، حتى غزا الاسلام قلوب اهلها ، فثبت سلطان أهله عليها .

وتشير المصادر الى أن الجراح الحكمى بعد ارتداده ونزوله شكى ، قد كتب الى الخليفة يزيد بن عبد الملك بما فتح الله على يديه ، ذاكرا له اجتماع الخزر لحربه ، كما سأله المدد . فوعده الخليفة بذلك ، الا أن الأجل قد أدركه قبل انفاذ المدد اليه (1) . ويظهر أن الموقف على الجبهة لم

(1) ابن الاثير : الكامل ، ١٨٧/٤ - ابن اعثم : الفتوح ، م٤/٢٦٣-٢٦٤ - ابن خلدون : العبر ، ٨٤/٣ - صابر دياب أرمينية من الفتح الاسلامى حتى مستهل القرن الخامس الهجرى ، ص ٥٠-٥١ (وقد ذكر عظمة الغنائم التى حصل عليها المسلمون ، حتى أصاب كل منهم ثلاثة آلاف دينار ، كما ذكر أن الخليفة يزيد بن عبد الملك ، قد أمد الجراح بما طلب . نقلا عن ابن الأثير : نفس المصدر والجزء والصفحة أعلاه ، لكن ابن الاثير قال :وعده فقط)

يكن مطمئنا ، وأن الخطر كان كبيرا باجتماع الخزر على حرب المسلمين ، وانتقاض أهل البلاد عليهم ، مما دفع بالجراح الى الانسحاب ، وطلب العون من الخليفة ، ويبدو أن الخليفة قد أدرك ذلك ، وهو الذى رأيناه جادا فى السيطرة على الموقف فى أرمينية ، عندما بعث جيشا كان هدفه تطهير ارمينية من وجود الأعداء ، ومهاجمتهم فى بلادهم . لذلك بعث الى قائده يعده بالمدد ويقويه .

الموقف فى الجبهة الأرمينية بعد يزيد بن عبد الملك :

حرص الخليفة هشام بن عبد الملك على اكمال مابدأه سلفه ، فأقر الجراح على ولاية أرمينية ، وأمده بما يمكنه من صيانة الثغور ، ودفع الأعداء عن ديار الاسلام (١) .

ونحن بعد ذلك نقف أمام غزو آخر ، قام به الجراح الحكمى (سنة ١٠٥هـ) ، على اللان ، حتى تجاوز بلنجر ، ففتح كثيرا من المدن والحصون وراءه ، وأجلى أهل بعضها ، فنصر ، وغنم (٢) . لكن هذه المصادر لاتحدد الشهر الذى حدثت فيه هذه الغزوة ، مما يحيرنا ، أتمت هذه الغزوة فى عهد الخليفة يزيد ، أم فى زمن خليفته هشام بن عبد الملك . الا أن اخبار بعض المصادر (٣) ، عن هجوم قام به الخزر بقيادة ملكهم جابان ،

---

(١) اديب السيد : ارمينية فى التاريخ العربى ، ص ٩١-٩٢ .
(٢) ابن خياط : تاريخ ابن خياط ، ص ٣٣١ - اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، م٢/٣١٥ - الطبرى : تاريخ الأمم ، ٢١/٧ - ابن الأثير : الكامل ، ١٩٣/٤ - ابن كثير : البداية ، ط١ ، ٢٥٩/٩ .
(٣) ابن خياط : نفس المصدر والصفحة - ابن كثير : نفس المصدر والطبعة والجزء ، ص ٢٥٧ - الذهبى : تاريخ الاسلام ، ٨٨/٤ - الذهبى : العبر فى خبر من غبر ، ١٢٨/١ .

(سنة ١٠٥هـ) على أرمينية ، وانتصار الجراح عليهم ، في معركة حدثت في الزم[1] بين نهري الكر والرس ، وذلك في شهر رمضان من هذا العام ، يجعلنا نقدم احتمال قيام الجراح بغزوه لبلاد اللان ، بعد هجوم الخزر على أرمينية ، أي بعد شهر رمضان (سنة ١٠٥هـ) ، ابان خلافة هشام بن عبد الملك ، حيث كانت وفاة الخليفة يزيد بن عبد الملك في شهر شعبان من سنة ١٠٥هـ ، فنرى انه بعد ارتداد الجراح الى شكي ، في اعقاب غزوته التي تمت (سنة ١٠٤هـ) ، قام الخزر الذين اجتمعوا لحربه ، بالهجوم على المسلمين في أرمينية ، فهزموا في الزم ، وعلى اثر هزيمتهم هناك في شهر رمضان (سنة ١٠٥هـ) ،خرج الجراح في حملة تاديبية رادعة ، وتتبع الخزر ، واعاد فتح كثير من البلدان فيما وراء باب الأبواب وبلنجر في أواخر عام ١٠٥هـ . فتكون بذلك غزوة الخزر للديار الاسلامية ، وغزو الجراح لبلادهم مرة ثانية ، واللتان تمتا (سنة ١٠٥هـ) قد حدثتا في خلافة هشام لايزيد بن عبد الملك .

---

(١) لم أعثر لها على تعريف .

المبحث الثالث

الفتوح فى أرض الروم

ابنا الى أى مدى وصلت اليه الفتوحات فى العصر الأموى حتى نهاية عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وأهم منجزات تلك الحقبة ، بما فيها حروبهم مع الدولة البيزنطية ، والفتوحات التى تحققت لهم فى أراضيها (١) .

ولقد تمثلت الجهود العسكرية التى تمت فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ، ضد الروم ، فى تحصين الثغور وشحنها ، وصيانة الحدود والدفاع عنها ، والفتح برا عن طريق الصوائف والشواتى ، وفى ماتم خلال ذلك من فتوحات فى آسيا الصغرى ، والغزو بحرا لجزر الحوض الأوسط والغربى من البحر المتوسط عن طريق افريقية ، وهذا ماسنبينه اثناء عرضنا لتلك الجهود والتى سيتضح على ضوئها أن عهد الخليفة يزيد ، كان خاليا من الحملات العسكرية الكبرى ضد البيزنطيين ، وفى معاودة التفكير فى فتح القسطنطينية عاصمتهم العتيقة ، وان كانت الصوائف والشواتى التى وجهت لآسيا الصغرى ، قد حفلت بكثير من الانتصارات وفتح كثير من المدن والمواقع الرومية ، ولعل السبب وراء عدم التفكير زمنه من محاولة فتح القسطنطينية يعود الى كون عهده لم يكن ببعيد عن آخر محاولة لفتحها ، وهى تلك المحاولة التى تمت فى خلافة سليمان بن عبد الملك . وقد كلفت الدولة الكثير من الرجال والمال . ولم يكن فى

---

(١) انظر ذلك قبل : التمهيد ، ص ٣٩ .

امكان الدولة ان تتحمل تكاليف الانفاق على حملة مثل تلك الحملة ، وبعد فترة قصيرة من حدوثها (١). والتى من المحتمل أن الدولة فى عهده كانت لاتزال مشغولة بتعويض ما استنزفته من أموال . خصوصا أن بيت مال الدولة كان مثقلا بتحمل الانفاق على الأعمال العسكرية التى زخر بها عهده ، سواء فى مجال القضاء على الفتن الداخلية ، أو الفتوح الخارجية . هذا فضلا عن أن الحملات الثلاث التى وجهت الى القسطنطينية قد انتهت بثبوت استحالة قيام البحرية الاسلامية التى لاتزال وليدة ناشئة ، بفتح القسطنطينية وهى على ماهى عليه من حصانة الموقع ، وقوة التحصين ، بالاضافة الى أن الدولة البيزنطية لم تكن قد دخلت بعد فترة الضعف والتدهور ، وظلت قائمة بعد ذلك فترة زمنية طويلة ؛ ولعل ذلك الرأى الذى تقول به بعض المصادر الاسلامية من أن المسلمين اتجهوا الى محاولة فتح القسطنطينية برا ، عن طريق الالتفاف اليها من جنوب أوروبا (٢) ، وهو مايفسر انطلاق الفتوحات الاسلامية أول القرن الثانى الهجرى الى أوروبا عبر جبال البرتات . أما خلو عهده من الحملات الكبرى ضد الروم ، فيبدو أن وراء ذلك تغير نظام الصوائف والشواتى (٣) ، وجعلها على قسمين صائفة يمنى

---

(١) عن الحملة التى وجهها سليمان بن عبد الملك لفتح القسطنطينية ، انظر : هاشم الجاسم : دراسات تاريخية عسكرية ، ص ١٣٨-١٤٠ .
ولقد كان بين المحاولة الثانية (٥٤-٦٠) زمن معاوية ، والثالثة التى تمت زمن سليمان (٩٨هـ) ثمان وثلاثون عاما تقريبا .

(٢) انظر ماكتبناه قبل عن تفكير المسلمين فى فتح القسطنطينية من الغرب عن طريق أوروبا : التمهيد ، ص ٤٠ .

(٣) انظر ماطرأ على ذلك التنظيم من تغيير قبل : الفصل الرابع ، المبحث الثانى ، ص ٣٤٩-٣٥٠ .

واخرى يسرى[1] . واستنزاف التحرك الخزرى على الحدود الارمينية فى زمنه ، جل جهده فى الميدان الشمالى . الى جانب ماتطلبه انتقاض الصغد فيما وراء النهر ، واضطراب الأحوال الداخلية من توزيع الجهد والاهتمام . وعطفا على ماذكرناه فليس من الصواب فى شىء القول بتوقف الحملات الاسلامية فى عهده على المواقع البيزنطية[2] ، أو اهمال تلك الجبهة[3] ، وانشغال الخلافة بالفتن الداخلية حتى كادت جهود الدولة أن تتوقف تماما ضد الروم[4] ، أو ماغالى فيه فتحى عثمان عندما قال[5] : "ففى عهد الخلفاء الأمويين الأقوياء توغل العرب داخل كليلكيا وكبادوكيا[6] . ولكن الدولة البيزنطية فى عهد يزيد الثانى وخلفائه الضعاف استردت المدن التى كان قد احتلها المسلمون" . ولاندرى على اى شىء اعتمد فتحى عثمان فى قوله، اذ لاتزودنا المصادر والمراجع التى اطلعنا عليها بمعلومات

---

(١) يظهر أن حدوث هذا التغيير وجعل الصائفة على قسمين يمنى ويسرى ، قد بدأ منذ زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز اذ يقول ابن خياط أثناء حديثه عن الصائفة فى عهده : "فرقها – يعنى عمر – بين الوليد بن هشام وبين عمرو بن قيس السكونى" . (انظر : تاريخ ابن خياط ، ص ٣٢٤). ومثل هذا التقسيم لانجده عند من سبقه ، بينما نرى استمراريته ووضوحه عند من خلفه .

(٢) قال ذلك نبيه عاقل فى كتابه : تاريخ خلافة بنى أمية ، ص ٣١٨ .

(٣) سهيل زكار : تاريخ العرب والاسلام ، ص ٢١٩ .

(٤) فتحى عثمان : الحدود ، ص ٩٩ .

(٥) نفس المرجع ، ص ٥ .

(٦) كليكيا وكبادوكيا ، من مناطق الثغور البيزنطية فى آسيا الصغرى ، وهى مناطق كبرى تحتوى على عدد من المدن والحصون ،ومرت هاتين المنطقتين الثغريتين كغيرها من المناطق الثغرية البيزنطية فى آسيا الصغرى بشىء من التنظيم والتغيير عبر عصورها المختلفة . ولمعلومات أوفى حول ذلك ، (انظر / هاشم الجاسم : دراسات تاريخية عسكرية ، ص ١٤-٥٧) .

عمـا قـال ، بـل تشير الـى فتوحـات وانتصـارات اسلامية . منهـا مايصفـه ويؤكـده وسـام فـرج بقولـه (١) : "اذا كـانت القسـطنطينية قـد تـم انقاذهـا بفضل الامبراطور ليو الثالث الايسـورى فـان أجزاء كثيرة من آسيا الصغرى كانت لاتزال تحت رحمـة اغـارات العرب كل عام ، ففى سنة (١٠٤هـ/٧٢٣م) استولى العرب على حصن كماخة (٢) وعلى بلدة ايكونيون (٣)" .

والغزو الوحيد للروم على الديار الاسلامية زمن يزيد بن عبـد الملـك ، مـاذكر مـن مهاجمـة الـروم الساحل المصرى ، ونـزولهم تنيس (٤) فى رمضان (سنة ١٠١هـ) فى ولاية بشر بن صفوان الكـلبى (٥) (١٠١ – ١٠٢هـ) ، حيث قتل أميرها مزاحم بن مسلمة

---

(١) دراسـات فـى تـاريخ وحضـارة الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٧٨ .

(٢) كماخـة : عند ياقوت وكي لسترنج (كمخ) : مدينة بالروم علـى الفـرات الغـربى فى يساره ، على مسيرة يوم أسفل ارزنجان ، وهى قلعة عظيمة ، فى أسفلها مدينة على ضفة النهـر ، ومـن أعمالهـا كثير من القرى الخصبة ، وتلفظ عنـد الروم كماخ ، أو كمخا . (انظر : معجم البلدان ، ٤٧٩/٤ ، وبلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٥١) .

(٣) ايكونيـون أو ايكونيـوم : هى مدينة قونية ، وقد عرفت بهذا الاسم بعد فتح السلاجقة لهـا ، واتخـاذها عاصمة لهم (كى لسترنج : نفس المرجع ، ص ١٧٢-١٨١) .

(٤) تنيس : جـزيرة فـى بحر مصر وبلدة من أجل بلدان مصر ، سـميت نسـبة الى تنيس بن حام بن نوح ، تقع على مقربة من البر بين الفرما ودمياط ، وهى جزيرة فى وسط بحيرة يفصلهـا شـريط بـرى عن البحر المتوسط ، تتصل بحيرتها بـالبحر عـن طريق فوهتين . (ياقوت : معجم ، ٥١/٢-٥٤ – المقريزى : خطط ، ١٧٦/١-١٨٢ . وقد اشار للحملة عليها زمن يزيد بايجاز) .

(٥) بشـر بـن صفوان الكلبى : أمير المغرب ، وأحد الشجعان ذوى الـرأى والحزم ، ولى مصر ليزيد بن عبد الملك (سنة ١٠١هـ) ، ثـم وجهه الـى امارة افريقية (سنة ١٠٢هـ) ، فخرج اليهـا ، وأقـام فـى القيروان وغزا صقلية وغيرها ، ومـات بـالقيروان (سـنة ١٠٩هـ) . (الزركلى : الأعلام ، ٥٤/٢) .

المرادى (١) فى جماعة من الموالى (٢) (٣). ويفيد الخبر الى اشتراك القبط مع المسلمين فى الدفاع عن بلدهم ، كما يفيد أن تلك الحملة وان حققت بعض النجاح الا انها لم تكن الا مجرد غارة خاطفة ، ونوعا من أعمال القرصنة ، أو ردة فعل لهجمات المسلمين الدائمة على ثغور بيزنطة البرية والبحرية . فالواقع ان مصر بعد فتح المسلمين الاسكندرية للمرة الثانية (سنة ٢٥هـ) (٤) ، استمرت بصفة دائمة تحت الحكم الاسلامى . لكن الروم لم يسلموا بضياع مصر ، فحاولوا استعادتها ، وكانت معركة ذات الصوارى (٣٤هـ) ، المحاولة الأولى والأكبر لتحقيق ذلك ، لكنها باءت بالفشل (٥) ، ومهم أن نعرف أن من نتائجها ، انها كانت حدا فاصلا فى سياسة الروم تجاه المسلمين ، وافاقت الامبراطورية البيزنطية على حقيقة أن أى حملات برية أو بحرية لاسترداد مصر أو الشام ، يعتبر مجهود ضائع ومحاولات فات اوانها (٦) .

ومع ذلك لم تنقطع الغزوات البحرية الرومية على سواحل مصر والشام ، لكن الطابع الغالب على تلك الهجمات ، طابع القرصنة ورد فعل على الغارات الاسلامية الموجهة الى الممالك

---

(١) أورد الكندى اسمه : "ابن أحمر بن مسلمة المرادى" . (انظر : كتاب الولاة ، ص ٧٠) .
(٢) الموالى : يقصد بهم أهل البلد من القبط .
(٣) سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ٧٧ - علية عبد السميع الجنزورى : هجمات الروم البحرية على شواطىء مصر الاسلامية فى العصور الوسطى ، الناشر مكتبة الانجلو المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ص ٤٩-٥٠ .
(٤) علية عبد السميع الجنزورى : نفس المرجع ، ص ٣٦ .
(٥) عن معركة ذات الصوارى ، انظر : علية الجنزورى : نفس المرجع ، ص ٣٧-٤٤ - عمر العقيلى : خلافة معاوية بن ابى سفيان ، ص ١٠٢-١٠٦ .
(٦) علية الجنزورى : نفس المرجع ، ص ٣٤ .

الروميـــة (١). وماكـــانت الغـــارة عـــلى تنيس زمن يزيد الا واحدة منهـــا . والراجح ان هذه الحملة ، والحملة التى سبقتها على اللاذقيـــة سنة ١٠٠هـ أيام عمر بن عبد العزيز ، كانت رد فعل لغزو المسلمين القسطنطينية زمن سليمان بن عبد الملك (٢).

اهتمامه بالثغور :

كـــان عمـــر بـــن عبد العزيز قد امر ببناء اللاذقية التى هدمهـــا الروم ابان اغارتهم عليها (سنة ١٠٠هـ) ، لكنه توفى قبل ان يتم ذلك ، فاتم بناءها وشحنها الخليفة يزيد بن عبد الملـــك (٣). وان كـــان البـــلاذرى يؤكد اتمام عمر لها (٤) ، وان جهد الخليفة يزيد ، اقتصر على ترميمها وزيادة فى شحنها . وليس مـــن المنطـــق ترميم ماتم انشاؤه حديثا ، والأولى ان الخليفة يزيـــد اتم ماشرع عمر فيه من بناء اللاذقية وشحنها . ولانعثر للخليفة يزيد فى مجال التحصين على عمل آخر ، مما يبين انه قـــد اقتصـــر على اصلاح ماتهدم ، ولعل الموقف فى الجبهة وكون المسلمين فى دور المهاجم ، وخلو فترته من تحرك بيزنطى على الثغـــور البرية ، هو ماصرفه عن ذلك . الا اننا نجد له جهدا آخر فى ميدان الثغور ، وهو تامين دروب الفاتحين ، فقد كان

---

(١) علية الجنزورى : هجمات الروم البحرية على شواطىء مصر الاسلامية ، ص ٤٤ .
(٢) اشارت علية الجنزوى الى مثل هذا القول ، (انظر : نفس المرجع ، هامش ١٤ ، ص ٤٩-٥٠) .
(٣) فتحـــى عثمان : الحدود ، ص ٩٧ ـ وان كان هاشم اسماعيل الجاســـم يقول : ان يزيد هو الذى أعاد بناءها . (انظر كتابـــه : دراســـات تاريخيـــة عسكرية ، ص ٩٨ . نقلا عن : شـــعيرة : المرابطـــون فى الثغور البرية الرومية ، بحث فى كتاب : الى طه حسين فى عيد ميلاده السبعين) .
(٤) فتوح البلدان ، ص ١٣٩ .

الطريق بين انطاكية والمصيصة (١) مسبعة (٢) ، يعترض الناس فيها الأسد ، فلما صادر الخليفة يزيد بن عبد الملك اموال بني المهلب بعد القضاء على يزيد بن المهلب الذى خلع الخليفة وخرج على سلطان الدولة ، كان مما أصابه ضمنها ، اربعة آلاف جاموسة كانت بكور دجلة وكسكر . فامر الخليفة يزيد بنقلها الى المصيصة مع زطها (٣) (٤) .

الحملات البرية ضد الروم :

سنعرض الآن لما تحقق من فتوحات اسلامية زمن الخليفة يزيد بن عبد الملك في الاراضي الرومية ، عن طريق الغزو برا بقيادة أمراء الصوائف والشواتي .

ففي (سنة ١٠٢هـ) غزا عمر بن هبيرة الروم من ناحية ارمينية ، فانتصر عليهم ، واسر منهم سبعمائة أسير ، وكان

---

(١) المصيصة : مدينة تقع على نهر جيحان (نهر بيرامس) ، فتحها عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، وبنى حصنها وأسكنها بعض الجند من ذوى البأس والنخوة ، وبنى بها مسجدا ، ثم عمرها أبو جعفر المنصور ، وأسماها المعمورة . (كي لسترنج : بلدان ، ص ١٦٢-١٦٣) . وأضاف ياقوت : انها من ثغور الشام بين انطاكية وبلاد الروم بالقرب من طرسوس . (انظر : معجم البلدان ، ١٤٤/٥-١٤٥)

(٢) مسبعة : اى تكثر فيها السباع .

(٣) الزط : جيل أسود من السند ، اليه تنسب الثياب الزطية وقيل : الزط اعراب جت بالهندية ، وقيل جيل من أهل الهند ، وقيل : الزط السبابجة قوم بالبصرة . يقول الشاعر :

فجئنا بحيي وائل وبلفها
وجاءت تميم زطها والأساور

انظر : اللسان (زطط) .

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٧٢ .

آنـذاك اميرا على الجزيرة ، قبل أن يلي العراق (١) . ويبدو أن هذه الغزوة تمثل الصائفة اليمنى ، اذ نجد غزوة أخرى قامت فـي نفس العام بقيادة الوليد بن هشام (٢) ، الى أرض الروم ، فنزل على المخاضة عند انطاكية (٣) (٤) . ويظهر أن هذه الحملة تمثل الصائفة اليسرى عن طريق الثغور الشامية . لكن المصدر الوحيد الذي اشار اليها لم يقدم لنا معلومات عن نتائجها .

وتشير بعض المصادر الى حملة أخرى قام بها العباس بن الوليد على أرض الروم ، سنة ١٠٢هـ ، أيضا ، فافتتح مدينة "دبسة" (٥) (٦) . الا أن فتحي عثمان (٧) ينقل لنا ترجيح الدكتور شعيرة ان هذه الحملة كانت سنة ١٠٣هـ/٧٢١م بحجة أن العباس كان مشاركا في اخماد فتنة ابن المهلب . الا أن القضاء على ابن المهلب كان في صفر (سنة ١٠٢هـ) ، وتشير بعض الروايات الى وجود العباس بن الوليد في حلب في أعقاب ذلك (٨) ، فلايستبعد أن

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم ، ٦١٦/٦ ـ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ٣١٤/٢ ـ ابن الاثير : الكامل ، ١٨٢/٤ (قال وأسر منهم خلقا كثيرا وقتل سبعمائة أسير) . ويبدو أنه خطأ في النقل ، فالطبري قال : وأسر منهم بشرا كثيرا قيل سبعمائة فقلبت القيل قتل . مجهول : العيون ص ٧٥ ـ فتحي عثمان : الحدود ، ص ٩٩-١٠٠ .

(٢) الوليد بن هشام بن معاوية بن هشام بن عقبة بن أبي معيط الأموي ، كان عامل عمر بن عبد العزيز على قنسرين وعاش الى دولة مروان بن محمد . (ابن حجر : تهذيب ، ١٣٧/١١) .

(٣) لم أعثر على تعريف للمخاضة ، وانطاكية : مدينة على نهر اورنطس ، وهي قصبة الثغور الشامية ، بينها وبين حلب يوم وليلة . (ياقوت : معجم ، ٢٦٦/١-٢٧٠) .

(٤) اليعقوبي : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) لم أعثر لها على تعريف .

(٦) ابن خياط : تاريخ ابن خياط ، ص ٣٢٧ ـ ابن الاثير : نفس المصدر والجزء والصفحة (وأورد اسم المدينة "دلسه") .

(٧) نفس المرجع والصفحات .

(٨) انظر : الطبري : نفس المصدر والجزء ، ص ٦٠٢ ـ ابن الاثير : نفس المصدر والجزء ص ١٧٥ .

يكون قد خرج غازيا الى أرض الروم في أواخر ذلك العام خصوصا أن المصادر التى اشارت الى غزوته سنة ١٠٢هـ ، اشارت أيضا الى غزوة أخرى له سنة ١٠٣هـ . اما هدف الحملة فيرجح انه لاريسا ، ويقال سيزا .(١)

واستمر انفاذ الصوائف ، فكان على الصائفة الكبرى (سنة ١٠٣هـ)(٤) ، محمد بن مروان(٢) ، وعلى الصغرى عثمان بن حيان(٣). ولايضيف المصدر شيئا عن تلك الصائفتين ، من حيث الوجهة والنتيجة . ويبدو ان المقصود بالصائفة الكبرى ، الصائفة اليمنى ، وهى التى تخرج من الجزيرة ، والصائفة الصغرى اى اليسرى ، وهى التى تخرج من الثغور الشامية ، حيث ان محمد ابن مروان كان اميرا على الجزيرة ، وفي وصف اليمنى بالكبرى اشارة الى ما اكتسبته الجبهة الأرمينية من اهمية

---

(١) فتحى عثمان : الحدود ، ص ٩٩-١٠٠ . ويتضح ان خلو المعاجم من تعريفات لكثير من المواضع فى آسيا الصغرى يعود الى ايراد المصادر القديمة لأسماء تلك المدن والمواقع بصورتها المعربة ، بينما انتهت الينا معظم هذه الأسماء بعد الفتح التركي على غير هذه الصورة ، الى جانب قلة معرفة المصنفين العرب القدماء بجغرافية آسيا الصغرى ، ومخالفة كثير مما ذكروه للواقع .(انظر هذا القول عند / كى لسترنج : بلدان ، ص ١٦٨) .

(٢) قال : محمد بن مروان ، والأصح ابنه مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الأموى ، اذ كانت وفاة محمد بن مروان سنة ١٠١هـ . (انظر : الزركلى :الاعلام ، ٩٥/٧) . أما مروان بن محمد ، فهو آخر خلفاء بنى أمية ، ولد بالجزيرة وتولى امارتها مع أذربيجان وارمينية ، فغزا وفتح ، استولى على الخلافة سنة ١٢٧هـ ، وسقطت الدولة الاموية فى زمنه على يد العباسيين (سنة ١٣٢هـ) ، وقتل فى بوصير بمصر . (الزركلى : نفس المرجع والمجلد ، ص ٢٠٨) .

(٣) عثمان بن حيان بن معبد المرى ، وال من الغزاة ، دمشقى ، استعمله الوليد بن عبد الملك على المدينة ، وعزله سليمان ، تولى الصائفة (سنة ١٠٣هـ) ، وغزا قيصرة (سنة ١٠٤هـ) . ثقة عند اهل الحديث .(الزركلى : نفس المرجع ، ٢٠٥/٤) .

(٤) ابن خياط : تاريخ ابن خياط ، ص ٣٢٨ .

فى خلافة يزيد بن عبد الملك ، على أثر التحرك الخزرى ومحاولة الروم استغلال ذلك .

كما غزا العباس بن الوليد فى سنة ١٠٣هـ أيضا ، أرض الروم ، وابن خياط واليعقوبى لم يحددا وجهة الغزوة ، او مانتج عنها ، وان كان اليعقوبى قد اشار الى اصابة الناس فى السرايا ، وفى ذلك قرينة على فشلها . الا ان هناك من يذكر أن هدفه كان مدينة رسلة ، وانه تمكن من فتحها (٢). ويتضح أن هؤلاء المؤرخين خلطوا بين حملته على دبسه أو رسله (سنة ١٠٢هـ) والحملة التى قام بها سنة ١٠٣هـ ، والتى لم يحدد هدفها . (١)

ومن المرجح أن غزوة العباس كانت الشاتية ، لخروج الصائفة تحت امرة محمد بن مروان وعثمان بن حيان . مما يدل على أن الخليفة يزيد قد عكف على اخراج أكثر من حملة فى العام الواحد وفى نفس الاتجاه ، ليشغل عدوه بالدفاع عن نفسه ، وليبقى زمام المبادرة بيد المسلمين ويمنع الروم من الاستفادة من تحرك الخزر أو التحالف معهم ضد المسلمين ، وكان قد اعطاهم كثيرا من اهتمامه كما رأينا اثناء عرضنا لفتوحه فى ارمينية .

اما (سنة ١٠٤هـ) فقد تمكن عبد الرحمن بن سليم الكلبى قائد الصائفة اليمنى ، وعثمان بن حيان امير الصائفة اليسرى من فتح مدينة "سسرة" (٣) (٤). ويتضح من هذه الحملة ،

---

(١) تاريخ ابن خياط ، ص ٣٢٨ ـ تاريخ اليعقوبى ، ٣١٤/٢ .
(٢) الطبرى : تاريخ الأمم ، ٦١٩/٦ ـ ابن الأثير : الكامل ، ١٨٤/٤ ـ ابن خلدون : العبر ، ١٣٣/٣ .
(٣) لم أعثر لها على تعريف .
(٤) ابن خياط : نفس المصدر ، ص ٣٣٠ ـ اليعقوبى : نفس المصدر ٣١٥/٢ (أورد اسم الكلبى ، عبد الرحمن بن سليمان) .

التنسيق القائم بين الطائفتين ،واجتماعهما على هدف واحد ، اذا مادعت الحاجة . لذا فمن الغالب على الظن أن هذه المدينة كانت من الحصانة والمنعة بمكان ، مما دفع القائدين على تعاونهما على فتحها . ويتضح أن عثمان بن حيان بعد أن فرغ من فتح سسرة اتجه بجنده الى مدينة قيصرة (١) وهي حصن من حصون الروم ، فتمكن من فتحها في نفس العام (٢) .

وفي (سنة ١٠٥هـ) ، آخر خلافة يزيد بن عبد الملك ، قامت ثلاث حملات ، وفتحت مدينتي قونية ، وكمخ . فقد غزا مروان بن محمد على الصائفة اليمنى ، وافتتح مدينة قونية من أرض الروم ، وكمخ (٣) . وحيث أن المسافة بين المدينتين بعيدة ، كما انهما ليسا في اتجاه واحد ، فكمخ في الشمال بالنسبة للجزيرة ، وقونية في الغرب منها ، في قلب آسيا الصغرى الى الجنوب منه ، على الطريق الى عمورية . مما يجعلنا نشك في قيامه بفتحها في حملة واحدة ، فقد يكون خرج من الجزيرة الى كل منهما على حدة في نفس العام . أو أن نأخذ بما أورده المؤرخ الأقدم وهو ابن خياط (٤) ، الذي أشار الى الغزوة ، لكنه ذكر فتح مروان لمدينة واحدة من أرض الروم ، لم يسمها ، وقال : ناحية عنج (٥) .

---

(١) هي المعروفة بقيصرية . (انظر هامش ٤ ، ص ٣٣٠ من تاريخ ابن خياط) . وهي من مدن الروم في آسيا الصغرى . (كي لسترنج : بلدان ، ص ١٦٨) . وتسمى قيسارية أيضا ، وهي مدينة عظيمة كبيرة ، كانت كرسي ملوك بني سلجوق . (ياقوت : معجم ، ٤٢١/٤) .

(٢) ابن خياط : نفس المصدر ، ص ٣٣٠ ـ الزركلي : الأعلام ، ٢٠٥/٤ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ١٩٣/٤ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٣٣١ ـ ووافق ابن خياط في افتتاح مروان لمدينة واحدة ، ابن خلدون في كتابه : العبر ، ١٣٣/٣ ، لم يسمها ، وقال : قريبة من أرض الزوكخ . وهذه لم نعثر لها على تعريف .

(٥) عنج : لم نعثر لها على تعريف .

وحيث انا لم نعثر على تعريف لعنج، فقد يكون يعنى كمخ مما يعنى ان فتح قونية تم فى غزوة اخرى سابقة لها او لاحقة من نفس العام (اى ١٠٥هـ) .

وقد اوردنا لوسام عبد العزيز فرج خبرا يشير فيه الى (١) فتح كمخ او كماخة سنة ١٠٤هـ ، لا ١٠٥هـ ، مما يزيل الشك إن صحت روايته ، مع انه ليس من المستبعد ان يكون المسلمون قد فتحوها سنة ١٠٤هـ ، ثم عادوا لفتحها فى السنة التالية ، لعودة الروم اليها بعد فتحها الأول .

كما غزا عثمان بن حيان المرى ، بلاد الروم ، سنة ١٠٥هـ ، ايضا (٢) . لكن المصادر التى اشارت الى هذه الغزوة لم تبين هدفها ، وماحققته من نتائج . وان كنا نرى انها الصائفة اليسرى ، وذلك عطفا على ماعلمناه من امرته على تلك الصائفة فى السنتين السابقتين .

وتشير مجموعة من المصادر (٣) الى غزوة قام بها سعيد بن عبد الملك (٤) على ارض الروم ، فى العام نفسه ، فبعث سرية من الف مقاتل (٥) ، فاصيبوا جميعا ، وينفرد اليعقوبى ، الذى لم يذكر شان السرية واصابتها ، بتحويل القائد سعيد بن

---

(١) انظر قوله قبل : ص ٣٧١ .

(٢) الذهبى : العبر فى خبر من غبر ، ١٢٨/١ - الذهبى : تاريخ الاسلام ، ١٤٩/٤ (لكنه صحف نسبه من المرى الى المزنى) - ابن العماد : شذرات ، ١٢٨/١ (وورد نسبه مصحفا كما فى تاريخ الاسلام ، والأصح المرى) .

(٣) الطبرى : تاريخ الأمم ، ٢١/٧ - ابن الاثير : الكامل ، ١٩٣/٤ - ابن كثير : البداية ، ط١ ، ٢٥٩/٩ - ابن خلدون : العبر ، ١٣٣/٣ .

(٤) سعيد بن عبد الملك بن مروان : امير اموى ، كان حسن السيرة متعبدا ، كان يقال له سعيد الخير ، ولى الغزو لهشام بن عبد الملك ، وتولى فلسطين للوليد ، وكان عاملا للموصل ، وقد قتل يوم نهر ابى فطرس سنة ١٣٢هـ . (الزركلى : الأعلام ، ٩٨/٣) .

(٥) تاريخ اليعقوبى ، ٣١٥/٢ .

عبد الملك لاتجاهه من أرض الروم الى ناحية الترك ، حتى بلغ قصر قطن (١) . ويبدو أن غزوة سعيد بن عبد الملك كانت الشاتية فقد سبقه الى الغزو مروان بن محمد وعثمان بن حيان ومعروف ان الاول على الصائفة اليمنى ، والثاني على اليسرى . مما يدفعنا الى ترجيح كونه خرج بالشاتية من الثغور الشامية . ويتضح أنه قد سار حتى نزل بأحد الثغور الشامية ، فبعث سرية الى اتجاه لم تحدده لنا المصادر ، فاميبوا ، فحول اتجاهه الى ناحية الترك . مما يدفعنا الى الشك أن أسباب تلك الهزيمة وماحدث لتلك السرية ، قد حمل بفعل برودة الشتاء ، أو تدخل الترك وتعاونهم مع الروم مما جعل سعيد ابن عبد الملك ، يتتبعهم في بلادهم ، وان كنا لانعلم ماذا فعل في غزاته هناك . وان كان لنا أن نشير أن هذه الغزوات التي تمت (سنة ١٠٥هـ) لم تحدد المصادر الشهر الذي خرجت فيه مما يجعل من المتعذر التاكيد على حدوثها زمن الخليفة يزيد ابن عبد الملك المتوفي في شعبان سنة ١٠٥هـ، أو زمن خلفه هشام بن عبد الملك .

وقد أورد ابن خياط (٢) أن عبد الرحمن بن سليم الكلبي ، كان على الصائفة حتى مات يزيد بن عبد الملك .

وفي ضوء معرفتنا بتولي عدد من القادة ومنهم عبد الرحمن بن سليم ، الخروج على راس حملات الصوائف والشواتي في عهد الخليفة يزيد ، فاننا نرى انه كان امير الصائفة

---

(١) قصر قطن : لم اجد له تعريفا .
(٢) تاريخ ابن خياط ، ص ٣٣٥ .

العام . أو أمير الثغور الشمالية الذى يشرف على انفاذ الصوائف والشواتي ، ويقود بعضها بنفسه .

الجهاد فى البحر الأبيض المتوسط
زمن الخليفة يزيد بن عبد الملك :

اعتمد المسلمون فى افريقية فى غزواتهم البحرية للجزر البيزنطية فى وسط وغرب البحر المتوسط ، قبل انشاء دار لصناعة السفن فى تونس – على بن حسان بن النعمان ٧٤ – ٨٥هـ – على الأسطول المصرى ، الذى كان يقوم بغزو تلك الجزر والعودة الى قواعده فى مصر .(١)

وبعد أن أصبح لافريقية أسطولها الخاص ،(٢) اتجه المسلمون الى اتخاذ سياسة بحرية من أهدافها السيطرة على جزر البحر المتوسط الغربى وعلى رأسها صقلية ، واتخاذها قواعد بحرية امامية تحمى السواحل الافريقية من هجمات الروم ، وتنطلق منها الغزوات المنتظمة على الأندلس وغالة .(٣)

وقد تابع ولاة أفريقية من قبل الخليفة يزيد بن عبد الملك ، جهود من سبقهم من الأمراء بعد موسى بن نصير – الذى وجه أول غزوة للأسطول الافريقى سنة ٨٥هـ – فى غزو الجزر البيزنطية فى وسط وغرب البحر المتوسط . فقد قام يزيد بن

---

(١) احمد مختار العبادى ، والسيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، الناشر مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ، ٢٨/٢-٣٤ .

(٢) عن بناء دار صناعة السفن فى تونس ، ونشأة الأسطول الاسلامى الافريقى ، (انظر : احمد العبادى والسيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع والجزء والصفحات) .

(٣) احمد العبادى والسيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع والجزء ، ص ٣٥ .

ابــي مسلم (١) ، أمير افريقية (١٠١ ــ ١٠٢هــ) بغزو جزيرة صقلية (سنة ١٠١هــ/٧١٩م) (٢) .

كمــا وجــه مــن قبلــه (سنة ١٠٢هــ) القائد محمد بن أوس الأنصــاري (٣) ، فــي غزوة بحرية الــى صقلية أيضا ، فعادت الحملة سـالمة غانمة (٤) . وكان محمد بن أوس أمير بحر تونس تلك السنة وقــد مات يزيد بن أبي مسلم عامل الخليفة يزيد على افريقية آنــذاك ، وابن أوس غازيا فــي البحر الغزوة المذكورة آنفا ، ولــم تكــن امــارة ابــن أوس للبحر سنة ١٠٢هــ ، وقيادته هذه

---

(١) يزيــد بــن دينار الثقفي ، بالولاء ، وال من الدهاة في العصــر الأموي ، جعله الحجاج كاتبا له ، واستخلفه على الخــراج عنــد وفاتــه ، لمــا ظهــر مــن مزاياه ، فأقره الوليــد ، فعزلــه سليمان ، وطلبه فأعجبه ، واستبقاه عنده ، ثم تولى امارة افريقية (سنة ١٠١هــ) من قبل الخليفــة يزيد بن عبد الملك ، فقتله أهلها سنة ١٠٢هــ (الزركلي : الأعلام ، ١٨٢/٨) .

(٢) محمود اسماعيل عبد الرزاق : الخوارج في بلاد المغرب ، حتى منتصف القرن الرابع الهجري ، رسالة دكتوراه ، مطبوعــة ، نشر وتوزيع دار الثقافة ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٦م ، ص ٣٣ .

(٣) محــمد بــن أوس بــن ثــابت الأنصــاري : من التابعين أهل الفضــل والدين والفقه ، يروي عن أبي هريرة ، قيل ولي افريقيــة (ســنة ٧٣هــــ) ، وقيل بل دخلها (سنة ٩٣هــ) . وغــزا المغرب والأندلس مع موسى بن نصير ، وهو ممن دخل الأنــدلس للجهــاد والربــاط ، وكــان على بحر تونس (سنة ١٠٢هــ) . وقــد وافتــه المنية في نفس السنة . (انظر : الضبــي : بغيــة الملتمس فــي تــاريخ رجــال الأنــدلس ، علمائهــا وأمرائها وشعرائها ، وذوي النباهة فيها ممن دخــل اليهــا وخــرج عنهــا ، طبــع بمطابع روخس ، مديــنة مجــريط ، ١٨٨٤م ، ص ٥١ ــ المراكشي : المعجب في تلخيص أخبــار المغــرب ، تقــديم ممــدوح حقــي ، دار الكتاب ، الــدار البيضــاء ، ص ٢٦ ــ الدبــاغ : معالم الايمان في معرفــة أهل القيروان ، تصحيح وتعليق ابراهيم شبوح ، مكتبــة الخــانجي ، مصــر ، الطبعــة الثانية ، ١٩٦٨م ، ١٩٦/١-١٩٧ .

(٤) ابــن خيــاط : تــاريخ ابن خياط ، ص ٣٢٦ ــ فوزية محمد عبد الحــميد نــوح : البحرية الاسلامية في بلاد المغرب في عهد الأغــالبــة (١٨٤-٢٩٦) ، رســالة ماجستير ، لــم تطبــع ، مقدمــة لقسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية ، كليــة الشريعة ، جامعة أم القرى ، ١٤٠٤-١٤٠٥هــ ، ص ٤٨

الحملة هي الأولى ، فقد ولي بحر افريقية قبل ذلك (سنة ٩٣هـ) ، وشارك في غزو المغرب والأندلس مع موسى بن نصير (١) .

وان كنا لم نعلم بنتيجة الحملة الأولى التي قادها يزيد بن ابي مسلم بنفسه ، فان خروج الحملة الثانية ونجاحها يدل على نجاح الأولى ، اما تركيز أمير افريقية على جزيرة صقلية فيعود لأهميتها بالنسبة للروم ، وهي محاولات منه لضرب تلك القاعدة البيزنطية الهامة ، وتهديدا للأعداء واشغالهم عن مهاجمة الساحل الافريقي .

وفي سنة (١٠٢هـ/٧٢٠م) ، اشترك محمد بن يزيد القرشي (٢)، في غزوة اخرى لصقلية (٣) .

والقول باشتراكه في غزوة اخرى ، يعني انه كان في الأولى . والذي كان قائدا للأولى من قبل ابن أبي مسلم هو محمد بن أوس ، لذا فان الأرجح لدينا ، ان محمد بن أوس هو الذي خرج مرة ثانية ، لغزو صقلية لامحمد بن يزيد (٤) ، اذ يروى أن محمد بن يزيد كان في سجن يزيد بن أبي مسلم عندما قتل .

---

(١) أحمد العبادي والسيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية ، ٣٠،٣٦/٢ .

(٢) محمد بن يزيد القرشي ، بالولاء ، أمير افريقيا من قبل سليمان بن عبد الملك ، عزله عمر ، وقيل تولاها بعد مقتل يزيد بن ابي مسلم سنة ١٠٢هـ ، أعاده اليها أهلها ، واقره الخليفة يزيد بن عبد الملك ، وكان عندهم وقيل :كان غازيا بصقلية وقدم . ثم عزل ببشر بن صفوان ، ت بعد سنة ١٠١هـ . (الزركلي : الأعلام ، ١٤٣/٧)

(٣) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير (العصر الاسلامي) ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٦م ، ٢٩٥/٢ (نقلا عن ابن الأثير : الكامل ، ١٨٢/٤ – السلاوى الاستقصاء ، ص ١٠٣) – فوزية نوح : البحرية الاسلامية ، ص ٣٨ (نقلا عن : السيد عبد العزيز سالم وأحمد العبادى تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والأندلس ، ص ٣٨) .

(٤) انظر تلك الرواية عند / ابن خياط : تاريخ ابن خياط ، ص ٣٢٦ – ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٢٤٣ – السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع والجزء ، ص ٢٩٤ .

وان محمد بن أوس كان غازيا لمقلية ، فلما عاد ولى امرة افريقية بعد ابن أبى مسلم (١) ، وان كانت الروايات قد اضطربت حول ذلك ، فمنها من قال أن الغازى الذى تولى بعد ابن أبى مسلم هو محمد بن اوس واخرى تقول محمد بن يزيد ، وثالثة تقول : اسماعيل بن عبد الله (٢) ، والأول الأرجح ، لورود الخبر بسجن محمد بن يزيد ، وكون محمد بن أوس هو أمير البحر آنذاك (٣) .

اما ولاية بشر بن صفوان على افريقية (١٠٢ — ١٠٩هـ) فقد كانت حافلة بالغزوات البحرية ، على جزر سردانية وكورسيكا وصقلية ، وربما يعود ذلك لوصول قائد الأسطول الاسلامى فى افريقية ، محمد بن أوس الانصارى ، الى منصب ولاية افريقية ، عندما اختاره اهل الحل والعقد هناك عقب مقتل ابن ابى مسلم اميرا عليهم (سنة ١٠٢هـ) قبل ان يوليها الخليفة يزيد بن عبد الملك بشر بن صفوان . وولايته هذه تعتبر علامة مميزة فى تاريخ البحرية الاسلامية الناشئة فى افريقية ، اذ وصلت تحت امرته لها مع مطلع القرن الثانى الهجرى ، الى مرحلة الفتوة ، وذلك بعد استيلاء المسلمين على السواحل البحرية الشرقية فى اسبانية ، وكانت غزواته سنوية تقريبا ، الح بها على قواعد الروم القريبة ، لارهابهم ، واشغالهم عن مهاجمة سواحل المغرب (٤) .

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٤٨/١-٤٩ — حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ١٥٩ .
(٢) انظر مناقشتنا لذلك بعد : الفصل الخامس ، ص ٥١٦-٥١٩.
(٣) الضبى : بغية الملتمس ، ص ٥١ — الدباغ : معالم الايمان ، ١٨٩/١ .
(٤) فوزية نوح : البحرية الاسلامية ، ص ٤٨-٤٩ .

ومن غزواته في خلافة يزيد بن عبد الملك ، الحملة التي وجهها بقيادة يزيد بن مسروق اليحصبي (١) الى جزيرة سردانية ، وذلك في المحرم من (سنة ١٠٣هـ) ، فكان نصيبها النجاح ، حيث غنم المسلمون وسلموا (٢) .

كما وجه (سنة ١٠٤هـ) القائد عمرو بن فاتك الكلبي (٣) لغزو البحر ، فغنم وسلم (٤) . وتقول فوزية نوح (٥) : أن هذه الحملة لانعرف وجهتها ، وربما يكون الأسطول قد غزا فيهما سردانية وكورسيكا ، هذا اذا لم يكن قد عرج كذلك في طريقه على صقلية .

---

(١) يزيد بن مسروق اليحصبي : لم أعثر له على ترجمة .
(٢) ابن خياط : تاريخ ابن خياط ، ص ٣٢٨ ـ فوزية نوح : البحرية الاسلامية ، ص ٤٩ .
(٣) لم أعثر على ترجمته .
(٤) فوزية نوح : نفس المرجع والصفحة ـ ابن خياط : نفس المرجع ، ص ٣٣٠ .
(٥) نفس المرجع والصفحة .

المبحث الرابع

الفتوح في بلاد الغال

تكررت فتوحات المسلمين في بلاد الغال (١) ، منذ اجتاز موسى بن نصير جبال البرتات (٢) ، لأول مرة (٣) .

(١) بلاد الغال (الارض الكبيرة ،غالة ، فرنسا) : تعني عند العرب الأرض الواقعة بين جبال البرتات (البرنية) ، وبين جبال الألب والأوقيانوس ، ونهر البا ومملكة الروم وهذا المفهوم ينطبق على فرنسا أيام شارلمان . وأممها تتحدث بعدة لغات . (شكيب أرسلان : غزوات العرب ، ص ٥٠-٥١) .
ويقول السيد عبد العزيز سالم :أن بلاد الغال انقسمت بعد سقوط الدولة الرومانية الى عدة ولايات منها : سبتمانيا ، واكيتانيا ، وبروفانس ، وبرغنديه والدولة الميروفنجية شمال نهر اللوار .(انظر : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ١٣٧) . وكان الحكم فيها للدولة الميروفنجية ، فلما ضعفت سيطر فرنج الجنوب على ملك اكيتانية ، وسبتمانية ، ودوقها "أود" وبقي بيدي القوط الغربيين قسم من مقاطعة لانغدوق وبروفانس . (شكيب أرسلان : نفس المرجع ، ص ٦٩،٣٣) .

(٢) يقول محمد عبد الله عنان : أن بعض الكتاب يسمي جبال البرنيه خطا بجبال البرانس ، حيث أن جبال البرنيه تسمى في الجغرافيا العربية بجبال البرت أو البرتات ، تحريفا عن الاسبانية (Puerta) ، ومعناها الباب ، وسميت هذه الجبال بهذا الاسم لأنها تحتوى على خمسة أبواب أو ممرات للعبور . أما جبال البرانس فهي سلسلة أخرى من الجبال الاسبانية تقع شرقي ماردة وجنوبي طليطلة ، وسميت بذلك نسبة لقبيلة البرانس البربرية التي نزلت في الأندلس على مقربة من هذه الجبال ، وتعرف في الجغرافيا الحديثة بجبال المعدن ، لوقوعها بالقرب من مدينة المعدن . (انظر : دولة الاسلام ، هامش (١) ، ص ٨٢ ، وهامش (١) ، ص ٥٣) ـ وانظر ماأورده عبد الرحمن علي الحجي ، حول التعريف بها ، وأسماء الممرات التي تخترقها ، في كتابه : التاريخ الأندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة (٩٢-٨٩٧هـ/٧١١-١٤٩٢م) ، دار القلم ، دمشق ، بيروت ، دار القلم ، الكويت ، الرياض ، ساعدت جامعة بغداد على نشره ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م ، ص ٩٦-٩٨ .

(٣) انظر اشارتنا الى ماذكر حول اجتياز موسى بن نصير الى بلاد الغال فاتحا ، وأهدافه ، قبل : التمهيد ، ص ٤٠ .

وقد شهد عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ، حملة من اهم الحملات التى قام بها المسلمون لفتح بلاد الغال عن طريق الأندلس ، وهى الغزوة التى قادها السمح بن مالك الخولانى (١٠١ ـ ١٠٢هـ) ، الى تلك الأصقاع .

كما تم الاعداد فى عهده لحملة لاتقل اهمية عن سابقتها وهى التى قادها عنبسة بن سحيم الكلبى ، الى تلك الأقطار ولنفس الغرض .

(١) فتوحات السمح بن مالك الخولانى فى بلاد الغال :

من المتفق عليه أن ولاية السمح بن مالك (رمضان ١٠٠هـ ذى الحجة ١٠٢هـ) ، قد جاءت من قبل الخليفة عمر بن عبد العزيز ، واستمرت باقرار الخليفة يزيد بن عبد الملك ، منذ توليه فى رجب (سنة ١٠١هـ) ، حتى استشهاد السمح بن مالك فى (ذى الحجة ١٠٢هـ) .(١)

غير أن المختلف عليه والمشوب بالغموض هو تاريخ خروج السمح بن مالك بحملته وهل كان ذلك فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، أم كان فى زمن خليفته يزيد بن عبد الملك . اذ لم تمدنا المصادر والمراجع التى تمكنا من الاطلاع عليها بتاريخ دقيق لخروج هذه الحملة .

فمحمد عبد الله عنان ،(٢) يؤرخ لزحف السمح على لانجدوك

---

(١) من اجل ولاية السمح بن مالك على الأندلس : انظر : ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٦/٢ ـ حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ١٣٥-١٤٠ ـ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ص ١٣٤-١٣٥ ـ محمد عنان : دولة الاسلام ، ص ٧٤ ـ محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ، ص ١٩٦ .

(٢) دولة الاسلام ، ص ٧٥-٧٦ .

(سبتمانيا) باواخر (سنة ٧١٩م) أى (أوائل سنة ١٠١هـ) وهذا يعنى خروجها فى أواخر خلافة عمر بن عبد العزيز ، بينما نجد شكيب ارسلان (١) يؤرخ لخروج حملة السمح بن مالك الخولانى بقوله كان ذلك (سنة ٧٢١م) أى (١٠٢هـ) ، فى خلافة يزيد بن عبد الملك بعد أن مضى على فتح الاندلس احدى عشر سنة لاغير .

كما سنرى الاختلاف على التاريخ لفتح مدينة أربونة (٢) ، وهى اول مدينة تواجه الفاتحين بعد عبورهم جبال البرتات واول مدينة فتحها السمح فى حملته تلك بعد عبور البرتات . فقد كنا عولنا على تاريخ فتحها فى حالة الاجماع عليه ، للتاريخ لبداية الحملة .

وسعيا منا للوصول الى الحقيقة ، عمدنا الى تاريخ استشهاد السمح ونهاية حملته ، والى تاريخ خلافة يزيد بن عبد الملك ، ومنطق الاحداث وسمات الفترة ، فى محاولة لترجيح اصوب الآراء ، والوصول الى حقيقة ذلك التاريخ أو ماقارب الحقيقة على الاقل .

فاذا ماأخذنا فى الاعتبار أن استشهاد السمح بن مالك ونهاية حملته كان فى التاسع من ذى الحجة (سنة ١٠٢هـ) (٣) .

---

(١) غزوات العرب ، ص ٨٥ .

(٢) اربونة : كانت اهم حاضرة فرنسية جوار اسبانيا ، وهى اول مدينة تستقبل الخارج من اسبانيا ، تقع على ارتفاع عشرة امتار عن سطح البحر ، وعلى مسافة ١٤ كم منه الى الشرق ، يمر بالقرب منها نهر الأود ، ويمر بها جدول له اسمه "روبين" . واربونة من اقدم مدن الارض ، وقد تعاقب على ملكها عدد من الامم ، من اسبقهم السليتون من القرن (١٢ ق.م) ، وآخرهم قبل المسلمين القوط .)شكيب ارسلان : نفس المرجع ، ص ٨٦-٨٧) .
وقال ياقوت: بلد فى طرف الثغر من أرض الاندلس ، بينها وبين قرطبة الف ميل .(انظر : معجم ، ١٤٠/١) .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٦/٢ ـ حسين مؤنس : فجر الأندلس ،ص ١٤٠ ـ خليل السامرائى : الثغر الأعلى ، ص١٢٥.

وان قيامها كان فى أواخر خلافة عمر ، فهذا يعنى أنها استغرقت ماينيف على العام والنصف ، وهى فترة زمنية كبيرة اذا ماقيست بالانجازات التى تحققت ابانها مع عظمتها ، خصوصا اذا ماوجدنا من يقول أن السمح قد توجه نحو طولوشة التى استشهد بالقرب منها فى ربيع سنة ١٠٢هـ (١) ، حيث أن ذلك يشككنا فى ان يكون السمح قد قضى الوقت الذى سبق خروجه الى طولوشة فى فتح أربونة وماحولها . وتنظيم الأمر هناك .

كما أن الناظر الى ماقام به السمح فى بداية ولايته من تنظيمات ادارية ومالية (٢) ، ومنشآت عمرانية (٣) ، واصلاحات داخلية (٤)، وجهود عسكرية استهدفت القضاء على الفتن الداخلية كاخماده لحركة العصاة المسيحيين فى المناطق الشمالية (٥) . يراها كفيلة بشغل الفترة التى قضاها السمح كامير للاندلس فى

---

(١) حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ١٤٠ .

(٢) قام السمح بأمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز بمسح الأندلس واخراج الخمس ، والكتابة الى الخليفة بصفتها (انظر : ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٦/٢ – ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق ابراهيم الابيارى ،دار الكتاب المصرى ، القاهرة ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ص ٣٨ – المقرى : نفح ، ١٣/٤-١٤ – السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ص ١٣٥ .

(٣) من ذلك بناء قنطرة قرطبة ، وسورها ، ومقبرتها ، وجامع سرقسطة ، وغير ذلك . (انظر / مجهول : أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها ، تحقيق ابراهيم الابيارى ، نشر دار الكتاب المصرى ، القاهرة ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ،الطبعة الأولى ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص ٣٠-٣١ (وقد أشار أن بناءها تم سنة ١٠١هـ ، مما يقوى ماسنذهب اليه من القول أن حملة السمح كانت فى خلافة يزيد لاعمر) – حسين مؤنس : نفس المرجع ، ص ١٣٩ – محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ، ص ١٩٧ .

(٤) المراكشى : المعجب ، ص ٢٤ – محمد زيتون : نفس المرجع، ص ١٩٦-١٩٧ – خالد الصوفى : تاريخ العرب فى الأندلس ، ص ٢٠٩ .

(٥) محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام ، ص ٧٥-٧٦ .

أواخر خلافة عمر بن عبد العزيز ، خصوصا أن معظم تلك الأعمال جاء الأمر بها من الخليفة عمر الى السمح وبدأ في تنفيذها (سنة ١٠١هـ)(١) . بل قيل ان جابر مولى عمر والذى وكل بمهمة مسح الأندلس ، جاءه الخبر بموت الخليفة عمر وهو لم يفرغ من تخميس ارض الأندلس(٢) .

اما منطق الاحداث ، وسمة سياسة الخليفة عمر بن عبد العزيز ، فانها تصوره غير راغب في التوسع ، مقدما الاصلاح الداخلي ، ونشر الاسلام بين رعايا الدولة ، مع المحافظة على ديار الاسلام وعزة أهله ، على ذلك . وعلى وجه الخصوص سياسته نحو الأندلس ، فان المصادر تشير الى تفكير الخليفة عمر في نقل المسلمين من الأندلس واخراجهم منها ، لبعدهم وانقطاعهم عن المسلمين ، فعدل عن ذلك بعد علمه بقوتهم ومنعتهم فيها(٣) . فليس لنا بعد معرفة موقف عمر هذا ، وسياسته الحربية المتمثلة في ايقاف الفتوح عند الحدود التي وصلت اليها مع المحافظة عليها . أن نقول بخروج السمح بتلك الحملة الكبرى لفتح بلاد الغال في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز ، أو دون علمه واذنه .

وهذا بالتالي يدفعنا الى ترجيح قيام السمح بن مالك بحملته في بداية خلافة يزيد بن عبد الملك ، الذى اتسم عهده

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٦/٢ ـ مجهول : اخبار مجموعة ، ص ٣٠-٣١ .

(٢) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٣٨ .

(٣) ابن عذارى : نفس المصدر والجزء والصفحة ـ ابن القوطية : نفس المصدر والصفحة (قال : انه كتب بذلك الى السمح ، فاخبره بقوة المسلمين وكثرة مدائنهم ، وشرف معاقلهم) ـ مجهول : نفس المصدر ، ص ٣٠ ـ المقرى: نفح ، ١٤/٤ .

بالعودة الى سياسة التوسع وتجديد عملية الفتوح ، ولانستبعد ان يكون السمح قد بعث الى الخليفة الجديد ببيعة أهل الاندلس ، واستاذنه في استئناف الفتح في بلاد الغال ، فأذن له ، وكانت حملته الشهيرة التي استشهد على اثرها .

وعليه فمن المرجح ان يكون السمح قد قضى على حركة اخيلا بن غيطشة في طركونة (١) ، وهو في طريقه الى بلاد الغال ، ابان خلافة يزيد بن عبدالملك ، ويغلب ان يكون السمح قد قضى عليها بمن سار معه من قرطبة ، وقبل الوصول الى برشلونة ، التي اتخذها قاعدة تجمع ، اجتمع له فيها الجيش الاسلامي من نواحي الأندلس الأخرى ، اذ أن طركونة تقع في طريق برشلونة للقادم من قرطبة .

وبعد هذه المناقشة لتحديد بداية الحملة التي قام بها السمح بن مالك لفتح بلاد الغال ، نقوم بعرض لأهم أحداثها وماحققته من فتح ونتائج ، ولعل في ذلك تفسيرا أوضح لما ذهبنا اليه .

حملة السمح بن مالك على بلاد الغال :

مهد السمح بن مالك لغزوه ماوراء البرتات ، بتوجيه البعوث والسرايا الى بلاد الغال ، خلال انشغاله بالتنظيمات التي قام بها في الاندلس (٢) . ويبدو انه اراد بذلك تبين أحوال

---

(١) من اجل قضائه على حركة أخيلا في طركونة ، (انظر ماكتبناه عن تلك الحركة قبل : الفصل الثاني ، المبحث الخامس ، ص ٢٦١-٢٦٢) .

(٢) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ١٣٥ .

تلك البلاد وقوة أهلها ، الى جانب احياء روح الجهاد في نفوس الجند وجعلها ميدانا لتدريبهم واكسابهم الخبرة .

لقد كان السمح رجلا قوى الايمان جم النشاط ، من خيار اهل زمانه ثقة وعدالة ، توفرت فيه الحكمة والخبرة والعقل فاجتمع عليه الناس ورضوا به ، مما ساعده على القبض على زمام الأمور بكل حزم ، فقمع الفتن واصلح الأمور المالية والادارية والعسكرية في ولايته .(١)

وكانت ولايته تجديدا للغزو واستئنافا للفتح فيما وراء البرتات ، فانه ماكاد يخلص من مهمة التنظيم والاصلاح ، حتى هب لتوطيد سلطان الخلافة في الولايات الشمالية ،(٢) وحرب الأعداء فيما وراء البرتات .(٣)

لقد اتخذ السمح بن مالك من مدينة برشلونة(٤) قاعدة لتجمع الجيش الاسلامي ، المتوجه لفتح بلاد الغال ، وكان اختياره لها قاعدة لأعماله الحربية موفقا ، وذلك لموقعها البحرى وصلاحية مينائها لرسو السفن ، مما يسهل ارسال الامدادات العسكرية منها عن طريق البحر الى الساحل الجنوبي لبلاد الغال ، وبالأخص مدينة أربونة التي ستكون بعد فتحها

---

(١) المراكشي : المعجب ، ص ٢٤ ـ حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٢٤٦-٢٤٧ ـ محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام ، ص ٧٤ ـ خالد الصوفي : تاريخ العرب في الاندلس ، ص ٢٠٩ .

(٢) محمد عنان : نفس المرجع ، ص ٧٥-٧٦ . (وانظر جهوده في اخماد الحركات التمردية في الشمال ، قبل : الفصل الثاني ، المبحث الرابع ، ص ٢٥٤-٢٥٥ ، والمبحث الخامس ، ص ٢٦١ .

(٣) حسين مؤنس : نفس المرجع والصفحة .

(٤) برشلونة : قال ياقوت "برشليانة" بلدة بالاندلس من اقاليم لبله (انظر : معجم البلدان ، ٣٨٤/١) . وهي مدينة على الساحل الشرقي للاندلس في الشمال منه بالقرب من جبال البرتات .

قاعدة اسلامية متقدمة فيما وراء البرتات ، كما أن قربها من ممرات جبال البرتات ، وخاصة ممر "باربينيان" الموصل بين برشلونة واربونة ، والذى سارت منه جيوش الاسلام الفاتحة الى بلاد الغال ، يدل على حسن اختياره وبعد نظره (١) .

وفي أوائل خلافة يزيد بن عبد الملك زحف السمح بن مالك من برشلونة ، في جيش كبير ضم جماعة من وجوه أهل الأندلس ، قادة وزعماء ، مخترقا جبال البرتات من الشرق ناحية روسيون وعبر ممر باربينيان ، حتى اشرف على سبتمانيا (٢) من بلاد الغال (٣) وظل يتقدم بجيشه حتى وصل الى مدينة اربونة ، ففرض عليها الحصار (٤) ، وتمكن من فتحها بعد ثمانية وعشرين يوما (٥) . ويبدو أن الاستيلاء عليها كان عنوه ، اذ يقول شكيب ارسلان : فقتل - يعني السمح - رجالها وسبى نساءها وأطفالها (٦) .

ونظرا لأهميتها المتمثلة في استراتيجية موقعها

---

(١) خليل السامرائي : الثغر الأعلى ، ص ١٢٥ .
(٢) سبتمانيا : اقرب ولايات غالة ناحية الأندلس ، وتشتمل على سبعة مدن هي : اربونة ، ونيمه ، وآجد ، وبيزيه ولوديف ، وقرقشونة ، ومجلون ، واربونة عاصمتها ، وقد كانت تابعة للقوط الغربيين . (السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ١٣٧) .
(٣) أرخ محمد عنان لزحف السمح على سبتمانيا ب (أواخر سنة ٧١٩م/أى اوائل سنة ١٠١هـ) . انظر : دولة الاسلام ، ص ٧٥-٧٦ . وعن التاريخ لبداية هذه الحملة . (انظر : قبل ، ص ٣٨٧-٣٨٨) .
(٤) عن مسير السمح بجيشه حتى وصوله اربونة ، (انظر : محمد عنان : دولة الاسلام ، ص ٧٥-٧٦ - خليل السامرائي نفس المرجع والصفحة - شكيب أرسلان : غزوات العرب ، ص ٨٥ - محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس ، ص ١٩٧-١٩٨) .
(٥) لم نستطع الوصول الى تاريخ محدد لخروج الحملة ، أو وصولها اربونة . ولكننا رجحنا حدوث ذلك اوائل خلافة يزيد بن عبد الملك . (انظر مناقشتنا لذلك قبل : ص ٣٩٠) .
(٦) نفس المرجع ، ص ٨٥-٨٨ .

الجغرافى ومصاقبتها للبحر ، مما يسهل وصول الامدادات اليها بحرا من موانىء الأندلس الشرقية ، الى جانب منعتها الطبيعية من جهة البر وقربها من الديار الاسلامية فى الاندلس ، اتخذها السمح بن مالك قاعدة (مسلحة) للمسلمين فى بلاد الغال ، فحصنها وشحنها بالميرة (١) ، كما وضع حاميات اسلامية فى المدن المجاورة لها ، بعد فتحها (٢) . وتمشيا مع عادة المسلمين فى بناء الأبراج والحصون على قمم الجبال ، لاستخدامها فى المراقبة والانذار ، حيث كانت المسلمين توقد بها النيران ليلا ، اعلاما بهجوم الأعداء ، ووقوع الحرب ، مما يترتب عليه جمع القوى وتوجيه الامدادات ، قام السمح بن مالك ببناء بعض الحصون والأبراج على الساحل الجنوبى لبلاد الغال (٣) .

وهكذا أصبحت برشلونة قاعدة جنوبية داخلية لتجمع القوات الاسلامية الآتية من سائر الأقاليم الأندلسية ، ومنها تسير الى القاعدة الشمالية اربونة ، والتى اضحت بعد فتحها وتحصينها اقصى ثغور الاسلام ، والقاعدة الاسلامية المتقدمة التى تخرج منها جيوش الاسلام الفاتحة ، الى اقاليم بلاد الغال المختلفة (٤) .

---

(١) دلل شكيب ارسلان على منعة اربونة الاسلامية ، بصمودها بعد فتحها وصيرورتها ثغرا اسلاميا ، أمام حصار شارل مارتل (سنة ٧٣٢م/١١٣-١١٤هـ) ، وحصار ببين القصير (سنة ٧٥٢م/١٣٤-١٣٥هـ) . حتى تمكن شارلمان منها (سنة ٧٥٩م/١٤١-١٤٢هـ) بعد أن ثار أهلها على الحامية الاسلامية لطول الحصار الذى استمر سبع سنوات . (انظر : غزوات العرب ، ص ٨٨) . وفى ذلك اشارة على ماصنعه المسلمون فيها من تحصينات وترتيبات عسكرية .

(٢) شكيب ارسلان : نفس المرجع ، ص ٨٥-٨٨ .

(٣) شكيب ارسلان : نفس المرجع ، ص ٢٩٧-٢٩٨ .

(٤) حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ٢٩٣-٢٩٤ — خليل السامرائى : الثغر الأعلى ، ص ١٢٥-١٢٦ .

وبعـد أن حصن السمح اربونة وشحنها ، خرج بجنده فاتحا لمدن وحصون اقليم سبتمانيا التابع للقوط الغربيين ، فاستولى على قرقشونة (١) ، وماصادفه غيرها من مدن ذلك الاقليم وحصونه ، مثل بيزى وماجلون (٢) ، وقد عرفت الأخيرة باسم "ثغر المسلمين" (٣) . فيبدو ان المسلمين اتخذوها قاعدة فحصنوها وجعلوا بها قوة عسكرية ، وقد تمكن السمح اثناء اجتياحه لجنوب بلاد الغال ، من التغلب على كل القوى التى قاومته وتصدت لزحفه حتى اتم فتح جميع نواحى سبتمانيا (٤) .

وقد ارخ محمد عنان لفتوح السمح فى سبتمانية ب (سنة ١٠١هـ/٧٢٠م) (٥) . ويشير حسين مؤنس الى قيام السمح بالزحف على (٦)

---

(١) قرقشونة : مدينة فى غاله على نهر الأود . (شكيب ارسلان غزوات العرب ، ص ٢٨-٢٩) . ويقول ياقوت : انها مدينة غزاها موسى بن نصير ، حين افتتح الأندلس ، وفيها الكنيسة العظيمة عندهم المسماة "شنت مارية" . (انظر: معجم البلدان ، ٣٢٨/٤) .

(٢) بيزى وماجلون : من المدن السبتمانية ، (انظر ذلك قبل : هامش ص ٢٩٣ .

(٣) يجعل بعض المؤرخين كابراهيم على طرخان فتح السمح لهذه المدن وهو فى طريقه الى طولوشة ، وهذا يتنافى مع منطق الأحداث ، اذ سنرى السمح ينظم امور سبتمانية الادارية والمالية ويجعل لها حكومة مقرها اربونة ، قبل توجهه الى طولوشة عاصمة اكيتانية ، مما يعنى انه فتح سبتمانيا اولا فنظم امورها ، ثم اتجه الى اكيتانية . انظر : المسلمون فى اوروبا فى العصور الوسطى ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٦٦م ، ص ١٠٢-١٠٣ .

(٤) عن فتوح السمح فى سبتمانية ، (انظر : محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام ، ص ٧٥-٧٦ - حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ٢٤٦-٢٤٧،٢٩٣-٢٩٤ - محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ، ص ١٩٧-١٩٨) .

(٥) نفس المرجع والصفحات .

(٦) نفس المرجع ، ص ٢٩٣-٢٩٤ - حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ، ٣٢٠/١ .

اقليم بروفانس[١] ، وايغاله شرق الردانة ، بل ووصوله شمالا الى مدينة ليون[٢] عاصمة اقليم برغندية .

ويبدو أن هذا الزحف على بروفنس وبرغنديا كان مجرد اغارات سريعة ، هدفها التهديد ، لئلا يفكر أهلها في الهجوم على المسلمين في سبتمانيا ، أو التحالف مع أهل اكيتانية ، والتي كان السمح يعتزم فتحها ، وذلك أنا لم نجد أثرا يدل على محاولة المسلمين تثبيت أقدامهم في هذين الاقليمين ، سوى بعض الحصون الساحلية جنوب البروفانس ، مما يدل على أن السمح استهدف من هذا الزحف تأمين وجود المسلمين في سبتمانيا من الناحية الشرقية ، باقامة هذه الحصون وارهاب من ورائها شرقا وشمالا .

ولاشك أن السمح قد فقد جزءا من جنده ابان تلك الحروب كما ترك بعضا منهم كحاميات اسلامية في المدن والحصون التي افتتحها ، حفاظا عليها وبقاء للسيادة الاسلامية فيها[٣] . ومن الواضح أن السمح بعد ذلك الجهد العسكري الكبير ، قد عاد الى اربونة لأخذ قسط من الراحة ، واعدادا للجولة الثانية من فتوحه ، كما كان عليه تنظيم أمر سبتمانية بعد أن أتم فتحه .

---

(١) بروفانس : اقليم يقع الى الشمال الشرقي من سبتمانيا على وادي ردونه (نهر الرون) ، وعاصمته مدينة "ابينيون" . (السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ١٣٧) .

(٢) برغندية : اقليم يقع غربي نهر الرون ،وعاصمته مدينة لودون (ليون) . (السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع والصفحة) .

(٣) محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس ، ص ١٩٧-١٩٨ .

تنظيمات السمح في سبتمانية :

عمل السمح بن مالك على تنظيم الأمور الادارية والمالية لاقليم سبتمانية ، فوزع الأراضي بين المسلمين وأهالي البلاد الأمليين ، وفرض الجزية على النصارى ، وترك لهم الحرية الدينية ، والاحتكام الى شرائعهم[1] . كما اقام بها حكومة اسلامية ، تتولى شئونها وترعى مصالحها[2] . وهذه الاجراءات ، تبين بلاشك عزم المسلمين على البقاء ، وأن فتوحهم لم تكن غارات خاطفة سرعان مايعودون بعدها الى الأندلس ، بل فتح اسلامي منظم يستهدف فتح ديار الكفر وجعلها اسلامية ، تعلو بها كلمة الله ويطبق بها شرعه . فالسمح أراد بذلك تثبيت اقدام الفاتحين في البلاد التي استولوا عليها ، واضفاء الصبغة الاسلامية عليها ، الى جانب اتخاذها قاعدة عسكرية ومرتكزا يلجأ اليه بعد الله وقت الحاجة ، مما يبين حنكة السمح وخبرته .

غزو السمح اقليم اكيتانية :

ما ان فرغ السمح بن مالك من فتح اقليم سبتمانية وتنظيم أموره ، حتى اتجه بجيشه غربا نحو مجرى نهر الجارون

---

(١) تلك سياسة اتبعها الخليفة عمر بن عبد العزيز في الأندلس ، استهدفت تثبيت جذور المسلمين ، وتعريب الأقاليم المفتوحة ، وايجاد مصالح للمسلمين فيه . (نبيه عاقل : تاريخ خلافة بني أمية ، ص ٢٩٠) . ويتضح أن السمح الذي نفذها لعمر بن عبد العزيز في الأندلس ، عمل على تطبيقها في غالة في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك . (انظر : مناقشتنا لهذه السياسة في شيء من التوسع ، بعد : الفصل الخامس ، المبحث الثاني ، ص ٥٨٥ ومابعدها) .

(٢) محمد عنان : دولة الاسلام ، ص ٨١ ـ عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ١٨٧ .

قاصدا اقليم اكيتانية (اكوتين) ، وبالذات عاصمتها مدينة طولوشة (١). واتجاه السمح هذا يعني أن غزوه موجه الى مملكة الفرنج (٢)، وان كان الدوق "أودو" أمير اكيتانية قد استقل بها عند ضعف الملوك الميروفنجيين (٣). وفي طريقه تصدى لزحفه سكان تلك الأنحاء من البشكنس والغسقونيين ، ولقي منهم أشد المقاومة ، لكنه تمكن من تمزيق جموعهم والانتصار عليهم ، فقصد طولوشة ، وفي طريقه اليها فتح مدينة طرسكونة (٤). ثم

---

(١) طولوشة : (وتنطق تولوشة ، طولوزه ، تولوز) أخذت شكلها كمدينة في عهد الرومان ، ثم صارت قاعدة مملكة الكتكوارجيين ومركز علم وصناعة ، وبعد سقوط سلطنة روما صارت عاصمة لملوك القوط في القرن الخامس الميلادي ، ثم أصبحت مركزا لدوقية اكيتانية في القرن السابع والثامن ، ثم صارت كونتية مستقلة ، ولم تنضم الى مملكة فرنسا الا سنة ١٢٧١م . وقد كان غزو السمح لها لمضي احد عشر سنة على دخول العرب الأندلس . (شكيب أرسلان : غزوات العرب ، ص ٢٧-٢٨-٩٥) .
لكن عبد الرحمن الحجي ، يجعل عاصمة اكيتانية مدينة بورديل (بوردو) . (انظر : التاريخ الأندلسي ، ص ٢٠٤-٢٠٥) . الا أن شكيب أرسلان يخالفه في ذلك ، فيقول : أن مدينة بوردو التي يسميها العرب "بورديل" وهي مدينة غرب فرنسه ، هي قاعدة مقاطعة "الجيروند" التي كان العرب يقولون لها "جيونده" . (انظر : نفس المرجع هامش ٣ ، ص ١١٧-١١٨) .

(٢) كان "أودو" دوق اكيتانية ، واحد أفراد الأسرة الميروفنجية ، أقوى أمراء الفرنج في غاليا واشدهم بأسا ، استقل باكيتانية أثناء الاضطراب الذي ساد مملكة الفرنج ، وبسط حكمه على جميع بلاد الغال الجنوبية من اللوار الى البرتات ، والتف حوله الفرنج والبشكنس (النافاريون) وأخذ يعد نفسه لانتزاع ملك أسرته من شارل مارتل ، المتغلب عليه . لكن غزو المسلمين شغله عن مشروعه ، وانصرف لردهم عن أملاكه . (محمد عنان : دولة الاسلام ، ص ٨٠-٨١) .

(٣) خالد الصوفي : تاريخ العرب في الأندلس ، ص ٢١٤ .

(٤) طرسكونة : لم أعثر لها على تعريف . ومن قول حسين مؤنس : يتضح أنها على مقربة من طولوشة ، عند مصب نهر الرون . (انظر : فجر الأندلس ، هامش ص ٢٤٧) .

استمر في زحفه حتى نزل على طولوشة فضرب السمح عليها الحصار ، وجد في قتال اهلها ، مستخدما المنجنيق وسائر آلات الحصار ، حتى أوشك أهلها على التسليم . لكن الأمير اودو هب لانقاذ المدينة ، ففك المسلمون عنها الحصار والتفتوا لقتال (١) أودو وجيشه . (٢)

معركة طولوشة :

روعت فتوحات السمح بن مالك في سبتمانيا ، الأمير أودو دوق اكيتانية ، الذى كان متجنبا مجابهة المسلمين مادامت غاراتهم بعيدة عن امارته ، لكن الأمر بدا له مخيفا ، فالقائد المسلم لم تكن فتوحاته غارات خاطفة تستهدف تهديد العدو واضعاف قوته ، أو لأهداف مادية ، بل ان اودو وجد نفسه امام قائد يوطد للمسلمين مافتحه ، وينظم ما استولى عليه . ويحمى مكتسباته بما يكفل ديمومة السلطان الاسلامى فيها ، ويهيؤها لتكون مرتكزا يلوذون به عند الحاجة ، وقاعدة ينطلقون منها الى ماوراءها . بل أن السمح اتبع سياسة توطين المسلمين في البلاد التى تم فتحها . فقد جاز

---

(١) ينفرد أحمد العبادى بالقول : أن المسلمين فتحوا مدينة طولوشة ، ثم توغلوا بقيادة السمح في اقليم اكيتانية . (انظر : تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٨٧) .

(٢) من اجل زحف السمح على اكيتانية ، وفتحه طرسكونة ، وحصاره طولوشة . (انظر / حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ٢٤٧ — محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام ، ص ٧٥-٧٦، ٨١ — شكيب أرسلان : غزوات العرب ، ص ٩٥-٩٦ — ابراهيم طرخان : المسلمون في أوروبا ، ص ١٠٣ — السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ١٣٧-١٣٨ — خليل السامرائي : الثغر الأعلى ، ص ١٢٧ — محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس ، ص ١٩٨-١٩٩) .

بجنده جبال البرتات وقد احتملوا معهم نساءهم واولادهم ، مما يؤكد عزمهم على الاستقرار وضم تلك البلاد الى دولة الاسلام . (١)

وهذا ماولد الخشية في نفس أودو الذى اظنه كان على يقين بأن السمح سيسعى لتامين سبتمانيا ، بعد ان نظم شئونها ، واقام بها حكومة اسلامية ، باعتبارها قد اصبحت جزءا من الممالك الاسلامية ، وهذا مايستلزم تامينه ، وذلك عن طريق التوسع فيما حوله . والمسلمون كما يقول هاشم الجاسم : اهتموا منذ اللحظة الأولى بتامين ممتلكاتهم ، وقد سعوا من أجل ذلك على قاعدة عامة تتمثل فى ان كل توسع اسلامى يستدعى تامينه فتحا وتوسعا جديدا . (٢)

ونحن تاييدا لرايه نقول : ان كان موسى بن نمير قد جاز جبال البرتات على امل فتح اوروبا من ناحية الغرب ، والوصول الى القسطنطينية وفتحها من ناحية البر الأوروبى ، (٣) فان السمح بن مالك قد خرج الى بلاد الغال فاتحا ليعلى كلمة الله ، وينشر دينه مااستطاع ، وليؤمن فتوحات المسلمين فى الأندلس ، بالتوسع فيما وراءها . (٤) وهذا مادفع الأمير أودو الى حشد الجند وتجهيز الجيش ، تحسبا لهجوم المسلمين

---

(١) شكيب ارسلان : غزوات العرب ، ص ٨٥ .
(٢) دراسات تاريخية عسكرية ، ص ٦٦ . (وقد عنى باللحظة الأولى ، فتوح المسلمين في الشام وما استلزمه الحفاظ على سيادة المسلمين فيها من فتح لمصر واقليم الجزيرة)
(٣) انظر ذلك قبل : ص ٤٠ .
(٤) ان لم يكتب النجاح لحملة السمح فى اجتياح غالة ، فانه قد وفق فى كسب ثغر اسلامى متقدم فيما وراء البرتات الا وهى مدينة أربونة ، وبعض حصون سبتمانية الجنوبية . التى غدت قاعدة انطلاق للفتوحات اللاحقة ، ودرءا للمسلمين فى الأندلس فى حالة الدفاع .

المرتقب ، واستعدادا لصدهم عن ممتلكاته .

الا أن الهجوم الاسلامي كان أسرع فيما يبدو مما توقع أودو ، فما انتبه الا وجند الاسلام يطوق طولوشة (طولوزه) بحصار محكم جاد ، وعاصمة امارته تئن من وقع ضربات المسلمين وصدق قتالهم ، حتى كاد أهلها أن يسلموها . فهب لانقاذ عاصمته ، وسار بجيشه حتى اقترب من طولوشة (١) والمسلمون محاصرين لها ، فلما علموا بمقدمه اضطروا لفك الحصار عن المدينة والتفتوا اليه ، وكان جيشه من الكثرة ماجعل مؤرخو العرب يقولون : "ان العثير المتطاير من زحف اقدامهم كان يغطي عين الشمس من كثرتهم" (٢) . وقيل : أن عدده كان عشرة أضعاف عدد الجيش الاسلامي (٣) . ومع ذلك فان المراجع لم تزودنا بعدد محدد لكلا الجيشين (٤) . فالتقى الجيشان بالقرب من طولوشة وقد أعد السمح جنده معنويا وبث فيهم روح الجهاد الصادق ، وقرا عليهم بعض آيات النصر ، ونشب القتال في معركة عنيفة غير متكافئة ، صدق فيها المسلمون القتال ، وبلغت من الهول مالايتصوره العقل ، حتى خيل عند تلاقي الجمعين ، أن الجبال

---

(١) لم تشر المصادر أين كان أودو عن عاصمته ، ومن أين قدم على المسلمين بجيشه . والمتوقع أنه خرج يستنهض الناس لحرب المسلمين وصدهم عن بلاده ، وقد يكون اتخذ منطقة لتجمع الجند ، أو عسكر في موقع ظن أن المسلمين سياتونه ، ففوجيء بهم وقد حاصروا عاصمته ، فاتجه اليهم .

(٢) شكيب أرسلان : غزوات العرب ،ص ٩٥-٩٦ .

(٣) محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس، ص ١٩٨-١٩٩

(٤) يشير حسين مؤنس أن بعض المراجع تذكر أن حدوث هذه المعركة كان عند طرسونة . وقال : ان الأصح ان يقال انها عند طرسكونة على مقربة من طولوشة عند مصب الرون (انظر : فجر الأندلس ، ص ٢٤٧) . والصحيح ان طرسونة مدينة بالأندلس ، من أعمال تطيلة . (ياقوت : معجم ، ٢٩/٤) . وهذا يسند قول حسين مؤنس ويقويه .

تلاطمت . وظل القتال سجالا بين الفريقين ،وقد ابدى المسلمون فيه ضروب الشجاعة ، وهم يقتدون بقائدهم ، الذى كان يشد هم بقوله وفعله ، ويجدونه فى كل مكان ، يحمل على الأعداء فلايقف فى وجهه شيء . غير أن القائد المسلم أصيب برمح فى رقبته خر على اثره صريعا ، ومات شهيدا . فلما رأى المسلمون ما اصاب اميرهم ، فت ذلك فى اعضادهم وآثر فى نفوسهم ، فاختل نظام الجيش ، وحينها ولوا عليهم احد كبار الجند وهو عبد الرحمن الغافقى (١) الذى تمكن من الانسحاب ببقية الجيش فى مهارة حرمت الفرنج من تعقب المسلمين ، واصابتهم فى حالة التقهقر ، حتى وصل اربونة . وكان حدوث هذه المعركة واستشهاد السمح بن مالك الخولانى فى (٩ ذى الحجة سنة ١٠٢هـ/١٠ يونية سنة ٧٢١م) (٢) . كما استشهد فيها

---

(١) انظر ترجمته قبل : الفصل الثانى ، المبحث الرابع ، ص ٢٥٥ .

(٢) يشذ عن هذا التاريخ المجمع عليه فى جل المصادر الاسلامية والأجنبية ، الضبى فى كتابه : بغية الملتمس ، ص ٣٠٣ ، والذهبى : تاريخ الاسلام ، ٨٧/٤ وكوندى المشار الى قوله فى كتاب محمد عنان : دولة الاسلام ، ص ٨١ . حيث أرخ هؤلاء لها ب (سنة ١٠٣هـ) . كما خالفهم المقرى نفح الطيب ، ١٤/٤ فى اسم المعركة التى استشهد بها السمح بن مالك ، فقال : قتل فى وقعة البلاط (يعنى بلاط الشهداء) . وهذا لبس منه بين استشهاد السمح وعبد الرحمن الغافقى الذى استشهد فى بلاط الشهداء سنة ١١٤هـ . (انظر عن استشهاد الغافقى فى بلاط الشهداء : احمد العبادى : تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٨٨) . وهذا مادفع حسين مؤنس الى اتهام المقرى بعدم الدقة (انظر فجر الأندلس ، ص ٢٧٢) ، كما ارخ لها كل من شكيب أرسلان غزوات العرب ، ص ٩٦ ـ وسيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ، ص ١٣١-١٣٢ ـ ب (شهر مايو/ايار سنة ٧٢١م/أى ذو القعدة سنة ١٠٢هـ) والأصح ماقدمناه فى المتن . فشبه الاجماع بالنسبة للمصادر الاسلامية على ٩ ذى الحجة سنة ١٠٢هـ . وهذا يقابل ١٠ يونيه سنة ٧٢١م . (انظر للتاكد من هذه المقابلة : اللواء محمد باشا : التوفيقات الالهامية ، دراسة وتحقيق وتكملة محمد عمارة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الاولى ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، ١٣٤/١) .

عدد كبير من المسلمين ، حتى قيل مبالغة : انهم قتلوا عن آخرهم (١) .

ومن الواضح ان عبد الرحمن الغافقى ، ابقى جزءا من جيشه فى اربونة يحرس فتوح المسلمين فى سبتمانيا ويبقى على سيادة المسلمين هناك ، ثم انصرف عائدا الى قرطبة بما تبقى معه من الجند ، وظل يدير شئون المسلمين فى الأندلس حتى قدوم الوالى الجديد عنبسة بن سحيم الكلبى (٢) . وقد استطاع ابان هذه الفترة الوجيزة ، أن يستبقى الجزية على اربونة وغيرها من قواعد سبتمانيا ، وان يخمد بوادر الخروج التى ظهرت فى الولايات الجبلية الشمالية (٣) . ويبدو ان خسارة المسلمين امام اودو وجيشه ، واستشهاد قائدهم السمح بن مالك الخولانى قد أطمع أهل المناطق التى تم فتحها فى المسلمين ، وحاولوا التمرد على سلطانهم ، والخروج على طاعتهم (٤) . اذ يقول شكيب ارسلان : انه لما شاع خبر انكسار المسلمين فى الوقعة التى حدثت بينهم وبين أودو دوق اكيتانية بالقرب من طولوشة ، هب أهل اللانغدوق والبيرانة

---

(١) عن معركة طولوشة . (انظر : حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ٢٤٦-٢٤٧،١٤٠،٢٧٢ ـ شكيب أرسلان : غزوات العرب ، ص ٩٥-٩٦ ـ محمد عنان : دولة الاسلام ، ص ٨١ ـ محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ، ص ١٩٨-١٩٩ ـ خليل السامرائى : الثغر الأعلى ، ص ١٢٥،١٢٧-١٢٨ ـ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ص ١٣٧-١٣٨ ـ سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ، ص ١٣١-١٣٢ ـ حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ، ١/٣٢٠ .

(٢) عن عودة عبد الرحمن الغافقى الى الأندلس بعد تراجعه الى اربونة ، (انظر : شكيب أرسلان : نفس المرجع والصفحة ـ حسين مؤنس : نفس المرجع ، ص ٢٤٧ ـ محمد زيتون : نفس المرجع ، ص ١٩٩) .

(٣) محمد عنان : نفس المرجع ، ص ٨١-٨٢ .

(٤) نفس المرجع ، ص ٩٦ .

لخلع طاعة المسلمين ، الا أن المسلمين كانوا متمكنين فى اربونة ، وجاءتهم نجدات من الاندلس ، فشنوا الغارات على اهل تلك البلاد ، واعادوهم الى الطاعة .

وعليه نرجح أن يكون عبد الرحمن الغافقى قد باشر بعد تراجعه الى أربونة ، أمر تثبيت أقدام المسلمين فيها واخماد هذا التمرد ، ثم انصرف الى الاندلس . ومن البديهى انه قد استعمل على اربونة نائبا عنه ، ومن الاندلس قام بارسال مدد للمرابطين فى ثغر اربونة يتقوون به على عدوهم فتولى عامله فيها استكمال فرض السيادة الاسلامية على اقليم سبتمانية ، واعادة من تمرد الى الطاعة .

وبوقفة نتقصى فيها أسباب خسارة المسلمين فى طولوشة والتى كانت اول خسارة يتعرض لها السمح وجنده فى بلاد الغال نجد أن السبب المباشر منها هو تفوق جيش العدو عددا واستعدادا ، ومقتل قائد المسلمين فى أرض المعركة ، وهو أمر عظيم الاثر فى نفوس المحاربين الأوائل ، وغالبا ما ادى الى هزيمة الجيش الذى يسقط قائده فى ساعة القتال .(١)

وان كان حسين مؤنس اعتمادا على رواية أجنبية ، يشير

---

(١) من امثلة ذلك فى تاريخ الاسلام ، خسارة المسلمين فى موقعة مؤتة امام الروم وحلفائهم من العرب (سنة ٨هـ) عندما استشهد قادة المسلمين الذين حددهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب ،وعبد الله بن رواحة . فعاد بالجيش خالد بن الوليد الى المدينة ، وكذلك خسارة المسلمين فى معركة (الجسر) سنة ١٣هـ ، وكانت ضد الفرس ، عندما استشهد قائدهم ابو عبيد الثقفى ومن أوصى به من القادة بعده وكانوا سبعة ، فتراجع المثنى بن حارثة ببقية الجيش الى الحيرة . (انظر عن ذلك : ابن الأثير : الكامل ، ١٥٨/٢-١٦١،٣٠١-٣٠٣) .

الى علاقة مصاهرة وتحالف تمت بين مونوسه [1] وبين أودو دوق اكيتانية ، فعمل على ايذاء العرب . وهذا ماجعل حسين مؤنس يظن أن يكون هذا التحالف أحد أسباب هزيمة المسلمين عند طولوشة [2] .

ونحن لانؤكد هذه الرواية ، اذ لم نجد لها ذكرا فى المصادر الاسلامية ، وعلى ذلك لانستطيع موافقة حسين مؤنس فى اتخاذ تلك العلاقة سببا لخسارة المسلمين امام أودو ، لأن ذلك مجرد فرض ليس له قرينة تقويه ، وقد اعتمد على رواية مطعون فيها . ونحن لانستبعد ان يكون من الأسباب المباشرة التى أدت الى خسارة المسلمين خروج أهل طولوشة بعد فك الحصار عنهم ، ومشاركتهم فى المعركة ، فوقع المسلمون بين كماشتى جيش أودو من الأمام ، وقوة المدينة من الخلف .
ونؤيد حسين مؤنس فيما ذهب اليه ، من أن اعتماد القادة فى فتوحاتهم فيما وراء البرتات على البربر ، كان من عوامل الضعف فى الجيش الاسلامى . اذ لم يشترك من العرب الا أعداد قليلة ، حيث أن من عبر منهم الى الأندلس ، كان بالكاد يكفى لفرض السيادة على الأندلس ، بعد استقرار العرب فيه ، فكان

---

(١) كان مونوسة على حد قوله : من الجنس البربرى ، كان أميرا من قبل أمير الأندلس على المنطقة الشمالية فى الأندلس ، وكان مركزه مدينة خيخون . (انظر : حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ٣١٩، ٣٥١) . لكن خليل السامرائى يشكك فى هذه الرواية من الأصل ، ويؤكد أن شخصية مونوسة منتحلة ، وانها من كيد الصليبية الغربية ، التى تستهدف الطعن فى الاسلام وتاريخه . معتمدا فى ذلك الى خلو المصادر الاسلامية من هذا الخبر وبعض الدراسات الحديثة حول هذه التهمة . (انظر : الثغر الأعلى ، ص ١٠٧-١٠٨) ـ وكذلك عبد الرحمن الحجى: التاريخ الأندلسى ، ص ١٩٢-١٩٣ .

(٢) فجر الأندلس ، ص ٢٥١-٢٥٣ .

غيابهم عن الفتوح في بلاد الغال وهم مادة الاسلام وأهل الخبرة ، من أهم الأسباب التي أدت الى فشل الحملات الاسلامية هناك . كما أن بعد المسلمين في الأندلس عن مركز الدولة ، حرمهم من توجيه الحكومة وامداداتها . كما ينفي حسين مؤنس ايعاز ذلك الى الجشع في الغنائم ،أو قوة الدولة الفرنجية . (١)

(٢) فتوحات عنبسة بن سحيم الكلبي في بلاد الغال :

استمر عبد الرحمن الغافقي أميرا للأندلس (٢) بتقديم أهل الأندلس له منذ استشهاد أميرهم السمح بن مالك الخولاني تاسع ذي الحجة (سنة ١٠٢هـ)،حتى قدوم عنبسة بن سحيم الكلبي أميرا للأندلس ، من قبل بشر بن صفوان عامل الخليفة يزيد بن عبد الملك على افريقية والمغرب ، وذلك في (صفر سنة ١٠٣هـ) (٣) .

ومن هنا يأتي دور القائد الأمير عنبسة بن سحيم الكلبي في متابعة عمليات الفتح الاسلامي فيما وراء البرتات ، ليصل براية التوحيد الى أقصى حد وصلته الفتوح الاسلامية في وادي

---

(١) فجر الأندلس ، ص ٢٩٦-٢٩٧ ، وانظر مناقشتنا لما اتهم به الفاتحون المسلمون في بلاد الغال والرد عليه ، بعد ص ٤١٩-٤٢٠ .

(٢) انظر ماسنذكره عن ولاية عبد الرحمن الغافقي الأولى اثناء حديثنا عن سياسة الخليفة يزيد بن عبد الملك الادارية في : الفصل الخامس ، المبحث الأول ، ص٥٣٦-٥٣٨

(٣) عن ولاية عنبسة بن سحيم على الأندلس ،(انظر : ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٧/٢ ـ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ١٤٤ (لكنه لم يؤرخ لها) ـ محمد عنان : دولة الاسلام ، ص ٨٢ . وكذلك ماسنكتبه عنها خلال حديثنا عن سياسة الخليفة يزيد الادارية في : الفصل الخامس ، المبحث الأول ، ص ٥٣٨ ومابعده .

نهر الرون حتى ذلك الحين ، ألا وهى مدينة سانس (١) .

اذ كان عنبسة من طراز السمح بن مالك ، رجلا تقيا واداريا بارعا ، وعسكريا فذا . كان حريصا على الاسلام وأمينا على دولته (٢) . فكان خير خلف لخير سلف .

لقد شغل الأمير الجديد صدر ولايته بضبط الأمور فى الأندلس ، واخماد الفتن فيها ، ومن ذلك توجهه الى المنطقة الشمالية فى الأندلس للقضاء على حركة بلاى ، واخماد التمرد الذى قام به أخيلا (٣) بن غيطشة فى مدينة طركونة حتى استقام له امرها (٤) ، ثم أعد نفسه للجهاد وباشر الفتح فيما وراء البرتات بنفسه .

لكننا نواجه هنا نفس المشكلة التى واجهناها اثناء دراستنا لحملة السمح بن مالك ، وهى بداية خروج عنبسة بن سحيم بحملته الى ماوراء البرتات . فغير واضح متى بدأ جهاده فى بلاد الغال ، وكم استغرق من الوقت ، وهل خرج للجهاد مرة واحدة ، أم سبق حملته التى استشهد فيها غزوات اخرى ، وهل قادها بنفسه ام ولاها غيره من القادة ، أو كانت بواسطة القوات الاسلامية المرابطة فى ثغر اربونة (٥) .

ونحن لانفتقد التاريخ لتلك الحملة ، ولكننا نجد

---

(١) سانس : قصبة مقاطعة فرنسية تسمى "يوند" . (انظر : شكيب ارسلان : غزوات العرب ، ص ١٠٦ ، هامش (١) منها) .
(٢) عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ، ص ١٩٠ .
(٣) من أجل خروجه للقضاء على حركتى بلاى ، وأخيلا ، (انظر ماكتبناه عن الحركتين قبل : الفصل الثانى ، المبحث الرابع ، ص ٢٥٢ ، المبحث الخامس ، ص ٢٦٠) .
(٤) المقرى : نفح ، ١٥/٤ ــ الناصرى : الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق ولديه جعفر ومحمد الناصرى ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤م ، ١٠٣/١ .
(٥) عبد الرحمن الحجى : نفس المرجع والصفحة .

الاختلاف على تاريخ خروجها ، فمن المصادر والمراجع مايؤرخ لقيامها ب (سنة ١٠٥هـ)(١) ، واخرى تجعلها (سنة ١٠٧هـ)(٢) . وحيث انا لم نجد تاريخا لما قام به من اعمال داخلية خصوصا جهوده فى اخماد فتنتى بلاى واخيلا ، لنقدر على ضوئها أنسب تلك التواريخ المشار اليها لخروجه ، فانا مجبرين على تقدير ذلك بالنظر ، الى نهاية الحملة واستشهاد قائدها عنبسة بن سحيم وماتم على اثرها من فتوح ، آخذين فى الاعتبار ماقام به من اعمال قبل خروجه ، مستنيرين بما قدره السابقون لنا من المؤرخين .

فبالنظر الى ماقام به عنبسة من أعمال داخلية ، خصوصا جهوده فى اخماد حركتى بلاى واخيلا ، وتنظيماته المالية والادارية(٣) . نجد انها ولابد قد أخذت منه وقتا ليس بالقصير . وايضا نجد أن فتوحه التى تمت فى هذه الحملة وماقام به اثناءها من تحمينات وتنظيمات ، كانت كفيلة باستغراق وقت

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٧/٢ ـ محمد عنان : دولة الاسلام ، ص ٨٢ (وقد حدد خروجها فى أواخر سنة ١٠٥هـ/أوائل سنة ٧٢٤م) ـ محمد زيتون : المسلمون فى المغرب ، ص ١٩٩-٢٠٠ (نقلا عن : شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ، ص ٨٥) ـ خليل السامرائى : الثغر ، ص ١٢٨ (نقلا عن رينو : غزوات ، ص ١١٢) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ١٩٧/٤ ـ حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ٢٤٦ ـ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ص ١٣٨ ـ عماد الدين خليل : دراسة مقارنة (بحث) ، ص ٣٠٣ .

(٣) كان لعنبسة دور فى تنظيم الخراج وقسمة الأرض والعشور فيبدو أن السمح قد دفعه حب الجهاد الى الخروج بحملته قبل ان يتم مابداه من تنظيمات مالية وادارية ، فعمل على اتمام ذلك عنبسة بن سحيم ، كما طاف بمختلف المقاطعات الأندلسية ينظر فى المظالم وينشر العدل بين الناس . (انظر فى هذا الصدد ماأورده : محمد عبد الله عنان : نفس المرجع والصفحة ـ محمد زيتون : نفس المرجع والصفحات .

ليس بالقليل . وعلى هذا فنحن نرجح التاريخ الأول لخروج هذه الحملة وهو (سنة ١٠٥هـ/٧٢٣ - ٧٢٤م) . وهو ما أخذ به أكثر المؤرخين الذين تعرضوا لدراستها ، كابن عذارى (١) ، الذى يعد من المصادر القديمة المعتمد عليها فى تاريخ المغرب . ونحن بذلك نستبعد قول من أرخ لخروج عنبسة بحملته ب(سنة ١٠٧هـ) وان كان التاريخ الأخير قد ورد عند ابن الأثير (٢) . اذ ان استشهاد عنبسة فى (شعبان سنة ١٠٧هـ) جعل من المشكوك فيه أن يكون قد خرج بحملته فى ذلك العام . وقد قام بكل تلك الفتوحات فى ماسبق شعبان من تلك السنة .

ونحن لانعرف على وجه التحديد الشهر الذى خرجت فيه حملة عنبسة الى بلاد الغال من (سنة ١٠٥هـ) ، الا أن محمد عنان يقول بخروجها فى (أواخر سنة ١٠٥هـ/أوائل سنة ٧٢٤م) (٣) . وهذا مايجعلنا نرجح خروجها فى أوائل خلافة هشام بن عبد الملك (شعبان سنة ١٠٥هـ/ربيع الثانى سنة ١٢٥هـ) ، ان لم يكن فى أواخر خلافة يزيد بن عبد الملك .

وعطفا على ماوصلنا اليه ، يكون الاعداد والتجهيز لهذه الحملة قد تم فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ، وقد يكون خروجها قد تم فى أواخر زمنه أيضا . أما ماتم على يد عنبسة من فتوحات فى بلاد الغال فان ذلك قد حدث فى خلافة هشام بن عبد الملك (٤) .

---

(١) البيان المغرب ، ٢٧/٢ .
(٢) الكامل ، ١٩٧/٤ .
(٣) دولة الاسلام ، ص ٨٢ .
(٤) ذهب لمثل هذا القول عماد الدين خليل فى بحثه : دراسة مقارنة ، ص ٣٠٣ .

ومـن هنـا سنعرض فى شيء من الايجاز لما تم على يد هذا القـائد فيما وراء البرتات من فتوحات ، كونها خارج النطاق الـزمنى لبحثنـا ، الا أن مـن المهـم ذكـر ذلـك لتوضيح بعض ماذهبنا اليه ، ولتمام الفائدة .

فتوحات عنبسة بن سحيم فيما وراء البرتات :

صـرف عنبسة بن سحيم اهتمامه صدر ولايته الى تنظيم أمر الاندلس ، واخماد الفتن . فلما تم له ذلك ، واستقرت الأحوال فـى ولايتـه ، وكـان قد اعد نفسه وجهز جيشه ، نهض للجهاد ، والاسـتمرار فى الفتح فيما وراء البرتات ، سيرا منه على خطى سلفه السمح بن مالك ومن سبقهما من الأمراء المجاهدين (١) .

وقـد اتخـذ عنبسـة مدينـة برشـلونة قاعدة تجمع للجيش الاسلامى من مقاطعات الأندلس المختلفة ، ثم توجه (سنة ١٠٥هـ) عـلـى رأس جيشـه الـى بلاد الغال ، مخترقا جبال البرتات عبر ممر باربينيان ، حتى وصل الى أربونة ، فاستقر فيها ، وعمل عـلى دعـم خط الدفاع الأمامى لها (٢) . ونحن هنا نلحظ أن عنبسة اتبـع نفس الخـطوات التـى سار عليها سلفه السمح بن مالك ، وسـار فـى نفس الطـريق ، وذلـك أمـر طبيعـى ، باعتبـار أن برشـلونة بموقعهـا القـريب مـن جبـال البرتـات ناحيـة ممر باربينيان ، جعلها قاعدة حربية داخلية ، يتجمع فيها الجيش

---

(١) الـى مثـل هـذا القـول ذهب حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ٢٤٦ – خـليل السـامرائى : الثغـر الأعـلى ، ص ١٢٨ – السـيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ص ١٣٨ .

(٢) ابـن عذارى : البيان المغرب ، ٢٧/٢ – المقرى : نفح ، ١٥/٤ – خليل السامرائى : نفس المرجع ، ص ١٢٨ .

الاسلامي من مدن الأندلس المختلفة ، ثم يسير برا أو ينقل بحرا الى اربونة ، الثغر الاسلامي المتقدم وراء البرتات . والتي عمل السمح على تحصينها ، وتحصين ماحولها من المدن السبتمانية ، لتكن تلك الحصون خطا دفاعيا يمد عن اربونة ويحميها .(١)

وبعد أن عزز عنبسة تحصينات اربونة وقوى الخط الأمامي لها ، ابتدا سلسلة فتوحاته ، باعادة السيادة الاسلامية على سبتمانية ، فيبدو أن المسلمين قد خسروا بعض فتوحاتهم بعد استشهاد السمح ولم يتمكنوا من استعادتها ، حتى وصلها عنبسة . ومن تلك المدن قرقشونة ، لذا سارع عنبسة الى فتحها . فاستولى عليها عنوة .(٢) لكنه بعد ذلك لم يسر في نفس الاتجاه الذى سلكه السمح ، وهو التوغل شمالا نحو اقليم اكيتانية ، بل سار نحو الشرق مع ساحل البحر .وفى طريقه أعاد فتح مدينة نيم ،(٣) دون مقاومة ، واخذ من اهلها رهائن ارسلهم الى برشلونة .(٤) ويبدو انه اتخذ هذه الخطوة مع اهل نيم ليضمن ولاءهم ، وعدم انتقاضهم على المسلمين ، وان ذلك من شروط الصلح معهم . وبعد أن أتم فتح اقليم سبتمانية ، واصل زحفه شرقا نحو اقليم بروفانس ، حتى وصل الى نهر الرون ، ففتح بروفانس ، ثم اتجه شمالا مع نهر الرون حتى وصل مدينة ليون ، ففتحها ، وتوغل فى اقليم برغندية

---

(١) انظر ترتيبات السمح العسكرية فى أربونة وماحولها قبل : ص ٣٩٣-٣٩٤ .

(٢) خليل السامرائى :الثغر الأعلى ، ص ١٢٨ ـ شكيب أرسلان : غزوات العرب ، ص ٩٨ . لكن من المؤرخين من قال أن فتحها تم صلحا . (انظر : ابن الأثير :الكامل ، ١٩٧/٤ خليل السامرائى : نفس المرجع والصفحة فى رواية أخرى)

(٣) انظر تعريفنا لاقليم سبتمانية ومدنه قبل : ص ٣٩٣ .

(٤) شكيب أرسلان : نفس المرجع والصفحة ـ خليل السامرائى : نفس المرجع والصفحة .

(برجانديا) فاستولى على مدينة ماسون وشالون ومنها وجه جيشه على قسمين ، الأول سار الى ديجون ولانكر ، والآخر سار حتى بلغ مدينة أوتون (١) ، في أعالي الرون (٢) . بل قيل : أن عنبسة بلغ مدينة سانس شمال أوتون (٣) ، والتي تولى أسقفها الدفاع عنها ، ساعده على ذلك وعورة المنطقة التي تحيط بها ، فأدرك عنبسة ان طول البقاء امام هذه المدينة قد يعرض جيشه للابادة ، اذا ماتهيا للعدو فرصة الهجوم ، فقرر العودة ، وقد صدق ظنه ، اذ هاجمه الاعداء خلال عودته فاصيب بجروح توفي على اثرها (٤) ، وذلك في (شعبان سنة ١٠٧هـ/ديسمبر - يناير ٧٢٥ - ٧٢٦م) (٥) . ومن المؤرخين من يعزو عودة عنبسة الى اضطراب الأحوال في الأندلس . ومامن شك أن التمادي في الايغال

---

(١) أوتون : مدينة على مسافة (١٠٦ كم) الى الشمال الغربي من ماسون . (انظر : شكيب أرسلان : غزوات العرب ، ص ١٠٤ وهامش (٥) فيها) .

(٢) انظر عن فتوح عنبسة في بروفانس وبرجنديا حتى أوتون ، (أحمد العبادي : تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٨٧ - خليل السامرائي : الثغر الأعلى ، ص ١٢٨-١٣٠ - ابراهيم بيفون : ملامح التيارات السياسية ، ص ٣٠٨ - حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ، ٣٢٠/١) .

(٣) عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ١٩٠-١٩١ - شكيب أرسلان : نفس المرجع والصفحة - خليل السامرائي : نفس المرجع والصفحة .

(٤) ليس هناك مكان محدد لهذه الموقعة ، التي استشهد فيها عنبسة ، كما أن تاريخ استشهاده مختلف عليه . (انظر بعد : الفصل الخامس ، المبحث الأول ، ص ٥٤٢-٥٤٣) .

(٥) خليل السامرائي : نفس المرجع ، ص ١٢٩-١٣٠ (نقلا عن / علي المياح : العوامل السوقية والتعبوية واثرها على الفتوح في فرنسة (بحث) ، ص ١١٦) - ابن الأثير : الكامل ، ١٩٧/٤ - ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٧/٢ أحمد العبادي : نفس المرجع ، ص ٨٧ - عبد الرحمن الحجي : نفس المرجع والصفحة - حسن ابراهيم حسن : نفس المرجع والجزء والصفحة - ابراهيم بيفون : نفس المرجع والصفحة (لكن عزى نهايته الغامضة لأسباب لاترتبط بحملته العسكرية ، وانما بظروف داخلية في قرطبة) . وهو بذلك يشير الى أنه عاد الى قرطبة وهذا يخالف اجماع جمهور المؤرخين باستشهاده في بلاد الغال .

دون التوطيد لسلطان المسلمين ، وتامين ظهورهم ، فيما تم فتحه من مدن ، ساعد الأعداء على التجمع ، وقطع الطريق على المسلمين اثناء عودتهم ، فخسروا بذلك جل مافتح على أيديهم فولى الناس بعد استشهاد عنبسة عذرة بن عبد الله الفهرى ، الذى تراجع بهم الى أربونة (١) . فجاءه المدد من الاندلس ، وشن المسلمون غاراتهم من جديد فى كل جهة ، وبكل قوة ، حتى أعادوا هيبتهم ولم يجدوا لهم مقاوما (٢) . الا أن سلطان المسلمين فيما يبدو قد اقتصر على اقليم سبتمانيا وقاعدته مدينة أربونة .

ويرى بعض المؤرخين الغربيين أن فتوحات عنبسة ، كانت فتوحات حذق ومهارة لابطش وقوة (٣) . والحقيقة أن المسلمين فى فتوحاتهم لم يكونوا قط اهل بطش وقوة ، الا عندما يلقون من عدوهم المقاومة ، أو نقض العهد . ولايتعدى لجوؤهم الى القوة ، ماأباحه الشرع لهم ، ممسكين عما لايناسب مبادىء دينهم السامية ، وخلقهم الرفيع .

وهذا القول بالنسبة لفتوحات عنبسة ، فيه اشارة الى أن غالبية فتوحه تمت ملحا ، يؤكد ذلك قول خليل السامرائى "وسار عنبسة من نيم متبعا مجرى نهر الرون حيث وجد الطريق امامه خالية من اية مقاومة" (٤) . وأنه استخدم الحنكة والحكمة فى تحقيق اهدافه ، قبل استخدام القوة العسكرية التى يقودها

---

(١) ابراهيم طرخان : المسلمون فى أوروبا ، ص ١٠٦ (نقلا عن حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ٢٤٧-٢٤٨) .
(٢) عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ، ص ١٩١ ـ شكيب ارسلان : غزوات العرب ، ص ٩٨ (أورد الاسم مفردا ومحرفا "حديرة") ـ ابراهيم طرخان :نفس المرجع ، ص ١٠٥-١٠٦ .
(٣) الزركلى : الأعلام ، ٩١/٥ .
(٤) الثغر الأعلى ، ص ١٢٩ .

ثم توقف الفتح الاسلامي في بلاد الغال مايقارب الأربع سنوات (١) حتى تولى أمر الأندلس عبد الرحمن الغافقي ، في ولايته الثانية (١١٢ - ١١٤هـ) ، فكان على يديه تجديد الغزو ومواصلة الجهاد فيما وراء البرتات . (٢)

(٣) دراسة تحليلية لبعض النقاط الهامة في هاتين الحملتين

ولاشك أن حملتي السمح وعنبسة من أهم الأعمال الحربية التي قامت في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ، وخاصة ، حملة السمح بن مالك التي تمت احداثها في زمنه ، وأوجدت للمسلمين ثغرا اسلاميا متقدما ، وهو مدينة أربونة الذى ظل أكثر من نصف قرن رمزا للوجود الاسلامي في أرض الفرنج ، وقاعدة تنبعث منها جيوشهم الفاتحة فيما وراء البرتات . علاوة على ماحققته من فتوحات في تلك البلاد .

وليس لدينا نص يدل على اشراف الخليفة وتوجيهه لهذه الحملات ، الا أن ليس لدينا مايثبت عكس ذلك . كما أن خروج عنبسة بحملته بعد استشهاد السمح وكثير من جيشه قرب طولوشة لايمكن أن يتم دون أمر الخليفة أو عامله على افريقية والمغرب ، بعد أن عادت الأندلس ، الى التبعية الادارية لافريقية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك (٣) . ونحن لانستبعد

---

(١) عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ١٩١ - أحمد العبادى : تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٨٧ - حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ، ٣٢٠/١ .

(٢) عن فتوحات عبد الرحمن الغافقي في بلاد الغال ، (انظر أحمد السيد دراج : عبد الرحمن الغافقي ، بحث ، رسالة المسجد ، العدد الرابع ، سنة ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص ٨٠-٨٥ وغيره من المصادر والمراجع الأندلسية) .

(٣) من أجل ذلك ، انظر بعد : الفصل الخامس ، المبحث الأول، ص ٥٣٨-٥٣٩ .

ان خروج عنبسة بحملته والاعداد لها جاء بتوجيه من الخليفة يزيد انتقاما لمقتل السمح ، واحياء لهيبة الدولة ، واستمرارا في الفتح والجهاد في تلك البلاد . خصوصا اذا عدنا بالذاكرة الى ماحدث من الخليفة في المواقف المشابهة كتوجيه الجراح الحكمي على رأس جيش كبير الى أرمينية ، بعد الهزيمة التي تعرض لها اميرها من قبل الخزر . أو توجيه الحرشي لاعادة سلطان الدولة على ماوراء النهر ، بعد أن فشلت محاولات اميرها السابق .(١)

واذا ماتساءلنا عن العوامل التي وقفت في وجه نجاح الحملات الاسلامية في بلاد الغال ، وفتح تلك البلاد ، فلنا أن نضيف أن من الأسباب الرئيسية في فشل تلك الحملات ، كون تلك الحملات خرجت بقيادة ولاة الأندلس ومعتمدة على امكانيات الولاية وحدها ، الى جانب اتباعها أسلوب الهجوم السريع ، وعدم تثبيت اقدام الفاتحين فيما استولوا عليه . فقد كان استشهاد القيادة في المعركة يؤدى الى ارتداد الجند حتى نقطة البداية ، وتوقف الفتح لسنوات . لأن تلك القيادة كانت تتمثل في شخص الأمير ، فعندما يقتل ، يتوقف الفتح حتى يأتي أمير جديد ، رافعا راية الجهاد ، وقادرا عليه . كما أن الاعتماد على امكانيات ولاية الأندلس فحسب ، جعل القوة الفاتحة محدودة القدرة مهما كبرت ، فالفتح وراء البرتات

---

(١) من أجل ذلك ، انظر قبل : المبحث الأول ، ص ٣٢٧-٣٢٨ ، ص ٣٥٤ ومابعدها .

كان يعنى حرب عالم كبير ، واسع المساحة ، متعدد القوى ، قوى الشأن . ولم يكن فتحه ممكنا الا باشراف الدولة ودعمها وتوجيه القوى الكافية وعلى أكثر من محور حتى يشغل كل بما يواجهه . فقد ادت قلة الجند بقيادة السمح الى خسارته امام جيوش أودو الجرارة ، وساعد ايغال عنبسة فيما بعد ، الى قطع الطريق عليه ، كما أدى تحالف شارل وأودو الى كسر الجيش الذىقاده عبد الرحمن الغافقى بعدذلك. اما اسلوب الهجوم السريع وعدم تامين الفتح فقد وقع فيه ايضا عنبسة ومن بعده عبد الرحمن الغافقى ، فخسر المسلمون كل ماوصلوا اليه فى حملتيهما . ولولا اهتمام السمح بن مالك بتحصين أربونة وبعض المدن والحصون فى سبتمانيا ، مدركا ماكنا نقول ، لما بقى للمسلمين موطىء قدم فيما وراء البرتات عند خسارتهم فى كل مرة ، وظلوا كما هم فى حدود الاندلس .

والحق ان حملة السمح بن مالك ، تمثل البداية الجدية لحركة الفتوح الاسلامية فيما وراء البرتات ، لاتسامها[1] بالتنظيم والعمل على فتح ثابت لبلاد الغال ، يهدف الى نشر الاسلام وادخال تلك البلاد فى رحاب الدولة الاسلامية[2] . يؤكد ذلك ماأشرنا اليه[3] من اعمال السمح التنظيمية والعسكرية فى اقليم سبتمانية ، والتى استهدفت تثبيت اقدام الفاتحين فى ذلك الاقليم واعطاءه الصبغة الاسلامية وفرض سيادة المسلمين عليه . الى جانب توطين جماعات من المسلمين فى مدن

---

(١) ابراهيم بيضون : ملامح التيارات السياسية ، ص ٣٠٧-٣٠٨
(٢) حسين مؤنس : فجر الاندلس ، ص ٢٩٧ ـ شكيب أرسلان : غزوات العرب ، ص ٢٩٤ .
(٣) انظر قبل : ص ٣٩٣-٣٩٤،٣٩٧ .

سبتمانية كانوا قد خرجوا بأسرهم كمرابطين في ذلك الثغر الجديد .(١)

وهذا مايدعو الى القول أن فتوح المسلمين فى بلاد الغال تعد من امجد الجهود الاسلامية الحربية ، بل أن تضحيات قادتها فاقت كثيرا مما عداها ، وعدت رجالاتها كالسمح وعنبسة والغافقي في طليعة قادة المسلمين العظام .(٢) وهذا ماجعل ذكراها باقيا فى الاذهان كانه حديث عهد ، لما فيها من المجد والعظمة . بينما تلاشى تذكار غزوات النورمانديين وغيرهم ممن غزا تلك البلاد من الاذهان ولم يبق الا فى بطون التواريخ .(٣)

ومع ذلك فان استجابة أهل غاليا للاسلام كانت محدودة(٤) ولعل مرد ذلك للنكسات السريعة التى تعرض لها الفاتحون وعدم البقاء بينهم مدة طويلة ، حتى يتعرفوا على الاسلام ويلمسوا سموه وعظمة مبادئه ، فقد اتصف دخول أهل المناطق التى يدين أهلها بدين سماوى فى الاسلام بالبطء ، لكننا نجدهم اخيرا يدخلون فيه أفواجا ، عندما يعلمون حقيقته ويرون عدالة اهله .(٥)

وكما عودنا مؤرخوا الغرب ، بالنيل من الاسلام وتشويه تاريخ المسلمين ، نجدهم هنا يحاولون تهوين شان جهود الفاتحين فى غالة ، قائلين انها لم تسر وفق خطة مرسومة ،

---

(١) من اجل ذلك انظر قبل : ص ٣٩٩-٤٠٠ .
(٢) حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ٢٩٧ .
(٣) شكيب أرسلان : غزوات العرب ، ص ٣٠٣ .
(٤) شكيب أرسلان : نفس المرجع ، ص ١٠٦-١٠٧ .
(٥) مثال ذلك : تاخر قبط مصر فى الدخول فى الاسلام ، وكذلك اهل الأندلس ، وأهل أرمينية .

وانهم في البداية وجدوا مقاومة واهية (١) . والحقيقة كما اسلفنا في الصفحات السابقة أن المسلمين خرجوا من اجل فتح منظم ، ويكفينا للرد على ذلك ماأوجده السمح في سبتمانيا من تنظيمات وتحصينات لصبغها بالصبغة الاسلامية ، واعتبارها ثغرا اسلاميا وراء البرتات . وان كنا قد اشرنا الى أن تلك الخطط العسكرية خصوصا فيما عدا حملة السمح لم تكن كافية ، وتفتقد الاعداد الكافي والقوة الكاملة المدعمة بعون الدولة وارشادها (٢) .

أما المقاومة فلم تكن واهية ، صحيح أن اقليم سبتمانيا اعتمد في الدفاع عن نفسه على قوته الذاتية لتبعيته للقوط الغربيين ، الذين زال ملكهم في الأندلس ، أما بقية اقاليم بلاد الغال فقد ابدت من القوة وكان عندها من العدة مايفوق المسلمين وكان كفيلا بردهم ، وهذا مالمسناه في حملتي السمح وعنبسة . اولم يخسر السمح عند طولوشة عندما واجهه جيش يضاعفه عشر مرات . والواقع أن ضعف الدولة الميروفنجية ، كان مناسبا في حالة توفر الامكانيات الاسلامية الكافية ، اذ من المفيد استغلال انقسام بلاد الغال الى اقاليم ، بفتح كل اقليم على حدة وفي آن واحد ، وذلك عن طريق توجيه عدد من الجيوش ضمن خطة شاملة ، لاجتياح بلاد الغال وفتح اقاليمها ، مما يفقدها امكانية تحالف قواها ومواجهة المسلمين سواء .

ويلاحظ الدارس تحالف أودو وشارل مارتل من أجل ايقاف

---

(١) شكيب ارسلان : غزوات العرب ، ص ١٠٦-١٠٧ .
(٢) انظر ذلك قبل : ص ٤١٥-٤١٦ .

الغافقي وصد جيشه ، عندما عجزت قوة اقليم اكيتانية من الوقوف في وجهه .

ونسمع اتهامهم بالاغراض المادية على لسان فِلِبّ حتى (١) الذى يقول: ان غزوات العرب في بلاد الغال كانت للاستيلاء على النفائس التي اشتهرت بها الاديرة والكنائس في تلك المنطقة . ونكتفي بقول شكيب ارسلان في الرد عليه اذ يقول : "ولما جاء المسلمون ودخلوا ارض فرنسه فاتحين لم يكن لهم مقصد سوى نشر دين الاسلام واخضاع فرنسه وكل اوربة لاحكام القرآن ، ولكن فيما بعد ذلك دخل في تلك الغزوات مقاصد اخرى ، كحب النهب او الاخذ بالثار ، ومن هذا القبيل نزول العرب في اواخر القرن التاسع في ارض بروفنس" (٢) .

كما اتهموهم بتهديم بعض الاديرة في بلاد الغال ، واذا ماصح ذلك ، فان الرهبان قد اعتصموا مع بعض الناس في تلك الاديرة وقاوموا المسلمين منها حتى فتحوها عنوة ، فقاموا بهدمها حتى لايتخذوها معاقل للمقاومة وحرب المسلمين . فلم يكن المسلمون ليهدموها لو سلموا دون مقاومة ، وهذا مايعترف به رينو عندما يقول : "وكان هؤلاء (يعني المسلمين) لايسيئون معاملة الذين يدخلون في طاعتهم بدون مقاومة ويكفونهم القتال (٣) . وهذه الحقيقة هي مايناسب موقف الاسلام والمسلمين من الاديان واصحابها ، المتمثل في اعطائهم الحرية الدينية ، والابقاء على دور عباداتهم .

---

(١) تاريخ سورية ، ٧٨/٢ .
(٢) غزوات العرب ، ص ٢٩٤ .
(٣) محمد زيتون : المسلمون في المغرب والاندلس ، ص ١٩٨ .

والثابت عنهم كما يقول حسين مؤنس (١) انهم لم يخربوا كنيسة أو يحرقوا ديرا ، واذا ماقورنوا بالشعوب التى كانت تسود بلاد الغال فى ذلك الحين ، من فرنجة وقوط غربيين وشرقيين وبرغنديين لتبينا أن المسلمين كانوا أعظمهم حضارة وابعدهم عن النهب والتخريب ، ومهما بحثنا فى حوليات ذلك العصر فلن نجد بين من ظهروا على مسرح الحوادث فى بلاد الغال خلال النصف الأول من القرن الثامن الميلادى (أى من ٨١هـ - ١٣٢هـ) رجالا نستطيع أن نقارنهم بالسمح بن مالك او عنبسة بن سحيم او عبد الرحمن الغافقى . الذين يعرفون عن المسيحية اكثر مما يعرفه امراء الفرنج ، كما انهم رجال دولة ذات نظم وقوانين مقررة ، فى حين كانت نظم الدولة الفرنجية فى طور التكوين ، وكانت تعتمد على قوانين الجرمان الأولى ، وهى شبيهة بقوانين العرب الجاهليين . فالحرب لم تكن بين الاسلام والنصرانية بقدر ماكانت صراعا بين حضارة وجاهلية ، وبين نظام وفوضى . وهى صراع بين الحق والباطل ، والنور والظلام .

---

(١) فجر الاندلس ، ص ٢٥٨-٢٥٩، ٣٠٤ .